الفتوح الإسلامية

عبر العصور

دراسة تاريخية لحركة الجهاد الإسلامي
من عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم
حتى أواخر العصر العثماني

د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري
الأستاذ المشارك بقسم التاريخ والحضارة
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

دار إشبيليا
للنشر والتوزيع

الفتوح الإسلامية

عبر العصور

دراسة تاريخية لحركة الجهاد الإسلامي
من عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم
حتى أواخر العصر العثماني

د. عبد العزيز بن إبراهيم العمري
الأستاذ المشارك بقسم التاريخ والحضارة
كلية العلوم الاجتماعية
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض

دار إشبيليا
للنشر والتوزيع

ح عبدالعزيز إبراهيم العمري، ١٤٢١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العمري، عبدالعزيز إبراهيم

الفتوح الإسلامية عبر العصور: دراسة تاريخية لحركة الجهاد الإسلامي من عصر الرسول حتى أواخر العصر العثماني. ـ ط.٣ ـ الرياض

٤٨٠ص، ١٧×٢٤سم

ردمك: ٨ - ٩٩٧ - ٣٦ - ٩٩٦٠

١ - الفتوحات الإسلامية ٢ - التاريخ الإسلامي أ - العنوان

ديوي: ٩٥٣ ٢١/١١٤٣

رقم الإيداع: ٢١/١١٤٣

ردمك: ٨ - ٩٩٧ - ٣٦ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤١٨هـ

الطبعة الثانية

١٤١٩هـ

الطبعة الثالثة

١٤٢١هـ

دار إشبيليا للنشر والتوزيع المملكة العربية السعودية - ص.ب: ١٣٣٧١ - الرياض: ١١٤٩٣

هاتف: ٤٧٩٤٣٥٤ - ٤٧٤٢٤٥٨ - فاكس: ٤٧٧٣٩٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلىٰ من لم يتبعوا أذناب البقر ،

إلىٰ صلاح الدين الأيوبي الذي حكم البلاد فقرب العلماء العُباد وتزعم السياسة فجمع القلوب والأجناد للجهاد، وقاد الجيوش فدرب وسلح، وملك الأموال فتصدق ، وللأسرىٰ أطلق، وفتح القدس فأعادها إلىٰ الإسلام بعد البؤس . .

وإلىٰ كل من يفكر بتحرير القدس أهدي هذا الجهد المتواضع .

المقـــدِّمَة

الحمدلله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين وأول المجاهدين الفاتحين نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه وأحبه حق المحبة إلى يوم الدين أما بعد :

فإن تاريخ الفتوح والجهاد يعد من أوسع الأبواب في التاريخ الإسلامي ، حيث تحتل أحداثه مساحة واسعة في المصادر التاريخية الإسلامية ، وتلك الأحداث مقرونة دائماً بامتداد الإسلام وانتشاره وتأمين المسلمين في بلادهم وفي البلاد المفتوحة ، وهذا بالطبع لايعني أن الإسلام انتشر بقوة الجهاد فقط ، فالإسلام دين الفطرة فيه من المقومات الذاتية ما أقنع الناس على الدخول فيه ، لكن حركات الجهاد والفتوح لها الدور الأول في حفظ معتنقي الإسلام من الخروج منه أو الإجبار على تركه ، كما كان لتلك الحركات دورفي بقاء أقاليم كاملة تحت راية الإسلام على مر العصور ، وبالتالي فإن التأريخ لانتشار الإسلام لايستغني عن تاريخ الجهاد فهما صنوان . وقد بدأ الجهاد منذ أيام رسولنا محمد ﷺ إلى يومنا الحاضر وسيظل حياً إلى يوم القيامة . « الجهاد ماض إلى يوم القيامة» .

واهتم المسلمون بالتأريخ له في العصور الأولى فألفت فيه كتب مختلفة مثل فتوح البلدان للبلاذري ، والفتوح لابن أعثم الكوفي ، وفتوح الشام للأزدي ومانسب للواقدي من كتب في هذا الباب ، كما أن أحداثه تمثل

العصب الأساس في التأريخ لعصور معينة في الحوليات مثل عصر الراشدين وعصر الحروب الصليبية ، والصراع بين المسلمين ونصارىٰ الإسبان في الأندلس في مراحل تاريخ الأندلس المختلفة ، وكذلك الصراع بين العثمانيين وأوربا في العصور العثمانية الأولىٰ والوسطىٰ وحتىٰ سقوط الخلافة .

وقد رأيت أن أجمع في هذا الكتاب أهم أحداث الجهاد والفتوح منذ عصر الرسول صلىٰ الله عليه وسلم حتىٰ سقوط الخلافة العثمانية ، مع التعريف الموجز بكل عصر من العصور ، والمرور علىٰ أهم المعارك الإسلامية فيه .

وكان من أهدافي من هذا العمل أن يكون مرجعاً عن أهم أعمال الفتوح والجهاد الإسلامي وماصاحبه من ظروف فيسهل الاطلاع عليها بعيداً عن التفصيلات الزائدة التي قد لاتخدم الهدف ، الذي رصدت من أجله تلك الحركة وبعض معاركها .

مع محاولة جادة في تأصيل الآثار والأخبار ، ومناقشتها بمنهجية موضوعية متجردة ؛ ولذلك فقد اعتمدت علىٰ المصادر المعتبرة في الوصول إلىٰ أصح الروايات عن جهاد المسلمين الأوائل في نشر الإسلام وعمدت إلىٰ الخروج ببعض الحكم والمواقف ذات الاعتبار آخذاً في الحسبان أن هذه الوقفات مقصودة للعبرة والقدوة .

والموضوعات في هذا الجانب كثيرة جداً ، وبالتالي فقد كان علي في معظم الأحيان أن أختار بين المعارك والأحداث أيها أهم من الآخر ، وما يمكن

التوسع فيه أو المرور عليه بعجالة، ولعلي قد أكون وقعت في بعض الأخطاء حيث أختصر أحياناً أو أطيل في الحديث عن بعض الموضوعات على حساب الموضوعات الأخرى أحياناً أخرى، وحسبي في ذلك أنني اجتهدت رأيي واخترت ما أظنه أهم من غيره على اجتهاد مني ، فإن أصبت فمن الله وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان .

وقد كانت المعارك التي تحدثت عنها مما وقع بين المسلمين وأعدائهم، فلم أتطرق لمعارك المسلمين مع بعضهم أو مع من ينتسبون للإسلام، أو الفتن التي حدثت بين المسلمين .

وإنني هنا أقر وأعترف أن في هذا الكتاب قصوراً كبيراً في التغطية ، فالباب واسع فوق أن يشمله كتاب واحد، كما أنني قد قصرت كثيراً في التاريخ لصراع المسلمين مع النصارى في الأندلس .

كما لايفوتني هنا التنبيه إلى أنه قد سبقني كثير من الباحثين والمؤلفين في جزئيات كثيرة من هذا الكتاب، لكنني مع اجتهادي في الاطلاع ما أمكنني حول هذه الموضوعات (لم أطلع) على كتاب مختصر حول حركة الجهاد عبر العصور الإسلامية المختلفة، فهناك فصل عند معظم المؤرخين بين التاريخ الإسلامي وتاريخ العصر الحديث وكأن المسلمين لاأثر لهم في هذا العصر . وقد حاولت الربط بين تاريخ الإسلام بشكل موحد منذ أيام الرسول إلى يومنا الحاضر، ومن المعلوم أن الموضوعات الحضارية والجهادية من الصعب إيقافها في فترة زمنية معينة ومن الأولى دراستها عبر العصور .

كما أن بعض من ألفوا حديثاً في هذا الموضوع لم يهتموا بالتأصيل من المصادر الأصلية وإن أفادوا في العديد من القضايا، ولكن تقصير أهل الاختصاص جعل لكتاباتهم مكانة على الساحة ، كما أن بعضهم قد استعان بكتابات المستشرقين التي كان لها صدىً على الساحة العلمية العربية فترة من الزمن .

وقد كان منهجي في هذا الكتاب هوالأخذ عن المصادر الأصلية أولاً ، كما أنني أخذت عن بعض المراجع الحديثة وخصوصاً ما تعود فيه تلك المراجع إلى مصادر مترجمة أو غير متوفرة بين يدي ،مع توخي الحذر والحيطة في هذا المقام .

ومن خلال متابعتي لبعض الأحداث في العديد من المصادر الأصلية اكتشفت أن بعضاً منها يهمل أحداثاً هامة ، فقد لايذكر الحدث إطلاقاً أو قد يمر به مرور الكرام كما فعل الطبري في حديثه عن فتح الأندلس (١) .

وقد بدأت هذا الكتاب بتمهيد تحدثت فيه عن مفهوم الفتوح وأهدافها في الإسلام، ومبشراتها الأولى في القرآن الكريم وعلى لسان رسول الله ﷺ .

وتحدثت في الفصل الأول عن الفتوح في أيام رسول الله ﷺ ،

---

(١) انظر : تعليق ابن الأثير على إهمال الطبري لهذه الحادثة وقارن بين ما كتبه الطبري وما كتبه ابن الأثير في : (الطبري : تاريخه ج ٨ / ٨٢ ، ابن الأثير : الكامل ج ٤ / ٥٥٦ـ٥٦٧) .

واخترت عدداً من المعارك، ومنها غزوة بدر وغزوة أحد، والخندق وخيبر ومؤتة وفتح مكة وغزوة حنين والطائف وغزوة تبوك، وحرصت على الروايات الصحيحة في البحث عموماً، وفيما يتعلق بأحداث السيرة خصوصاً، حيث حرصت على الأخذ من كتب الحديث، والاستفادة من كتب المغازي والسير .

وفي الفصل الثاني انتقلت للحديث عن عصر الراشدين، حيث مررت بالأحداث الهامة للفتوح في عصر أبي بكر الصديق، فتطرقت لموقعة اليمامة، كأهم معارك الردة، ثم تطرقت لفتح الشام والعراق وأهم المعارك التي جرت في عهده، رضي الله عنه ، وانتقلت بعد ذلك للحديث عن عهد عمر بن الخطاب، وفتوح الشام والعراق في أيامه رضي الله عنه ثم فتوح مصر والجزيرة في عهده رضي الله عنه ، وانتقلت بعد ذلك للحديث عن عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه ، حيث تطرقت لفتح أرمينية، وفتوح البحر : قبرص وذات الصواري، كما تحدثت عن فتوح افريقيا في أيامه، رضي الله عنه وانتقلت بعد ذلك للحديث عن نهاية عهد الراشدين في عصر علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

في الفصل الثالث انتقلت للحديث عن عصر الدولة الأموية وأهم الفتوح في ذلك العصر حيث تطرقت للصراع مع الروم ولفتح شمال أفريقيا والسند ، وبلاد ما وراء النهر والأندلس .

وفي الفصل الرابع انتقلت للحديث عن الفتوح في عصر العباسيين،

حيث مررت بحركة الجهاد في عصر الرشيد والمأمون والمعتصم، كما تطرقت لجهاد الغزنويين في بلاد الهند، ومررت بجهاد السلاجقة حيث تحدثت عن موقعة ملازكرد.

وفي الفصل الخامس انتقلت للحديث عن الجهاد في عصر الحروب الصليبية، حيث تحدثت عن بدايات الجهاد، وركزت على دور عماد الدين زنكي وابنه محمود، ثم انتقلت للحديث عن صلاح الدين الأيوبي، وأهم المعارك بينه وبين الصليبيين وعن تحريره لبيت المقدس، كما تحدثت عن خلفاء صلاح الدين من بني أيوب، وتطرقت لدور المماليك في جهاد الصليبيين وقضائهم النهائي على آخر المعاقل الصليبية.

أما الفصل السادس فقد كان عن الغزو المغولي للعالم الإسلامي، حيث تحدثت عن مواجهة المسلمين لهذا الغزو، وتحدثت عن سقوط بغداد في يد المغول، وعن هجومهم على الشام، ثم تحدثت عن موقعة عين جالوت.

وفي الفصل السابع والأخير تطرقت للحديث عن العصر العثماني حيث ذكرت بداية الدولة العثمانية وتوسعها في الأراضي البيزنطية، وجهادها المختلف ضد الروم وفتوحها في أوروبا وفتح القسطنطينية وصراعها مع نصارى أوربا في البلقان ومع الروس في شرق أوربا، وتطرقت لدفاعهم عن العالم الإسلامي في البحر الأحمر والخليج العربي. وقد حاولت أن يكون الكتاب مرجعاً مؤصلاً للمهتمين بتاريخ الجهاد وانتشار الإسلام.

أسأل الله سبحانه وتعالىٰ أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم وأن ينفع به وأن يغفر لي ما فيه وما في غيره من زلات، إنه غفور حليم، والحمدلله وحده .

تمهيد

مفهوم الفتوح :

الفتح في اللغة نقيض الإغلاق، ويقصد به هنا افتتاح دار الحرب ودخول دار العدو، وجمعه فتوح، كما يأتي الفتح بمعنى النصر والغلبة، وقد وردت لفظة الفتح في العديد من الآيات القرآنية، ومنها قوله تعالى: ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا** ﴾ [الفتح آية : ١] ، وقوله تعالى: ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا** ﴾ [الفتح آية : ١٨] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الصف آية : ١٣] ، وقوله تعالى : ﴿**إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ** ﴾ [النصر آية : ١] ، وقوله تعالى : ﴿ **وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ** ﴾ [الحديد آية : ١٠] .

ولا يقتصر مفهوم الفتح على الانتصار العسكري فحسب، بل يتعداه إلى الانتصار في مختلف الميادين العسكرية والأدبية والأخلاقية، والتي سببت مجتمعة دخول الأقوام في البلاد المفتوحة عسكرياً في دين الإسلام بقناعة ورضا، مما سبب انتصار عقيدة التوحيد على الشرك في تلك البلدان.

فكلمة الفتوح بهذا المفهوم الشامل تعني ما قام به المسلمون من جهاد

وفتح للبلدان وتمهيد لدعوة الله وتبليغ دين الإسلام إلى خلق الله وتحطيم قوى الشر التي كانت تمنع المسلمين والناس من ذلك في البلاد المختلفة ، وتشمل الأحداث العسكرية وما صاحبها من دعوة ابتداء من أيام الرسول ﷺ، وتبرز واضحة بمفهومها الخاص في انطلاقتها الكبرى والمباركة أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومن تلاه من الخلفاء الراشدين، مروراً بالعصور الإسلامية الأخرى المختلفة . كالعصر الأموي، والعباسي، وأيام الأيوبيين والمماليك، والعثمانيين، وغيرهم من الدول الإسلامية التي تلتهم أو عاصرتهم، وما حدث في تلك العصور من حركات جهادية مميزة يصح أن تدخل ضمن أحداث الفتوح والجهاد . ومنها ما حدث من حركات جهادية معاكسة استهدفت رد الأعداء والمحافظة على ما تم فتحه سابقاً .

أهداف الفتوح :

لقد بعث الله سبحانه وتعالى رسوله محمداً ﷺ إلى الناس كافة بدين الإسلام كما قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ** ﴾ [سبأ آية : ٢٨]، وقد وعد الله بنصر هذا الدين وإظهاره في قوله : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [التوبة آية : ٣٣] .

ومن هذا المنطلق فإن الرسول ﷺ قد بذل جهده وسعى لتبليغ هذا الدين إلى كافة الناس دون إجبار لهم على الدخول فيه ، كما قال تعالى : ﴿ **لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ [البقرة آية : ٢٥٦] ، وقال : ﴿ **مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ الْبَلاغُ** ﴾

[المائدة آية : ٩٩] ، وقد حاولت قوىٰ الشرك المختلفة في مكة وفي غيرها أن تمنعه من تبليغ دعوته، وتمنع الناس من الاستماع إليها، فاضطر ﷺ إلىٰ الهجرة من مكة إلىٰ المدينة، بعد أن حاولت قريش قتله والخلاص منه، ثم أخذ يجاهد المعاندين للإسلام، من مشركي العرب ومن اليهود وغيرهم، كما قام صلىٰ الله عليه وسلم بمراسلة ملوك العالم في زمانه عارضاً عليهم دعوة الإسلام، حيث كتب إلىٰ هرقل ملك الروم، وإلىٰ كسرىٰ ملك الفرس، وهما أقوىٰ دولتين في العالم في ذلك الوقت وعرض عليهما رسول الله ﷺ الإسلام، إلا أنهما أصرا علىٰ الكفر والمعاندة .

وفي الوقت نفسه كان يخوض المعارك الجهادية ويقوم بفتح البلاد في جزيرة العرب حتىٰ دانت كاملة للإسلام في زمانه ﷺ رغم ما حدث من ردة في بعض أجزائها في أواخر حياته ﷺ .

وبعد وفاته ﷺ انشغل المسلمون بقيادة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في موجة أخرىٰ من الفتح والجهاد كانت في أولها موجهة للمرتدين من قبائل العرب ، وما إن فرغت منهم جيوش الإسلام حتىٰ وجهها أبو بكر الصديق رضي الله عنه في وقت واحد لجهاد أقوىٰ دولتين في العالم في ذلك الوقت هما فارس والروم، وكان هدف الجهاد الأول تبليغ دعوة الإسلام إلىٰ الشعوب في تلك الدول ، التي كانت قواها تمنع ذلك، وكانت أنظمتها تحجب الناس عن رؤية الحق ، وكان الفاتحون المجاهدون يعرفون موقف الإسلام من الدعوة وأنه لا إكراه في الدين، ولذلك فإنهم كانوا يعرضون علىٰ الأعداء

ثلاثة أمور قبل الدخول معهم في أي معركة : إما الإسلام، أو الجزية، أوالقتال وهو آخر الخيارات، فإن هم أسلموا فهم من المسلمين، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، وإن هم دفعوا الجزية فإن لهم حقوقاً كان المسلمون أوفى الناس بها لهم، ويقوم المسلمون بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة بينهم، وأما الإجبار على الدخول في الإسلام فلم يكن وارداً على الإطلاق لقول الله تعالى : ﴿ **قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ [التوبة آية : ٢٩] .

كما أن الجهاد والفتح كان يهدف إلى رفع الظلم عن المظلومين والمستضعفين الذين وقعوا تحت أيدي الطواغيت وأولياء الشيطان، قال تعالى : ﴿ **وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا** ﴾ [النساء آية : ٧٥ـ٧٦] .

كما أن الكفار كانوا يحاولون القضاء على دين الإسلام بالقتال إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً ﴿ **وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾ [البقرة آية : ٢١٧] . ومن هذه المنطلقات فإن الحروب التي جرت بين المسلمين وأعدائهم لم يكن هدف المسلمين منها قتل الناس ومصادرة

الأموال، أو إجبار الناس على الدخول في الإسلام بالقوة، وإنما كان الهدف منها إعطاء الناس الحرية الكاملة في الاختيار، وأن لايحول بينهم وبين اختيار الدين الصحيح أية قوة أو أية دولة ثم ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف آية : ٢٩] .

ونتيجة لهذه الحرية أخذ الناس في البلاد المفتوحة يفكرون في الإسلام بعقلية سليمة متحررة من ضغوط قوى الطواغيت المختلفة ، فحققت الدعوة الإسلامية بينهم نجاحاً كبيراً فدخل الناس في البلاد المفتوحة في دين الله أفواجاً كما وعد الله ، وأصبحوا يدافعون عنه كما دافع المسلمون الأوائل ، وأصبحت كلمة الله هي العليا ، وهذا أهم أهداف الفتوح التي من أجلها جاهد المسلمون في العصور المختلفة .

مقدمات الفتوح :

إن دعوة الإسلام منذ ظهورها عالمية الطابع كما قال تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف آية : ٩] .

وقد ربى القرآن الكريم المسلمين على الإيمان والعمل الصالح ووعدهم الله سبحانه وتعالى بالنصر وتحقيق السيادة في الأرض إن هم حققوا ذلك في أنفسه ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ

ذلكَ فأُولَئكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾[النور آية : ٥٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿ **ولَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ** ﴾ [الأنبياء آية : ١٠٥] ، وقال تعالىٰ : ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾ [القصص آية : ٥] .

ومن هذه الأسس فإن الرسول ﷺ كان يعد نفسه وأصحابه وبقية أمته لفتح العالم بهذا الدين الجديد ، فكان يبشر أصحابه في مكة بذلك مثل قوله : « ليتمن الله هذا الأمر حتىٰ يسير الراكب من صنعاء إلىٰ حضرموت ما يخاف إلا الله » (١) .

وحينما كان الرسول ﷺ في مكة يعرض نفسه علىٰ القبائل في أحد مواسم الحج قبل الهجرة عرض نفسه علىٰ بني بكر بن وائل ، علىٰ أن يهاجر إليهم صلىٰ الله عليه وسلم وأن ينصروه علىٰ من جاورهم فوافقوا علىٰ أن يهاجر إليهم وينصروه علىٰ من جاورهم من العرب ، واعتذروا عن نصرته علىٰ الفرس المجاورين لهم وقالو : إنما نزلنا علىٰ عهد أخذه علينا كسرىٰ فرد عليهم رسول الله ﷺ إن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه الله من جميع جوانبه ، وأخبرهم الرسول صلىٰ الله عليه وسلم أنهم لم يلبثوا إلا قليلاً حتىٰ يورثهم الله أرض وأموال الفرس ، وقد كان ضمن هذا الوفد المثنىٰ بن حارثة الشيباني رضي الله عنه (٢) .

---

(١) رواه البخاري : (فتح الباري) ٧ / ١٩٥ وخرجه أحمد في مسنده ج ٥ / ١١٠ .

(٢) الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٢ / ٥٩٦ .

كما روىٰ ابن إسحق عن جابر بن سمرة بسنده أن رسول الله ﷺ قال: «لتفتحن أرض كسرىٰ عصابة من المسلمين» (١).

وهذا يعني أن الرسول ﷺ يؤكد قرب فتح المسلمين ونشرهم للدين في بلاد الفرس أو غيرها والتي كان من ضمنها العراق، وحينما كان الرسول ﷺ في طريق الهجرة من مكة إلىٰ المدينة عرض له سراقة بن مالك فأخبره ﷺ أنه سيلبس سواري كسرىٰ وتاجه. وهذا يعني أن المسلمين سيفتحون بلاد فارس ومن ضمنها ماكان تحت حكم الفرس كالعراق وغيرها (٢).

وفي أثناء حفر الخندق قبيل غزوة الأحزاب في السنة الخامسة للهجرة اعترضت لبعض الصحابة صخرة فقام الرسول ﷺ ليحطمها، وحين ضربها برقت منها بارقة فكبر وكبر المسلمون معه ثم ضربها ثانية فبرقت فكبر وكبر المسلمون معه، ثم ضربها ثالثة فكبر وكبر المسلمون معه وقد قال ﷺ إثر الضربة الأولىٰ: «الله أكبر، أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة، ثم ضربها الثانية فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض، ثم ضربها الثالثة، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة»(٣). وبهذا كان ﷺ

---

(١) ابن إسحاق: السيرة النبوية ٢٧١، وانظر أحمد بن حنبل: المسند ج٤ / ٨٩، ١٠٠.

(٢) ابن حجر: الإصابة ج ٢ / ١٩.

(٣) رواه أحمد في مسنده ج ٤ / ٣٠٣، وحسنه عدد من العلماء منهم ابن حجر (انظر د. أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة ج٢ / ٤٢٣، ود. مهدي رزق الله أحمد: السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية ص ٤٤٩ هامش ٤٢).

ومن معه من الصحابة متيقنين أنهم سيغلبون تلك الممالك، ويفتحون ديارها ومنها كما ورد الحيرة [١] وغيرها مما هو تحت سيطرة الفرس . وكانوا ينتظرون هذه الأيام ويستعدون لها، ولذلك فإن المسلمين حين أقبلوا علىٰ المدائن قبل فتحها وشاهدوا القصر الأبيض صاحوا مكبرين قائلين : الله أكبر أبيض كسرىٰ هذا ما وعد الله ورسوله .

وقد بدأ الرسول ﷺ إتصالاً سلمياً بهذه الممالك عن طريق مكاتبة ملوكها، قبل الحرب والجهاد ، حيث دعاهم في تلك الكتب إلىٰ الإسلام[٢] ، وعرضه عليهم ، وبلغهم إياه، حتىٰ يعذر إليهم أمام الله وأمام الناس في حال مقاتلتهم .

---

(١) انظر : البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ٢٤٥ .

(٢) انظر : حول تلك الكتب ، خالد سيد علي ، رسائل النبي ﷺ إلىٰ الملوك والأمراء ، الطبعة الأولىٰ ، دار التراث، الكويت ١٤٠٧هـ.

الفصل الأول
عصر السيرة النبويـة

عصر الرسول – ﷺ :

استمر الرسول ﷺ بعد بعثته ثلاث سنوات يدعو سراً إلىٰ الإسلام الدين الجديد علىٰ أهل مكة، وفي هذه المرحلة لم يواجه أذىٰ يذكر من مشركي مكة ومعانديها، وبعد ذلك نزل عليه أمر الله تعالىٰ بالجهر بالدعوة في قوله : ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر آية : ٩٤]، وبدأت مرحلة جديدة من تاريخ الإسلام، حيث بدأ الرسول ﷺ ومن آمن معه يتلقون مختلف أنواع الأذىٰ، صابرين علىٰ الابتلاء ، وقد أمروا بذلك، لم يكونوا في هذه المرحلة يوجهون جهودهم لمقاومة كفار مكة، وإنما كان الكثير منهم يخفي إسلامه حيث كانوا يتجمعون سراً في دار الأرقم بن أبي الأرقم، ليلتقوا برسول الله ﷺ ومعه بقية المؤمنين، وقد استمرت هذه المرحلة قرابة عشر سنوات كان الرسول ﷺ في أواخرها يبحث له ولأصحابه عن مقر يؤويهم ، ويمنعهم من أذىٰ قومهم، وقد وضع الرسول ﷺ نصب عينيه وهو يبحث عن دار للهجرة أن تكون مقراً لدعوة ودولة الإسلام، ومنزلاً لحكومتهم، ومقراً لمعسكره انتظاراً لإذن الله لهم بالجهاد .

وقد هاجر الرسول ﷺ إلىٰ المدينة، بعد أن اتفق مع الأنصار في بيعة العقبة علىٰ شروط، تُمكّن الرسول ﷺ من الجهاد عند الإذن له بذلك من الله تعالىٰ .

---

(١) انظر : البلاذري، فتوح البلدان، ص ٢٤٥ .

وهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة وظل يبني المجتمع المسلم ودولته في المدينة ويدرب أصحابه على الجهاد من خلال سرايا مختلفة وتدريبات عامة، لكنه لم يبدأ جهاد المشركين إلا بعد أن نزل عليه قوله تعالى: ﴿ **أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ** ﴾ [الحج آية: ٣٩ ـ ٤٠]. وأتى الإذن بالقتال للمسلمين بعد أن أصبحت لهم بلد ودولة وقوة تمكنهم من ذلك، ثم تبع مرحلة الإذن مرحلة فرض القتال ضد من يقاتل المسلمين في قوله تعالى: ﴿ **قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ** ﴾ [البقرة آية: ١٩٠]، ثم فرض قتال المشركين كافة، في قوله تعالى: ﴿ **وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً** ﴾ [التوبة آية: ٣٦]. وهكذا أصبح الجهاد مأموراً به للمؤمنين [١].

وقد خاض الرسول ﷺ العديد من المعارك في حياته، حيث بلغت غزواته ﷺ ٢٧ غزوة، كما بلغت سراياه التي بعثها أكثر من ٤٧ سرية [٢]، ولن نتحدث عن جميع غزواته أو سراياه ﷺ، ولكن سنختار منها مانتصور أن له تأثيراً أكبر على مجريات الأحداث في صراعه ﷺ مع قوى الكفر، مع قناعتنا أن جميع تلك الأحداث لها دورها المشهود الذي لا يستهان به.

---

(١) انظر: صالح أحمد الشامي ص ١٧٨.

(٢) ابن سعد: غزوات الرسول وسراياه ٦.

معركة بدر (١٧ رمضان سنة ٢هـ)[١] :

تعد هذه المعركة أشهر المعارك في التاريخ الإسلامي على الإطلاق حيث سماها الله سبحانه وتعالىٰ يوم الفرقان، في قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال آية : ٤١] .

ومن أسبابها أن رسول الله ﷺ كان يتتبع أخبار قريش ويتربص بهم، وقد آذوه وأخرجوه وأصحابه من ديارهم، وسطوا على أموالهم وسجنوا بعضهم وعذبوهم، فعلم ﷺ أن عيراً لقريش قد قدمت من الشام في طريقها إلىٰ مكة، وهي بالقرب من المدينة، فندب الرسول ﷺ من كان حاضراً من الصحابة للخروج معه[٢] ، وخرج معهم علىٰ عجل دون استعداد، وكان يصحبه ﷺ «بضعة عشر وثلاثمائة »[٣] رجل أكثرهم راجلة، ليس معهم سوىٰ فرسين وسبعين بعيراً[٤] . ، كانوا يظنون أنهم سيلقون العير (القافلة) وأنهم لن يلقوا قتالاً، ولذلك فإنهم لم يكونوا مستعدين الاستعداد الكامل للمعركة .

---

(١) لمزيد من التوسع حول أحداث هذه الغزوة ومروياتها وتخريج تلك المرويات انظر : أحمد محمد العليمي باوزير: مرويات غزوة بدر، الطبعة الأولىٰ ، مكتبة طيبة ، الرياض ١٤٠٠هـ.

(٢) انظر : حديث البخاري : (فتح الباري) ج ١٥ / ١٤٧ ، وانظر شرح ابن حجر للحديث ، ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ / ٦٠٦ .

(٣) من حديث البخاري (فتح الباري) ج ١٥ / ١٥٦ .

(٤) الواقدي : المغازي ج ١ / ٢٧، ابن سعد : الطبقات الكبرىٰ ج ٢ / ١٢ .

كان قائد قافلة قريش هو أبو سفيان بن حرب، وكان حذراً خائفاً علىٰ أموال القافلة التي معه، ولذلك كان يتحسس الأخبار علىٰ وجل من المسلمين، فعلم أن الرسول ﷺ قد خرج في طلبه والعير التي معه، فغير الطريق التي كان يسلكها وسار بالعير بالقرب من الساحل في طريق لم يكن المسلمون يتوقعونها، وفي الوقت نفسه أرسل إلىٰ قريش في مكه يستنفرها لتنقذ قافلتها من المسلمين، وخرجت قوات قريش مسرعة لتنقذ العير ـ بزعمها ـ، يترأسها [أبو جهل الحكم بن هشام]، وخرج معه كبار رجالات قريش وشجعانها ورؤوس الكفر والمعاندون لله ورسوله من أهلها(١) ، ونجح [أبو سفيان] في إنقاذ العير من المسلمين، واقترب من مكة وأمن علىٰ قافلته، وأرسل مندوباً منه إلىٰ أهل مكة، يبلغهم بنجاة العير، ويطلب منهم العودة إلىٰ مكة .

ولكن [أبا جهل] زعيم كفارقريش أصر علىٰ التحدي والكبر والخيلاء، حيث أعلن أنه لن يرجع حتىٰ يَرِدَ ماء بدر وينحر الأبل ويطعم الطعام ويشرب الخمر، وتعزف القيان، وتسمع العرب بمسيرهم، فتكون هيبة لهم طول الدهر، وبالفعل واصلوا مسيرتهم إلىٰ بدرهدفهم المنشود(٢) .

---

(١) انظر : صحيح البخاري (فتح الباري) ج ١٥/ ١٤٧، ابن هشام السيرة النبوية ج ٢ / ٦٠٩، ابن سعد : الطبقات الكبرىٰ ج ٢ / ١٣ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ / ٦١٨ ، ابن سعد الطبقات الكبرىٰ ج٢ / ١٣، الواقدي : المغازي ١/ ٤٢ .

علم ﷺ بتحرك قريش فجمع الصحابة ليستشيرهم، وكان ﷺ وهو المعصوم المسدد يستشير أصحابه دائماً لأمور هامة ، منها أمران رئيسان : الأول توحيد صفوف المسلمين وتطييب خواطرهم ، وهوأمرهام جداًخصوصاً مع الأنصارفي هذه المرحلة، وهم أهل الدار، والأمر الثاني الوصول إلى القرار الأصوب .

وطرح ﷺ الأمرعلى جموع صحابته المرافقين له قائلاً لهم : «أشيروا علي أيها الناس »، وتكلم جمع من المهاجرين فيهم أبوبكر وعمر رضوان الله عليهما، ، وكان من المتكلمين المقداد بن عمرو الذي قال : «يارسول الله والله لانقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون (١) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه» . فدعا له الرسول ثم قال مرة أخرى : « أشيروا علي أيها الناس »، وكان ﷺ يريد رأي الأنصار فهم أهل الدار، وهم الأكثرية ويريد ﷺ أن يكسب قلوبهم ولايتصرف إلا بقناعة منهم تحافظ على الصف المسلم، خصوصاً وهي أول لقاء بين الرسول ﷺ وجنده من المهاجرين والأنصار، وبين قريش ورؤوس الكفر فيها، فبادر سعد بن معاذ رضي الله عنه يقول : «لكأنك تريدنا يارسول الله؟ فأجاب ﷺ : أجل، فرد سعد بالثناء على رسول الله ﷺ ،

---

(١) من الآية ٢٤ من سورة المائدة ، انظر حول هذه المشاورة : ابن هشام السيرة النبوية ج٢/ ٢١٥ ، وقارن بحديث البخاري (فتح الباري) ج ١٥/ ١٥١ .

وذكر لهم أنهم على عهده وقال : «يارسول الله امض لما أردت فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ماتخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً وإنا لصبر في الحرب، صدق عند اللقاء لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر على بركة الله »(١) .

فسُر رسول الله ﷺ بقول سعد ودعا له وللمهاجرين والأنصار، واطمأن إلى موقف جنده من اللقاء .

فسار وسار معه الصحابة، وهو يقول لهم : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين وذلك مصداق لقوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ** ﴾ ، وسار الرسول ﷺ ومن معه باتجاه بدر، وهم موقنون أنهم سينالون عير قريش أو جيشها .

ونزل المسلمون قرب بدر وهم يتحسسون الأخبار عن الأعداء، وعلم صلى الله عليه وسلم أن القوم مابين التسعمائة إلى الألف ، و عرف من في الجيش من صناديد قريش فقال ﷺ : « هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ أكبادها» ، وتيقن الرسول ﷺ ومن معه أن المواجهة ستكون مع ذات الشوكة شجعان مكة وفرسانها، وأن العير قد فاتتهم .

وجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ وقدكان نزول المسلمين على

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج٢/ ٦١٥ ، وانظر : تخريج هذه الحادثة بالتفصيل عند د. أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج٢/ ٣٥٩، د. مهدي رزق الله : السيرة النبوية ٣٤١ .

أدنىٰ ماء لبدر فقال متأدباً مع الرسول يعرض عليه رأياً صائباً : «يارسول الله أرأيت هذا المنزل أنزلكه الله أم هو الرأي والحرب والمكيدة »؟! فقال ﷺ : «بل هو الرأي والحرب والمكيدة » . فقال : «يارسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتىٰ تأتي أدنىٰ ماء من القوم فتنزله ثم نغور ما وراءه من القلب ونبني عليه حوضاً ونملؤه ماء فنشرب ولا يشربون» . فدعا له الرسول ﷺ ، وقال : لقد أشرت بالرأي[1] ، وكان هذا الموقف من الرسول القائد ﷺ درساً عظيماً في استماع القائد إلىٰ رأي جنده للوصول إلىٰ الموقف الأسلم ، واتخاذ الأسباب الدنيوية والمادية مع التوكل علىٰ الله وهو الأساس في كل تحركاته ﷺ .

وكان الرسول ﷺ يخبر بمصرع عدد من زعماء مشركي قريش ، ويُري الصحابة الأماكن التي سيصرعون بها [2] ، مما زاد من يقينهم بنصر الله لهم .

وبنىٰ الصحابة عريشاً لرسول الله ﷺ [3] يخلو فيه بعض الوقت للدعاء

---

(١) من رواية ابن إسحاق ، (ابن هشام) : السيرة النبوية ج٢/ ٦٢٠ ، انظرتخريج هذه الحادثة عند د. رزق الله : السيرة النبوية ، وقد حكم عليها بأنها رواية حسنة لغيرها ٣٤٥ .

(٢) انظر : الواقدي : المغازي ج١/ ٤٩ ، ابن هشام السيرة النبوية ج ٢ / ٦١٥ ، وانظر إلىٰ تخريج ذلك عند د. أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ / ٣٥٩ ، رزق الله : السيرة النبوية ٣٤٤ .

(٣) من حديث للبخاري : (فتح الباري) ج١٨/ ٢٥٤ ، الواقدي : المغازي ج١/ ٤٩ ، انظر : تخريج ذلك عند ، د. أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢ / ٣٦٢ ، رزق الله : السيرة النبوية ٣٤٦ .

والصلاة، مع بقائه في مقدمة الصفوف في القتال فقد كان أشجع الشجعان ﷺ.

وصلت قريش قبل المعركة، فلما أقبلت قال ﷺ: اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك فنصرك الذي وعدتني، اللهم احنهم الغداة (١).

حاول بعض حُلماء قريش أن يثنوا قومهم عن الحرب ويقنعوهم بالرجوع إلى مكة، لكن [أبا جهل] وأمثاله من رؤوس الكفر، أفسدوا عليهم وأقنعوا قريشاً بالعناد والمجابهة ليقضي الله أمراً كان مفعولاً (٢).

بات المسلمون ليلة بدر وهم يدعون الله ويتضرعون إليه بالنصر والفوز على الأعداء، وأنزل الله سكينته عليهم فكانو هادئين وأصابهم النعاس، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴾ [الأنفال آية: ١١]. وكان الرسول ﷺ تلك الليلة يصلي ويبكي متضرعاً إلى الله بالدعاء أن ينصر المؤمنين. وكان مما قال في دعائه ﷺ في العريش في تلك الليلة أو من صبيحتها: «اللهم أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً»، فأخذ أبو بكر بيده وقال: حسبك يا رسول الله ألححت على ربك، فخرج وهو في الدرع يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ

(١) الواقدي: المغازي ج ١ / ٥٩.

(٢) الواقدي: المغازي ج١ / ٦٣، ابن هشام: السيرة ج ٢ / ٦٢٢.

السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر الآيات ٤٥ ـ ٤٦] (١) .

أما مشركو قريش فقد باتوا يأكلون ويشربون الخمر وتعزف لهم القيان، ويفاخرون بقوتهم وما أُوتوا من الماديات، ويصرون على كفرهم وشركهم ومعاندتهم لله ورسوله .

وفي صبيحة يوم المعركة صلى المسلمون خلف رسول الله ﷺ، وبعد الصلاة خطبهم وحضهم على القتال والصبر .

ثم أشرف الرسول ﷺ بنفسه على تنظيم صفوف المسلمين، وتوجيههم، وكان مما قال لهم ﷺ : « إذا كثبوكم ـ يعني أكثروكم ـ فارموهم. واستبقوا نبلكم » (٢) وكان ﷺ يعجبه الرمي ويحث عليه، وبينما رسول الله ﷺ يسوي الصفوف إذا بـ (سواد بن غُزية) رضي الله عنه قد ند من الصف فيسوسه الرسول ﷺ بسهم كان في يده ويقول له : استو ياسواد . فيقول : أوجعتني يارسول الله فدعني أقتد منك فيكشف له ﷺ عن بطنه الشريف ليقتاد لنفسه، فيقبل بطن رسول الله ﷺ . . فيقول له الرسول ﷺ ماحملك على هذا ياسواد ؟ فيقول : يارسول الله قد حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له ﷺ (٣) .

وانتظر القوم أمر الرسول ﷺ ببدء القتال، ورجع الرسول ﷺ إلى

---

(١) رواه البخاري : (فتح الباري) ج ١٨ / ٢٥٤ .
(٢) من حديث البخاري (فتح الباري ج ١٥ / ١٧٣ .
(٣) الواقدي : المغازي ج ١ / ٥٦ ـ ٥٧ .

العريش وأخذ يدعو ربه : « اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لاتعبد، اللهم أنجز لي ما وعدتني»(١) ولم يزل يدعو وبجواره أبو بكر رضي الله عنه حتى أشفق عليه فقال له : يانبي الله بعض مناشدتك ربك، فإنه منجز لك ماوعدك ثم أغفى إغفاءة ثم قال : أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده، فاستبشر المسلمون بعد أن خرج إليهم ﷺ ، وهو يقرأ قوله تعالى : ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ﴾ [القمر الآيات ٤٥ ـ ٤٦] (٢) . وأخذ ﷺ يشجع الناس على القتال ويذكرهم بالجنة ويبشرهم بنزول الملائكة معهم . وهم الذين ورد ذكرهم في قوله تعالى : ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال آية : ٩] ، وفي قوله تعالى : ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال آية : ١٢] .

وفي الوقت نفسه أعدت قريش صفوفها واستعدت للقتال .

وقد حاول أحد القرشيين الشرب من الماء مخترقاً صفوف المسلمين، فتصدى له حمزة بن عبد المطلب فقتله (٣) .

ثم بدأت أول مبارزة في المعركة بين عتبة بن ربيعة وابن أخيه شيبة وابنه الوليد بن عتبة من المشركين، وبين حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب

(١) انظر : الحديث السابق (فتح الباري) ج١٨ / ٢٥٤ .

(٢) انظر : حديث البخاري الذي أوردناه سابقاً ج ١٦ / ٢٥٤ .

(٣) ابن هشام السيرة النبوية ج ٢ / ٦٢٤ ، الواقدي : المغازي ١/ ٦٨ .

وعبيدة بن الحارث من المسلمين رضي الله عنهم وكلهم من آل النبي ﷺ وانتهت تلك المبارزة بمقتل المشركين الثلاثة وجرح عبيدة بن الحارث رضي الله عنه ثم استشهاده (١) .

ثم التحم الجمعان وبدأت المعركة وأخذ الرسول ﷺ حفنة من الحصى ورماها على القوم وقال : «شاهت الوجوه» (٢) . وفي هذا نزل قوله تعالي : ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال آية : ١٧] ، واشتد القتال بين الطرفين، وكان الرسول ﷺ في مقدمة الصفوف حتى أن الصحابة كان يحتمون به ﷺ ، وكان لكثير من الصحابة مواقف بطولية في هذه المعركة، ولاحت بشائر النصر للمسلمين، وانهزم المشركون وقتل صناديدهم أمثال [أبي جهل] (٣) و[عتبة بن ربيعة] و[أمية بن خلف] وغيرهم من كفار قريش الذين بلغ عددهم سبعين رجلاً، وولى الأحياء منهم الأدبارمنهزمين لايلوون على شيء (٤) .

---

(١) انظر : حديث البخاري عن علي بن أبي طالب : (فتح الباري) ج ١٥ / ١٦١ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ / ٧٠٦.

(٣) انظر إلى مقتل أبي جهل من حديث عبدالله بن مسعود عند البخاري (فتح الباري) باب قتل أبي جهل ، ج ١٥ / ١٥٨ .

(٤) انظر : حديث أنس بن مالك عند البخاري . (فتح الباري) ج ١٥ / ١٦٧ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج٢/ ٦٤٢ ، ٦٢٥ ، ٦٣١ ، ٦٣٤ ، ٦٣٨ ، (وانظر العنوان الذي وضعه لذلك ص ٧٠٨) ، الواقدي : المغازي ج١/ ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٨ ، ٩٢ ، ١٠٠ .

وأقام المسلمون مع رسول الله ﷺ ثلاثة أيام في بدر بعد المعركة، دفنوا فيها شهداءهم، الذين بلغوا أربعة عشر شهيداً (١)، وأما قتلى المشركين فقد ألقوا في قليب بدر، ووقف عليهم رسول الله ﷺ : « حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم يا فلان بن فلان يافلان بن فلان أيسركم أنكم أطعتم الله ورسوله ؟ فإنا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قال : فقال عمر : يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله ﷺ : والذي نفس محمد بيده ، ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» ، قال قتاده : أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخاً وتصغيراً وحزناً وندماً » (٢) .

وبعد ذلك عاد الرسول ﷺ ومن معه من المجاهدين إلى المدينة سالماً غانماً فاستقبله المسلمون في المدينة بالسرور العظيم لسلامته ﷺ ، ولانتصار المسلمين هذا النصر المبين (٣) .

وقد كان قسم أخر من سكان المدينة مغتاظين من انتصار المسلمين، حيث كان اليهود، والمنافقون وبقايا المشركين في المدينة يكرهون ما أصاب المسلمين من قوة وعزة ونصر.

وقد نزلت بعض الآيات في أحداث غزوة بدر، ومنها قوله تعالى :

---

(١) انظر : أسماء شهداء المسلمين في بدر عند : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢/ ٧٠٦ ، ٧٠٧.
(٢) البخاري (فتح الباري) ج١٥/ ١٦٨ .
(٣) انظر : ابن هشام السيرة النبوية ج٢/ ٦٤٣، الواقدي : المغازي ج١/ ١٤٤ .

﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون (٥) يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون (٦) وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين (٧) ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون (٨) إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين (٩) وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم (١٠) إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام (١١) إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان (١٢) ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب (١٣) ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار (١٤) يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار (١٥) ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير (١٦) فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم (١٧) ذلكم وأن الله موهن كيد الكافرين (١٨) إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئا ولو كثرت وأن الله مع المؤمنين (١٩)﴾[الأنفال الآيات : ٥ : ١٩] . ويقول الله سبحانه وتعالى عن أحداث هذه الغزوة في موضع آخرمن السورة نفسها : ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله

وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنتُم بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُم بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِن لِّيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلاً وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٤٤) ﴾ [الأنفال الآيات : ٤١ : ٤٤] . وتواصل بقية سورة الأنفال الحديث عن بعض القضايا المتعلقة بالجهاد عموماً وبغزوة بدر خصوصاً، وأصبحت تلك السورة تسمى سورة الجهاد، وداوم المسلمون على قراءتها في صفوف القتال قبل المعارك في كل غزوات الفتح ، وخصوصاً في عهد الراشدين حيث كانوا يعينون القراء في كل جيش لتلاوتها نظراً لأهمية تعلم وقراءة هذه السورة لما فيها من معاني الجهاد وقواعده . وكانت غزوة بدر هي أول انتصار للمسلمين على مشركي مكة ، وقد تناقل العرب أخبارها، وعلم الناس بعدها أن المسلمين أصبح لهم قوة يحسب لها حسابها .

---

(١) انظر ابن إسحق : سيرة ابن إسحق ٣٠١ .

غزوة أحد (شوال سنة ٣ هـ) [(١)] :

ماكانت قريش لتسكت بعد هزيمتها في بدر، ولذلك فإنها أخذت تعد العدة لغزو المسلمين في المدينة، وقام أعداء الإسلام كل منهم بدوره، فالذين قتل آباؤهم أو أبناؤهم أو أحد من أهليهم كانوا يسيرون في الناس ليحرضوهم على رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين[(١)]، وكان اليهود يدورون في مكة ويشتركون في تحريض زعمائها، والمنافقون في المدينة يعدون قريشاً ويمنونهم بالمساعدة إن قدموا لاستئصال محمد ومن معه، وأهل الأموال يبذلون أموالهم في سبيل قتال محمد ﷺ ومن معه من المسلمين ويتحملون الإعداد المادي لذلك، وفيهم نزل قول الله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾ [الأنفال آية : ٣٦] [(٢)]، وتم استعداد قريش ومن حالفها من قبائل تهامة وغيرهم، وتوجه جيشها بحديده ورجاله وعبيده، وبعض نسائه يقصدون المدينة وقد بلغ تعدادهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مقاتل[(٣)].

في هذه الأثناء كانت الأخبار تأتي لرسول الله ﷺ من عيونه في مكة عن تحركات القوم بالتفصيل[(٤)].

---

(١) ابن إسحق السيرة ٣٠١، ابن هشام ج ٣/ ٦٠.

(٢) انظر: ابن هشام السيرة النبوية ج ٣/ ٦٠، الواقدي: المغازي ج١/ ١٩٩، الصالحي الشامي: سبل الهدىٰ والرشاد ج٤ / ٢٧١.

(٣) ابن إسحق: السيرة ٣٠٢، الواقدي المغازي: ج ١/ ٢٠٢، ٢٠٣، الصالحي الشامي: سبل الهدىٰ والرشاد ج٤/ ٢٧٣.

(٤) الواقدي: المغازي ج ١ / ٢٠٧، ابن سعد: الطبقات الكبرىٰ ج٢/ ٣٧، الصالحي الشامي: سبل الهدىٰ والرشاد ج ٤ / ٢٧٣.

جمع الرسول ﷺ المسلمين واستشارهم في الأمر كعادته، واختلفت آراؤهم، فمنهم من رأى الخروج للقاء الأعداء خارج المدينة وكانوا الأكثرية، ومنهم من رأى البقاء في المدينة، وقتال المشركين من داخلها إن هم قدموها، وكان ﷺ يميل إلى الرأي الثاني وهو البقاء داخل المدينة[(١)]، ولكن أصحاب الرأي القائل بالخروج للقاء القوم كانوا من شجعان المسلمين وأكثروا على الرسول ﷺ، فدخل داره ثم خرج إليهم وقد لبس درعه وسلاحه واستعد للقتال، فندم الذين أكثروا على الرسول ﷺ بالخروج وقالوا: يارسول الله استكرهناك ولم يكن لنا ذلك فإن شئت فاقعد. فقال ﷺ: « ليس لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يقاتل »[(٢)].

كان ﷺ قد رأى رؤيا قصها على أصحابه، ومنها كما روى البخاري قوله: « رأيت في رؤياي هذه أني هززت سيفاً فانقطع صدره فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد. ثم هززته بآخر فعاد أحسن ما كان فإذا هو ما جاء الله به من الفتح واجتماع المؤمنين، ورأيت فيها بقراً والله!! خير فإذا هم المؤمنون يوم أحد »[(٣)].

وكانت قريش قد نزلت أحد الأودية بالقرب من المدينة فخرج الرسول ﷺ ومعه ألف من أهل المدينة، وفي الطريق إلى أحد رجع زعيم المنافقين عبد

---

(١) ابن إسحق: سيرة ابن إسحق ٣٠٣، الواقدي: المغازي ج١/ ٣١٠، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٤/ ٢٧٥.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل: المسند ج ٣/ ٣٥١، وانظر: تخريج الحديث عند رزق الله: السيرة النبوية ٣٨١.

(٣) البخاري (فتح الباري) ج ١٤/ ١٢٣، وانظر الروايات الأخرى عند الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ٤/ ٢٧٤.

عبدالله بن أبي بن سلول، ومعه ثلث الجيش خاذلين لرسول الله ﷺ، وزعم ابن أبي أنه مافعل ذلك إلا لأنه كان يرىٰ البقاء في المدينة، وثبت المؤمنون مع رسول الله ﷺ(١).

كانت أحد منزل رسول الله ﷺ ومن معه من المؤمنين. واختار الرسول الموقع بنفسه، ونظم صفوف المسلمين فيه حيث جعل مركز الجيش في الشعب، وجعل جبل أحد من خلفهم، واختار جبلاً صغيراً أمام القوم وعين فيه خمسين من الرماة وأمّر عليهم عبدالله بن جبيرٍ رضي الله عنهُ وأوصاهم أن يثبتوا في مكانهم حتىٰ يأتيهم أمر الرسول ﷺ وأن ينضحوا المشركين عن المسلمين بالنبل، حتىٰ لايأتوهم من الخلف. وأوصاهم بالثبات مهما كانت نتيجة المعركة وانتظار ما يصدر لهم من أوامر الرسول ﷺ. روىٰ البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «لقينا المشركين يومئذ وأجلس النبي ﷺ جيشاً من الرماة، وأمّر عليهم عبد الله. وقال: لا تبرحوا، إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا» الحديث (٢).

---

(١) الواقدي: المغازي ج ١ / ٢١٩، ابن سعد: الطبقات ج ٢/ ٣٩، وانظر البخاري: فتح الباري ج ١٥ / ٢٣٢.

(٢) فتح الباري ج ١٥/ ٢٢٤، وانظر: ابن إسحق: سيرة ابن إسحق ٣٠٥، الواقدي: المغازي ج١/ ٢١٩، الصالحي الشامي: سبل الهدىٰ والرشاد ج ٤ / ٢٨٢.

واختار الرسول مصعب بن عمير رضي الله عنه لحمل لواء المسلمين، وتولى الرسول ﷺ ترتيب صفوف أصحابه المجاهدين معه، وذكرهم بموعود الله من الجنة، وبالصبر والثبات عند اللقاء، ثم رد بعض الصغار إلى المدينة(١).

وفي جهة المشركين قام زعيمهم أبو سفيان رضي الله عنه بتعبئة المقاتلين، وكانوا قرابة ثلاثة آلاف مقاتل أكثر من أربعة أضعاف المسلمين، وقسمهم، وجعل على الميمنة خالد بن الوليد رضي الله عنه وأخذ ذوو الصيت والصوت منهم يحرضون الناس على القتال واستئصال محمد ﷺ ومن معه من المسلمين، وقامت نساء قريش بتحريض الرجال على القتال، وذكّرنهم بمن قتل من أهلهم في بدر العام الماضي (٢).

بدأت المعركة وقد أخذ كل موقعه، وأخرج الرسول ﷺ سيفاً كان معه فقال من يأخذ هذا بحقه، فقام إليه أبو دجانة سماك بن خرشه رضي الله عنه وقال: يارسول الله وماحقه؟ فقال ﷺ: أن تضرب به هام المشركين حتى ينحني، فأخذه أبو دجانة، وأخرج من جيبه عصابة حمراء فربطها على رأسه وأخذ يختال بالسيف، فقال ﷺ: إن هذه مشية يبغضها الله ورسوله إلا في

---

(١) ابن إسحق: سيرة ابن إسحق: ٣٠٨،٢٠٣، الواقدي: المغازي ج١/ ٢٢١، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج ٤/ ٢٨٢، ٢٨٣.

(٢) ابن إسحق: سيرة ابن إسحق: ٣٠٦، ابن قتيبة: المغازي ج١/ ٢٢٠، ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٢/ ٤١، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج ٤/ ٢٨٣.

مثل هذا الموطن» ، وبدأ القتال ، وقاتل أبو دجانة بسيف رسول الله ﷺ قتال الأبطال (١) ، كما قاتل حمزة رضي الله عنه بشجاعة لانظير لها وقاتل غيرهم من شجعان المسلمين ، حتى لاحت الهزيمة في صفوف المشركين وبدا النصر واضحاً للمؤمنين ، وولى المشركون من الميدان ، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم ، وأخذ المسلمون يجمعون الغنائم ، فلما رأى الرماة ذلك من على الجبال تحركوا من أماكنهم ، وحاول عبدالله بن جبير رضي الله عنه أن يمنعهم من المغادرة مذكراً إياهم بأمر الرسول ﷺ ، ولكنهم عصوه وانصرفوا ولم يثبت معه إلا نفر يسير دون العشرة (٢) .

كان خالد بن الوليد رضي الله عنه ومعه جماعة من فرسان قريش يرقبون الموقف عن كثب ، فلما رأى الرماة قلة لايستطيعون منع الخيل حمل عليهم ، فقتلهم وقائدهم ، ثم نزل بالفرسان إلى المسلمين ، وهم مكشوفون فأتوهم من الخلف ، ورجع جند قريش إلى ساحة المعركة بمساعدة الفرسان ، وتغير مسير القتال وأصبح في صالح مشركي قريش (٣) .

وحاولوا أن يصلوا إلى رسول الله ﷺ شخصياً ليقتلوه ، وتبارى في ذلك شجعانهم .

---

(١) ابن إسحق : سيرة ابن إسحق : ٣٠٥ ، الواقدي ج١/ ٢٤١ ، وانظر ابن حجر : الإصابة ج٤/ ٥٨ .

(٢) انظر : البخاري (فتح الباري) ج ١٥/ ٢٢٥ ، ابن إسحق : سيرة ابن إسحق ٣٠٦ ، الواقدي : المغازي ج١/ ٢٢٩ .

(٣) البخاري : (فتح الباري) ج ١٥/ ٢٢٥ ، ابن إسحاق : سيرة ابن إسحق ٣٠٧ ، الواقدي : المغازي ج ١/ ٢٣٥ ، ابن سعد : الطبقات : ج٢/ ٤١ .

وصمد رسول الله ﷺ وقاتل قتال الأبطال، وقتل بيده (أُبي بن خلف) الذي كان معانداً وحريصاً على قتل الرسول ﷺ ويردد: محمد..!! لانجوت إن نجا، فرفض الرسول ﷺ أن يبادر إليه أحد من الصحابة غيره حيث واجهه ﷺ بنفسه بحربة أصابته في عنقه فمات منها فيما بعد(١).

ثم إنه ﷺ وقع في أحد الحفر فشج رأسه وكسرت رباعيته وشقت شفته(٢)، وصمد نفر من الصحابة مع رسول الله ﷺ واستماتوا في الدفاع عنه منهم أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه، وسهل بن حنيف، ومنهم مصعب بن عمير حامل لواء المسلمين الذي استشهد بين يدي النبي ﷺ، ومنهم علي بن أبي طالب وأبو دجانة وسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنهم أجمعين حيث قال رسول الله ﷺ لسعد وهو يرمي دفاعاً عنه: «ارم فداك أبي وأمي»(٣). كما كان معهم في الدفاع عن الرسول ﷺ أم عمارة رضي الله عنها(٤).

وأشاع المشركون أنهم قتلوا رسول الله ﷺ، ففت ذلك في عضد

---

(١) ابن إسحق: سيرة ابن إسحق ٣١٠، الواقدي: المغازي ج٢/ ٢٥٢، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج ٤ / ٣٠٧.

(٢) انظر: صحيح البخاري: (فتح الباري) ١٥/ ٢٤٣، ابن إسحق: سيرة ابن إسحق ٣١١، الواقدي: المغازي ج ١ / ٢٤٧، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٤/ ٣١٠.

(٣) البخاري: فتح الباري ج ١٥/ ٢٢٥.

(٤) انظر: صحيح البخاري (فتح الباري) ١٥/ ٢٣٥، ابن إسحق: سيرة ابن إسحاق ٣٠٧، الواقدي: المغازي ج ١ / ٢٤٠ـ٢٤٣، ٢٦٨.

المسلمين فقام الصحابي أنس بن النضر رضي الله عنه فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قتل محمد رسول الله. قال: فما تصنعون بالحياة بعده قوموا فموتوا على مامات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قتل رضي الله عنه فوجد به يومئذ سبعين طعنة فماعرفه إلا أخته ببنانه (١).

واستشهد جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ وصل عددهم إلى السبعين رجلاً، منهم عمه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه قتله وحشي وهوغلام حبشي (٢)، وسعد بن الربيع (٣)، ومصعب بن عمير (٤)، وعبدالله بن جحش (٥) وحنظلة الغسيل وغيرهم، رضي الله عنهم أجمعين والتجأ الرسول ومن معه من الصحابة إلى الشعب، وعلا أبو سفيان الجبل على الرسول ومن معه فقال رسول الله ﷺ: اللهم لاينبغي لهم أن يعلونا، فقاتل عمر بن الخطاب وبعض الصحابة ورموهم بالحجارة حتى أنزلوهم، فقال أبو سفيان: أفي القوم محمد؟فقال ﷺ لاتجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثم قال: أفي القوم عمر بن الخطاب؟... ثم قال أبو سفيان إن هؤلاء قد قتلوا ولوكانوا أحياء لأجابوا، فلم يتمالك عمر بن الخطاب رضي الله عنه

---

(١) ابن إسحق: سيرة ابن إسحق ٣٠٩، الطبري: تاريخه ج ٣ / ١٨.

(٢) انظر: باب مقتل حمزة عند البخاري (فتح الباري) ج١٥ / ٢٤٥،، ابن إسحق: سيرة ابن إسحق ٣٠٨ الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٤/ ٣١٨.

(٣) الواقدي: المغازي ج١/ ٢٩٣، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٤/ ٣٢٦.

(٤) انظر: البخاري (فتح الباري) ج ١٥ / ٢٢٩.

(٥) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج ٤ / ٣٢٢.

نفسه فقال : كذبت ياعدو الله أبقى الله لك مايخزيك ، ثم قال أبو سفيان : أُعل هبل فقال ﷺ أجيبوه قالوا : ما نقول . قال : قولوا الله أعلىٰ وأجل ، فقال أبو سفيان : لنا العزىٰ ولاعزىٰ لكم ، فقال ﷺ : أجيبوه . قالوا : مانقول؟ قال : قولوا الله مولانا ولامولىٰ لكم . وقالوا لاسواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار ، ثم قال أبو سفيان : إن موعدكم بدر العام القادم (١) .

وغادرت قريش أرض المعركة ، بعد أن هلك منهم أربعة وعشرون قتيلاً ، وداوىٰ المسلمون جرحاهم وفيهم رسول الله ﷺ ، وصلىٰ الرسول ﷺ والمسلمون علىٰ الشهداء الذين بلغوا سبعين شهيداً ودفنوهم (٢) .

ثم رجع الرسول ﷺ ومن معه إلىٰ المدينة ودخلوها والنساء تبكي القتلىٰ فتأثر رسول الله ﷺ وذرفت عيناه (٣) .

وكان صلىٰ الله عليه وسلم حذراً فخشي من عودة قريش إلىٰ المدينة ، فخرج في اليوم التالي لطلب العدو وإرهابه حتىٰ لايعود إلىٰ المدينة ،

---

(١) انظر : صحيح البخاري (فتح الباري) ج ١٥/ ٢٢٧ ، ابن إسحق : سيرة ابن إسحق ٣١٣، الواقدي : المغازي ج١ / ٢٩٧ الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج٤ / ٣٢٥ .

(٢) انظر : البخاري (فتح الباري) ج ١٥ / ٢٥٥ ، ابن إسحق : سيرة ابن إسحق٣١٣ الواقدي : المغازي ج١/ ٣٠١ ، ٣١٠ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٤/ ٣٢٦، ٣٣٠.

(٣) انظر : الواقدي : المغازي ج١/ ٣١١، ٣١٥، ٣١٦، ابن هشام : السيرة النبوية ٩٨ ، ابن حجر : (فتح الباري) ج ١٥/ ٢٥٥، ٢٥٦ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج٤/ ٣٣٤.

وقال ﷺ : «لا يخرج معنا إلا من حضر بالأمس»[١].

ووصل المسلمون إلى حمراء الأسد على مسيرة عشرة أميال من المدينة. وبقوا فيها مايزيد على ثلاثة أيام، ووصلت أخبارهم إلى قريش، وكانوا قد فكروا بالعودة للهجوم على المدينة وثناهم عن ذلك تتبع الرسول ﷺ لهم، وجعلهم يسرعون بالعودة إلى مكة[٢].

وقد نزلت آيات من القرآن الكريم تتحدث عما جرى على المسلمين في أحد ومنها قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣) ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٥٤)

---

(١) انظر: البخاري (فتح الباري) ج١٥ / ٢٥٣، (وانظر شرح ابن حجر على الحديث)، الواقدي: المغازي ج١ / ٣٣٤، ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٢/ ٤٨، ابن هشام: السيرة النبوية ٣/ ١٠١.

(٢) انظر الواقدي: المغازي ج ١ / ٤٩، ابن هشام: السيرة النبوية ج ٣/ ١٠٤، الصالحي الشامي ج ٤ / ٤٣٨ ـ ٤٤٢.

إنَّ الَّذين تولَّوْا منكُمْ يومَ الْتَقى الْجمْعانِ إنَّما اسْتزلَّهُمُ الشَّيْطانُ ببعْضِ ما كسبُوا ولقدْ عفا اللَّهُ عنْهمْ إنَّ اللَّه غفورٌ حليمٌ ﴾ [آل عمران الآيات : ١٥٢ ـ ١٥٥] . ثم يقول الله سبحانه وتعالى في موضع آخر من السورة نفسها : ﴿أوَ لمَّا أصابتْكُم مُّصيبةٌ قدْ أصبْتم مثْليْها قُلْتمْ أنَّىٰ هذا قُلْ هُو منْ عند أنفُسكُمْ إنَّ اللَّه علَىٰ كُلِّ شيْءٍ قديرٌ (١٦٥) وما أصابكُمْ يوْم الْتقى الْجمْعانِ فبإذْن اللَّه وليعْلم الْمُؤْمنين (١٦٦) وليعْلم الَّذين نافقُوا وقيل لهُمْ تعالوْا قاتلُوا في سبيلِ اللَّه أو ادْفعُوا قالُوا لوْ نعْلمُ قتالاً لاتَّبعْناكُمْ هُمْ للْكُفْر يوْمئذٍ أقْربُ منْهُمْ للإيمان يقُولُون بأفْواههم مَّا ليْس في قُلُوبهمْ واللَّهُ أعْلمُ بما يكْتُمُون (١٦٧) الَّذين قالُوا لإخْوانهمْ وقعدُوا لوْ أطاعُونا ما قُتلُوا قُلْ فادْرءُوا عنْ أنفُسكُمُ الْموْت إن كُنتُمْ صادقين (١٦٨) ولا تحْسبنَّ الَّذين قُتلُوا في سبيلِ اللَّه أمْواتًا بلْ أحْياءٌ عند ربهمْ يُرْزقُون (١٦٩) فرحين بما آتاهُمُ اللَّهُ من فضْله ويسْتبْشرُون بالَّذين لمْ يلْحقُوا بهم مّنْ خلْفهمْ ألاَّ خوْفٌ عليْهمْ ولا هُمْ يحْزنُون (١٧٠) يسْتبْشرُون بنعْمةٍ مّن اللَّه وفضْلٍ وأنَّ اللَّه لا يُضيعُ أجْر الْمُؤْمنين (١٧١) الَّذين اسْتجابُوا للَّه والرَّسُول منْ بعْد ما أصابهُمُ الْقرْحُ للَّذين أحْسنُوا منْهُمْ واتَّقوْا أجْرٌ عظيمٌ (١٧٢) الَّذين قال لهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاس قدْ جمعُوا لكُمْ فاخْشوْهُمْ فزادهُمْ إيمانًا وقالُوا حسْبُنا اللَّهُ ونعْم الْوكيلُ (١٧٣) فانقلبُوا بنعْمةٍ مّن اللَّه وفضْلٍ لَّمْ يمْسسْهُمْ سُوءٌ واتَّبعُوا رضْوان اللَّه واللَّهُ ذُو فضْلٍ عظيمٍ (١٧٤)﴾ [آل عمران الآيات : ١٦٥ ـ ١٧٤] .

وهكذا كانت هذه الغزوة ابتلاء لصف المؤمنين وتمحيصاً اختار الله فيها بعض الشهداء وفضح فيها بعض المنافقين، وتاب فيها على المؤمنين، فكانت من أهم غزوات الرسول ﷺ ، شهدها بنفسه وأصابه وأصاب المؤمنين الكثير من الجراح .

غزوة الأحزاب (الخندق) (١) :

كان سبب الغزوة أن جماعة من زعماء اليهود في المدينة ذهبوا إلىٰ مكة، وأخذوا يحرضون قريشاً علىٰ غزو الرسول ﷺ في المدينة، ووعدوا أنهم سوف يساعدون قريشاً حتىٰ يستأصلوا محمداً ﷺ ومن معه، وأفتوهم بأن دين قريش خير من دين محمد ﷺ، وفيهم وفي قولهم نزل قول الله تعالىٰ : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا** ﴾ [النساء آية : ٥١] (٢) . فأجابت قريش بزعامة أبي سفيان إلىٰ ذلك، ثم إن أولئك النفر من اليهود توجهوا إلىٰ غطفان وغيرها من قبائل نجد فدعوهم إلىٰ حرب المسلمين في المدينة وواعدوهم ومنوهم كما فعلوا مع قريش، وتمكن اليهود من تحزيب الأحزاب لحرب الرسول ﷺ ومن معه (٣) .

وكان الرسول ﷺ كعادته يتتبع أخبار أعدائه من قريش وغيرها، وقد جاءته عيونه بالخبر قبل تحرك القوم، وبالتالي جمع الصحابة يستشيرهم فيما ينبغي عمله في مواجهة الاعتداء القادم، خصوصاً أن الأعداء كثروا والمدينة قد لاتتحمل الدفاع ضد تلك القوات .

---

(١) وضع البخاري في صحيحه باباً سماه : (باب غزوة الخندق وهي الأحزاب) فتح الباري ج ١٥/ ٢٧٤ .

(٢) الواقدي : المغازي ج ٢/ ٤٤٢، ابن هشام : السيرة النبوية ٣/ ٢١٥، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٤ / ٥١٣، وانظر تخريج ذلك عند رزق الله : السيرة النبوية ٤٤٥ .

(٣) انظر : ابن حجر (فتح الباري) ج ١٥/ ٢٧٥ ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٢١٥، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٤٤٣، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٤/ ٥١٣ .

وكان أحد الآراء المطروحة إشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول المدينة، يمنع الفرسان والراجلة من اقتحامها وفي الوقت نفسه يمكن المسلمين من الدفاع، خصوصاً أن الوضع الجغرافي للمدينة كان مناسباً لذلك، وقد استحسن الرسول ﷺ الفكرة[(١)]، وخطط مكان الخندق المقترح، وقسم العمل فيه على الصحابة فكان نصيب كل عشرة منهم أربعين ذراعاً، وعمل الرسول ﷺ مع الصحابة في الحفر حيث كان يمسك الفأس ويحمل التراب بيديه الكريمتين.

« كان النبي ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغمر بطنه أو اغبر بطنه يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلن سكينة علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا ... إذا أرادوا فتنة أبينا

ويرفع بها صوته: أبينا أبينا»[(٢)].

وتسلل جماعة من المنافقين فارين من تأدية الواجب الملقى عليهم، وهم

---

(١) ابن حجر: فتح الباري ج ١٥/ ٢٧٥، الواقدي: المغازي ج٢/ ٤٤٥، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٤/ ٥١٤، وانظر تخريج ذلك عند د. أكرم العمري: السيرة الصحيحة ٤٢٠، د. رزق الله. السيرة النبوية ٤٤٦.

(٢) البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب. فتح الباري جـ١٥/ ٢٨٤.

الذين ذكرهم الله تعالىٰ في قوله : ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور آية : ٦٣] ، وكان المؤمنون إذا احتاج منهم الرجل إلىٰ حاجة لم ينصرف إليها حتىٰ يأذن له رسول الله ﷺ فامتدحهم الله في قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور آية : ٦٢] .

وفي أثناء حفر الخندق اعترضت للمسلمين صخرة فقام الرسول ليحطمها ، وحين ضربها برقت منها بارقة فكبر وكبر المسلمون معه ثم ضربها ثانية فبرقت فكبر وكبر المسلمون معه ، ثم ضربها ثالثة فكبر وكبر المسلمون معه وقد قال ﷺ إثر الضربة الأولىٰ : «الله أكبر ، أعطيت مفاتيح الشام والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة ، ثم ضربها الثانية فقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض ، ثم ضربها الثالثة ، وقال : الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن إني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني الساعة »(١) . فاستبشر المسلمون وبهذا تيقن ﷺ والمؤمنون معه أنهم سيغلبون أولئك الملوك وسيفتحون ديارهم ، وصدّقوا ما وعد الله ورسوله . أما

(١) رواه أحمد في مسنده ج ٤ / ٣٠٣ ، وحسنه عدد من العلماء منهم ابن حجر (انظر د . أكرم ضياء العمري : السيرة النبوية الصحيحة ج ٢ / ٤٢٣ ، ود . مهدي رزق الله أحمد : السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية ص ٤٤٩ هامش ٤٢) .

المنافقون فقد أخذوا يتهكمون بماذكره الرسول ﷺ من موعود الله : ﴿ إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُوراً ﴾ [الأحزاب آية : ١٢] .

ووصلت قريش ومعها الأحزاب ، وعددهم يصل إلىٰ عشرة ألآف مقاتل، وعسكروا حول المدينة، واستغربوا من وجود الخندق حيث لم يكن للعرب عهد به ، وعسكر الرسول ﷺ ومعه قرابة ثلاثة آلاف من المجاهدين ، بعد أن جمعوا النساء والذرية في حصون الأنصار (١) .

وكان الوقت عصيباً جداً، إذ لم يكن المسلمون يأمنون علىٰ أنفسهم ليلاً ولا نهاراً، خصوصاً أن يهود بني قريظة كانوافي ناحية من المدينة، والمسلمون قد عاهدوهم في الدفاع المشترك عن المدينة، وهم لايأمنون أن يستمر يهود علىٰ عهدهم، وبالتالي أحس المسلمون بالخطر يحدق بهم من كل جانب كما وصفهم الله في ذلك بقوله : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً ﴾ [الأحزاب آية : ١٠ ـ ١١] (٢) .

وبدأت قوات الاستطلاع للأحزاب بتحسس الخندق لعلهم يجدون فرجة ينفذون منها، وتمكنت مجموعة من فرسان قريش من اختراق الخندق

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٢١٩ ، الواقدي : المغازي ج ٢ / ٤٤٣ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٤ / ٥٢٤ .
(٢) انظر صحيح البخاري : فتح الباري ج ١٥/ ٢٨٣ .

في أحد المواضع لكن جند الإسلام وعلىٰ رأسهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه تمكنوا من صدهم وقتل بعضهم، فأمر الرسول ﷺ بتسليم قتلىٰ قريش ولم يرض أن يأخذ مقابلاً لذلك (١) .

وقد استمر المسلمون ليلاً ونهاراً في حراسة الخندق ومنع القوم من اختراقه ، وكان الرسول ﷺ يهتم بنفسه في حراسة المناطق الضعيفة منه . ولذلك حاول الأحزاب أن يجدوا وسيلة أخرىٰ يفسدوا بها تحصن المسلمين، وكان مع قريش رجال من يهود علىٰ رأسهم حيي بن أخطب ، الذي توجه إلىٰ يهود بني قريظة في حصونهم، وبذل جهوداً مختلفة من المكر والحيل حتىٰ تمكن من إقناع زعيمهم بنقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وقد جاءت عيون النبي ﷺ بخبر زيارة [حيي بن أخطب] لبني قريظة ونقضهم للعهد مع المسلمين ووعدهم لقريش بالتعاون معهم ضد النبي ﷺ والمؤمنين معه، حزن الرسول ﷺ لهذا الخبر، ولكنه أراد أن يتأكد منه بنفسه، وفي الوقت نفسه حرص علىٰ أن لايعلم به أحد من المسلمين حتىٰ لايفت في عضدهم ويؤثر علىٰ قواهم المعنوية، ولذلك فقد بعث الرسول ﷺ أربعة من الأنصار ممن لهم علاقة وحلف مع بني قريظة منهم [سعد بن معاذ] و[سعد بن عبادة] سيدا الأوس والخزرج ، وأمرهم بزيارة بني قريظة في حصونهم والتأكد من الخبر، وأن يكتموا الأمر عن الناس إن كان القوم قد غدروا ، وأن يلحنوا للرسول ﷺ لحناً يعرف منه الموقف، فخرج القوم إلىٰ بني قريظة، والتقوا بهم، وبحثوا

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٢٢٥ ، ابن سعد : الطبقات الكبرىٰ ج ٢ / ٦٨ ، الواقدي : ج٢/ ٤٦٤ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج٤ / ٥٣٢ ، ٥٣٦ .

معهم الأمر فأغلظ يهود في سب النبي ﷺ وسب أصحابه وقالوا : من رسول الله لاعهد بيننا وبين محمد ولاعقد، فنصحهم سعد بن معاذ وخوفهم وكان حليفاً لهم ، فردوا عليه بفحش وبذاءة، وعاد الوفد إلى الرسول ﷺ فقالوا له : عضل والقارة، يعني أن اليهود قد غدروا كغدر عضل والقارة (١) . واشتد البلاء على المسلمين وتعاون اليهود والمشركون والمنافقون في إيصال خبر غدر اليهود، وبرز النفاق وأهله على أشده ﴿ **وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا** ﴾ [الأحزاب آية : ١٣] ، واشتد البلاء على المسلمين، حيث قويت شوكة الأحزاب بانضمام بني قريظة إليهم، وحاول بعض اليهود الاعتداء على نساء المسلمين في الحصون، فدافعن عن أنفسهن دفاع الشجعان وعلى رأسهن صفية بنت عبدالمطلب عمة النبي ﷺ (٢) .

وفي هذه الظروف العصيبة، جاء إلى النبي ﷺ نعيم بن مسعود الأشجعي رضي الله عنه ـ من غطفان ـ، وكان قد قدم مع الأحزاب فالتقى برسول الله ﷺ وقال : يارسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم قومي، فمرني بما شئت، فأراد الرسول ﷺ أن يستفيد من هذا المجاهد المجهول إلى أقصى حد ممكن فقال له : إنما أنت رجل واحد فخذل عنا ما استطعت فإن «الحرب

(١) انظر : ابن حجر (فتح الباري) ج ١٥/ ٥٨٤ ، ابن هشام : السيرة النبوية ٢٢١، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٤٥٨، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٤/ ٥٢٨ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٢٢٨ ، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٤٦٠ ، ٤٦٢ ، الصالحي الشامي : سبل الهدي والرشاد ٤/ ٥٢٨ ـ ٥٢٩ .

خدعه »(١) ، فخرج نعيم بن ومسعود رضي الله عنه وقدتلقى توجيهات النبي ﷺ حتى أتى بني قريظة ، وكان على معرفة بهم منذ أيام الجاهلية فقال لهم : قد عرفتم ودي إياكم ، فقالوا : لست عندنا بمتهم ، قال : لقد ظاهرتم قريشاً وغطفان على حرب محمد ، وليسوا مثلكم البلد ، بلدكم ، به أموالكم ، وأبناؤكم ، ونساؤكم ، ولاتقدرون على أن تتحولوا منه ، وإن قريشاً وغطفان إن رأوا نهزة وغنيمة أصابوها ، وإن رأوا غيرذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين محمد ، ولاطاقة لكم به ، ثم واصل حديثه معهم : وأرى أن لاتقاتلوا حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم ثقة لكم حتى تناجزوا محمداً ولايتركوكم وحدكم ، ثم إن نعيماً نفسه أتى قريشاً فقال لزعيمها أبي سفيان بن حرب ومن معه : قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمداً ، وقدبلغني أن قريظة ندموا على فعلهم مع محمد ، وقد أرسلوا إلى محمد وقالوا له : هل يرضيك عنا أن نأخذ لك من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي منهم ؟ فأجابهم : نعم . ثم واصل نعيم حديثه متظاهراً بتحذير قريش قائلاً لهم : فإن طلبت منكم قريظة رهناً فلا تعطوهم رجلاً واحداً . ، ثم خرج إلى غطفان وقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم من بني قريظة ، وكانت غطفان وقريظة وقريش قد اتعدوا من الغد أن يبدأوا القتال ، وكان ذلك اليوم يوم سبت ، فأرسلت قريش إلى بني قريظة ليشاركوا في ذلك اليوم فقالوا : إن اليوم يوم سبت ولسنا نقاتل معكم

---

(١) من لفظ البخاري ج ١٢ / ١٢٦ .

حتىٰ تعطونا رهناً فإنا نخشىٰ أن ترجعوا إلىٰ بلادكم وتتركونا والرجل يقصدون النبي ﷺ ، فقالت قريش وغطفان : والله لقد صدقكم نعيم بن مسعود والله لاندفع لكم رجلاً واحداً . ، وقالت قريظة لقد صدقكم نعيم بن مسعود، وفشل اتفاق القوم، وساء ظن بعضهم ببعض (١) .

فجاءهم المساء ولم يعملوا شيئاً مع المسلمين . وفي الليل أرسل الله علىٰ الأحزاب ريحاً شديدة وبرداً، فجعلت تطرح خيامهم وتكفأ قدورهم ، وهي التي قال الله عنها : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا**﴾ [الأحزاب آية : ٩] . فاضطرب معسكر المشركين وسمع فيهم ضجيج (٢) .

فبعث النبي ﷺ حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ليستطلع له أخبار القوم، وقد أمره أن لايحدث شيئاً وأن لايقوم بأي عمل غير الاستطلاع حتىٰ لو أتته الفرص، فذهب حذيفة ودخل معسكر قريش، وجلس مع جمع منهم ملتفين بعبيهم حول النار، وتمكن من أن يندس بينهم دون أن يعرفه أحد، والبرد شديد والريح تعبث بهم، وكان أبو سفيان في القوم وهو حريص علىٰ عدم وجود عيون النبي ﷺ بينهم، فقال للقوم قبل أن يبدأ الحديث ليتعرف

---

(١) انظر : تفاصيل القصة في : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٢٢٩، ٢٣١، الواقدي: المغازي ج ٢/ ٤٨٠ ، ابن سعد: الطبقات ج ٢ / ٦٩ ، الصالحي الشامي: سبل الهدىٰ والرشاد ج٤/ ٥٤١ ـ ٥٤٤ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٢٣١ ، ابن سعد : الطبقات الكبرىٰ ج ٢/ ٦٩ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٤/ ٥٤٥ .

كل منكم على جليسه ، فما كان من حذيفة رضي الله عنه إلا أن بادر بسؤال الرجل الذي عن يمينه : من أنت ؟ . ثم التفت إلى الرجل الذي عن يساره وسأله : من أنت ؟ . وبذلك تجاوزه السؤال ولم ينتبه له القوم، وقد تحدث أبو سفيان في القوم وقال : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف وأخلفتنا قريظة ولقينا من شدة الريح ماترون، مايقرلنا قدر ولاتقوم لنا نار، ولايستمسك لنا بناء فارتحلوا إني مرتحل، ثم ركب أبوسفيان جمله يريد الرحيل فاستوقفه القوم ليرحلوا معه، فانسحبت قريش وأبقت بعض الفرسان لتحمي انسحابها، ثم تبعتها بقية قبائل الأحزاب .

وجاء حذيفة رضي الله عنه ليبشر رسول الله ﷺ بانسحاب القوم ، بعد أن حاصروا المدينة قرابة خمس وعشرين ليلة (١) .

وحين خلت المدينة من الأحزاب ، قال ﷺ لأصحابة : «الآن نغزوهم ولا يغزونا، نحن نسير إليهم» (٢) . وبعد ذلك سمح الرسول ﷺ بعودة المجاهدين إلى بيوتهم، وصدق الله القائل : ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً ﴾ [الأحزاب آية :

---

(١) انظر : قصة حذيفة في : فتح الباري ج ١٥/ ٢٨٤ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٣ ، الواقدي : المغازي ج٢ / ٤٨٨ ـ ٤٩٠ ، ابن سعد : الطبقات ج٢/ ٦٩ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج٤/ ٥٤٦ ـ ٥٤٩ .

(٢) البخاري فتح الباري ج ١٥ / ٢٩٠ .

٢٥]، وقد فقد المسلمون ستة شهداء [١] كما قتل من المشركين ثلاثة نفر [٢]، وقد نزلت حول أحداث هذه الغزوة سورة الأحزاب وكان مما ورد فيها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب الآيات: ٩ ـ ١٥]. ، ويقول الله تعالى في موضع آخر من السورة: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٣/ ٢٥٢، الواقدي: المغازي ج ٢/ ٤٩٥، وانظر ابن سعد: الطبقات الكبرىٰ ج ٢/ ٧٠، الصالحي الشامي: سبل الهدىٰ والرشاد ج ٤/ ٥٥٠.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ٢٥٣، الواقدي: المغازي ج ٢/ ٤٩٦، الصالحي الشامي ج ٤/ ٥٥١.

وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا (٢٢) مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣) لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا (٢٤) وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (٢٥) ﴾ [الأحزاب الآيات : ٢٠ ـ ٢٥] .

ومع رحيل الأحزاب فإن جولة المعركة لم تنته بعد ، فما أن رجع الرسول ﷺ إلىٰ بيته ووضع سلاحه حتىٰ أتاه جبريل عليه السلام فقال له : «قد وضعت السلاح !!! والله ما وضعناه، فاخرج إليهم قال ﷺ : فإلىٰ أين ؟ قال : هاهنا وأشار إلىٰ بني قريظة فخرج النبي ﷺ إليهم »[(١)] . فعلم رسول الله ﷺ أن قتال الخونة يهود بني قريظة هو أمر من الله سبحانه وتعالىٰ . فدفع لواءه إلىٰ علي بن أبي طالب[(٢)] رضي الله عنه ، وأمر بالنداء في المسلمين أن «لايصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة»[(٣)] ، ثم خرج ﷺ بنفسه للحاق بأصحابه، وعسكر الرسول ﷺ ومعه أصحابه حول حصون بني قريضة وبدأ حصارهم الذي استمر بضع عشرة ليلة أنزل الله فيها الرعب في قلوب اليهود وزلزلهم الله واشتد عليهم الخوف حتىٰ أصبحوا يطلبون بعض حلفائهم من الأوس، ولكنهم كانوا أعلم الناس بغدرهم ومكرهم برسول الله ﷺ ، حتىٰ

(١) صحيح البخاري : (فتح الباري) ج ١٥/ ٢٩٣ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ٢٣٤ ، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٤٩٩ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥ / ١٠ .

(٣) البخاري : (فتح الباري) ج ١٥/ ٢٩٤ .

أنهم في أثناء الحصار كانوا ينالون منه ﷺ (١) . ولما اشتد الحصار على يهود وأيقنوا أنه لامفر من وقوعهم في يد المؤمنين، وزلزل الله قلوبهم، أعلنوا نزولهم واستسلامهم على حكم رسول الله ﷺفجاء الأوس إلى رسول الله ﷺ يشفعون فيهم، «فرد الحكم إلى سعد بن معاذ فقال : إني أحكم فيهم أن تقتل المقاتة وأن تسبى الذرية » (٢) فقال ﷺ : « قضيت بحكم الله » (٣) . وقد اتصل بهم سعد أثناء حصار الخندق، وكان من الذين اطلعوا على غدر اليهود حيث بعثه الرسول ﷺ مع الوفد الذي اتصل بهم، فأخذ سعد العهد على الجميع بأن يقبلوا حكمه فقبلوه، ثم أعلن الحكم الصارم في حق يهود ناقضي العهد وخائني الرسول ﷺ والمؤمنين وخائني موطنهم، وهو أن تقتل مقاتلتهم وأن تسبى نساؤهم وذراريهم وأن تقسم أموالهم ، ونفذ الحكم فيهم وهم أعلم الناس باستحقاقهم لتلك العقوبة، وسلم من هذا الحكم أحد زعماء بني قريظة، وكان قد عاب على قومه نقضهم للعهد مع الرسولﷺ وقال : إني لم أشرككم في غدركم، وكان مايزال على يهوديته إلا أن رفضه لنقض العهد منعه من العقوبة (٤) ، وكانت غزوة الأحزاب وبني قريظة نصراً للمؤمنين هزم الله فيها الأحزاب لم ينالوا من المسلمين، وأظهر الله اليهود على حقيقتهم

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٢٣٤ ، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٤٩٩ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٥ / ١٢ .

(٢) البخاري : (فتح الباري) ج ١٥/ ٣٠٠ .

(٣) البخاري : (فتح الباري) ج ١٥/ ٢٩٨ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٢٣٨، الواقدي : المغازي ج٢/ ٥٠٣ .

وطهر الله المدينة من بني قريظة وغنم المسلمون أموالهم ومزارعهم فيها. وقد نزلت في بني قريظة آيات منها قوله تعالىٰ : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب آية : ٢٦ ـ ٢٧] .

فتح خيبر « ربيع الأول سنة ٧هـ » (١) :

كان وفد اليهود الذين حرضوا الأحزاب علىٰ غزو المدينة قد تحرك من خيبر ، كما أن يهود خيبر كانوا يخططون لغزو المدينة ، وقد اتصلوا ببعض القبائل لهذا الغرض حيث عقدوا حلفاً مع غطفان ، وأخذوا يعدون يهود خيبر ووادي القرىٰ وتيماء وماجاورها لضرب المدينة (٢) ، وقد تأكدت هذه المعلومات للمسلمين بعد عودتهم من غزوة الحديبية ، حيث كان من عادة الرسول ﷺ تسقط أخبار أعدائه ومتابعتها ، وكانت أحزاباً جديدة ، فاستعد المسلمون لهذا الأمر ، وفي الوقت نفسه كان يهود خيبر ، يبثون الدعايات عن قوتهم ، ويشيعون أن لديهم قرابة عشرة آلاف مقاتل ، وأن لديهم حصوناً منيعة ، كما أنهم أخذوا يهددون المسلمين ويتوعدونهم بطريقة مباشرة وغير مباشرة بواسطة بقايا اليهود في المدينة وبعض المنافقين فيها (٣) .

---

(١) منطقة زراعية تقع شمال الحجاز كان بها سبعة حصون لليهود زمن النبي ﷺ ، انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢/ ٤٠٩ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ١٩١ ، ٢٧٣ ، ٣٣٠ ، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٥٣١ ، ٦٣٤ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٤/ ١٨٠ ، ٤٦١ .

(٣) الواقدي : المغازي ج ٢ / ٦٣٤ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥ / ١٨١ .

وقد كانت ظروف المواجهة مع قريش مناسبة، نتيجة لصلح الحديبية الذي اتفق فيه المسلمون مع قريش على أن تتوقف الحرب بينهم عشر سنوات، لكن رسول الله ﷺ والمؤمنين معه بادروا الأحزاب اليهودية في خيبر قبل أن تبادرهم، حيث أخذ المسلمون استعدادهم وتوجهوا إليهم مع رسول الله ﷺ وكانوا ألفاً وأربعمائة مقاتل(١).

وفي أثناء توجه المسلمين إلى خيبر، تحركت قبيلة غطفان من نجد لمساعدة يهود خيبر، فعمل المسلمون على خديعتهم حيث سربوا إليهم أخباراً بأن بعض المسلمين قد توجهوا للإغارة على ديارهم، فصدقت غطفان الخبر، ورجعت إلى ديارها تاركةً يهود خيبر (٢)، وفي الوقت نفسة فإن الرسول ﷺ تعمد أن ينزل على خيبر من ناحية الشام (٣)، أي في موقع بينها وبين ديار غطفان ليقف في وجه أي احتمال لغطفان أو ليهود شمال الحجاز في الوصول إلى ساحة المعركة أو الاتصال بيهود خيبر. وصل المسلمون ليلاً إلى قرب خيبر فعسكروا ولم يتعرضوا لهم بأذى في الليل(٤)، وعندما توجه اليهود في الصباح إلى مزارعهم فوجئوا بالمسلمين فرجعوا إلى حصونهم وهم يرددون «محمد والخميس» يقصدون الجيش، وكان مما قال ﷺ: «خربت خيبر إنا إذا

---

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج ٢ / ١٠٧.

(٢) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٣ / ٣٣٠، الواقدي: المغازي ج٢/ ٦٥٠، وانظر: رزق الله: السيرة الصحيحة ٥٠١.

(٣) الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج ٥ / ١٨٤.

(٤) البخاري: (فتح الباري) ج ١٥/ ٤٥، ابن هشام: السيرة النبوية ج ٣/ ٣٣٠، الواقدي: المغازي: ج٢ / ٦٤٣.

نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين »[١] .

كانت حصون اليهود بخيبر عديدة، وقد توزع المسلمون عليها لمحاصرتها، وكانوا يترامون بالنبل مع اليهود حتىٰ أصيب عدد من المسلمين من جراء ذلك [٢] ، وقد كان الرسول ﷺ حريصاً علىٰ معرفة أحوال الحصون من الداخل، فإذا أمسك المسلمون بأحد اليهود استخبروه عن الحصون الأخرىٰ[٣] ، وقد فتح المسلون الحصون الواحد تلو الآخر، ومن ضمنها حصن ناعم والصعب [٤] ، وكان حصن النطاة وهو أحد حصون خيبر لايوجد به سوىٰ عدد قليل من المدافعين عنه وعلم الرسول ﷺ أنه مليء بالأسلحة والمؤن، وأن بداخله منجنيقاً ودبابة، فإن فتحه المسلمون فستساعدهم تلك الآلات علىٰ فتح بقية الحصون، فركز المسلمون حصارهم وهجومهم علىٰ هذا الحصن حتىٰ تمكنوا من فتحه، فوجدوا فيه من الأطعمة والمؤن ما أعانهم علىٰ أعدائهم، كما أنهم استفادوا مما فيه من أسلحة مختلفة في هجومهم علىٰ بقية الحصون الأخرىٰ[٥] . وقد استعصىٰ حصن

---

(١) البخاري : الصحيح ، كتاب المغازي .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج٣/ ٣٣٤، الواقدي : المغازي ج٢/ ٦٤٣، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥/ ١٨٦ .

(٣) الواقدي : المغازي ج ٢/ ٦٤٧ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥/ ١٩١ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٣٣١ ، ٣٣٢ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥/ ١٨٧ .

(٥) الواقدي : المغازي : ج ٢ / ٦٤٧ .

(القموص) على المسلمين فبشر الرسول ﷺ المسلمين بفتحه في ما روي عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن سول الله ﷺ قال يوم خيبر : «لأعطين هذه الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال : أين علي بن أبي طالب ؟فقيل : يارسول الله هو يشتكي عينيه . قال ﷺ : فأرسلوا إليه، فأُتي به فبصق رسول الله ﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية فقال عليّ رضي الله عنهُ يارسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا . فقالَ عليه الصلاة والسلامُ : أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم »(١) ، وقد فتح الله على علي رضي الله عنه كما أخبر رسول الله ﷺ ، وتساقطت بقية حصون خيبر واحداً تلو الآخر، مما اضطر يهود آخر الأمر أن يفاوضوا رسول الله ﷺ ، واستسلموا للمسلمين على أن تحقن دماؤهم ويسمح لهم بالخروج من خيبر (٢) . وبعد أن وقع الصلح بينهم وبين المسلمين على رحيلهم اتفق المسلمون على أن يعملوا في النخيل والمزارع، على أن لهم نصف الثمرة، وأن من حق المسلمين الاستغناء عنهم متى شاءوا (٣) ، وكان من نتيجة هذه الغزوة استشهاد عشرين

---

(١) صحيح البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ١٦/ ٥٧ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٣٣٧ ، الواقدي : المغازي ج ٢ / ٦٩٠ ، ابن حجر : فتح الباري ج ١٦/ ٥٧ .

من أصحاب النبي ﷺ ، ومقتل ثلاثة وتسعين من يهود خيبر ، وقد استمر حصار وقتال أهل خيبر بضعة عشر يوماً (١) .

وبعد أن سالم اليهود رسول الله ﷺ حاولت امرأة منهم أن تسم رسول الله ﷺ عن طريق شاة مطبوخة أهدتها إليه ، ولكن الله سلمه منها (٢) .

وبعد أن فتح المسلمون خيبر ورتبوا أمورها توجه رسول الله ﷺ ومن معه من المجاهدين إلىٰ وادي القرىٰ فاستقبلوا المسلمين بالرمي ، فأصيب خادم لرسول الله ﷺ من جراء رميهم ، فقاتلهم المسلمون ، وفتحوا بلدهم عنوة وأبقاهم الرسول ﷺ علىٰ العمل في النخل بالنصف كفعله مع أهل خيبر (٣) ، فلما بلغت أخبار خيبر و وادي القرىٰ بقية مناطق شمال الحجاز بادرت إلىٰ مصالحة النبي ﷺ وخصوصاً فدك وتيماء وأيلة وغيرها (٤) .

---

(١) انظر أسماء الشهداء عند ابن هشام : السيرة النبوية ج ٢ / ٣٤٣ ، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٦٩٩ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥/ ٢٢٤ .

(٢) البخاري : (فتح الباري) ج ١٢/ ٢٦١ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٣٣٧ ، الواقدي المغازي ج٢/ ٦٧٧ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥ / ٢٠٨ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٣٣٨ ، الواقدي : المغازي ج ٢ / ٧٠٩ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥ / ٢٢٩ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٣٥٣ ، الواقدي : المغازي ج ٢ / ٧٠٦ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥ / ٢١٤ .

(تيماء) بليد صغيرة بين الشام ووادي القرىٰ علىٰ طريق الحج الشامي ، وقد اشتهرت بحصن الأبلق ، وكان يقطنها جماعة من اليهود زمن الرسول ﷺ . انظر : البكري معجم ما استعجم ج١/ ٣٢٩ وياقوت الحموي : معجم البلدان ج ٢ / ٦٧ . =

غزوة مؤتة « جمادى الأولى سنة ٨هـ » :

بعد فتح خيبر كتب رسول الله ﷺ كتباً إلىٰ الملوك والأمراء ليبلغهم دعوة الله ، وكانت إحدىٰ هذه الرسائل موجهة إلىٰ حاكم [بصرىٰ] بالشام ، وقد أعطىٰ الرسول ﷺ هذه الرسالة إلىٰ أحد الصحابة ليحملها إلىٰ ملك بصرىٰ من قبل [هرقل] (الحارث بن أبي شمر الغساني)، ولكن أحد أمراء غسان في الشام ويدعىٰ (شرحبيل بن عمرو الغساني) قبض علىٰ مبعوث النبي ﷺ ، فلما علم أنه يحمل رسالة من النبي ﷺ قتله ، مع أن الرسل لاتقتل عادة (١) .

ولما علم النبي ﷺ بمقتله غضب ، وجمع جيشاً قوامه ثلاثة آلاف من المسلمين ، وأمر عليهم مولاه زيد بن حارثة ، فإن قتل فيليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فإن قتل فعبدالله بن رواحه رضي الله عنه (٢) ، فإن قتل

=(أيلة) تقع شمال بلاد الشام وهي ميناء علىٰ خليج العقبة وتسمىٰ حالياً أيلات « انظر ياقوت الحموي معجم البلدان ج١/ ٢٩٢ .

(فدك) من أعمال المدينة بينها وبين خيبر مسيرة يومين « انظر : البكري معجم ما استعجم ج ٣/ ١٥ ١٠ » .

(١) انظر : الواقدي : المغازي ج ٢/ ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ابن سعد : الطبقات الكبرىٰ ج٢/ ١٢٨ ، ويرىٰ د. أكرم العمري في كتابه السيرة الصحيحة ج٢/ ٤٦٧ ، ود. رزق الله في كتابه : السيرة الصحيحة٥٤٣ ضعف هذا الخبر ، وعلىٰ أي حال فإن رسول الله ﷺ كان يتطلع إلىٰ الجهاد ضد الروم ويبشر به أصحابه في فترات سابقة لهذه الغزوة وإن كان هناك سبب معين في توقيت الغزوة فالجهاد في الأصل ماض ضد الروم وغيرهم وهو السبب الأول فيها وفي غيرها من الغزوات .

(٢) البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ٩٨ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٣٧٣ .

فليرتض المسلمون بينهم رجلاً فيجعلوه عليهم(١) .

وكان خالد بن الوليد رضي الله عنه مع الجيش حديث عهد بإسلام جندياً عادياً في صفوف المجاهدين ، وأمر الرسول ﷺ الجيش بالتوجه إلىٰ أطراف الشام وتأديب وتهييب القبائل النصرانية العربية ، وإظهارقوة المسلمين والعودة مرة أخرىٰ إلىٰ المدينة ، وقبل أن يتحرك الجيش التقىٰ بهم رسول ﷺ وأمرهم بتقوىٰ الله ، وذكرهم ببعض تعاليم دينهم في الحرب ، ثم سلم الراية إلىٰ زيد بن حارثة رضي الله عنه وشيعهم وودعهم (٢) .

وسلك الجيش طريقه إلىٰ أطراف بلاد الشام(٣) ، وكان هذا يعني تحرشاًمباشراً لأول مرة بمملكة الروم وحدودها ، وقد علم الروم والغساسنة بتحرش الجيش فأعدوا له جيشاً آخر لمقابلته اشترك فيه متنصرة العرب من لخم وبهراء وجذام وبلي ، وكان ذلك الجيش يزيد علىٰ مائة ألف مقاتل ، وقد عسكرت جيوش الروم في أرض البلقاء في الأردن حالياً ، وقد علم جيش المسلمين بذلك التجمع ، فأرادوا أن يكتبوا للرسول ﷺ لعله أن يمدهم بمزيد من المجاهدين(٤) ، ولكن الوقت كان قصيراً والعدو قريب ولن يمهلهم ،

---

(١) الواقدي : المغازي ج ٢ / ٧٥٦ ابن سعد : الطبقات الكبرىٰ ج ٢ / ١٢٨ .

(٢) انظر ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٣٧٣ ، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٧٥٦ ، ابن سعد : الطبقات الكبرىٰ ج ٢/ ١٢٨ .

(٣) وضع البخاري في صحيحه باباً سماه : (باب غزوة مؤته من أرض الشام) انظر : فتح الباري ج ١٦ / ٩٧ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٣٧٥ ، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٧٦٠ .

وأبطال المسلمين يشجع بعضهم بعضاً على القتال فالتقوا مع الروم في مكان يسمى مؤتة (١) ، فقاتلوا قتال الأبطال وكان حامل الراية زيد بن حارثة رضي الله عنه « أخذ الراية زيد فأصيب ، ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ عبد الله بن رواحة فأصيب » (٢) ، فأخذ الراية أحد الأنصار ودعا الناس إلى الاجتماع ، ثم دفع الراية إلى خالد بن الوليد (٣) الذي تمكن بعون الله ثم بخبرته العسكرية من إعادة تنظيم صفوف المسلمين وقيادتهم في القتال ، ومن ثم الانسحاب بهم في خطة محكمة «حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم»(٤) ، وقد جنب المسلمين المزيد من الخسائر ، حيث إنه رغم الفارق الكبير بين جيش الأعداء وجيش المسلمين فإن خسائر المسلمين كانت خمسة عشر شهيداً (٥) ، وهذا في تصوري يعد نصراً للمسلمين ، مقارنة بموازين القوى في هذه المعركة ، وقد كان الرسول ﷺ يثني خيراً على أولئك الشهداء ويقول عنهم : « مايسرني أومايسرهم أنهم عندنا»(٦) .

وقد عاد الجيش بعد ذلك إلى المدينة ، يقوده سيف الله خالد بن الوليد رضي الله عنه حيث كانت هذه أول معركة جهادية له في صفوف المسلمين بعد

---

(١) تقع مؤته في بلاد الأردن حالياً .
(٢) من رواية البخاري (فتح الباري) ج ١٦ / ١٠٠ .
(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٣٧٩ .
(٤) من رواية البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٠١ .
(٥) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٣٨٨ ، الواقدي : المغازي ج ٢/ ٧٦٩ .
(٦) البخاري : (فتح الباري) ج ١٢/ ١٥٢ .

إسلامه، وقد أخبر الرسول ﷺ أهل المدينة بما جرىٰ قبل وصول الجيش ، فقد روىٰ البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه : « أن النبي ﷺ نعىٰ زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبرهم فقال : أخذ الراية زيد فأصيب ثم أخذ جعفر فأصيب ، ثم أخذ ابن رواحة فأصيب ـ وعيناه تذرفان ـ ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله حتىٰ فتح الله عليهم »(١) وهي فتح كما سماها رسول الله ﷺ .

وعند قدوم الجيش إلىٰ المدينة ، استقبلهم أهل المدينة ، وقد سمع الرسول ﷺ بعضهم يقول لهم يافرارون أفررتم وأنتم في سبيل الله ؟ فقال ﷺ : ليسوا بفُرار ولكنهم كُرار إن شاء الله (١) . وكانت لهم كرة وأي كرة وذلك في فتوح الشام في اليرموك علىٰ يد خالد بن الوليد وأمثاله رضي الله عنهم كما سنرىٰ ذلك في عهد الصديق .

فتح مكة : (٢٠ رمضان سنة ٨هـ) :

كان ضمن شروط صلح الحديبية« أن من شاء أن يدخل في عقد محمد دخل فيه ، ومن شاء أن يدخل في عقد قريش دخل فيه »، فدخلت خزاعة في عقد النبي ﷺ ، ودخلت بكرفي عقد قريش (٣) ، فاعتدت بكر علىٰ خزاعة وساعدتهم في ذلك قريش فُعد هذا نقضاً للعهد من قبل قريش، وقد

---

(١) البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٠٠ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٣٨٢ ، الواقدي : المغازي ج ٢ / ٧٦٥ .

(٣) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٣١٨ .

جاء أحد زعماء خزاعة وهو عمرو بن سالم الخزاعي فأنشد الرسول ﷺ أبياتاً يستحثه فيها على العهد ومساعدتهم بناءً على العهد وخصوصاً أن قريشاً ساعدت حلفاءها وهذا اعتداء على حلفهم مع المسلمين، وكان مما قال :

يارب إني ناشد محمدا حلف أبينا وأبيه الأتلدا (١)

إلى آخر القصيدة، فقال ﷺ: نصرت ياعمرو بن سالم(٢)، ثم جاء وفد آخر من خزاعة يطلب مناصرة النبي ﷺ فوعدهم خيراً، ثم إن قريشاً أحست بالخطر، وجاء زعيمها «أبو سفيان بن حرب» إلى المدينة ليجدد العهد مع النبي ﷺ، فدخل بيت ابنته أم المؤمنين «حبيبة بنت أبي سفيان» حيث كان صهراً للنبي ﷺ، فلما دخل البيت أراد أن يجلس على فراش النبي، فرفعته أم حبيبة عنه فقال أبو سفيان : يا بنية ما أدري أرغبت بي عن الفراش أم رغبت به عني ؟. قالت : بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، فقال : والله لقد أصابك بعدي شر، ثم إن أبا سفيان أتى النبي ﷺ فكلمه فلم يرد عليه (٣) ثم أتى أبابكر رضي الله عنه ليتوسط له عند النبي ﷺ فقال : ما أنا بفاعل، ثم كلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : أنا أشفع لكم عند رسول الله ﷺ ؟والله لو لم

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٣٩٤، ابن كثير : السيرة النبوية : ج ٣ / ٥٢٧، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٥ / ٣٠٨ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ،ج ٤ / ٣٩٥، ابن كثير : السيرة النبوية ج ٣ / ٥٢٧، (وانظر إلى تخريج ، د. أكرم العمري لها في السيرة النبوية الصحيحة ج ٢/ ٤٧٣) .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ٤/ ٣٩٧ .

أجد إلا الذر لجاهدتكم به، ثم أتىٰ علياً وعنده فاطمة رضي الله عنهما والحسن بن علي بينهما غلام صغير، فقال له علي: والله لقد عزم رسول الله علىٰ أمر لانستطيع أن نكلمه فيه، فقال لفاطمة رضي الله عنها: يابنت محمد هل لك أن تأمري ابنك هذا أن يجير الناس فيكون سيد العرب؟ فقالت: مابلغ ابني هذا أن يجير الناس. فلما اشتد الأمر عليه قال لعلي رضي الله عنه انصحني. فقال له علي: أنت سيد كنانة فقم فأجر بين الناس ثم الحق بأرض قومك، قال: أوترىٰ ذلك يغني عني شيئاً؟ قال علي رضي الله عنه: لا ولكن لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد وقال: إني قد أجرت بين الناس، فلما قدم مكه قال له أهلها والله مازاد علي علىٰ أن سخر بك(١).

ثم إن رسول الله ﷺ جهز الناس للغزو، وكان حريصاً علىٰ أن لاتعلم قريش بخبر تحركه، وأرسل إحدىٰ سراياه الطلائعية إلىٰ جهة غير مكة حتىٰ يظن الناس أنه يجهز لتلك الجهة، وفي الوقت نفسه أخبر أصحابه أنه متوجه إلىٰ مكة وطلب منهم أن يكتموا الخبر، وقال: اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتىٰ نبغتها.

وخرج الرسول ﷺ إلىٰ مكة في رمضان وخرج معه خمسة آلاف من المهاجرين والأنصار، ولحقت به جموع مسلمة من قبائل مزينة، وسُليم، وغفار، وجهينة، وتميم، وأسد حتىٰ كان مجموع جيشه حين وصل قرب

(١) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية ج ٤ / ٣٩٦، ابن كثير: السيرة النبوية ج ٣ / ٥٣١.

مكة عشرة آلاف مقاتل(١) ، نزل بهم رسول الله ﷺ مر الظهران .

وكان العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قد قابل الرسول ﷺ وهو في الطريق مظهراً إسلامه (٢) ، وقيل إنه كان يكتم إسلامه قبل ذلك بوقت طويل وله مواقف مع النبي ﷺ منذ بيعة العقبة الثانية تدل على ذلك (٣) ، وكان العباس حريصاً على إسلام قومه ، فركب بعد ذلك بغلة النبي ﷺ وأخذ يبحث عن من يبعثه إلى قريش في مكة لعلهم أن يأتوا النبي ﷺ يستأمنوه أو يسلموا ، وكان ﷺ قد أمر المسلمين أن يكثروا من نيرانهم - وكانوا في الليل - ليرعبوا أهل مكة حتى لايقاتلوا ، فأشعلت قرابة عشرة آلاف نار في وقت واحد (٤) ، فلما رأتها قريش خرج أبو سفيان ليستطلع الخبر وكان زعيمها ، فلقيه العباس رضي الله عنه عم النبي ﷺ فأمنه ، ثم أتى به النبي ﷺ فأمضى تأمين العباس إياه فلم يعرض له المسلمون بشر ، وفي الصباح جاء به العباس رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فأعلن إسلامه ، ثم إن العباس قال للنبي ﷺ : إن أبا سفيان يحب الفخر عند قومه فلو أمنت من دخل داره (٥) .

---

(١) من رواية البخاري / ابن حجر : فتح الباري ١٦/ ١١١ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٠٠ ، ابن سعد : الطبقات الكبرى ، ج ٢/ ١٣٥ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤/ ٤٠٢ ، ابن كثير : السيرة النبوية ج ٣/ ٥٤٣ .

(٣) انظر : ابن عبدالبر : الاستيعاب (بهامش الإصابة ج ٣/ ٩٥) ، ابن حجر : فتح الباري ج١٤/ ٢٢٣ ، الإصابة ج/ ٢ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢/ ٧٨ .

(٤) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٠٢ ، ابن كثير : السيرة النبوية ج ٤ / ٥٤٧ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٥/ ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٠٣ ، ابن كثير : السيرة النبوية ج ٣/ ٥٤٨ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٥ / ٣٣٠ .

وكـان النبي ﷺ حـريصاً أشـد الحرص على أن يكون دخوله إلى مكة سلمياً وأن لايراق في ذلك دم، ولذا فعند دخوله مكة قسم جيشه إلى أربعة أقسام تدخل من جهات مكة الأربع مظهرة قوتها وكافة عن الناس حتى يستسلم أهل مكة للأمر الواقع ويسلموا بسلام، وفي الوقت نفسه أعلن الرسول ﷺ: « أن من دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن »(١). وبذلك أتاح كل فرص الأمان لمن رغب فيه، ودخل رسول الله ﷺ مكة بسلام وركزت رايته في الحجون(٢)، وقد لقيت كتيبة خالد بن الوليد رضي الله عنه بعض المقاومة التي سرعان ماسقطت (٣)، وفر المشاركون فيها إلى بيوتهم أو إلى خارج مكة، وكان دخول رسول الله ﷺ دخول المتواضعين لله حيث كان مطأطئ الرأس خاشعاً لله تعالى (٤)، وكان يقرأ سورة الفتح(٥)، ثم توجه إلى الكعبة وطاف بالبيت سبعة أشواط ثم قال ﷺ: لاإله إلا الله وحده لاشريك له صدق وعده ونصر

---

(١) البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٢٢، ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤/ ٤٠٣ ، ابن كثير : السيرة النبوية ج ٣/ ٥٤٩ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٥/ ٣٣٠ .

(٢) البخاري : (فتح الباري) ج ٦ / ١١٨ .

(٣) البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١١٩ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٠٧ ، ابن كثير : السيرة النبوية ج ٣ / ٥٦٠ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٠٥ ، ابن كثير : السيرة النبوية ج ٣ / ٥٥٥ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٥ / ٣٤٢ .

(٥) البخاري (فتح الباري) ج ١٦ / ١٢٣، ابن كثير : السيرة النبوية ج ٣ / ٥٥٥ .

عبده وهزم الأحزاب وحده، ألا كل دم أو مأثرة فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ثم قال : يامعشر قريش ماتظنون أني فاعل بكم؟ قالوا : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم. فقال ﷺ قولته المشهورة: اذهبوا فأنتم الطلقاء (١) . ثم دعا بسادن الكعبة فأخذ منه المفتاح ففتحت له الكعبة(٢) فوجد بها صوراً فأمر بها فطمست، ثم دارعلى الأصنام ، وكانت ثلاثمائة وستين صنماً وكان يشير إليها ويقرأ : ﴿ **قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا** ﴾ [الإسراء آية : ٨١] ، فأسقطها جميعاً وأمر بها فحطمت (٣)، ثم بايع الرسول ﷺ من بايع من الرجال على الإسلام، ثم بُويعت النساء على الإسلام، وعلى شروط أخرى خاصة بهن (٤)، وحين حضرت صلاة الظهر رفع بلال صوت الحق من على ظهر الكعبة معلناً ألله أكبر أشهد أن لا إله إلا اله أشهد أن محمداً رسول الله . وقد كره بعض حديثي الإسلام من قريش رؤيتهم وسماعهم لذلك ثم ندموا على ماقالوا بعد أن حسن إسلامهم (٥)، وهكذا تطهرت مكة من الشرك لغير الله وانتهت قوتها المعاندة للإسلام

(١) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ج ١٦ / ١٢٩ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج٤/ ٤١١ ، ٤١٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ٣/ ٥٧٠ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج٥/ ٣٦٤ .

(٢) البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٢٨ .

(٣) ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ج ١٦ / ١٢٧ .

(٤) الصالحي الشامي : سيب الهدى والرشاد ج ٥ / ٣٧١ .

(٥) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤١٣ ، ابن كثير : السيرة النبوية ج ٤ / ٥٧٥ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٥ / ٣٧٢ .

وأصبحت أحد مدن المسلمين بل أهمها، حيث نظمها رسول الله ﷺ وعين عليها عتاباً بن أسيد أميراً.

وقد اهتم رسول الله ﷺ بتعليم أهل مكة الإسلام حيث بقي عندهم تسعة عشر يوماً (١) ، غادر بعدها لملاقاة قبيلتي ثقيف وهوازن اللتين استعدتا لقتال رسول الله ﷺ بعد أن فتح مكة، وقد كان فتح مكة سبباً عظيماً في خفة حدة العرب في حرب الإسلام، حيث دخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجاً(٢)، بعد دخول قريش فيه وسقوط أقوى قوى الشرك المعادية للإسلام.

غزوة حنين والطائف « شوال سنة ٨هـ» (٣):

تأهبت هوازن وعلى رأسها ثقيف لملاقاة المسلمين بعد أن فتحوا مكة وخرجت معهم غطفان وغيرها، وأخذوا معهم بنيهم وذراريهم ليصمدوا في القتال ومواجهة النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين(٤)، وتأكد الرسول صلى الله عليه وسلم من صحة الخبر، فخرج بجيش الفتح وهم عشرة آلاف مقاتل «كما خرج مع النبي ﷺ عشرة آلاف من الطلقاء»(٥) ـ مسلمة الفتح ـ حتى أن

(١) صحيح البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٣٢ .
(٢) انظر : البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٣٤ .
(٣) عقد البخاري باباً سماه باب قوله تعالى : ﴿ ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾ إلى ﴿ غفور رحيم ﴾ انظر : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٣٩ .
(٤) انظر : البخاري (فتح الباري) ج ١٦ / ١٧٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج٣/ ٤٣٨ .
(٥) صحيح البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٧٢ .

بعض المسلمين قد اغتروا بكثرتهم وقالوا لن نغلب اليوم من قلة ، واستعار الرسول ﷺ أسلحة من يعلى بن أمية عارية مضمونة، وكان من المؤلفة قلوبهم ، ثم أعادها إليه بعد الغزوة وشكره على ذلك (١) .

كانت هوازن قد اجتمعت في حنين يتزعمها مالك بن عوف، وقد أمر قومه أن يحملوا نساءهم وأموالهم حتى يكون ذلك دافعاً لهم على الثبات عند اللقاء، وقد عاب عليه دريد بن الصمة وكان مع هوازن شيخاً كبيراً لا يغني شيئاً، لكنه صاحب حكمة وكان مما قال له : إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه وإن كانت عليك فضحت في أهلك ومالك (٢) .

ودخل المسلمون وادي حنين ولم يكونوا يعلمون أن القوم قد كمنوا لهم، وكانوا في مطلع الصباح، وكان جيش المسلمين كثيفاً وفيه من القبائل والطلقاء وغيرهم أكثر مما فيه من المهاجرين والأنصار، وقد فوجئت جموع المسلمين بهجوم مباغت من هوازن فتفرقت طلائعهم وخصوصاً تميم والطلقاء من أهل مكة واضطربت صفوف الجيش، فثبت رسول الله ﷺ ومعه بعض المهاجرين والأنصار منهم عمه العباس وأبو بكر وعمر وعلي - رضي الله عنهم -، وانحاز يمين الجيش وجعل ينادي « فنادى نداءين لم يخلط بينهما، التفت عن يمينه فقال يا معشر الأنصار، قالوا : لبيك يارسول الله، أبشر نحن معك . ثم التفت عن يساره فقال : يامعشر الأنصار، قالوا لبيك يارسول

(١) انظر : تخريج ذلك عند : رزق الله : السيرة النبوية ٥٨٣ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣ / ٤٣٨ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٥/ ٤٦٠ .

الله، أبشر نحن معك، وهو على بغلة بيضاء، فنزل فقال : أنا عبد الله ورسوله »[١] ، أيها الناس هلموا إلي أنا رسول الله أنا محمد بن عبدالله ، ثم أمر الرسول ﷺ عمه العباس وكان جهور الصوت أن ينادي يا معشر الأنصار يا أصحاب السمرة، وكان ﷺ ينادي : «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبدالمطلب»[٢]. فلما سمع الناس نداء العباس أجابوا لبيك لبيك ، فاجتمع على رسول الله ﷺ جمع منهم فاستقبل بهم الأعداء، واشتد القتال بين المسلمين وهوازن، حتى قال ﷺ: « الآن حمي الوطيس »[٣] فهو أول من قالها[٤]، وقاتل المسلمون مع رسول الله ﷺ قتال الأبطال، وأخذ الرسول حفنة من التراب فرمى بها وجوه القوم وهو يقول : « شاهت الوجوه »[٥] فانهزموا، وبعد وقت قصير تأكدت الهزيمة في صفوف الأعداء ورجع المسلمون بالأسرى والغنائم[٦]، وقتل من الأعداء مايزيد على سبعين رجلاً، واستشهد جماعة من المسلمين[٧]، وأرسل الرسول السرايا لملاحقة المنهزمين،

(١) رواه البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٧٢ .

(٢) من رواية البخاري : (فتح الباري) ج ١٦/ ١٤٣ ، وانظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج ٣/ ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، الصالحي الشامي : سبل الهدى والرشاد ج ٥ / ٤٧١ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٤٥ ، وانظر : تخريجها في رزق الله : السيرة النبوية ٥٨٩ .

(٤) انظر السهيلي : الروض الأنف ج ٤ / ١٣٨ .

(٥) رواه مسلم : انظر : رزق الله : السيرة النبوية ٥٨٩ .

(٦) انظر البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٧٢ .

(٧) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٤٩ .

والقضاء عليهم أو تفريق قوتهم ونجحت بعوث الرسول ﷺ وأمر الرسول ﷺ بالغنائم والسبايا والأسرىٰ فجمعوا بالجعرانة (١)، وبعد أن هدأت الأمور واصل الرسول ﷺ مسيرته إلىٰ الطائف وهي المقر الرئيسي لثقيف التي جمعت بقية هوازن علىٰ حرب رسول الله ﷺ، وكانت الطائف محصنة بالأسوار، وأسوارها التي تطيف بها هي سبب تسميتها (٢)، ولذلك لم يتمكن الرسول ﷺ من اقتحامها، فحاصر الطائف نيفاً و عشرين ليلة (٣)، ونصب عليهم المنجنيق الذي أشار به سلمان الفارسي، ورماهم به ولكنه لم يؤثر فيهم (٤)، واستشهد مجموعة من الصحابة من رمي أهل الطائف للمسلمين بالنبال وغيرها، وقد حاول نفر من المسلمين اقتحام الأسوار عن طريق دبابة صنعوها من الخشب والجلود احتموا داخلها واقتربوا بها من الأسوار فرمىٰ عليها أهل الطائف قطع حديد محماة فأحرقت الجلود وأثرت في الخشب فخرج من

---

(١) انظر : ابن حجر : فتح الباري ج ١٦ / ١٦٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٨٨ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد : ج ٥/ ٤٨٩ ، د. أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج ٢/ ٥٠٤ ، رزق الله : السيرة النبوية ٥٩٦ .

(٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤/ ٩ ، وانظر : د. عبد الجبار منسي العبيدي : الطائف ودور قبيلة ثقيف العربية ١٦ .

(٣) وقد رأىٰ أقوام غير ذلك في مدة الحصار ، انظر : الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج٥/ ٥٦٥ ، د. أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج٢/ ٥٠٧ ، رزق الله : السيرة النبوية، ٥٩٦ .

(٤) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٨٣ ، الصالحي الشامي : سبل الهدىٰ والرشاد ج ٥ / ٥٦٠ ، و انظر : د. أكرم ضياء العمري : السيرة الصحيحة ج ٢/ ٥٠٩ ، رزق الله : السيرة النبوية ٥٩٥ .

بداخلها من المجاهدين فرموهم من على الأسوار بالنبل فقتلوا منهم رجالاً [(١)]، ونزل بعض رقيق أهل الطائف إلى المسلمين فأعلنوا إسلامهم فأعتقهم الرسول ﷺ [(٢)]، ثم إن رسول الله ﷺ بعد أن طال الحصار أخبر أنه لم يؤذن له في فتح الطائف، ورحل وتركها لا يأساً منها، ولكن طمعاً في أن يأتي أهلها مسلمين طوعاً من تلقاء أنفسهم، حيث دعا لهم قائلاً: «اللهم اهد ثقيفاً»[(٣)] وتوجه رسول الله ﷺ إلى مكة وتوقف في الطريق بالجعرانة، حيث مقر الغنائم والأسرى والسبايا من هوازن وأحلافهم، وفي الجعرانة، انتظر رسول الله اتصالاً من هوازن أو توبة عما جرى منهم مع المسلمين، وبعد عدة أيام من الانتظار قسم رسول الله ﷺ الغنائم والسبي على المسلمين ثم جاءت وفود هوازن معلنة إسلامها وتوبتها عما بدر منهم في حق رسول الله ومن معه من المسلمين وطلبوا من الرسول ﷺ أن يرد عليهم أموالهم وأولادهم، وقال أحد شعرائهم قصيدة طويلة يستشفع فيها برسول الله ﷺ مطلعها:

امنن علينا رسول الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخر[(٤)]

---

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ج ٤/ ٤٨٣، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج ٥ / ٥٦١ وانظر تخريج هذه الحادثة عند، د. أكرم العمري: السيرة الصحيحة ج٢/ ٥٠٩.

(٢) انظر: صحيح البخاري: (فتح الباري) ج١٦/ ١٦١، ابن هشام: السيرة النبوية ج٤/ ٤٨٥، الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج٥/ ٥٦٢.

(٣) انظر: تخريجها عند رزق الله: السيرة النبوية ٥٩٦.

(٤) انظر: القصيدة عند الصالحي الشامي: سبل الهدى والرشاد ج ٥/ ٥٧١.

فخيرهم الرسول ﷺ بين أن يأخذوا أموالهم أو أولادهم ونساءهم فاختاروا الأولاد والنساء «فقال ﷺ : معي من ترون، وأحب الحديث إلي أصدقه ، وقد كنت استأنيت بكم ، وكان أنظرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله ﷺ غير راد لهم إلا إحدىٰ الطائفتين قالوا : فإنا نختار سبينا، فقام رسول الله ﷺ فأثنىٰ علىٰ الله بما هو أهل له، ثم قال: أما بعد، فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين وإني قد رأيت أن أرد إليهم سبيهم فمن أحب منكم أن يطيب ذلك فليفعل، ومن أحب منكم أن يكون علىٰ حظه حتىٰ نعطيه إياه من أول ما يفيء الله علينا فليفعل . فقال الناس : قد طيبنا ذلك يارسول الله »(١) . وقد بادر المسلمون بالتنازل عن نصيبهم من السبي تقليداً لرسول الله ﷺ، ثم أوصىٰ الرسول ﷺ هوازن، وقال لهم : أخبروا مالك بن عوف ـ زعيم هوازن ـ أنه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله ومائة بعير، فخرج من الطائف سراً وأتىٰ رسول الله ﷺ، فأسلم وحسن إسلامه وعينه الرسول ﷺ علىٰ من أسلم من القبائل التي حول الطائف، وأصبح يغير بهم علىٰ سرح مشركي ثقيف حتىٰ ضيق عليهم(٢)، وحينما قسم الرسول ﷺ الغنائم أعطىٰ منها القبائل والمؤلفة قلوبهم من مسلمة الفتح وغيرهم ولم يعط الأنصار منها شيئاً ، فوجد بعضهم في نفسه فجمعهم الرسول ﷺ منفردين، وخطبهم« وكان مما قال : يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي ، وكنتم عالة فأغناكم

---

(١) من حديث البخاري (فتح الباري) ج ١٦ / ١٤٥ ـ ١٤٧ .

(٢) ابن هشام : السيرة النبوية ج ٤ / ٤٩١ ، ابن كثير : السيرة النبوية ج٣ / ٦٨٣ .

الله بي ؟ . كلما قال شيئاً . قالوا : الله ورسوله أمن . قال ما يمنعكم أن تجيبوا رسول الله ؟ قال : لو شئتم لقلتم كذا وكذا . ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون بالنبي إلىٰ رحالكم؟ لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار ، ولو سلك الناس وادياً وسلكوا شعباً لسلكت وادي الأنصار وشعبها ، الأنصار شعار والناس دثار »(١) . فبكىٰ القوم حتىٰ اخضلوا لحاهم وقالوا : «بلىٰ رضينا برسول الله قسماً وحضاً . وتفرقوا »(٢) . ثم أحرم الرسول ﷺ معتمراً من الجعرانة ودخل مكة وبقي بها عدة أيام غادر بعدها إلىٰ المدينة ، وبعد عدة أشهر كثر الإسلام حول الطائف فتضايق أهله ثم قدم وفد منهم علىٰ رسول الله ﷺ وفاوض الرسول ﷺ عن قومهم ، وانتهت تلك المفاوضة بإسلامهم ودخلو مدينتهم في الإسلام وقبولهم بتحطيم الأصنام(٣) ، وبإسلام الطائف أصبحت جميع مدن الحجاز خاضعة للحكومة النبوية ويديرها أمراء عينهم رسول الله ﷺ ، وقد نزلت بعض الآيات تتحدث عن غزوة حنين ، من ذلك قول الله تعالىٰ : ﴿**لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ**﴾ (٤) .

(١) من رواية البخاري : (فتح الباري) ج ١٦ / ١٦٣ ـ ١٦٩ .

(٢) انظر : البخاري (فتح الباري) ج ١٦ / ١٧١ ، وشرح ابن حجر لما في الحديث ، ابن الأثير : الكامل ج ٤ / ٢٧٢ .

(٣) ابن هشام : السيرة النبوية ج٣ / ٥٣٧ , ٥٤١ وانظر د . أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج٢ / ٥١٧ ، د . رزق الله : السيرة النبوية ٦٥٩ .

(٤) التوبة آية ٢٥ ـ ٢٦ .

غزوة تبوك: رجب سنة ٩هـ [١] :

كانت أحداث غزوة مؤتة التي وقعت بين المسلمين والروم وأعوانهم من نصارىٰ العرب سنة ٨ هـ هي أول احتكاك بين المسلمين والروم وهي لاتزال ماثلة في ذهن الرسول ﷺ، حيث استشهد مجموعة من الصحابة . وكان عزم الرسول ﷺ علىٰ قتال الروم انطلاقاً من قوله تعالىٰ : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (التوبة : ١٢٣) ولذا فقد كانت هذه الغزوة موجهة أصلاً وبوضوح تام ضد الروم، ولذلك فإن الرسول ﷺ حينما ندب المسلمين لهذه الغزوة أخبرهم أنها متوجهة إلىٰ نواحي بلاد الروم [٢] ، فطلب منهم الاستعداد حيث أنهم سيبعدون الشقة ، وكان الجو حاراً جداً ، والبلاد مجدبة ، والناس في عسرة ، وثمار المدينة من تمر وعنب وغيرها قد طابت [٣] ، والناس ينتظرونها طوال العام ، ولذلك فإن الخروج إلىٰ تبوك كان صعباً .

وبالتالي فإن كثيراً من المنافقين قد سقطوا في مستنقع الكذب حيث كانوا

---

(١) لمزيد من التوسع حول أحداث هذه الغزوة ورواياتها ودراسة تلك الروايات انظر : عبدالقادر حبيب الله السندي : الذهب المسبوك في تحقيق روايات غزوة تبوك ، مكتبة المعلا الكويت ١٤٠٦هـ .

(٢) انظر الحديث الذي رواه البخاري عن كعب بن مالك : البخاري : (فتح الباري) ج١٦/ ٢٤٢ ، .

(٣) عنون البخاري لهذه الغزوة (باب غزوة تبوك وهي غزوة العسرة) ، فتح الباري ج١٦/ ٢٣٧ .

يعتذرون عن الخروج مع النبي ﷺ زوراً وبهتاناً ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [سورة التوبة آية : ٤٩](١)، وقد تداعى المنافقون إلى التخلف عن رسول الله ﷺ وعدم الخروج معه في زمن الحر، وقال الله عنهم : ﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾[سورة التوبة الآيتان : ٨١ ، ٨٢] .

ودعا النبي ﷺ أصحابه للنفقة في هذه الغزوة ، فتبادرأغنياء الصحابة في ذلك وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين وأنفق عثمان رضي الله عنه نفقة كبيرة كان فيها ثلاثمائة بعير وألف دينار حتى قال الرسول ﷺ ما ضر عثمان مافعل بعد ذلك» ، وقال عنه : « من جهز جيش العسرة فله الجنة »(٢) وقد جاء رجال من المسلمين إلى النبي ﷺ وهم أهل حاجة ويرغبون في الخروج مع النبي ﷺ ولكن الحاجة وعدم وجود الراحلة منعتهم من ذلك . فذكروا حاجتهم للنبي ﷺ فقال لهم : «لاأجد ما أحملكم عليه » ، فرجعوا وأعينهم تفيض من الدمع ، وجاء مُعذرون من الأعراب ليعتذروا .

---

(١) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج٤/ ٥١٦ .

(٢) من حديث البخاري (فتح الباري) ج١٤/ ١٩٥ .

وتخلف ثلاثة من الصحابة تكاسلاً ، وهم يريدون اللحاق بالرسول ﷺ لكنهم كانوا صادقين في ذكر حالهم فعفىٰ الله عنهم ونزلت فيهم آيات (١) .

كانت هذه الغزوة بحق امتحاناً للمجتمع المسلم غنيهم وفقيرهم مؤمنهم وضعاف الإيمان فيهم، كما كان للمنافقين وبقايا اليهود دور في التثبيط حيث كان لكل صنف موقف ولكل حادث حديث، وكانت هذه الغزوة آخر غزوات الرسول ﷺ، وكانت قد تقدمت به السن حيث تجاوز الستين من عمره ﷺ ، ورغم ذلك فقد حرص علىٰ أن يقودها بنفسه إذ تعد مقدمة غزوات المسلمين في بلاد الروم .

تجمع من المسلمين ثلاثون ألف مقاتل خرج بهم رسول الله ﷺ، كان منهم عشرة آلاف فارس (٢)، وهذا الجيش يعد أكبر جيش للمسلمين تجمع في حياة الرسول ﷺ، وأخذ المسلمون طريق تبوك، ومروا في طريقهم علىٰ مدائن صالح (٣)، فأمرهم النبي ﷺ بالعجلة وأن لايدخلوا بيوت القوم إلا باكين أو متباكين .

---

(١) انظر حديث كعب بن مالك عند البخاري (فتح الباري) ج١٦/ ٢٤١ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ج١٦/ ٢٤٢ ، ابن هشام : السيرة النبوية ج٤/ ٥٢٠ ، الصالحي الشامي ، وانظر د. زرق الله : السيرة النبوية ٦٢٣ ، د. أكرم العمري : السيرة الصحيحة ج٢/ ٥٣١ .

(٣) روىٰ البخاريٰ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : « لما مر النبي صلىٰ الله عليه وسلم بالحجر قال : لاتدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم . إلا أن تكونوا باكين . ثم قنع رأسه وأسرع السير حتىٰ أجاز الوادي » (فتح الباري ج١٦/ ٢٥٥) .

وقد واصل الرسول ﷺ مسيره حتىٰ وصل إلىٰ تبوك فأقام بها بضع عشرة ليلة، كان خلالها يبعث سراياه وطلائعه لمعرفة أخبار الروم، كما كان يبعثها إلىٰ المواقع المجاورة . وكان زعماء القبائل وحكام القرىٰ القريبة منه يأتون إليه، وقد أسر خالد بن الوليد رضي الله عنه في أحد سراياه أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فجاء به إلىٰ الرسول ﷺ، فعقد الذمة لنفسه ولقومه وأقر بدفع الجزية فأطلقه ﷺ (١)، كما جاء يحنة بن رؤبة صاحب أيله فدفع الجزية لرسول الله ﷺ وعقد الذمة لقومه، وجاءه أهل أذرح والجرباء، فأمنهم الرسول جميعاً وعقد لهم الذمة وكتب لهم كتباً (٢).

ويظهر أن الروم كانوا علىٰ علم بتحرك الرسول ﷺ ومن معه ووصولهم إلىٰ تبوك وإظهار قوتهم في أطراف بلاد الروم، بل إن بعضها يعد داخل حدود الروم (٣)، ومع كل هذا فإن قواتهم لم تتحرش بالمسلمين أو تحاول مصادمتهم أو عرقلتهم مع قدرتها علىٰ ذلك، ولعل مما يؤكد متابعتها للموقف بدقة أن ملك غسان قد أرسل إلىٰ [كعب بن مالك] وهو أحد المخلفين الذين تاب الله عليهم يطلب منه أن يقدم إليهم الشام وكان هذا عقيب غزوة

---

(١) ابن هشام : السيرة النبوية ج٤/ ٥٢٦ . ابن كثير : السيرة النبوية ج٤/ ٣٠ .

(٢) انظر : ابن هشام : السيرة النبوية ج٤/ ٥٢٥ , ٥٢٦ ، ابن كثير : السيرة النبوية ج٤/ ٢٩ .

(٣) نسب ابن كثير إلىٰ الإمام أحمد رواية عن وصول رسول من ملك الروم هرقل إلىٰ رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم في تبوك وتبليغه إياه رسالة منه وهي قصة عجيبة قال عن إسنادها لابأس به (انظر ابن كثير : السيرة النبوية ج٤/ ٢٧ ـ ٢٩) وانظر تلك الرواية عند أحمد في المسند ج٣/ ٤٤٢ . .

تبوك[١]، وقد وصلت معلومات ملك غسان وهو من عملاء الروم إلىٰ معرفة تامة بحالة فرد من المسلمين في هذه الغزوة، وموقف الرسول ﷺ منه ، فمن باب أولىٰ أن يكون علىٰ اطلاع بتحرك جيش الرسول ﷺ من المدينة إلىٰ تبوك، بل والإعداد لهذا الجيش قبل التحرك خصوصاً أن وجهته كانت معلنة وجواسيس الروم يصلون إلىٰ المدينة، ولعل ملك الروم كان علىٰ يقين تام بصدق الرسول ولذلك آثر عدم التعرض لهذا الجيش خوفاً منه، حيث أن هرقل ما إن تسلم رسالة الرسول واستمع إلىٰ أخباره ممن يعرفونه، حتىٰ قال لمحدثه : والله لئن كنت صدقتني «يوشك أن يملك ما تحت موضع قدمي هاتين»[٢]، وقد عاش حتىٰ شاهد المسلمين بعد ذلك يملكون ما تحت قدميه[٣].

وبعد أن أثبت الرسول ﷺ قوة المسلمين في أطراف جزيرة العرب عاد مرة أخرىٰ إلىٰ المدينة، وفي الطريق لقي الأذىٰ ﷺ من بعض المنافقين، حيث حاولت مجموعة منهم قدرت بأربعة عشر رجلاً قتل رسول الله ﷺ ، حينما كان الرسول ﷺ يسير في عقبة ليتجاوزها وأمر من ينادي في الناس : إن رسول الله أخذ العقبة فلا يأخذها أحد ـ والعقبة هي طريق ضيق في الجبل لايكاد يمر منه الراكب ـ ، وكان يقود بالرسول ﷺ حذيفة بن اليمان ويسوق به عمار بن ياسر رضي الله عنهم.

---

(١) انظر حديث كعب بن مالك عند البخاري : (فتح الباري ج١/ ٢٤٢ .

(٢) من لفظ البخاري (فتح الباري) ج١٢/ ٧١ .

(٣) انظر ص ١٢٠ من هذا الكتاب .

فأقبل مجموعة من الرجال متلثمين على رواحلهم حتى غشوا عمارا رضي الله عنه، وهو يضرب وجوه رواحلهم ليبعدهم عن التضييق على رسول الله، فقال ﷺ لحذيفة: قد. قد. وحين هبط رسول الله ﷺ قال لعمار رضي الله عنه: هل عرفت القوم؟ قال عمار: قد عرفت الرواحل والقوم متلثمون، قال له الرسول ﷺ: هل تدري ما أرادوا؟. قال عمار رضي الله عنه الله ورسوله أعلم، قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله فيطرحوه(١).

وقد عاد الرسول ﷺ إلى المدينة فلما أقبل عليها قال: « هذه طابة وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه »(٢)، وخرج النساء والصبيان لاستقبال المسلمين، وكان الصبيان ينشدون:

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا — ما دعا لله داع (٣)

وقد كانت هذه الغزوة تربية للمجتمع المسلم بكافة فئاته للمشاركة في الجهاد بالنفس والمال، كما أنها تربية للأمة كلها على بعد النظر، وعلى الطموح العالي، حيث إن الرسول ﷺ قبل أن يودع أمته إلى الرفيق الأعلى لفت نظرها إلى الروم في حركة جهادية عملية لتقوم بالفتوح في نواحيها بعد ذلك.

(١) انظر: الإمام أحمد بن حنبل: المسند ج٥/ ٣٩٠، ٣٩١، الصالحي الشامي: سبل الهدي والرشاد ج٥/ ٦٦٩.

(٢) البخاري: (فتح الباري) ج١٦/ ٢٥٦.

(٣) انظر ابن حجر: فتح الباري ١٦/ ٢٥٩، وانظر د. رزق الله: السيرة النبوية ٦٣١.

لم تنته قضايا تلك الغزوة بوصول الرسول ﷺ بل ارتبطت به قضية مسجد الضرار ، وهذا ما لا مجال لذكره الآن ، وكذلك قضية المخلفين الذين جاءوا يعتذرون إلىٰ الرسول بسبب تخلفهم عنه ، فمنهم المنافقون الذين اعتذروا بالكذب وبالباطل ففضحهم الله ، ومنهم الذين تخلفوا ولكنهم التزموا الصدق في اعتذارهم لرسول الله ﷺ وهم الثلاثة الذين خلفوا وعلىٰ رأسهم كعب بن مالك رضي الله عنه فهجرهم الرسول فترة من الوقت ثم تاب الله عليهم في قرآن يتلىٰ إلىٰ يوم القيامة [(١)]. وقد تحدثت بعض الآيات في القرآن الكريم عن غزوة تبوك في قوله تعالىٰ : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ (٣٨) إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لاَّتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ**

---

(١) انظر إلىٰ تفاصيل حال المعتذرين في حديث كعب بن مالك السابق ذكره في (فتح الباري) ج١٦/ ٢٤٢ .

الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [سورة التوبة : الآيات ٣٨ ـ ٥٢] .

ويقول تعالى أيضاً عن هذه الغزوة في السورة نفسها : ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَلا تُصَلِّ عَلَىٰ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُوْلُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُن مَّعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُل لاَّ تَعْتَذِرُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [سورة التوبة : الآيات : ٨٠ ـ ٩٦] .

ويقول الله سبحانه وتعالىٰ راضياً عن المؤمنين الذين اتبعوا نبيه في هذه الغزوة : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ

الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ
(١١٧) وَعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لاَّ مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلاَّ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ
لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ
عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَطَئُونَ
مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لا
يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً وَلا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ
كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً
فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ
لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ
غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [سورة التوبة ، الآيات : ١١٧ ـ ١٢٣] .

الفصل الثاني

عصر الخلفاء الراشدين

ميادين الفتح في فارس والروم

الفرس :

كـانت في بلاد فـارس منذ القـدم دولة قـوية مـرت بمراحـل حـضـارية مـختلفـة ، يهـمنا منهـا السنوات الأخـيرة التي سبـقت احتكـاك هذه الدولة بالإسـلام عـن طريق الفتـوح والجـهـاد . ولقـد كـانت الديانة السـائدة في دولة فارس والمناطق الخـاضعة لها هي الديانة المجوسية [١] ، وهي ديانة قائمة على عبـادة النار وتـقديسـهـا ، كـمـا وجـدت فـيـهـا ديانات أخـرى كـاليـهـودية ، والنصـرانيـة ، انـتشـرت بين العـرب الخـاضـعين لـهـا في العـراق والبـحـرين ، وغيرهما [٢] .

وكـانت هذه الدولـة تسيطر على فـارس ، وخـراسـان والعـراق ، وبعض الأجزاء من أطراف الجزيرة العربية شرقيها وجنوبيها .

وقـد قـام نظام الحكم الـفـارسي على تنظيم ملكي استـبـدادي يقـوم على التمييز بين الناس وتقسيمـهم إلى طبقـات مختـلفة لكل منهـا حدود معينة من الحقوق والامتيازات والواجبات [٣] .

---

(١) الدينوري : الأخبار الطوال ٧٠ ، ولمزيد من الاطلاع على عقائد و مذاهب المجوسية المختلفة انظر : الشهرستاني : الملل والنحل ٢٣٤ .

(٢) سهيل فاشا : لمحات من تاريخ نصارى العراق ، رفائيل أبو إسحق : تاريخ نصارى العراق ، وانظر : محمد الفيومي : في الفكر الديني الجاهلي قبل الإسلام ٦٧ .

(٣) انظر : المسعودي : مروج الذهب ج١/ ٢٨٤ .

وكان الملك الساساني الفارسي في نظرهم صاحب حق إلاهي، يستطيع أن يفرض ما يشاء من نظام، وأن يوقع ما يشاء من عقوبات في حق مخالفيه (١). كما كان الملك يشرف بنفسه على التفرقة بين الناس حسب النظام الطبقي المتبع، وكل من يخالف ذلك قد يتعرض لعقوبات تصل إلى حد القتل أحياناً، حتى أن من ينتمي إلى الأسرة الحاكمة نفسه لايستطيع تجاوز ذلك، فلو تجرأ وحاول أن يتزوج من العامة مثلاً، فإنه يتعرض لعقوبة صارمة قد تودي بحياته لخلطه الدماء المقدسة ـ كما يزعمون ـ بدماء العامة (٢).

وبناء على هذه التفرقة فقد كان الكثير من الظلم يقع على الناس في عموم أنحاء الدولة، وعلى الضعفاء منهم خصوصاً.

وقد كانت الدولة تعتمد على جيش قوي ومنظم يميز أفراده عن بقية الناس في الحقوق، والاحترام، وغير ذلك (٣).

وكان يدير دفة الحكم الملك بنفسه يساعده حكام الولايات، إضافة إلى بعض الأمراء والقواد في مختلف أقاليم الدولة، وهم في الغالب من ملاك الأراضي والقرى الواسعة، ويقومون بجباية الضرائب (٤)، من العمال

---

(١) انظر: المسعودي: مروج الذهب ج١/ ٢٧٧، د. صبحي الصالح: النظم الإسلامية ٣٠، ول ديورانت: قصة الحضارة ج٢/ م٢الشرق الأدنى ص٤١٥.

(٢) انظر: الدينوري: الأخبار الطوال ٧٥، ٧٦، د. يحيى الخشاب: تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية قبل الإسلام ٤٠.

(٣) د. يحيى الخشاب: تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية ٤٠.

(٤) د. صبحي الصالح: النظم الإسلامية ٣٥، ول ديورانت: قصة الحضارة ج٢م١/ ٤٢١.

والفلاحين وعامة الناس إلى خزينة الدولة، كي تخدم الجيش والملك وحاشيته، في ترفهم الذي لم يكن له نظير، حيث اشتهر عن ملوك الفرس جمعهم للكنوز والذخائر، وإسرافهم الشديد في الملابس والأطعمة حتى ضرب بترفهم المثل(١)، وكان هذا الترف يدفعهم إلى فرض المزيد من الضرائب على المزارعين والعامة، وبالتالي زاد شعور الناس بالظلم نتيجة ما يؤخذ منهم، إضافة إلى ما كانوا يدفعونه من ضرائب على رؤوسهم تشبه الجزية (٢).

وقد دخلت الدولة الفارسية قبيل الفتح الإسلامي في حرب شديدة مع الروم، أثرت على الدولة ودفعتها إلى فرض المزيد من الضرائب على رعاياها مما زاد من سخط الناس وإحساسهم بالظلم (٣)، ومهد ذلك للمقارنة مع عدل المسلمين عند الفتح. ومع كل ما ذكرنا فإن القوة العسكرية للفرس كانت في أشدها نتيجة لاستعداداتها في حربها مع الروم.

الروم:

من المعروف أن مصر والشام وشمال إفريقيا كانت ولايات تابعة لإمبراطورية الروم البيزنطية وقد كان المسيطر الفعلي على الحكم في هذه الإمبراطورية هو الملك نفسه (الإمبراطور) الذي اتخذ القسطنطينية عاصمة له

---

(١) انظر المسعودي: مروج الذهب ج١/ ١٩٣ ـ ١٩٤، ٣٠٣.

(٢) د. صبحي الصالح: النظم الإسلامية ٣٦.

(٣) آرثر كريستنسن: إيران في عهد الساسانيين ١١٢.

وكان له الحق في اتخاذ القرارات ، يساعده في عمله بعض اللجان الفرعية والمستشارون[١]، وكانت الولايات التابعة للدولة تحكم حكماً عسكرياً في الغالب، حيث تتوزع معسكرات الجنود على الولايات المختلفة .

وقد حدثت حروب بين الفرس والروم قبل الإسلام قوت النظام العسكري في هذه الدولة، وبالتالي زادت من الحاجة إليه، وكان هذا بالطبع على حساب العامة من الرعية الذين أصيبوا بأضرار كبيرة في العديد من الولايات في الشام ومصر والجزيرة [٢]، وغيرها نظراً للمد والجزر في الحروب الفارسية الرومية التي استمرت فترة طويلة قبيل الإسلام . كما أن نظام الضرائب المفروض في الولايات الرومية كان يشعر الناس بالإرهاق، فهناك ضرائب على الأراضي، وضرائب على الحيوانات، وضرائب على الممتلكات المختلفة، إضافة إلى الضرائب الموضوعة على الرؤوس [٣]، رغم أن الحكام والمحكومين كانوا من النصارى .

وقد ظهر خلال تلك الفترة نظام الملتزمين الذين يقومون بجباية الخراج والضرائب لأنفسهم مقابل التزامهم بمبالغ معينة يدفعونها إلى الدولة، وبالتالي زادوا في الضرائب على الناس وزادوا في الظلم حتى يستطيعوا أن يفوا بالتزاماتهم التي ضمنوها للدولة [٤] .

---

(١) ستيفن رنسيمان : الحضارة البيزنطية ص٨٩ .

(٢) د. أسد رستم : الروم ج١/ ٢٢٣ .

(٣) د. صبحي الصالح : النظم الإسلامية٢٤، ٢٦، رنسيمان : الحضارة البيزنطية١١٢ .

(٤)) نورمان بينز : الإمبراطورية البيزنطية ١٣٥، د. صبحي الصالح : النظم الإسلامية ٤٣ .

كانت الديانة العامة للدولة ورعاياها هي النصرانية، حيث كان لرجال الدين النصارىٰ مكانة خاصة في الدولة وفي المجتمعات العامة لما يتميزون به عن بقية الناس، إذ يعتبرون طبقة عليا لهم حق التصرف في أحوال الناس وفي معاملاتهم، بل وفي عباداتهم أيضاً، كما فرضت ضرائب علىٰ الناس لصالح الكنيسة ورجالها، وكان رجال الكنيسة يفرضون أوامرهم علىٰ الناس، ويعاقبون بصرامة كل من تسول له نفسه مخالفة أوامرهم [١].

وقد وجدت مذاهب نصرانية مختلفة في مملكة الروم وكثرت بينها الخلافات العقائدية، التي أدت إلىٰ المنازعات التي وصلت إلىٰ مراحل قوية من العداء، بين الكنائس، وقد تركزت مذاهب نصرانية معينة في بعض المناطق، وبالتالي وجد نوع من العداء بين بعض الولايات، وبعض الشعوب داخل دولة الروم، وقد حاول إمبراطور الروم فرض المذهب اللاهوتي السائد في القسطنطينية علىٰ بعض الولايات [٢]، وخصوصاً في مصر، مما أوجد كرهاً شديداً بين الأقباط والروم، وبالتالي فإن كثيراً من الناس في الدولة يحسون بالظلم والاضطهاد نتيجةتدخل الدولة في الشؤون الدينية، وتأييدها لبعض المذاهب ضد البعض الآخر، ونتيجة لسيطرة الكنيسة ورجال الدين فيها علىٰ الناس وتحكمهم فيهم، إضافة إلىٰ فرض الضرائب الزائدة لصالح

---

(١) د. أسد رستم: الروم ج١/ ١٣٨.

(٢) د. عبد القادر اليوسف: الإمبراطورية البيزنطية ص٩٨، نورمان بينز: الإمبراطورية البيزنطية ١٠٢، رنسيمان: الحضارة البيزنطية ١٢٨.

الدولة ولصالح الكنيسة في آن واحد مما أوجد، مناخاً خاصاً مهد للفتوح الإسلامية في تلك البلاد .

أولاً ـ خلافة أبي بكر الصديق :

حينما بويع أبو بكر الصديق رضي الله عنه بالخلافة كانت الدولة الإسلامية مضطربة في معظم أجزائها، قد أصابها التفكك نتيجة ظهور الردة على يدالكذابين المتنبئين، قبيل وفاة الرسول ﷺ، ومنهم مسيلمة الكذاب، الذي سيطر على بني حنيفة في اليمامة وما جاورها، حيث كون منهم قوة تهدد المسلمين في المدينة، ومنهم : [الأسود العنسي الكذاب] في اليمن، وقد زادت خطورة هذه المشكلة بعد وفاة الرسول صلى الله وعليه وسلم حيث ظهر متنبؤون آخرون أمثال : [طليحة بن خويلد الأسدي] في قبائل نجد، [وسجاح بنت الحارث التميمية]، ويضاف إلى أولئك بعض القبائل التي رفضت دفع الزكاة ، وبذلك عطلت أحد أركان الإسلام (١) .

وقد انشغل [أبو بكر الصديق] رضي الله عنه في بداية خلافته بأمر أولئك المرتدين ، حتى تمكن من القضاء على ردتهم، وتأديب مانعي الزكاة، وأعاد توحيد بلاد العرب تحت راية الإسلام مرة أخرى .

ثم أطلق الجيوش للفتوح في أعظم دولتين في زمانه، وهما فارس

(١) لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع راجع : الكلاعي الأندلسي : حروب الردة من ص٤٠ إلى ١٦٠، الذهبي : تاريخ الإسلام : عهد الخلفاء الراشدين ٢٧ .

والروم، والأغرب أنه رضي الله عنه بدأ الجهاد ضد هاتين الدولتين في وقت واحد، رغم أن الجيوش الإسلامية خرجت للتو من حروبها مع المرتدين، ومع ذلك فقد انطلقت في موجة عظيمة من الفتوح لم يشهد لها تاريخ البشرية مثيلاً.

حملة أسامة بن زيد :

هي أول جيوش الفتح خارج جزيرة العرب حيث كان الرسول ﷺ قد أعد جيشاً قبيل وفاته بقيادة [أسامة بن زيد] رضي الله عنه ليوجهه إلى الروم في نواحي بلاد الشام، فطعن الناس في إمارته فرد الرسول ﷺ : «إن كنتم تطعنون في إمارته فقد كنتم تطعنون في أبيه من قبل وايم الله إن كان لخليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس إلي وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده »(١). ثم مرض ﷺ ولحق بالرفيق الأعلى قبل تسييره لذلك الجيش .

ولما بويع أبو بكررضي الله عنه بالخلافة (٢)عزم على بعث جيش أسامة إلى الروم ، فحاول بعض الصحابة أن يثنيه عن هذا الأمر أويؤخره لبعض الوقت نظراً لوجود أخطار مختلفة ومتوقعة على المسلمين من الروم ومن نصارى العرب في الشام، ومن المرتدين الذين كانوا لايزالون أقوياء في تلك

---

(١)رواه البخاري : ابن حجر العسقلاني : فتح الباري ج١٦/ ٢٨٧، وانظر : الطبري : تاريخه ج٣/ ١٨٨ .

(٢) انظر تفاصيل بيعة أبي بكر في : الطبري : تاريخه ج٣/ ٢٠٧، المحب الطبري : الرياض النظرة في مناقب العشرة ج١/ ٢٣١ ـ ٢٥٢ .

الفترة، إلا أن الصديق رضي الله عنه أصر على بعث ذلك الجيش قائلاً: والذي نفسي بيده لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت جيش أسامة كما أمر رسول الله ﷺ، وفي رواية والذي نفسي بيده لأن تميل علي العرب أحب إلي من أن أحبس جيشاً بعثهم رسول الله ﷺ(١).

واستعد الجيش للخروج ورافقه أبو بكر رضي الله عنه وبعض الصحابة بداية الطريق مودعين ومشيعين، ، وقبل أن يودع أبو بكر جيش أسامة أوصاهم ببعض الوصايا مما تعلمه الصديق رضي الله عنه من قواعد الحرب والجهاد في الإسلام قائلاً لهم: «أيها الناس لاتخونوا، ولاتغلوا، ولاتغدروا، ولاتمثلوا، ولاتقتلوا طفلاً صغيراً، ولاشيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولاتعقروا نخلاً، ولاتحرقوه، ولاتقطعوا شجرة مثمرة، ولاتذبحوا شاة ولابقرة ولابعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، ....»(٢).

وقد سار هذا الجيش يحمل تلك التعليمات ووصل إلى أطراف الشام، وأغار على بعض قبائل نصارى العرب التي ساعدت الروم في غزوة مؤته، وأدبها، ثم عاد إلى المدينة بعد شهرين، وكان لخروج هذا الجيش أثر عظيم في دفع المرتدين عن المدينة، وفي بدء الجهاد ضد الروم وأتباعهم من نصارى العرب، حتى أن هرقل نفسه ملك الروم قال: ما بالى هؤلاء بموت صاحبهم

---

(١) الطبري: تاريخه ج٣/ ٢١٢، الذهبي: تاريخ الإسلام عهد الراشدين ٢٠.
(٢) صبحي الصالح: النظم الإسلامية ٣٠٩.

أن أغاروا على أرضنا (١).

موقعة اليمامة سنة ١١هـ :

خاض المسلمون بعد وفاة الرسول صلى الله عله وسلم العديد من المعارك ضد الكفرة من المرتدين في مختلف أنحاء الجزيرة العربية . حيث بلغت الجيوش التي تحركت لهذه المهمة أحد عشر جيشاً جابت الجزيرة العربية طولاً وعرضاً، وقامت بالجهاد وتنفيذ ما أوكل إليها من مهام دون تقصير .

وكان بنوحنيفة في اليمامة أتباع مسيلمة الكذاب هم أخطر المرتدين على المسلمين في المدينة، حيث كان لديهم جيش يزيد على أربعين ألف مقاتل (٢)، كما كان لديهم عصبية قوية دفعتهم للتجمع حوله وإظهار الاستعداد لقتال المسلمين، بل وحتى مهاجمة المدينة نفسها، ولذلك كان من أوائل الجيوش المرسلة إليهم جيش يقوده[عكرمة بن أبي جهل] رضي الله عنه، فلم يلق نجاحاً في مواجهته الأولى مع [مسيلمة]، ولذلك صرفه أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى منطقة أخرى، وكان قد وجه [شرحبيل بن حسنة]مدداً لعكرمة فأمره بالتريث في طريقه إلى اليمامة ووجه [أبوبكر] رضي الله عنه [خالد بن الوليد] رضي الله عنه، وأمر [شرحبيل] بالانضمام إلى[خالد بن الوليد](٣)، واقترب الجيش من اليمامة، وعماده المهاجرون وعليهم

---

(١)ابن سعد : الطبقات ج٤/ ٦٨ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٠٣ .

(٢) الطبري : تاريخه ج٣/ ٢٤٤ .

(٢) الطبري : تاريخه ج٣/ ٢٤٣ .

[أبو حذيفة] و[زيد بن الخطاب] رضي الله عنهما ويحمل رايتهم[سالم] مولى أبي حذيفة رضي الله عنهما، والأنصار وعليهم [ثابت بن قيس بن الشماس]، رضي الله عنه ولما قرب جند المسلمين علم بهم [مسيلمة] فخرج بجنده إلى (عقرباء) وعسكر بهم، وتمكن المسلمون من الوقيعة بإحدى سرايا [مسيلمة] وتقدرما بين الأربعين إلى الستين رجلاً (١)، ثم وقع اللقاء مع مسيلمة وقواته، وكان من أوائل القتلى رجل يسمى (الرجال بن عنفوة)، كان قد أظهر الإسلام والتقى بالنبي ﷺ ثم ارتد وتبع مسيلمة وزعم أن مسيلمة قد أُشرك مع النبي صلى الله عليه وسلم في الرسالة، فكان أشد فتنة لبني حنيفة من مسيلمة نفسه (٢)، واشتد القتال واجتهد فيه بنو حنيفة، وتمكنوا من فك بعض أسراهم في السرية الأولى، واهتزت صفوف المسلمين، وكادت أن تقع بهم الهزيمة، ثم تداعى المسلمون للثبات، وقاتلوا ببسالة وكان من هؤلاء ثابت بن قيس بن الشماس رضي الله عنه حامل لواء الأنصار الذي قال: بئس ماعودتم أنفسكم يامعشر المسلمين، اللهم إني أبرأ إليك مما يصنع هؤلاء يعني أهل اليمامة، وأعتذر إليك مما يصنع هؤلاء يعني المسلمين، ثم قاتل حتى قتل، وقال أبو حذيفة رضي الله عنه: يا أهل القرآن زينوا القرآن بالفعال(٣)،

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخه ١٠٦، الذهبي: تاريخ الإسلام عصر الراشدين ٤٠، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٣٦٢.

(٢) انظر: خليفة بن خياط: تاريخه ١٠٧، الطبري: تاريخه ج٣/ ٢٤٤.

(٣) الطبري: تاريخه ج٣/ ٢٤٨، الذهبي: تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٣٦٣.

واشتد القتال وكان في أوله في صالح بني حنيفة، ثم أصبح سجالاً، ثم أمر خالد بن الوليد الناس بأن يمتازوا وتكون كل فئة وقوم لوحدهم حتى يرى من أين يُؤتى الناس، وكان القتال شديداً، وأكثر الناس تحملاً من المسلمين كانوا أهل القرآن من المهاجرين والأنصار، وكان أكثر قتلى المسلمين منهم، وشعار المسلمين يومذاك: يامحمداه حيث إنهم حديثو عهد بوفاة الرسول ﷺ، وثبت مسيلمة في أول الأمر ثم أنهزم عنه قومه، وقد دعا [خالد] رضي الله عنه [مسيلمة] الكذاب فعرض عليه أشياء رفضها مسيلمة وأصر على مواصلة القتال، فقاتله خالد بنفسه حتى أزاله فهرب وهرب معه أصحابه، فركبهم المسلمون وأخذوا يقتلون فيهم، ولاحت بشائر النصر للمسلمين، فقال أصحاب مسيلمة له: أين ماكنت تعدنا؟. فقال: قاتلوا عن أحسابكم، وتنادوا الحديقة! الحديقة!، ليلجأوا إلى حديقة لمسيلمة مسورة ومحصنة، والتجأ مسيلمة ومعه سبعة آلاف من قوات بني حنيفة إلى تلك الحديقة، وأغلقوا على أنفسهم وتحصنوا بها فلحق بهم شجعان المسلمين ومعهم [البراء بن مالك] أخو خادم رسول الله أنس بن مالك رضي الله عنهما، وكان كالأسد في شجاعته، فلما رأى المسلمين حائرين في الأسوار، أقسم عليهم البراء أن يحملوه ويلقوه على السور ليحاول فتح الأبواب، وامتنع المجاهدون عن ذلك خوفاً عليه من أن يقتحم عليهم وحيداً، فلما رأوا إصراره ألقوه على السور، فقاتل حتى تمكن من فتح الأبواب للمسلمين، ودخل عليهم المسلمون الحديقة واشتد القتل في الفريقين، حتى تمكن المسلمون من قتل مسيلمة الكذاب، وقد اشترك في قتله أحد الأنصار مع وحشي قاتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، ولما علم بنوحنيفة بمقتله انهزموا وأخذتهم سيوف

المسلمين[١] . ، ثم إن أحد أسرىٰ [خالد] رضي الله عنه من زعماء بني حنيفة طلب أن يصالح خالداً عن بني حنيفة ، وخدعه بأن بقية الحصون ملأىٰ بالرجال ، وأن لهم كرة علىٰ المسلمين ، وكانت نساء بني حنيفة قد لبسن السلاح وأخذن يظهرن أنفسهن من علىٰ الحصون ، فظن المسلمون أن لجيوش بني حنيفة بقية ، فصالح ذلك الزعيم خالداً عن قومه ، بوقف الحرب وبشروط أخرىٰ ، ثم اكتشف المسلمون أنه ليس في الحصون إلا النساء والضعفاء ، فوفوا لهم ، وجاء أمر من أبي بكر رضي الله عنه بقتل كل محتلم من القوم ، ولكنه بعد أن علم بهذا الصلح أمضاه ، وقد انتهت بذلك ردة بني حنيفة وقتل كذابهم ، ثم عادوا بعد ذلك إلىٰ الإسلام [٢] وأبلىٰ بعض منهم بلاء حسناً أيام الفتوح .

وقد استشهد جمع كبير من أصحاب النبي ﷺ في هذه المعركة كان فيهم جماعة ممن شهدوا بدراً وأحداً والمشاهد مع النبي ﷺ ، وقد بلغ عدة الشهداء ثلاثمائة وستين من الأنصار ، وثلاثمائة من المهاجرين ، إضافة إلىٰ بعض الأعراب[٣] ، كما بلغت عدة من قتل من بني حنيفة عشرين ألفاً [٤] ، وكان

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ١٠٩ ، الطبري : تاريخه : ج٣/ ٢٤٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام عهد الخلفاء الراشدين ٣٩ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ١١٠ ـ ١١١ ، الطبري : تاريخ ج٣/ ٢٥٣ ، الذهبي : تاريخ الإسلام «عهد الخلفاء الراشدين » ٤٠ .

(٣) لمعرفة من استشهد من المسلمين في اليمامة راجع خليفة بن خياط : تاريخه ١١١ ـ ١١٥ ، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الخلفاء الراشدين من ٥٣ ـ ٧٣ .

(٤) الطبري : تاريخه ج٣/ ٢٥٢ ، ابن كثير : الكامل ج٢/ ٣٦٤ .

معظم قتلى المسلمين في اليمامة من حملة القرآن، فذكر المسلمون ذلك وخشوا على ضياع القرآن بكثرة القتلى من حملته، وبالتالي عملوا بعد ذلك على جمعه في المصحف الجمع الأول في عهد أبي بكر رضي الله عنه (١) .

فتح فارس والعراق :

لقد كانت دولة الفرس قوية مترامية الأطراف تمتد حدودها غرباً من الأطراف الشرقية لبلاد الشام إلى بلاد الأفغان في الشرق، ومن بحر الخزر (قزوين) في الشمال إلى بلاد السند في الجنوب، وتشمل العراق وفارس وخراسان وطبرستان وأذربيجان، وغيرها من المناطق .

وقد كانت هذه الدولة تتمتع بقوات عسكرية كبيرة ومنظمة، يصعب التحرش بها أومعاندتها، وكانت تخوض بها المعارك الكبرى ضد الروم، وتنتصر عليها في كثير من الأحيان (٢)، مما أكسبها خبرة عسكرية قوية، ومع ذلك فقد استهان بها المسلمون أمام موعود الله لهم بالنصر أو الشهادة : ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ [سورة التوبة آية : ٥٢] .

---

(١) انظر : الحديث الذي أخرجه البخاري في ابن حجر العسقلاني : فتح الباري في باب جمع القرآن ج٩/ ٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام «عهد الراشدين» ٧٩ ، المحب الطبري : الرياض النضرة ج١/ ١٦٢ .

(٢) انظر ص ٩٧ ، ٩٨ من هذا الكتاب .

وقد بدأت حركة الفتح الجهادية في فارس على يد القائد المسلم [المثنى ابن حارثة الشيباني] رضي الله عنه الذي طلب من أبي بكر الصديق رضي الله عنه أن يأذن له بمحاربة الفرس، والإغارة عليهم بمن معه من مسلمي بني قومه لقربهم منهم . وبالفعل بدأ المثنى رضي الله عنه يغير على أطراف العراق الجنوبية، وتمكن من إحراز الانتصارات العديدة على الفرس وأتباعهم من نصارى العرب ، رغم قلة جيشه من المسلمين، وكثرة جيش الأعداء [(١)] ، وأمام الظروف العسكرية المتغيرة كتب المثنى إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنهما يطلب منه المدد، وكان خالد بن الوليدرضي الله عنه قد انتهى للتو من حرب مسيلمة الكذاب في اليمامة، فكتب إليه أبو بكر الصديق رضي الله عنه آمراً إياه بالتوجه بمن معه من الجند إلى العراق لدعم المثنى بن حارثة ومساندته، فتوجه إلى العراق سنة ١٢هـ [(٢)]، كما حرك أبو بكرالصديق رضي الله عنه جيشاً آخر بقيادة [عياض بن غَنْم الفهري] ، وأمره أن يدخل العراق من أعلاه وأمر كلاً من [خالد]و[عياض] أن يتجها إلى الحيرة عاصمة مملكة العرب المناذرة ومن سبق إليها منهما كانت له الإمرة على صاحبه [(٣)] .

وقد دخل خالد العراق من الجنوب وبدأ يخضع بعض القرى المجاورة للفرات ، فاستسلمت له (أليس) و(بارسوما) (وبانقيا) [(٤)] وغيرها من

(١) الأزدي : فتوح الشام ٥٣ و٥٤، البلاذري : فتوح البلدان ٢٤٢ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخ ١١٧ ، الأزدي : فتوح الشام ٥٤ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٤٢، الطبري : تاريخه ج٤/ ٢ .

(٣)الطبري : تاريخه ج٣/ ٥ .

(٤) انظر الخارطة المرفقة بالملاحق لمعرفة تلك المواقع .

القرىٰ، وقد كان خالد يخطط لفتح (الأبلة) وهي أقوىٰ المراكز الفارسية في جنوب العراق وميناؤه المؤدي إلىٰ الهند [١]، حتىٰ أنها كانت تسمىٰ باسمه «ثغر الهند »وقبل أن يتقدم خالدٌ رضي الله عنهٌ إلىٰ الأبلة كتب إلىٰ قائدها، يدعوه إلىٰ الإسلام أو دفع الجزية وهدده إن هوأعرض عن ذلك قائلاً « وإلا فلا تلومن إلا نفسك فقد جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»[٢] . واستعد المسلمون للقاء الفرس واستعد الفرس بالمقابل فيما عرف بـ :

موقعة ذات السلاسل سنة١٢ هـ :

وهي إحدىٰ أهم المعارك التي دارت بين المسلمين والفرس في بداية الفتوح في فارس، وموقعها بالقرب من مدينة الأُبلة، وقاد المسلمين فيها خالد بن الوليد، رضي الله عنه وقاد الفرس هرمز صاحب الأبلة وسميت المعركة بهذا الاسم لأن الفرس قد ربطوا أنفسهم بالسلاسل حتىٰ لايفروا [٣]، وليثبتوا لقائدهم أنهم صامدون حتىٰ الموت، وفي بداية المعركة وقعت مبارزة فردية بين خالد بن الوليد وبين قائد الفرس حاول خلالها مجموعة من جنود

---

(١) انظر : . خليفة بن خياط : تاريخه ١١٧، ١١٨، الأزدي : فتوح الشام ٥٧، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الراشدين ٧٧، ٧٨ .

(٢) الطبري : تاريخه ج٣/ ٥ .

(٣) الأزدي : فتوح الشام ٥٩ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٤٢ ، الطبري : تاريخه ج٣/ ٥ .

الفرس مباغتة خالد بن الوليد رضي الله عنه على انفراد ، لكن المسلمين تنبهوا للأمر، وتعاونوا في الدفاع عن خالد ، وتمكن خالد بنفسه رضي الله عنه من قتل قائد الفرس وحمل المسلمون على الفرس حتى هزموهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفر جيش الفرس، وغنم المسلمون في تلك المعركة غنائم عظيمة (١).

وقد أرسل ملك الفرس جيشاً آخر مدداً لقواته في السلاسل، وصلت بعد المعركة، فعسكرت في المذار وانضمت إليها فلول المنهزمين، فتوجه إليهم خالد بن الوليد رضي الله عنه والتحم معهم فيما عرف بمعركة المذار وقتل منهم مقتلة عظيمة (٢).

موقعة الولجة، موقعة أليس سنة ١٢هـ:

بدأ ملك الفرس يخطط لمقاومة المسلمين فاستعان بنصارى العرب في بلاد العراق لحرب المسلمين فاستجابوا له، وأعد جيشاً كبيراً قوامه نصارى العرب وجنود الفرس، ولما علم خالد رضي الله عنه بتجمعهم بادر وهاجمهم في (الولجة) وانتصر عليهم، وقتل جموعاً كبيرة منهم ، جلهم من نصارى العرب، وأعطى المسلمون الأمان للفلاحين وغير المقاتلين وعاملوهم برفق وأحسنوا إليهم (٣).

(١) الطبري : تاريخه ج٣/ ٦ .

(٢)الطبري : تاريخه ج٣/ ٧ .

(٣) انظر إلى مزيد من التفاصيل حول هذه الوقعة في الطبري : تاريخه ج٣/ ٩ .

غضب نصارىٰ العرب في العراق لمقتل جموع منهم في هذه المعركة فاجتمعوا في مكان يقال له أليس، وكتبوا إلىٰ ملك الفرس يطلبون معونته، فوجه إليهم بقوات عظيمة لمساعدتهم، وقد اشتبك المسلمون مع هذه القوات ومعها نصارىٰ العرب في معركة قوية قاد المسلمين فيها خالد بن الوليد، ورغم صمود الأعداء فترة طويلة إلا أن المسلمين انتصروا عليه بفضل الله، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، حتىٰ تغير لون النهر المجاور من الدم لكثرة القتلىٰ، فسميت معركة «نهر الدم» (١).

فتح الحيرة والأنبار سنة ١٢هـ :

كانت الحيرة عاصمة ملوك العرب المناذرة، وكانت مملكتهم من أكبر الممالك العربية وأشهرها، وتضم قبائل عربية متنصرة مختلفة، وهي خاضعة للفرس (٢)، وبعد اشتباك خالد رضي الله عنه مع نصارىٰ العرب في العراق عدة مرات، توجه إلىٰ الحيرة، وقد حاولت قوات الحيرة من العرب والفرس عرقلة مسير المسلمين إلىٰ مدينتهم، حيث كان المسلمون قد ركبوا السفن بأثقالهم في نهر الفرات متوجهين إلىٰ (الحيرة) فقامت قوات الحيرة بتحويل مجرىٰ النهر ليعرقلوا السفن، فركب المسلمون خيولهم وقضوا علىٰ من حولوا النهر، ثم واصلوا مسيرهم إلىٰ الحيرة، وقد وصلت أخبار مقتل بعض

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ١١٨، الطبري تاريخه ج٣/ ٩، البلاذري : فتوح البلدان ٢٤٤، الذهبي : تاريخ الإسلام «عهد الراشدين» ص٧٨ .

(٢) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه المملكة انظر، المسعودي : مروج الذهب ج٢/ من ص٩٠ ـ ١٠٥ .

قوات أهل الحيرة إلىٰ أهلها ففت في عضدهم، ثم جاءت الأنباء بوفاة كسرىٰ فزاد خوف مرزبانها الفارسي، فترك الحيرة لأهلها من نصارىٰ العرب، الذين واصلوا تحصين بلدهم ومقاومة المسلمين، فحاصرهم المسلمون، فاضطروا إلىٰ التسليم ومصالحة المسلمين علىٰ دفع الجزية، وفتح مدينتهم أمام قوات المسلمين [١] . وتبعاً لذلك قام الأمراء العرب التابعون للحيرة في المناطق المجاورة لها بتقديم الولاء والطاعة للمسلمين .

ثم تقدم خالد رضي الله عنه ومن معه إلىٰ الأنبار، فلما وصلها المسلمون وجد أهلها قد تحصنوا وأحاطوها بخندق يحميها، فحاصرهم المسلمون وضيقوا عليهم، ووقعت بينهم وبين المسلمين عدة معارك، مما اضطر أهلها إلىٰ طلب الصلح والإقرار بدفع الجزية للمسلمين [٢]، وقد توجه خالد رضي الله عنه بعد ذلك إلىٰ (عين التمر) وهي بلدة قريبة من الأنبار، وكان بها جموع من الفرس ونصارىٰ العرب، فقاتلهم المسلمون، واستمات نصارىٰ العرب في قتال المسلمين أكثر من الفرس، وقد تمكن خالد بن الوليد من أسر قائدهم، فانهزموا واستولىٰ المسلمون علىٰ عين التمر [٣] .

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ١١٨ ،الأزدي : فتوح الشام ٦٥ ،فتوح البلدان٢٤٤ ،الطبري : تاريخه ج٣/ ١٣ ، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الراشدين » ٧٨ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ١١٨ ، الأزدي : فتوح الشام ٦٧ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٤٦ ، الطبري : تاريخه ج٣/ ١٧ ، الذهبي : تاريخه ٧٨ .

(٣) الدينوري : الأخبار الطوال ١١٢ ، الطبري : تاريخه ٣/ ٢١ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ١/ ٢٤١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٦/ ٣٤٩ .

فتح دومة الجندل سنة ١٢هـ :

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه قد بعث [عياضاً بن غنم] على رأس جيش من المسلمين للمشاركة في فتوح العراق وحدد له طريقاً يسلكه . فكان مروره على (دومة الجندل)، فحاصرها وطال حصارها، فلما فرغ خالد بن الوليد رضي الله عنه من (الحيرة) و(عين التمر)، كتب رسالة إلى عياض وهي من أوجز الرسائل قال فيها : «من خالد إلى عياض إياك أريد» ، ثم سار بجيشه إلى دومة الجندل واشترك مع عياض في حصار حصنها، ودارت بينهم وبين أهلها مجموعة من المعارك، وتمكن خالد من أسر زعيمها أكيدر بن عبد الملك فقتله، ثم تمكن المسلمون من اقتحام الحصن والاستيلاء عليه بالقوة، بعد معارك حامية بينهم وبين أهلها ومن عاونهم من نصارى العرب في شمال الجزيرة العربية (١) .

وبعد فتح دومة الجندل عاد [خالد بن الوليد] رضي الله عنه إلى العراق، وبدأ يثبت أقدام المسلمين في المناطق المفتوحة سابقاً والتي حاول أهلها الانتفاض بعد مغادرة خالد إلى دومة الجندل، كما تمكن خالد ومن معه من المسلمين رضي الله عنهم من فتح العديد من المواقع الجديدة . وانتصر المسلمون على جيش موحد في غرب العراق اشتركت فيه قوات الروم مع قوات الفرس، في مواجهة المسلمين في موقعة عرفت باسم (الفُراض) بين

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٧٤ ، الطبري : تاريخه ج٣/ ٢٢ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٣٩٥، ابن كثير : البداية والنهاية ج٦/ ٣٥٠ .

تخوم الشام والعراق [١] وقد توقفت الفتوح في العراق بقية أيام أبي بكر الصديق بعد هذه المعركة نظراً لأن خالد بن الوليد ومعظم من معه من جيوش المسلمين جاءتهم الأوامر من أبي بكر رضي الله عنه بالتوجه من العراق إلىٰ الشام للاشتراك في فتحها [٢] .

فتوح الشام(الروم) :

كان أول احتكاك بين المسلمين والروم في معركة مؤتة في السنة الثامنة للهجرة علىٰ عهد رسول الله ﷺ، وتلا ذلك بعث جيش أسامة بن زيد رضي الله عنه في أول خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ولم تكن مهمة تلك الجيوش الفتح ولكن التمهيد له [٣] .

وبعد أن أوشكت حرب الردة علىٰ النهاية في أواخر السنة الثانية عشرة للهجرة بدأ أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحشد الجيوش في المدينة من اليمن والحجاز ونجد وغيرها ليوجههم للفتوح في الشام [٤] .

بعث أبو بكر رضي الله عنه في أول الأمر [خالد بن سعيد بن العاص] رضي الله عنه في أول الجيوش الموجهة إلىٰ الشام [٥]، فتحرك إلىٰ الأطراف الجنوبية لبلاد الشام ، وبدأ يواجه نصارىٰ العرب وبعض الروم، وتمكن من

(١) الطبري : تاريخه ج٣/ ٢٦ .
(٢) الأزدي : فتوح الشام ٦٨ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٥١ ، الطبري : ج٣/ ٣٢ .
(٣) انظر ص ٩٥ من هذا البحث .
(٤) خليفة بن خياط : تاريخه ١١٩ ، الأزدي : فتوح الشام ٥ ، ١١ ، البلاذري : فتوح البلدان ١١٥ ، الطبري : تاريخه ج٣/ ٢٨ .
(٥) الأزدي : فتوح الشام ٢١ ، البلاذري : فتوح البلدان ١١٦ ، الطبري : تاريخه ج٣/ ٢٩ .

إحراز النصر في عدة مواقع، ثم طلب من أبي بكر أن يرسل بأجناد أخرىٰ إلىٰ الشام فبعث [أبو بكر الصديق] رضي الله عنه [عكرمة بن أبي جهل] بجيش آخر اشترك مع [خالد بن سعيد] في مناوشاته للأعداء، إلا أن الروم حشدوا جموعاً كبيرة لمواجهة المسلمين مما اضطر خالداً وعكرمة رضي الله عنهما إلىٰ الانسحاب جنوب بلاد الشام وانتظار توجيهات الصديق الذي كان في هذه الأثناء يواصل حشد الجيوش في المدينة ليوجهها إلىٰ الشام (١)، وقد رأىٰ أبو بكر رضي الله عنه أن يعيد تنظيم الجيوش الموجهة إلىٰ الشام، لبدء مرحلة قوية وجادة من الجهاد فكون أربعة جيوش، وعين عليها أربعة أمراء علىٰ النحو التالي:

١ ـ أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه، ووجهته حمص وحدد له طريق تبوك الجابية، دمشق.

٢ ـ يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه، ووجهته دمشق وحدد له طريق تبوك البلقاء دمشق.

٣ ـ عمرو بن العاص رضي الله عنه، ووجهته فلسطين وحدد له طريق أيلة فلسطين.

٤ ـ شرحبيل بن حسنة رضي الله عنه، ووجهته الأردن وحدد له طريق تبوك الأردن (٢).

---

(١) الأزدي: فتوح الشام ١١، ١٢، ١٣، الطبري: تاريخه ج٣/ ٢٨.

(٢) انظر خليفة بن خياط: تاريخه ١١٩، الأزدي: فتوح الشام ١١، ١٥، البلاذري: فتوح البلدان ١١٥، ١١٦، الطبري: تاريخه ج٣/ ٢٨.

عقد أبو بكر الألوية لهؤلاء الأمراء وسيرهم في أوقات متقاربة، ونصحهم بنصائح عدة، وكانت لكل أمير نصيحة خاصة حسب وجهته، وهذه النصائح في مجملها تحث على التقوى ومشاورة الجند والرفق بهم، والتعاون فيما بينهم، وعدم قتل الشيوخ والصبيان والأطفال، وعدم قتل الحيوانات أو قطع الأشجار لغير حاجة، وإقامة الصلاة، وإكرام الرسل، والصدق، والحذر، والشجاعة، ومسالمة المسالمين (١).

وقد توجه كل قائد من أولئك القواد الوجهة التي حددها أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وقد أعد الروم جيشاً كثيفاً لمواجهة المسلمين، وقسموه أربعة أقسام كل قسم يواجه جيشاً من جيوش المسلمين، ودارت المراسلات بين جيوش المسلمين بعضها مع بعض وبينهم وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنه للتنسيق فيما بين الجيش، فصدرت أوامر الصديق رضي الله عنه إلى القواد الأربعة بالتجمع وتوحيد جيوشهم لمواجهة الروم، وفي الوقت نفسه كتب أبو بكر رضي الله عنه أمراً إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه في العراق بالتوجه بنصف جيش العراق إلى الشام وبتولي جيوش الشام عند وصوله وأن يتعاون مع القواد الآخرين في ذلك (٢).

وقد توجه خالد بن الوليد رضي الله عنه ملبياً أمر أبي بكر الصديق رضي الله عنه واجتاز بالجيوش الإسلامية أخطر الطرق وأسرعها

---

(١) الأزدي: فتوح الشام ١٥، الطبري: تاريخه ج٣/ ٢٩.

(٢) الأزدي: فتوح الشام ٣٢، ٥٠، الطبري: تاريخه ج٣/ ٣١.

وأوعرها . وتعرض هو وجنوده للأخطار والمصاعب، إلا أنه وصل إلى الشام في وقت قياسي لم يتوقعه الأعداء، ومن مكان لم يتوقعوه أيضاً ، وتمكن من فتح بعض المواقع في الطريق، ومنها (تدمر) و(حوران) و(بصرى) [١]، وقد التقى خالد بن الوليد مع بقية جيوش المسلمين في الشام بالقرب من اليرموك [٢].

معركة اليرموك سنة١٣هـ : [٣]

أعد الروم جيوشاً عظيمة لمواجهة جيوش الفتح الإسلامي في الشام، وتوالت إمداداتهم بقيادة (باهان) [٤]، في الوقت الذي وصل فيه خالد بن الوليد رضي الله عنه إلي الشام قادماً من العراق، وقد تجمعت جيوش الفريقين في وادي اليرموك شمالي نهر الأردن بالقرب من جبال الجولان، وقد كان المسلمون قبل وصول خالد رضي الله عنه يتساندون في القتال، إلا أن كل جيش كانت له قيادته الخاصة فرأى خالد ضرورة توحيد قيادة الجيوش الأربعة، وأن تلاقي الروم كتلة واحدة، وصفاً واحداً ، وقد اقتنع القواد بذلك الرأي وخططوا لأن يتولى القيادة في كل يوم أحد القواد الأربعة وأن

---

(١) انظر الخارطة المرفقة في الملاحق .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ١١٩ ،الأزدي : فتوح الشام ٧٣ ، ٨١، البلاذري : فتوح البلدان ١١٨ ،الطبري : تاريخه ٣/ ٣٢ . .

(٣) لمزيد من التفاصيل حول موقع المعركة راجع : محمود شاكر : ميدان موقعة اليرموك ، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٦هـ .

(٤) انظر إلى بعض أخبار باهان في : الأزدي : فتوح الشام ١٧٥ ،ابن أعثم الكوفي : الفتوح ج١/ ١٧٤ ، ١٨٥ ، ١٨٧ ، ١٩١ .

يتولىٰ خالد بن الوليد قيادة الجيوش الموحدة في اليوم الأول [(١)] .

وقد حاول الروم التجسس علىٰ المسلمين لمعرفة أحوالهم المختلفة فأرسل قائدهم رجلاً من نصارىٰ العرب اندس في صفوف المسلمين لينقل الأخبار للروم، فأقام فيهم سراً يوماً وليلة، ثم رجع إلىٰ قائد الروم فقال له القائد ما وراءك ؟ فقال يصف المسلمين : « هم قوم يقومون الليل كله يصلون، ويصومون النهار، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، رهبان بالليل أسد بالنهار، لويسرق ملكهم لقطعوا يده ولو زنىٰ لرجموه لإيثارهم الحق، واتباعهم إياه علىٰ الهوىٰ . فقال : لئن كان هؤلاء القوم كما تزعم، وكما ذكرت لبطن الأرض خير لمن يريد قتالهم ولقاءهم من ظهرها، ولوددت أن حظي من الله أن يخلي بيني وبينهم فلا ينصرني عليهم ولا ينصرهم علي »[(٢)] .

واستعد كل من الروم والمسلمين لهذه المعركة . واختار الروم موقعاً ضيقاً ، حشرهم الله فيه بأيديهم حيث حرصوا أن تحيط بهم الوديان والجبال من اليمين واليسار، وحافة أحد الجبال من الخلف، ليتفرغوا من الأمام لقتال المسلمين بزعمهم، فكان اختيارهم لهذا الموقع تيسيراً للمسلمين، الذين تفاءلوا قائلين لبعضهم : أبشروا والله حصرت الروم [(٣)]، وأحس المسلمون بتفاؤلهم أن هذا بداية النصر لهم، وقد اختار المسلمون موقعاً لهم أمام الروم مفتوحاً ييسر لهم الحركة ، رغم أن الروم تصوروا أن توزيع مواقع القوات

---

(١) الأزدي : فتوح الشام ١٨٨ ، .

(٢) الأزدي : فتوح الشام ٢١١ .

(٣) انظر تفصيلات الموقع عند : محمود شاكر : ميدان معركة اليرموك ٢٢، ٢٤ .

كان في صالحهم .

خرج الروم في اليوم الأول للمعركة في تعبئة عظيمة، وخرج المسلمون في تعبئة أخرىٰ تولىٰ تنظيمها خالد بن الوليد، رضي الله عنه حيث قسم الجيش إلىٰ ستة وثلاثين كردوساً ، وهي تعبئة جديدة للمسلمين . كان لها دور في إرهاب الأعداء، وتقوية عزيمة المسلمين .

وقد توزع القراء بين المسلمين قبل المعركة، وأخذوا يقرأون سورة الأنفال، ويردد المجاهدون وراءهم، كما انتشر القراء الوعاظ والمذكرون الذين كانوا يحثون المسلمين علىٰ الصبر والثبات أمام الأعداء [1]، وفي الوقت نفسه كان القسس والرهبان في مقدمة جيوش الروم يحثونهم علىٰ الثبات والدفاع عن النصرانية، وقد بدأ القتال بحملة قوية وشجاعة من الروم علىٰ صفوف المسلمين كادت أن تزلزلهم لولا ثبات المسلمين وصبرهم [2] .

وقد تبايعت كتيبة من المسلمين علىٰ الشهادة قوامها أربعمائة رجل كان علىٰ رأسها [عكرمة بن أبي جهل] [3]، [والحارث بن هشام]، و[ضرار بن الأزور] رضي الله عنهم، فألقوا دروعهم، وقاتلوا ببسالة منقطعة النظير، حتىٰ قتلوا أو جرحوا جميعاً ، وتمكن المسلمون من إعادة الكرة علىٰ الروم في هجوم معاكس حتىٰ ضيقوا عليهم، فحاول فرسان الروم الفرار من المعركة

(١) الأزدي : فتوح الشام ٢١٨ ، الطبري : تاريخه ج٣/ ٣٤ .
(٢) الأزدي : فتوح الشام ٢٢٢، ٢٢٣ .
(٣) انظر : الطبري : تاريخه ج٤/ ٣٦ .

مذعورين، فترك لهم المسلمون فرجة ليفروا منها، ففر فرسان الروم منهزمين طالبين النجاة لأنفسهم، وتركوا راجلة جيشهم لمصيرهم، فضيق عليهم المسلمون وشدوا عليهم بالسيوف [(١)]، فتراجعوا إلى الوراء، ووقعت ألوف منهم في الواقوصة ـ حافة الوادي من الجبل ـ فهلكوا، وكانوا قد ربطوا بعضهم ببعض بالسلاسل مجتمعين حتى يثبتوا ولايفروا، فكانوا إذا وقع بعضهم في الواقوصة سحبوا معهم بقية من في السلسلة، فهلك الكثير منهم دون قتال، وانتصر المسلمون عليهم بعد معركة دامت يوماً وبعض اليوم [(٢)].

وقد شاركت نساء المسلمين اللاتي صحبن محارمهن في المعركة، وكان لهن دور كبير فيها [(٣)].

وكان من نتيجة المعركة استشهاد ثلاثة آلاف من المسلمين فيهم جمع من أصحاب رسول الله ﷺ، كما قتل من الروم قرابة مائة ألف مقاتل، وحينما سمع هرقل ملك الروم بنتيجة المعركة وكان في حمص ارتحل منها متجهاً إلى الشمال يائساً من بلاد الشام، وقال قولته المشهورة: سلام عليك يا سورية سلام مودع لا يرى أنه يرجع إليك أبداً [(٤)].

---

(١) الأزدي: فتوح الشام ٢٣٠.

(٢) الأزدي: فتوح الشام ٢٣١، البلاذري: فتوح البلدان ١٤١، وانظر: خليفة بن خياط: تاريخه ١٣٠، الطبري: تاريخه ج٣/ ٣٣.

(٣) الأزدي: فتوح الشام ٢٢٠، البلاذري: فتوح البلدان ١٤١، الطبري: تاريخه ج٣/ ٣٣.

(٤) الأزدي: فتوح الشام ٢٣٦، الطبري: تاريخه ج٤/ ٣٨.

وفي أثناء معركة اليرموك جاء نعي أبي بكر الصديق وتولية عمر بن الخطاب رضي الله عنهما [١]، ومعه أمر من عمر بعزل خالد بن الوليد رضي الله عنه عن قيادة الجيش، وتولية أبي عبيدة مكانه، فاستلم الرسالة أبو عبيدة رضي الله عنه ولم يخبر خالداً بعزله، فلما علم خالد بعد ذلك عتب على أبي عبيدة، حيث أن كل واحد منهما لم يكن يرغب الإمارة لنفسه، وكان سبب عزل عمر لخالد خشيته من اتكال الناس عليه حيث قال عمر رضي الله عنه: إني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا إليه فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع وأن لايكونوا بعرض فتنة، وفي رواية أنه قال: أردت أن يعلم الناس أن الله إنما ينصر دينه وليس خالداً ولا المثنى [٢].

(١) خليفة بن خياط: تاريخه ١٢٢، الطبري: تاريخه ج٤/ ٥٥، ٥٩، اليعقوبي: تاريخه ج٢/ ١٣٩.

(٢) الطبري: تاريخه ج٤/ ٢٠٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١/ ٣٧٨.

ثانيا خلافة عمر بن الخطاب

أ- فتوح فارس :

في أواخر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كانت قيادة جيوش الفتح في العراق بعد مغادرة خالد بن الوليد رضي الله عنه إلى الشام للمثنى بن حارثة الشيباني رضي الله عنه (١)، وقد حاول الفرس في هذه الفترة طرد المسلمين من المناطق التي فتحوها في العراق، فعملوا على بث الفتنة وإيقاد الثورات ضد المسلمين، وقد استجاب الفرس وكثير من نصارى العرب لهذا الأمر، مما اضطر بقايا المسلمين آخر الأمر بقيادة المثنى رضي الله عنه إلى الانسحاب من معظم المواقع المفتوحة، والتجمع قرب الحيرة (٢)، ثم قدم [المثنى] رضي الله عنه إلى المدينة يطلب من [أبي بكر] أن يرسل مزيداً من القوات لمواصلة الفتوح فيها، وقدكان [أبو بكر] في مرضه الذي مات فيه إلا أنه أوصى الخليفة من بعده عمر بن الخطاب أن يرسل المدد إلى العراق، وأن يبادر إلى ذلك، وأن لاتشغله وفاة أبي بكر عن ذلك .

وبعد وفاة أبي بكر بادر عمر رضي الله عنهما بإرسال جيش، كان على رأسه [أبو عبيد بن مسعود الثقفي] (٣)، وقد وصل أبوعبيد إلى العراق

---

(١) الأزدي : فتوح الشام ٦٨ .

(٢) الطبري : تاريخه ج٤/ ٦٤، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤١٥ .

(٣) انظر ترجمته في : ابن حجر : الإصابة ٤/ ١٣١، الذهبي : تاريخ الإسلام ج٢/ ٩ .

واشتبك مع الفرس ونصارىٰ العرب في العديد من المواقع وكانت نتائج تلك الاشتباكات في صالح المسلمين [١].

موقعة الجسر (شعبان سنة١٣هـ) :

بعد أن هزم الفرس علىٰ يد [أبي عبيد] و[المثنىٰ بن حارثة] في العديد من المواقع ، أعدوا جيشاً عظيماً واختاروا له أفضل قوادهم ، ووجهوه للقاء المسلمين في منطقة (قس الناطق) [٢] . وتقابل جيش الفرس مع جيش المسلمين قرب نهر الفرات ، وكان النهر يفصل بينهما ، فقال الفرس للمسلمين : إما أن تعبروا إلينا أونعبر إليكم ، فأشار المسلمون علىٰ [أبي عبيد] أن يبقىٰ في مكانه ، وأن يترك الفرس ليعبروا إليهم ، ولكن أبا عبيد رحمه اللهٌقال : ماهم بأجرأ منا علىٰ الموت بل نحن نعبر إليهم [٣]، واقتحم المسلمون الجسر ، ودارت بينهم وبين الفرس معركة عنيفة ، لعبت فيها الفيلة دوراً كبيراً في جانب الفرس وآذت المسلمين كثيراً ، واستشهد قائدهم أبو عبيد وجماعة من المسلمين تحت أقدامها [٤]، فحاول المسلمون الانسحاب من خلال الجسر ، ولكنهم حشروا فيه ، وقام بعض المسلمين دون إذن القيادة بقطع الجسر ليمنع انسحابهم فغرق جمع كبير من المسلمين في هذه العملية ،

---

(١) الطبري : تاريخة ج٤/ ٦١ ، البلاذري : فتوح البلدان ٤٥١ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤١٦ .

(٢) يسمي البلاذري هذه المعركة باسم قس الناطق ، انظر : فتوح البلدان ٢٥٢ .

(٣) الطبري : تاريخه ج٤/ ٦٧ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٣٨ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ٢٥٢ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٣٩ .

واستطاع المثنىٰ بن حارثة رضي الله عنه في مجموعة من شجعان المسلمين حماية الجسر حتىٰ أعيد ربطه مرة أخرىٰ، وعبر الناجون من المسلمين إلىٰ الضفة الأخرىٰ للنهر، وكانت هذه المعركة أول هزيمة تقع للمسلمين أمام الفرس في نظر الطرفين، مع أن قتلىٰ الفرس كانوا أكثر من قتلىٰ المسلمين، حيث استشهد من المسلمين أربعة آلاف شهيد وقتل من الفرس مايزيد علىٰ خمسة آلاف (١).

وبعد معركة الجسر أخذ المثنىٰ بن حارثة رضي الله عنه يقوم بمهاجمة الفرس في عدة مواقع لاستعادة هيبة المسلمين ومكانتهم ،بعد أن اهتزت في موقعة الجسر، وفي الوقت نفسه كتب إلىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه يطلب منه إرسال مزيد من القوات إلىٰ العراق (٢).

معركة القادسية سنة ١٤هـ :

بعد أن وصلت أخبار معركة الجسر إلىٰ المدينة حث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المسلمين علىٰ الخروج للجهاد في العراق، وفارس، وعسكر بنفسه خارج المدينة حتىٰ يكتمل تجمع المسلمين المتوجهين للجهاد، وقد أراد عمر رضي الله عنه أن يخرج بنفسه لقيادة الجهاد هناك، إلا أن بعض الصحابة

---

(١) الطبري : تاريخه ج٤/ ٦٨، ٦٩ ،ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٣٩، وانظر : البلاذري : فتوح البلدان ٢٥٣ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ٢٥٣، الطبري : تاريخه ج٤/ ٧٠، ٧١، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٤١ .

أقنعوه بالبقاء وأن يبعث [سعد بن أبي وقاص] وأن يبقىٰ هو في المدينة حتىٰ يتمكن من إرسال الإمدادات إلىٰ العراق وغيرها عند الحاجة (١).

وبالفعل تم تكليف [سعدبن أبي وقاص]رضي الله عنه بقيادة الدفعة الجديدة من المجاهدين إلىٰ العراق، وأصدر عمر أمراً لبقايا قوات المسلمين في العراق وعلىٰ رأسها المثنىٰ بن حارثة بالانضمام تحت قيادة سعد (٢).

وصل سعد إلىٰ العراق يقود أربعة آلاف مجاهد، فانضم إليه جرير بن عبد الله البجلي في قوات المسلمين، أما المثنىٰ بن حارثة فقد استشهد متأثراً بجراحه قبل وصول سعد، ولكنه ترك لسعد وصية رائعة في كيفية مقاتلة الفرس وأفضل السبل لذلك (٣).

وعسكر سعد بالمسلمين في القادسية قرابة شهر حتىٰ تكامل عددهم وأصبح قرابة ثلاثين ألف مجاهد، واستعد الفرس لملاقاة المسلمين بجيش قوامه قرابة (١٢٠)ألف مقاتل، وقد أمر ملك الفرس أشهر قواده رستم بالتوجه لملاقاة المسلمين، فحاول رستم مع الملك أن يعفيه من هذا الأمر ولكن يزدجرد أصر علىٰ قيادته للجيش ، وعند ذلك سار رستم حتىٰ نزل قرب المسلمين في القادسية (٤)، ثم جرت عدة اتصالات ومفاوضات بين المسلمين

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٢٥٥، الطبري : تاريخه ج٤/ ٨٣ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٥٠ .

(٢)خليفة بن خياط : تاريخه ١٢٩ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٥٥، الطبري : تاريخه ٤/ ٨٣، ابن أعثم الكوفي : الفتوح ج١/ ٧٣ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٥١ .

(٣) الطبري : تاريخه ج٤/ ٨٨ ، انظرخليفة بن خياط : تاريخه ١٢٩ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٥٦ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ٨٦ ، ابن أعثم الكوفي : الفتوح ١/ ١٣٩ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ٢٥٦، الطبري : تاريخه ج٤/ ٨١ .

والفرس، قبل المعركة، حيث طلب رستم وفوداً من المسلمين ليستمع إليهم ويحاورهم، ويسمع منهم بنفسه مباشرة، وكان من هؤلاء ربعي بن عامر الذي اشتهر كمبعوث للمسلمين في أحد هذه اللقاءات، حيث استعد رستم للقائه وأعد مجلسه الفخم لهذا الأمر وزينه بالنمارق المذهبة، والحرير، وأظهر اللآلئ والمجوهرات، ووضع الزينات المختلفة وفرشت البسط المزركشة بالذهب والفضة، وجلس رستم للمقابلة في وسطها على سرير من الذهب، وأقبل ربعي بن عامر على مجلس رستم، عليه ثياب بالية مرقعة، ويحمل سلاحاً متواضعاً ويركب فرساً صغيرة، فلما وصل إلى مجلس رستم، دخل بفرسه إلى المجلس وداس بها على الديباج والحرير، ثم انتزع شيئاً من الحرير الذي في البسط وربط به فرسه وأقبل على رستم ومعه سلاحه، فقال له الفرس: ضع سلاحك، فقال إني لم آتكم وإنما أنتم دعوتموني، فإن تركتموني هكذا وإلا رجعت، ، فأمرهم رستم أن يتركوه ، فأقبل على رستم وهو يتوكأ على رمحه فوق البسط والنمارق حتى خرق بعضها، فقال له رستم محاوراً: ماجاء بكم؟ فقال ربعي: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومن أبى قاتلناه أبداً حتى نفضي إلى موعود الله. قال رستم: وما موعود الله؟ قال ربعي: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقي. فقال رستم هل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه؟ قال ربعي: نعم ننظركم ثلاثة أيام، فطلب رستم الزيادة فقال ربعي: ماسن لنا رسول الله

أن نؤخر الأعداء عند اللقاء أكثر من ثلاث . فقال له رستم أسيدهم أنت ؟ فقال ربعي : لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد يجير أدناهم على أعلاهم . واجتمع رستم : بقواده بعد ذلك ، وتدارس الأمر معهم ، وقرروا قتال المسلمين ، وعدم قبول عرضهم الإسلام أوالجزية واستعد الفريقان للقاء (١) .

وقد اشتبك المسلمون والفرس في قتال مرير ، وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه مريضاً به دمامل تمنعه من ركوب الخيل ، وبالتالي فإنه أدار المعركة من على ظهر أحد البيوت (٢) .

وقد كان الفرس أعدوا معهم مجموعة من الفيلة لهذه المعركة بعد أن نجحوا في استخدامها يوم الجسر ، وقد أثرت في اليوم الأول في صفوف المسلمين ، حيث خافت خيول المسلمين منها ، وأحجمت عن التقدم .

فتقدم شجعان المسلمين راجلين ، وتمكنوا رغم المخاطر من الإيقاع براكبي الفيلة ، وقوادها ، وبالتالي تشردت الفيلة وخف أثرها على المسلمين ، وقد استشهد في اليوم الأول مايزيد على خمسمائة من المسلمين ، وسمي يوم (أرماث) (٣) .

---

(١) انظر إلى تفصيلات قصةربعي بن عامر مع رستم في الطبري : تاريخه ج٤/ ١٠٦ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٦٣ .

(٢)الطبري : تاريخة ٤/ ١١٣ .

(٣) الطبري : تاريخ ج٤/ ١١٩ ، المسعودي : مروج الذهب : ج٢/ ٣٢١ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٦٩ .

وفي صبيحة اليوم الثاني للمعركة وصلت الإمدادات إلىٰ الجيش الإسلامي قادمة من الشام بأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكان يقودها هاشم بن عتبة بن أبي وقاص رضي الله عنه، وعلىٰ مقدمته القعقاع بن عمرو التميمي رضي الله عنه، وقد نظم القعقاع جيشه أعشاراً، بحيث يصل في كل فترة معينة عشرة منهم إلىٰ أرض المعركة، وكانوا يثيرون الغبار، مما يخيل للأعداء أنهم كثر، واستمر وصول الإمدادات فترة طويلة مما أوقع الرعب في نفوس الفرس، وقوىٰ عزائم المسلمين، وقد تمكن القعقاع ومن معه من الوصول إلىٰ قلب المعركة، وقتل بعض كبار قواد الفرس، كما أنهم ربطوا حول إبلهم قرباً منفوخة بالهواء وجللوها ببعض الخرق والبسط وساقوها علىٰ خيول الفرس، ففرت من المعركة، وقد لاحت في هذا اليوم علامات النصر في صالح المسلمين وقد سمي يوم (أغواث) بسبب وصول المدد والغوث للمسلمين [1].

وفي صبيحة اليوم الثالث للمعركة وهو يوم (عماس) بدأ القتال مرة أخرىٰ بين المسلمين والفرس، وعاد الفرس فيه إلىٰ استخدام الفيلة مرة أخرىٰ فأضرت بالمسلمين كثيراً، ولكن شجعان المسلمين صمدوا لها، وقاوموها ببسالة، فأصابوها في عيونها وخراطيمها، ففرت من المعركة، وفي هذا اليوم أخذت كفة المسلمين ترجح بعد أن أبلوا بلاءً حسناً، وأقبل الليل والقتال علىٰ

---

(٣٢٦) الطبري: تاريخه ج٤/ ١٢٠، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٤٧٣، ابن أعثم: الفتوح ج١/ ١٦١.

أشده واستمر القتال في ظلام الليل ، وصمد المسلمون صمود الأبطال [١] ، ولم يكن يسمع في تلك الليلة المظلمة إلا صليل السيوف فسميت ليلة (الهرير)[٢] . وأبلى المسلمون بلاءً حسناً ، وظهر الصباح واستمر القتال حتى الظهر ، حيث بدأ الفرس ينهزمون من المعركة ، وحاول رستم قائد الفرس الفرار والنجاة بنفسه ، إلا أن أحد شجعان المسلمين لحق به فقتله ، وتتابعت هزائم الفرس ، وكان النصر حليف المسلمين في نهاية المعركة [٣] .

وقد كانت هذه المعركة من أهم المعارك الفاصلة بين الفرس والمسلمين ، حيث اشترك فيها أفضل فصائل الجيش الفارسي في تلك الفترة ، وكان لهزيمته دور كبير في تحطيم الروح المعنوية لدى الفرس ، وتمكن المسلمون بعدها من إعادة فتح معظم المناطق التي أخذها الفرس ، من فتوح المسلمين السابقة ، وتمهيد الطريق لفتح المدائن ، كما امتلأت أيدي المسلمين بالغنائم والأسلحة التي ساعدتهم في الفتوح المقبلة .

فتح المدائن سنة ١٤هـ :

المدائن هي عاصمة الفرس ، وقد بشر الرسول ﷺ ، في حياته بفتحها[٤] ، وكان المسلمون ينتظرون هذا اليوم الموعود ، وبعد معركة القادسية أقام سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، بمن معه من المسلمين مدة شهرين في

---

(١) الطبري : تاريخه ج٤/ ١٢٤ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٧٧ .

(٢) الطبري : تاريخه ج٤/ ١٣٢ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٧٩ .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٢ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٥٩ .

(٤) انظر ص ٢٠ ـ ٢١ من هذا الكتاب .

القادسية، لمداواة الجرحى، وانتظار أمر الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم بدأ سعد يمد نفوذ المسلمين، مابين دجلة والفرات، حتى جاءه أمر من عمر، بالتوجه إلى المدائن .

وصل المسلمون إلى المدائن، وكان يفصلهم عنها نهر دجلة، بعد أن حطم الفرس ماعليه من جسور، ومع هذا فقد حاصرها المسلمون لعدة أشهر كانوا خلالها يفتحون في المناطق الغربية منها (١)، كما كان الفرس خلالها يعملون على تفريغ المدائن من كنوزها وخزائنها، كما فرّ خلال الحصار يزدجرد ملك الفرس، ومع ذلك فقد كان الدفاع عن المدائن منظماً وقوياً، وقد عبر المسلمون النهر تحت قيادة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وهم على خيولهم مما أفزع الفرس، ودفع بعضاً منهم إلى الفرار، ثم تمكن المسلمون بقيادة سعد بن أبي وقاص من دخول المدائن، وتوجه إلى القصر الأبيض وبه إيوان كسرى المشهور، ودخل سعد القصر متواضعاً متذللاً لله وهو يقرأ قوله تعالى : ﴿**كَمْ تَرَكُوا من جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ (٢٨) فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ**﴾[سورة الدخان : الآيات ٢٥ ـ ٢٩]. وقد رفع سعد رضي الله عنه الأذان معلناً كلمة التوحيد في ذلك القصر وأخمد نيران المجوسية وأقام صلاة الجمعة فيه (٢). وقد حصل المسلمون على غنائم كثيرة بعثوا خمسها

---

(١) انظر : خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٣ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٦٢ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ٢٦٣ ، الطبري : تاريخه : ج٤/ ١٧٣ ، ١٧٤ ، ابن أعثم الكوفي : الفتوح ١٦٦ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٥١٤ .

إلى المدينة، فلما رآها عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: إن قوماً أدوا هذا لأمناء. فقال له علي رضي الله عنه: إنك قد عففت فعفت رعيتك، ولو رتعت لرتعت (١).

وقد أقام المسلمون في المدائن بضعة أشهر كانوا ينطلقون منها لفتح بعض المواقع حتى تمكن المسلمون من فتح جلولاء والموصل وتكريت وغيرها(٢).

وقد اختار المسلمون بعد المدائن موقعين رئيسيين للإقامة بهما في العراق، حيث مصّروا الكوفة والبصرة (٣)، وبدأت الجيوش الإسلامية تنطلق منهما لاستكمال الفتوح في بلاد الفرس، وقد عين المسلمون على المدائن سلمان الفارسي رضي الله عنه أميراً وداعية لأبناء قومه (٤).

نهاوند «فتح الفتوح» سنة ٢١ هـ:

في السنة التاسعة عشرة للهجرة كان المسلمون قد استقروا في البصرة والكوفة، وأخذوا ينطلقون منهما لاستكمال الفتوح، وقد امتلأت المدينتان بالسكان من المسلمين القادمين من مختلف المناطق سواء كانوا عرباً أم عجماً

---

(١) الطبري: تاريخه ج٤/ ١٧٧، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٥١٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢٦٤، الطبري: تاريخه ١٧٩.

(٣) انظر: خليفة بن خياط: تاريخه ١٢٨، ١٣٨، الطبري: تاريخه ج٤/ ١٩١، المسعودي: مروج الذهب ج٢/ ٣٢٨، ٣٢٩، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٥٢٨.

(٤) الطبري: تاريخه ج٤/ ١٧٣، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١/ ٥٤٦.

دخلوا في الإسلام، وكان كسرىٰ فارس يزدجرد يتجول في شرقي بلاد فارس ويحاول حشد الجنود لطرد المسلمين (١) .

وقد استطاع يزدجرد أن يجمع جيشاً يزيد تعداده عن مائة ألف مقاتل للهجوم علىٰ المسلمين، وقد علم عمر رضي الله عنه بالأمر ، وبدأ يعد المسلمين لهذه المعركة، التي أراد أن يقودها بنفسه، لولا أن أهل الشورىٰ من الصحابة أقنعوه بالبقاء في المدينة، لأن ذلك أقوىٰ للمسلمين، فاختار عمر رضي الله عنه لقيادة جيش المسلمين [النعمان بن مقرن المزني] رضي الله عنه (٢) .

ولم ينتظر المسلمون الهجوم الفارسي المرتقب، بل بادروا إلىٰ الفرس قبل أن يهاجموهم، فاتجهوا إلىٰ (نهاوند) يقودهم النعمان بن مقرّن رضي الله عنه مما دفع الفرس إلىٰ البقاء في حصون نهاوند، واستمر المسلمون يحاصرونهم شهرين دون قتال يحسم المعركة، وأعد المسلمون خطة ينهون بها الوضع، وهي مناوشة الفرس ثم التظاهر بالهزيمة أمامهم حتىٰ يخرجوهم من حصونهم، وتم ذلك ولحق الفرس بالمسلمين، الذين استمروا يتظاهرون بالفرار، حتىٰ اكتمل خروج الفرس من خنادقهم وحصونهم، فالتف حولهم المسلمون، ووقعت معركة كبرىٰ استشهد في بدايتها قائد المسلمين النعمان بن مقرن رضي الله عنه ومع هذا انتصر المسلمون ، وقد اضطر من في الحصن من

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ١٤٧ ،الطبري : تاريخه ٤/ ٢٣١ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ١٢٨ ،الطبري : تاريخه ٤/ ٢٣٢ .

الفرس إلىٰ مصالحة المسلمين، وفر يزدجرد ملك الفرس إلىٰ مرو في الشرق . وتعد معركة نهاوند خاتمة المعارك الكبرىٰ الفاصلة في فتوح فارس ولذلك سميت فتح الفتوح (١) . حيث أخذ المسلمون بعدها ينساحون فاتحين في بلاد فارس، فاستولوا علىٰ العديد من المواقع حتىٰ وصلوا إلىٰ حدود السند، ومع أن ملك الفرس يزدجرد كان حياً وتعتبر مملكته باقية في بعض المواقع إلا أنه كان يعيش متشرداً تمنعه جيوش المسلمين من الاستقرار وإعداد الجيوش (٢) .

ب ـ فتوح الشام :

انتهت معركة اليرموك في أول خلافة عمر رضي الله عنه بانتصار المسلمين، وقد وقف المسلمون بعدها يتشاورون، هل يتجهون إلىٰ دمشق قاعدة بلاد الشام، أم يتجهون إلىٰ فِحل حيث حشد الروم قوات كبيرة، فاستشار المسلمون الخليفة فكتب إليهم : «أما بعد فابدأوا بدمشق فانهدوا إليها فإنها حصن الشام وبيت ملكهم، وأشغلوا أهل فحل بخيل تكون بإزائهم في نحورهم» (٣) . واستجاب أبو عبيدة بن الجراح قائد المسلمين لأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنهما فتوجه بمن معه من المسلمين لحصار دمشق، وترك فرقة من الجيش في اليرموك ، وبعث بفرقة أخرىٰ لتشغل الروم في فحل،

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ١٤٩ ، البلاذري : فتوح البلدان ٣٠٠ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ٢٤٠ ، ابن الأثير : الكامل ج٣/ ١١ .

(٢) انظر : خليفة بن خياط : تاريخه ١٥٠ ـ ١٥١ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ٢٤٧ ، ٢٥٠، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ . ٢٥٩ ، ٢٦٢ .

(٣) الطبري : تاريخه ج٤/ ٥٧ .

وعندما وصل أبو عبيدة رضي الله عنه إلىٰ دمشق بدأ يحاصرها، وفي الوقت نفسه بعث قسماً من جيش المسلمين إلىٰ شمال دمشق لكي تشغل قوات الروم في شمال الشام وتمنعهم من إمداد أصحابهم في دمشق .

وكانت دمشق محصنة بالأسوار والمياه من جوانبها المختلفة، وقد قسم أبو عبيدة رضي الله عنه قوات المسلمين حول دمشق، وأخذوا يحاصرونها بكل إصرار لمدة سبعين يوماً، عانىٰ فيها المسلمون أشد المعاناة لشدة البرد، وبقائهم في العراء، وقد أعد المسلمون السلالم والحبال لتسلق الأسوار والهجوم علىٰ المدينة في الوقت المناسب (١) .

وفي إحدىٰ الليالي انشغل أهل دمشق بأحد احتفالاتهم، فاستغل خالد ابن الوليد رضي الله عنه الفرصة فسبح في نهر بردىٰ ومعه جماعة من شجعان المسلمين، حتىٰ وصلوا إلىٰ منطقة قليلة الحراسة، فثبت خالد وأصحابه السلالم علىٰ الأسوار وصعدوا عليها فكبروا، وكبر جند المسلمين في الخارج، فذهل أهل دمشق ونزل خالد ومن معه داخل الأسوار، وقاتلوا بسيوفهم حتىٰ فتحوا الباب للمسلمين، واندفع الجند إلىٰ داخل دمشق، مماجعل زعماءها يتجهون إلىٰ الأبواب الأخرىٰ ويصالحون أبا عبيدة رضي الله عنه علىٰ التسليم (٢) .

---

(١) الأزدي : فتوح الشام ٧٧، وقد جعل فتح دمشق قبل اليرموك، والأرجح ماذهب إليه الطبري من أن فتحها وقع بعد معركة اليرموك انظر : الطبري : تاريخه ج٤/ ٥٦ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٢٧ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٢٨، ١٢٩، الأزدي : فتوح الشام ٧٦ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ٥٨، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٢٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الراشدين» ١٢٥ .

وبعد فتح دمشق ولىٰ عليها أبو عبيدة أميرها المعين من قبل أبي بكر الصديق رضي الله عنه وهو يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنه، ثم سار بمن معه من المسلمين إلىٰ جنود الروم في فحل، وكانوا قرابة ثمانين ألفاً وقام الروم بتفجير المياه حول فحل، حيث كانت بها مستنقعات تمنع تقدم المسلمين، فأخذ المسلمون يحاصرونهم، فخرج الروم للإغارة علىٰ المسلمين ليلاً، ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد، حيث استعدوا لهذه المفاجأة، واشتبك المسلمون مع الروم في موقعة كبيرة، وأخذ الروم ينهزمون، وحاولوا العودة إلىٰ فحل، ولكنهم اخطأوا الطريق فوقعوا في المستنقعات التي أعدوها للمسلمين، وأصبح الوحل الذي كرهه المسلمون معيناً لهم علىٰ النصر، فلم يفلت من الروم إلا الشريد، وكانت تلك المعركة من أكبر الانتصارات الهامة علىٰ الروم في الشام [1].

فتح حمص وقنّسرين (١٥هـ):

بعد أن فتح المسلمون دمشق ونظموا أمورها اتجهت جموع منهم يقودهم أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلىٰ حمص لفتحها [2]، فأعد هرقل ملك الروم جيشاً لإعاقة المسلمين عن هدفهم، فانتصر المسلمون علىٰ ذلك الجيش،

---

(١) انظر: خليفة بن خياط: تاريخه ١٢٦، الطبري: تاريخه ج٤/ ٥٩، ابن الأثير: الكامل ج٢/ ٤٢٩.

(٢) انظر: خليفة بن خياط: تاريخه ١٢٧، البلاذري: فتوح البلدان ١٣٦. الطبري: تاريخه ج٤/ ١٥٣، الذهبي: تاريخ الإسلام عهد الراشدين ١٢٨.

وواصلوا زحفهم حتىٰ وصلوا إلىٰ حمص فحاصروها [(١)]، وكان الجو شديد البرودة، لذلك توقع الروم أن ينسحب المسلمون سريعاً بسبب البرد، ولكنهم صمدوا وظلوا محاصرين للمدينة رغم قسوة الشتاء، وكان الروم يحتمون بأسوار وحصون المدينة، فلجأ المسلمون إلىٰ حيلة يستدرجون بها عدوهم خارج تحصيناته، ففي أثناء إحدىٰ المناوشات تظاهر المسلمون بالانسحاب والهزيمة أمام الروم ،وتركوا متاعهم وإبلهم، فخرج الروم وراءهم حتىٰ ابتعدوا عن أسوار حصونهم، فالتف عليهم المسلمون وانقضوا عليهم وأنزلوا بهم ضربة قاصمة، وقتل معظم جند حمص، وقتل قائدهم وهزم البقية، فاضطر قساوسة حمص وكبار أهلها إلىٰ طلب الصلح من المسلمين، وأعلنوا استسلامهم وفق شروط متفق عليها، وأقروا بدفع الجزية [(٢)] .

وبعد أن استقر الأمر في حمص بعث أبو عبيدة رضي الله عنه جيشاً يقوده خالد بن الوليد رضي الله عنه إلىٰ (قنّسرين)، فلجأ أهلها إلىٰ حصونهم ليحتموا بها فخاطبهم قائد المسلمين خالد بن الوليد قائلاً لهم : إنكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله إليكم أولأنزلكم إلينا . وأحس أهل قنسرين بتصميم المسلمين علىٰ فتح المدينة فأصابهم الله بالرعب، فوافقوا علىٰ الاستسلام

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ١٣٧ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ١٥٣ .

(٢) الأزدي : فتوح الشام ١٤٦ ، البلاذري : فتوح البلدان ١٣٧ ، ابن أعثم : الفتوح ١٧٠ ، الطبري : تاريخه ٤/ ١٥٤ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٩١ .

ودفع الجزية ووقع الصلح بينهم وبين المسلمين [١].

واستمر المسلمون بعد ذلك في فتح المناطق الساحلية والشمالية من بلاد الشام [٢].

فتح فلسطين وبيت المقدس (١٦هـ) :

بعد فتح دمشق انعزل عمرو بن العاص رضي الله عنه بجيشه وأخذ يفتح في نواحي فلسطين، ووقعت معركة أجنادين بين عمرو بن العاص رضي الله عنه وجنود الروم بقيادة أرطبون، وهي معركة قوية انتصر فيها المسلمون واستولى عمرو بعدها على مدن فلسطين الشمالية [٣]، ثم توجه إلى بيت المقدس التي تميزت بمكانة خاصة لدى أهل الديانات السماوية جميعاً ولدى المسلمين خصوصاً، حيث كانت أولى القبلتين وثالث المسجدين ومسرى رسول الله ﷺ ، وبدأ عمرو بن العاص يحاصر بيت المقدس، ودافع عنها الروم بقيادة أرطبون دفاعاً مستميتاً، واستعملوا المنجنيق لضرب المسلمين، الذين تضرروا من ذلك، فكتب عمرو بن العاص إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنهما يطلب منه المدد، فأصدر عمر بن الخطاب أمراً إلى أبي عبيدة بن

---

(١) انظر : البلاذري : فتوح البلدان ١٥٠ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ١٥٥ ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٩٣ .

(٢) انظر : خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٠ ، البلاذري : فتوح البلدان ١٥١ ، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الراشدين ١٢٨ .

(٣) انظر : خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٤ ، البلاذري : فتوح البلدان ١٤٤ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ١٥٧ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٤٩٨ .

الجراح ليكون مدداً لعمرو في حصاره لبيت المقدس، فخرج أبو عبيدة في جيشه متوجهاً إلى بيت المقدس، فساعد وصوله في تقوية عزائم المسلمين، وفت في عضد الروم، فأخذوا يفكرون في الصلح والاستسلام، خصوصاً بعد ماشاهدوا من وفاء المسلمين وعدلهم في المدن المفتوحة وبدأ بطريرك القدس بنفسه مفاوضة المسلمين في الصلح، مما أغضب قائد الروم أرطبون، فترك القدس واتجه إلى مصر، واستمرت المفاوضات بين المسلمين وبطاركة وقساوسة بيت المقدس، حتى وافق أهلها وزعماؤها على التسليم والمصالحة واشترطوا أن يتولى الصلح عمر بن الخطاب بنفسه، وأن يسلموا مدينتهم له شخصياً، فكتب أبو عبيدة وعمرو بن العاص لعمر بن الخطاب رضي الله عنهم بذلك، فاستخلف عمر رضي الله عنه على المدينة وكتب إلى أجناد الشام بالتجمع في الجابية ليلتقي بهم [١].

وصل عمررضي الله عنه إلى بلاد الشام وقابله الأمراء وعليهم الديباج فبدأ يأخذ من الحجارة ويحصبهم قبل أن يسلموا عليه قائلاً لهم : سرعان ما ندت بكم البطنة إياي تستقبلون بمثل هذا الزي، وإنما شبعتم منذ سنتين وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم .فقالوا : يا أمير المؤمنين إنها يلامقة ـ ملابس محشوة ـ وإن علينا السلاح (يقصدون أنهم يخفون السلاح تحت ملابسهم حتى لايغدر بهم الأعداء لأنهم كانوا في هدنة معهم

---

(١) انظر البلاذري : فتوح البلدان ١٤٤ : الطبري : تاريخه ج٤/ ١٢٨، ابن الأثير : الكامل ٢/ ٥٠٠ .

وليس مايرى سمنة أوملابس فخمة) ، قال : فنعم إذن [١] .

وفي الجابية التقى عمر رضي الله عنه بالمسلمين وتفقد أحوالهم، وأذن بهم مؤذن رسول الله ﷺ بلال بن رباح رضي الله عنه وكان لم يؤذن بهم بعد وفاة الرسول فتذكر المسلمون رسول الله ﷺ فبكوا جميعاً [٢] .

ثم التقى عمر رضي الله عنه بمندوبي بيت المقدس، وكتب لهم عهداً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وأن لايُجبروا على ترك دينهم ، وأنهم بالخيار من شاء منهم البقاء في ذمة المسلمين، ومن شاء اللحاق بالروم، ومن خرج منهم فهو آمن على نفسة وماله حتى يبلغ مأمنه، واشترط أهل بيت المقدس أن لايسكن معهم أحد من اليهود [٣] .

وهذا العهد يدل على حسن معاملة المسلمين لأهل الديانات الأخرى وحفظهم لحقوقهم .

وقد توجه عمر رضي الله عنه بعد ذلك إلى بيت المقدس واستقبله أهلها وبطاركتها، ودخل بيت المقدس واختط بها مسجداً وأقام فيها بضعة أيام، ثم غادرها إلى الجابية، حيث بقي بعض الوقت مع المسلمين وقوادهم ناقش خلالها أمورهم المختلفة ، ثم عاد إلى المدينة [٤] . وبفتح بيت المقدس

---

(١) الطبري : تاريخه ج٤/ ١٥٨ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١/ ٣٥٧ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ١٤٥ . وانظر نص العهد معهم في الطبري : ج٤/ ١٥٩ .

(٤) انظر : خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٥ ، ابن أعثم : الفتوح ج١/ ٢٢٩، الطبري : تاريخه ج٤/ ١٦١ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٥٠١ .

صار المسلمون قد فتحوا معظم بلاد الشام وأصبحت لهم السيطرة الفعلية عليه دون منازع بعد أن واجهوا العديد من المصائب والمعارك .

ثم حدث بعد ذلك وباء عام في بلاد الشام سنة ١٨هـ سمي بـ (طاعون عمواس) نسبة إلىٰ قرية من قرىٰ فلسطين، وقد مات في هذا الوباء قرابة عشرين ألفاً من جند المسلمين بالشام، كان فيهم من كبار الصحابة أمثال أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وشرحبيل بن حسنة، والفضل بن العباس، ويزيد بن أبي سفيان وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين، ومع ذلك فقد تمكن المسلمون من الاحتفاظ ببلاد الشام وبدأوا يفكرون بفتوح أخرىٰ(١) .

جـ ـ فتوح الجزيرة سنة ١٨-٢٠هـ :

الجزيرة إقليم واسع يقع في شمال شرق بلاد الشام وشمال غرب العراق، وجنوب تركيا حالياً، وسميت بهذا الاسم لأنها تقع بين دجلة والفرات، وتشتمل علىٰ العديد من المدن المهمة، منها (الرها) و(الرقة) و(نصيبين) و(حران) و (ماردين) (٢) وغيرها، وكانت بعض مدنها تابعة للفرس، وبعضها تابعة للروم، ومعظم سكانها من النصارىٰ (٣) .

---

(١) انظر : خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٨ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ٢٢٢ ، ابن أعثم : الفتوح ج١/ ٢٣٨ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٥٥٨ ، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الراشدين ١٧١ .

(٢) انظر : الخريطة المرفقة في الملاحق .

(٣) انظر إلىٰ تحديدها في ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٢/ ١٣٤ ، د. صلاح الدين المنجد : معجم أماكن الفتوح ٣٢ . .

وقد وجه عمر رضي الله عنه في السنة الثامنة عشرة [عياض بن غَنْم] من بلاد الشام لفتح الجزيرة، فتمكن من فتح معظم مدنها بعضها عنوة وبعضها صلحاً (١)، وقد حاول أهل الجزيرة الانتفاض والخروج عن طاعة الدولة الإسلامية أواخر خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلا أن عمر تمكن من إخضاعهم بجيوش مختلفه كان على رأس بعضها عمير بن سعد الأنصاري، وخالد بن الوليد، وأبو موسى الأشعري وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين(٢).

د ـ فتح مصر سنة ٢٠هـ : (٣)

أصيب المسلمون في طاعون عمواس سنة ١٨هـ ومات معظم جيشهم في بلاد الشام حيث استشهد في هذا المرض مايقرب من ٢٠ ألف رجل يشكلون قرابة ثلثي الجيش الإسلامي في بلاد الشام (٤)، ومع هذا فإن المسلمين لم يتوقفوا عن الفتوح، ففي سنة عشرين للهجرة على أرجح الآراء استأذن عمرو بن العاص رضي الله عنه من عمر بن الخطاب في فتح مصر، وبين له أهمية فتحها للمسلمين، وخطورة بقائها في أيدي الروم على المسلمين

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٩ ، البلاذري : فتوح البلدان ، ١٧٦ الطبري : تاريخه ج٤/ ٢٢٥ ، ابن عبد البر : الاستيعاب (حاشية على الإصابة ج٣/ ١٣٨) ، ابن الأثير : الكامل : ج٢/ ٥٣٤، ٥٦٩ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٨١ـ١٨٦ ، ابن سلام : الأموال ٩٨ .

(٣) للاطلاع الأوسع على فتح مصر انظر لابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها .

(٤) خليفة بن خياط : تاريخه ١٣٨ ، ابن أعثم : الفتوح ١/ ١٣٨ .

عموماً، وعلىٰ من في بلاد الشام منهم خصوصاً، فأذن عمر للمسلمين بقيادة عمرو بن العاص بالتوجه لفتح مصر، وبعد أن تحرك الجيش أحس عمر رضي الله عنه بالخوف على المسلمين، فكتب إلىٰ عمرو بن العاص : «إن أدركك كتابي قبل أن تدخل مصر فارجع إلىٰ موضعك، وإن كنت دخلت مصر فامض لوجهك» ، فلحق الكتاب بعمرو بعد أن دخل أرض مصر، فلما قرأ الكتاب قال لمن معه : ألستم تعلمون أن هذه القرية من أرض مصر ؟ قالوا : بلىٰ . قال : فإن أمير المؤمنين عهد إلي وأمرني إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر أن أرجع، ولم يلحقني كتابه إلا بعد أن دخلت أرض مصر . . . . فسيروا علىٰ بركة الله [١] .

دخل المسلمون مصر عن طريق الساحل مروراً بـ (العريش) ومنها إلىٰ (الفرما) وهي أحد أهم المواقع العسكرية للروم شرقي مصر، وقد قاتل المسلمون الروم فيها لمدة شهر تقريباً إلىٰ أن تمكنوا من فتحها، ثم توجه المسلمون إلىٰ (بلبيس) وبعد حوالي شهر من القتال تمكن المسلمون من فتحها، ثم فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه ومن معه العديد من المواقع والتحصينات الرومية، إلىٰ أن وصل إلىٰ حصن (بابليون) [٢] وكان حصناً منيعاً ومحاطاً بخنادق المياه، فحاصره المسلمون عدة أشهر، واستعصىٰ عليهم، فكتب عمرو بن العاص يطلب المدد من عمر بن الخطاب، فأمده

---

(١) انظر البلاذري : فتوح البلدان ٢١٤ . المقريزي : المواعظ ج١/ ٢٨٨ .

(٢) لمعرفة المواضع التي مر ذكرها في فتوح مصر انظر الخارطة المرفقة في الملاحق .

بعشرة الآف رجل عليهم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مُخلد رضي الله عنهم [١].

وقد استمر المسلمون في حصار الحصن ودارت المراسلات بينهم وبين الروم، كما حاول المقوقس ملك القبط في مصر من قبل الروم معرفة أحوال المسلمين، من خلال رسله الذين أقاموا في جيش المسلمين عدة أيام، حيث سألهم المقوقس كيف رأيتم المسلمين ؟! . فأجابوا : رأينا قوماً الموت أحب إلىٰ أحدهم من الحياة والتواضع أحب إليه من الرفعة، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولانهمة، وإنما جلوسهم علىٰ التراب وأكلهم علىٰ ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يفرق رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد، فإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويتخشعون في صلاتهم، فقال المقوقس : لوأن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها [٢] .

وقد طلب المقوقس من المسلمين أن يبعثوا إليه وفداً ليفاوضهم، فبعث المسلمون وفداً علىٰ رأسه [عبادة بن الصامت] ، فقابل المقوقس ودار بينهما حديث هدد فيه المقوقس بقوات الروم وشدتها، وضعف المسلمين وقلة عددهم وسلاحهم، فقال له عبادة بن الصامت : «ياهذا لاتغرن نفسك ولا

(١) انظر الطبري : تاريخه ج٤/ ٢٢٧، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٥٦٤ ، المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ٢٩٠ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ٢٩٠ .

أصحابك، وأما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم، وأنا لانقوىٰ عليهم، فلعمري ماهذا بالذي تخوفنا به، ولا بالذي يكسرنا عما نحن فيه، إن كان ماقلتم حقاً فذلك والله أرغب مايكون في قتالكم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، وإن قتلنا كلنا كان أمكن لنا في رضوانه وجنته، وما من شيء أقر لأعيننا ولا أحب إلينا من ذلك، أما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لأحب الخصلتين بعد الاجتهاد منا، وقد قال الله في كتابه: ﴿ **كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ** ﴾ [سورة البقرة: آية: ٢٤٩] . وما منا إلا ويدعو ربه صباح مساء أن يرزقه الله الشهادة وأن لايرده إلىٰ بلده ولا إلىٰ أرضه ولا إلىٰ أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا»(١) .

وقد أُعجب المقوقس بكلام عبادة بن الصامت، وأحس بقوة المسلمين ونصر الله لهم فعزم علىٰ مصالحتهم ودفع الجزية لهم، إلا أن الروم رفضوا ذلك(٢)، فاستمر حصار الحصن ثم تمكن الزبير بن العوام رضي الله عنه مع بعض شجعان المسلمين من تسلق أسوار الحصن بالسلالم، فلما أصبحوا أعلاه كبروا وكبر المسلمون خارج الحصن معهم، فارتج الأعداء، ثم نزل

---

(١) المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١/ ٢٩١ .

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ٢١٧، ٢٢٠ الطبري: تاريخه ج٤/ ٢٢٦ ،المقريزي: المواعظ والاعتبار ج١/ ٢٩٢ .

الزبيربن العوام رضي الله عنه داخل الحصن، وتمكن من فتح بابه للمسلمين، فأسرع من فيه من الروم بمصالحة المسلمين، وأعلنوا استسلامهم وخضوعهم، وأقروا بدفع الجزية، وكان من نتيجة الاستيلاء على الحصن أن أصبح المسلمون يسيطرون على معظم مصر ويتحكمون في وسطها وجنوبها (١).

فتح الإسكندرية سنة ٢١هـ :

كانت الإسكندرية وهي أكبر المدن المصرية محصنة بالأسوار والقلاع من الجنوب، ويحميها البحر من الشمال، وكانت تقيم بها مجموعة عظيمة من الروم، يبلغ المقاتلة منهم مايزيد على الخمسين ألفاً (٢)، وقد أصبح الطريق مفتوحاً أمام المسلمين بعد سقوط حصن بابليون، حيث أخذ المسلمون بالتقدم نحو الشمال باتجاهها، وقد واجهوا أثناء زحفهم جموعاً كبيرة من الروم، حاولت عرقلة المسلمين، ومنع وصولهم إلى الاسكندرية، إلا أن الله نصرهم على تلك الجموع في عدة مواقع، وواصلوا المسير حتى وصلوا إلى أسوار الإسكندرية، فحاصروها أربعة أشهر، وقعت خلاله العديد من المعارك بين الطرفين، وكانت سفن الروم تمد أهل الإسكندرية بالسلاح وبالرجال من البحر طوال فترة الحصار (٣).

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ١٤٣ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢١٦ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ٢٣٠ .

(٢) انظر إلى وصف هذه المدينة عند فتحها في : المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ١٦٦ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ٢١٨ ، ٢٢٢ ، المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ١٦٦، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٥٦٧ .

وقد استبطأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه الفتح فكتب إلىٰ عمرو بن العاص رضي الله عنه : «عجبت لإبطائكم عن الفتح، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم فإن الله تبارك وتعالىٰ لاينصر قوماً إلا بصدق نياتهم، وقد كنت وجهت إليك بأربعة نفر وأعلمتك أن الرجل منهم مقام ألف رجل علىٰ ماكنت أعرف إلا أن يكون غيرهم ما غير غيرهم، فإذا أتاك كتابي هذا فاخطب الناس وحضهم علىٰ قتال عدوهم، ورغبهم في الصبر والنية، وقدم أولئك الأربعة في صدور الناس، ومر الناس جميعاً أن يكونوا لهم صدمة واحدة كصدمة رجل واحد، وليكن ذلك عند الزوال يوم الجمعة فإنها ساعة تنزل الرحمة ووقت الإجابة، وليتضرع الناس إلىٰ الله ويسألوه النصر علىٰ عدوهم» . فلما أتىٰ الكتاب إلىٰ عمرو بن العاص قرأه علىٰ الناس، ودعا الأربعة نفر وقدمهم عليهم، وأمر الناس بالتطهر والصلاة والدعاء، ثم عقد اللواء لعبادة بن الصامت رضي الله عنه، وخاض المسلمون معركة قوية ضد جيش الروم، تمكنوا بعدها من فتح الإسكندرية عنوة . الفتح الأول بعد حصار زاد علىٰ ستة أشهر، وفرضوا الجزية علىٰ أهلها وأحكموا سيطرتهم عليها (١) .

وبعد فتح الإسكندرية أتم المسلمون فتح مصر وخصوصاً بعض المواقع في الصعيد والدلتا وغيرها، إلىٰ أن أصبحت للمسلمين السيطرة التامة علىٰ مصر حيث رضيت مدنها بالتسليم للمسلمين، وأقر أهلها بدفع الجزية (٢) .

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ١٦٥ ، وانظر ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٥٦٧ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ١٥٠ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٢٢، المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ١٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٥٦٧ .

وقد تقدم المسلمون بعد ذلك إلى كل من (طرابلس) و(برقة) وتمكنوا من فتحها صلحاً وأقر أهلها بدفع الجزية، وبعد ذلك صدرت الأوامر من عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه بعدم مواصلة الفتح غربي مصر خوفاً على المسلمين، ورغبة في تثبيت أقدامهم في مناطق مصر المفتوحة أولاً[١].

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٢١٩ ، الطبري : تاريخه ج٤/ ٢٣٠، ٢٣٢ ابن الأثير : الكامل ج٢/ ٥٦٧ الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الراشدين ٢٢٤ .

ثالثا : خلافة عثمان بن عفان

قبيل وفاة عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان المسلمون قد تمكنوا من السيطرة على العراق ومعظم بلاد فارس والجزيرة، كما سيطروا على بلاد الشام ومصر وجزء من شمال إفريقيا، وكانت دولتا الفرس والروم لاتزالان قائمتين، وتطمعان في استرداد البلاد المفتحة من أيدي المسلمين، لذلك كان على المسلمين أن يبذلوا جهوداً عظيمة للمحافظة على تلك الفتوح، وفي الوقت نفسه محاولة فتح بلاد جديدة .

فتوح أفريقيا سنة٢٧هـ :

كانت مصر وشمال أفريقيا تابعة لمملكة الروم، وقد تمكن المسلمون من فتح مصر كما بدأوا التقدم في شمال إفريقيا أيام عمر بن الخطاب رضي الله عنه [١] .

وفي بداية خلافة عثمان رضي الله عنه حاول الروم طرد المسلمين من مصر، فهاجموا الإسكندرية من البحر سنة ٢٥ للهجرة، وتمكنوا من الاستيلاء عليها، وقتل من فيها من المسلمين، وأعادوا تحصينها وتجهيزها بالقوات ليواصلوا منها الزحف على المسلمين جنوباً، إلا أن المسلمين لم يمهلوهم، فقاد عمرو بن العاص رضي الله عنه جيوش المسلمين نحو الإسكندرية، قبل

---

(١) انظر ص ١٤١ من هذا الكتاب .

استعدادهم، وخاض في الطريق إليهم العديد من المعارك، ثم تمكن من محاصرة الإسكندرية، واقتحمها المسلمون عنوة بالقوة وأعادوا تنظيمها والسيطرة عليها مرة أخرىٰ، فصارت قاعدة ينطلقون منها في الفتوح شمال أفريقيا (١).

وقد تولىٰ مصر سنة ٢٧ هـ عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه فاستأذن عثمان رضي الله عنه في الفتوح في إفريقيا، فأذن له وأرسل له مدداً فيهم جمع من الصحابة، منهم الحسن والحسين ابنا علي بن أبي طالب، وعبد الله بن الزبير وغيرهم رضي الله عنهم، وقد سار عبدالله بن سعد بالجيوش الإسلامية حتىٰ وصل إلىٰ (برقة) ومنها إلىٰ (طرابلس)(٢) حيث تحصن أهلها، فتركهم المسلمون ليلتقوا بجيش أعده الروم بقيادة [جريجوري]، يصل عدده إلىٰ مائة ألف مقاتل، حيث خاض المسلمون معهم عدة معارك، كانت تنتهي دون حسم لأحد الفريقين، فأشار عبد الله بن الزبير علىٰ عبدالله بن سعد أن يقسم الجيش إلىٰ نصفين، يقاتل بالأول طوال النهار فإذا أرهق الروم جميعهم ونصف المسلمين وذهبوا للراحة فاجأ النصف الثاني من المسلمين الروم وهم مرهقون وعلىٰ غير أهبة للحرب وقاتلوهم، ونجحت تلك الخطة، وتمكن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه من قتل [جريجوري] قائد الروم، فانهزموا، ولما شاهد زعماء المدن المجاورة انتصار المسلمين رضوا بأن

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ١٥٨ ،ابن عبد الحكم : فتوح مصر وأخبارها ١٧٥ ،المقريزي : المواعظ والاعتبار ٢٩٩ .

(٢) انظر إلىٰ هذه المواقع في الخارطة المرفقة .

يدفعوا الجزية للمسلمين على أن يكفوا عنهم، وتمت بذلك سيطرة المسلمين على جزء كبير من شمال أفريقيا، وخصوصاً ما عرف بـ (ليبيا) حالياً [١] .

بلاد النوبة سنة ٣٣هـ :

حاول المسلمون في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الامتدادجنوباً في بلاد النوبة، تحت قيادة [عمرو بن العاص] ولكنهم لم ينجحوا في ذلك فتركوا فتحها، إلى أن تولى الإمارة في مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح، فسار إلى بلاد النوبة سنة ٣٣هـ وقاتل أهلها عدة مرات، مما دفعهم إلى توقيع اتفاقية مع المسلمين سميت معاهدة (البقط) يدفع أهل النوبة بموجبها جزية سنوية للمسلمين [٢]، وقد استمرت هذه الاتفاقية تحدد العلاقة بين الدولة الإسلامية وبلاد النوبة مدة تقرب من ستة قرون إلى أن أسلم أهل تلك البلاد ورفعت عنهم الجزية [٣] .

فتح أرمينية ٢٩هـ [٤] :

أصدرعثمان بن عفان رضي الله عنه أمراً إلى عامله على الشام [معاوية

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ١٥٩ ، اليعقوبي : تاريخه ٢/ ١٦٥ ، الطبري : تاريخه ج٥/ ٤٨ ، ابن أعثم الكوفي : الفتوح ج١/ ٣٥٩ ، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الراشدين » ٣١٢ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ١٦٨ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٣٨ ، ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٥/ ٣٠٩ .

(٣) انظر إلى د. مصطفى مسعد الإسلام والنوبة في العصور الوسطى، القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٦٠م .

(٤) منطقة واسعة تقع بين البحر الأسود ووادي الفرات وهي مقسمة حالياً بين إيران رتركيا والاتحاد السوفييتي ، ويقطنها الأرمن مع غيرهم من الشعوب الأخرى .

ابن أبي سفيان]، بأن يوجه [حبيب بن مسلمة الفهري] مع جيش المسلمين لفتح أرمينية، وقد توجه حبيب رضي الله عنه ومعه قرابة ثمانية آلاف مسلم من أهل الشام، وإستطاع أن يفتح بهم بعض المواقع في أرمينية (١)، ثم قام الأرمن وبطارقتهم بالاستعداد من جديد لمواجهه المسلمين، ووصلتهم إمدادات من الروم ومن بلاد الخرز، فاضطر حبيب إلى طلب المدد من معاوية ابن أبي سفيان رضي الله عنه في الشام ومن الخليفه عثمان رضي الله عنه فأرسل معاوية جيشاً من الشام قوامه ألفا رجل لنجدة حبيب، كما أصدرعثمان أمراً إلى والي الكوفة [سعيد بن العاص]، يأمره بإمدادحبيب بجيش عليه [سلمان بن ربيعة الباهلي]، وهوأحدقواد المسلمين ذوي الخبره بهذه المنطقه وقتال أهلها، وقد سارسلمان لمساعدة حبيب ومن معه من المسلمين، إلاأن حبيباً استطاع أن يباغت جموع الأرمن والروم وأن يقتل قائدهم وينتصرعليهم قبل وصول المدد، وبعد وصول سلمان الباهلي ومن معه تقاسم مع حبيب جبهات القتال، فكان أهل الكوفة مع سلمان يفتحون في شرق أرمينية، وأهل الشام مع حبيب يفتحون في غربها، حتى تمكن المسلمون من استكمال فتح أرمينية ووصلوا إلى شواطئ البحر الأسود وبلاد القوقاز . وتمكنوا من ضم تلك البلاد إلى الدولة الإسلامية (٢) .

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٢٠٢ ، ابن أعثم الكوفي : الفتوح ج٢/ ١٠٨ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه١٦٣ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٠١ ، ابن سعد : الطبقات ج٦/ ١٣١ ، ابن أعثم الكوفي : الفتوح ج٢/ ١١١ ، .

الفتوحات البحرية :

لم يكن العرب وهم عماد الجيش الإسلامي في فتوحه الأولى أهل خبرة في البحر وركوبه، مقارنة بغيرهم من الأمم المجاورة لهم كالفرس والروم، وقد حاول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه أن يستأذن من عمر ابن الخطاب في ركوب البحر بالمسلمين وغزو الروم عن طريقه، فاستوصف عمر رضي الله عنه من معاوية عن البحر وراكبه، فوصفه معاوية رضي الله عنه وصفاً دقيقاً تخوف عمر منه وبالتالي لم يأذن لمعاوية ولا لغيره في الغزو البحري (١)، وقد حاول الروم استغلال البحر لإيقاع ضربات متكررة بالمسلمين في كل من الشام ومصر، وخصوصاً المناطق الساحلية، حيث أخذوا يغيرون على المسلمين من سفنهم البحرية ويعودون إلى البحر مرة أخرى (٢)، فأحس المسلمون أثناء خلافة عثمان رضي الله عنه بضرورة وجود إسطول إسلامي قوي يعمل على المحافظة على الثغور الساحلية الإسلامية ضد هجمات الروم، بل ويقوم بالفتوح في أماكن جديدة في جزر بحر الروم (الأبيض المتوسط) (٣).

وبعد دراسة متأنية من قبل عثمان رضي الله عنه وأمرائه في الشام

---

(١) انظر إلى هذا الوصف في ابن الأثير : الكامل ج٣/ ٩٣ .

(٢) انظر ص ١٤٥ من هذا الكتاب .

(٣) انظر البلاذري : فتوح البلدان ١٥٧ ، ١٥٨ ، ابن الأثير : الكامل ج٣/ ٩٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٧/ ١٦٤ .

ومصر، عمل المسلمون في المنطقتين على بناء السفن، واستعانوا بخبرة أفراد الروم في الشام والقبط في مصر، مقابل أموال يدفعونها لهم، وبدأت نواة الأسطول الإسلامي تتكون. وقد حاول الروم عرقلة المسلمين عن بناء أسطولهم، فدسوا بعض المخربين الذين تسللوا إلى دار صناعة السفن في طرابلس وفي الإسكندرية وتمكنوا من إحراقهما، وما في داخلهما من سفن، ولكن هذا لم يثن عزم المسلمين عن إكمال مشروعهم، حتى أصبحت سفن المسلمين جاهزة في سواحل الشام، وفي الإسكندرية، وكونت مجتمعة أسطولاً إسلامياً، لم يكن في حجم أسطول الروم البحري، إلا أنه كان كافياً للقيام بمهمة الدفاع عن السواحل الإسلامية في وجه سفن الروم، وللقيام بفتوح جديدة في البحر[١].

فتح قبرص سنة ٢٧هـ:

بعد أن اكتمل استعداد الأسطول البحري الإسلامي في الشام استأذن أمير الشام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه من الخليفة عثمان في فتح قبرص فوافقه عثمان رضي الله عنه واشترط عليه أن يكون معاوية في الغزو شخصياً، وأن يحمل معه أهله، وأن لايجبر أحداً من المسلمين على ركوب البحر، وأن يكون المجاهدون في هذه الغزوة بطوعهم واختيارهم[٢]، وكانت كل هذه الاحتياطات التي عملها عثمان رضي الله عنه، نتيجة لقرب عهد

---

(١) انظر: السيد عبد العزيز السالم و د. أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط الجزء الأول البحرية الإسلامية في مصر والشام.

(٢) انظر: البلاذري: فتوح البلدان ١٥٧، ١٥٩، ابن أعثم الكوفي: الفتوح ٣٤٨، الطبري: تاريخه ج٥/ ٥٣، ابن الأثير: الكامل ج٣/ ٩٦.

المسلمين من خوض البحار، وخوف المسلمين عموماً من هذه التجربة الجديدة عليهم، وخوف عثمان رضي الله عنه خصوصاً على المسلمين، وقد تطوعت جموع كثيرة من المسلمين لهذه الغزوة فيهم جمع من الصحابة، على رأسهم أبو ذر الغفاري، وأبو الدرداء، وشداد بن أوس، وعبادة بن الصامت وزوجته أم حرام بنت ملحان وغيرهم رضي الله عنهم [١].

وقد خرج معاوية بهذا الأسطول من سواحل الشام سنة(٢٧هـ) [٢]، ووصل بالمسلمين إلى قبرص، فطلب أهلها الصلح، وأقروا بدفع الجزية، فوافقهم المسلمون واشترطوا أن يكونوا عوناً للمسلمين، وأن لايعينوا الروم ضد المسلمين أبداً [٣]، ولكن أهلها أعانوا الروم وكشفوا لهم عورات المسلمين، فغزاهم معاوية مرة أخرى بأسطول كبير سنة ٣٣هـ وفتحها عنوة [٤].

معركة ذات الصواري سنة ٣١هـ :

حاول الروم التعويض عن خسائرهم وهزائمهم المتكررة أمام

(١) البلاذري : فتوح البلدان ١٥٩، وانظر : خليفة بن خياط : تاريخه ١٦٠، الطبري : تاريخه ج٥/ ٥١.

(٢) الطبري : تاريخه ج٥/ ٥١، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الرواشدين » ٣١٧.

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه (وقد جعلها سنة ٢٨هـ) ١٦٠، البلاذري : فتوح البلدان ١٥٨، ١٥٩، الطبري : تاريخه ج٥/ ٥١، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الراشدين » ٣١٧.

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ١٥٨، الطبري : تاريخه ج٥/ ٥٣، الذهبي : تاريخ الإسلام «عهد الراشدين » ٤١٥.

المسلمين (١)، فجمعوا قوات بحرية كبيرة زادت على خمسمائة سفينة، وخططوا لغزو الإسكندرية، وخرجوا بأسطولهم الكبير يقودهم [قسطنطين بن هرقل] وهو إمبراطور الروم وملكهم، وقد وصلت الأخبار إلى المسلمين بتحرك هذا الأسطول، وكانت أساطيل المسلمين على أهبة الاستعداد لمثل هذا اللقاء، فتحركت في وقت واحد أساطيل الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وأساطيل مصر يقودها عبد الله بن سعد بن أبي السرح، والتقت أساطيل المسلمين والروم، وسط البحر الأبيض المتوسط في منطقة تقع إلى الشمال من الإسكندرية وإلى الغرب من بلاد الشام، وكان عدد سفن المسلمين قرابة ٢٠٠ سفينة، وهو عدد قليل مقارنة بقوات الروم التي زادت عن خمسمائة سفينة، وكان يقود المعركة من جانب الروم ملكهم [قسطنطين] ومن جانب المسلمين أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي السرح رضي الله عنه، وقد بدأت المعركة بتبادل الرمي بالنبال، ثم استخدمت الحجارة، وبعد ذلك عمل المسلمون على ربط سفنهم بسفن الأعداء، فتمكنوا من قتال الروم وجهاً لوجه بالسيوف والخناجر، واشتد القتال، ووقع آلاف القتلى من الطرفين، واختلط الحابل بالنابل، وحاول الروم اختطاف سفينة قائد المسلمين [عبدالله بن سعد] بالخطاطيف والسلاسل، إلا أن أحد شجعان المسلمين تمكن من قطع السلسلة ونجا عبد الله من يد الأعداء . واستمرت المعركة على أشدها إلى أن نصر الله المسلمين (٢)، وجرح قسطنطين ملك الروم وقائدهم في

---

(١) انظر : . الطبري : تاريخه ج٤/ ٢٦١ ، ابن الأثير : الكامل ج٣/ ٩٧ .

(٢) الطبري : تاريخه ج٥/ ٧٠ ، ابن الأثير : الكامل ج٣/ ١٥٣ ـ ١٥٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ٧/ ٢٥٨ .

المعركة والتجأ إلى جزيرة صقلية مع بقية الفارين من جنوده، وقتل بعد ذلك هناك على يد جنده من الروم الذين اعتبروه مسؤولاً عن هذه الهزيمة (١)، وكان من نتيجة هذه المعركة أن أصبحت السيطرة البحرية للمسلمين كما كانت لهم السيطرة البرية، وغدا بحر الروم بحيرة إسلامية، وساعدت السفن التي غنمها المسلمون في تلك المعركة في تقوية الأسطول الإسلامي، وقلت بعد ذلك غزوات الروم البحرية التي يهددون بها السواحل الإسلامية في مصر والشام وغيرها.

فتوح الشرق والقضاء على مملكة الفرس:

كانت الفتوحات الإسلامية في الشرق خلال خلافة عثمان رضي الله عنه تنطلق من الكوفة والبصرة، ولكل ولاية منهما جيوشها وقيادتها الخاصة، وقد انطلقت الجيوش من الكوفة إلى الشمال وإلى الشرق، إما لتثبيت الفتوح السابقة وتأديب العصاة ومن ينقضون الصلح والمعاهدات من أهل البلاد المفتوحة أو لفتح بلدان جديدة، فقد غزا [الوليد بن عقبة بن أبي معيط] كلاً من (أذربيجان) و(أرمينية) و(الديلم) (٢) حتى وصل إلى بحر قزوين (٣).

وبعد عزل الوليد بن عقبة عن الكوفة وتعيين [سعيد بن العاص] مكانه

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٣/ ١١٩.

(٢) انظر الخرائط المرفقة في الملاحق.

(٣) انظر: خليفة بن خياط: تاريخه ١٥٨-١٦٠، البلاذري: ٣١٨، الذهبي: تاريخ الإسلام «عهد الراشدين» ٣٢٤.

غزا أهل الكوفة (خراسان) يقودهم سعيد بن العاص، وصاحبه في هذه الغزوة مجموع من الصحابة فيهم [الحسن والحسين] ابنا [علي بن أبي طالب] و [عبد الله بن عباس] و[عبد الله بن الزبير] و[عبد الله بن عمر] ومن خراسان توجه جند الكوفة إلى جرجان وفرضوا عليها الجزية، كما وصلت طلائعهم إلى (طبرستان) وفرضوا الجزية على أهلها وأدبوهم بعد انتقاضهم. كما انطلقت جيوش المسلمين من البصرة إلى الشرق يقودهم [أبو موسى الأشعري] رضي الله عنه ففتحوا (همذان) وبلاد (الري) بعد أن نقضت العهد واستمروا في إخضاع البلاد التي انتقضت حتى وصلوا إلى (سابور)[١] .

وفي سنة (٢٩هـ)، ولى عثمان رضي الله عنه على البصرة الأمير الشاب [عبد الله بن عامر بن كريز]، في وقت كانت فيه معظم بلاد فارس قد ثارت ونقضت عهودها مع المسلمين، بتأثير من يزدجرد ملك الفرس الذي كان يدور في شرق بلاد فارس يحرضها على الخروج، فسيّر عبد الله بن عامر الجيوش المختلفة من البصرة قاد بعضها بنفسه، حيث أخذ المسلمون يعيدون ما انتقض من بلاد الفرس، ويطاردون ملكهم، من موقع إلى آخر، فتمكن المسلمون بقيادة عبدالله بن عامر من الاستيلاء على مدن (مرو) و(سرخس)، (وكابل) سنة(٣١هـ)، كما أن بعض قواد عبدالله قام بإعادة فتح (كرمان)

---

(١) انظر : خليفة بن خياط : تاريخه ١٦١ ـ ١٦٥ ، الذهبي : تاريخ الإسلام « عهد الراشدين ٣٢٦ ، وانظر مواقع تلك المدن في الخارطة المرفقة .

و(سجستان) كما تمكن عبدالله بن عامر من فتح (خراسان) وعين عليها الأمراء، وفتح نيسابور بعد قتال مرير، حيث رضي أهلها بدفع الجزية، وفي الوقت نفسه قام بتأديب العصاة، وإعادتهم إلى صف الدولة الإسلامية [١].

وقد بعث عبدالله بن عامر بن كريز رضي الله عنه بالأحنف بن قيس إلى (بلخ) سنة (٣١هـ) فتمكن من فتحها بعد معارك عديدة، واتجه بجيشه شرقاً حتى وصل إلى (خوارزم) [٢] على نهر جيحون، ولكنه لم يتمكن من فتحها [٣].

ونتيجة لهذه الفتوح ولقضاء عبدالله بن عامر على ثورات فارس أصبح [يزدجرد] آخر ملوك الفرس يعيش شريداً طريداً، يتنقل من منطقة إلى أخرى إلى أن قام بعض الفرس بقتله للتخلص منه [٤]، وبموته انتهت دولة الفرس التي حاولت أن تقف حائلاً دون انتشار الإسلام فترة طويلة، ويئس الفرس من استعادة الأماكن المفتوحة من يد المسلمين، ولم يبق لهم نظام يقوم بذلك.

وهكذا نرى أن الفتوحات في خلافة عثمان رضي الله عنه تركزت بالدرجة الأولى على المحافظة على المناطق المفتوحة سابقاً وهي مهمة صعبة، حيث بذل المسلمون، وخاضوا عدة معارك حربية خصوصاً في فارس، إضافة

---

(١) انظر: خليفة بن خياط: تاريخه ١٦٣، البلاذري: فتوح البلدان ٣٩٥.

(٢) انظر الخرائط المرفقة في الملاحق

(٣) انظر خليفة بن خياط: تاريخه ١٦٦، اليعقوبي: تاريخه ١٦٦، ١٦٧.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ٣١١ ـ ٣١٣، الطبري: تاريخه ج٥/ ٧١، ابن كثير: البداية والنهاية ج٧/ ١٥٨.

إلى معاركهم مع الروم، في مصر وفي سواحل الشام، وفي البحر من أجل المحافظة على ماسبق فتحه، كما فتحت العديد من المناطق الجديدة، وخصوصاً في خراسان وبلاد الأفغان وأرمينية، وقبرص وشمال إفريقيا وبلاد النوبة .

رابعا : خلافة علي بن أبي طالب

بويع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالخلافة بعد استشهاد عثمان بن عفان رضي الله عنه (١) . ودامت خلافته أربع سنوات وبضعة أشهر، إلا أن الفتوحات في أيامه كانت شبه منقطعة، نظراً للفتن التي كانت قائمة في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية. ومع ذلك فإن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد بذل جهوداً عظيمة في المحافظة على المناطق المفتوحة، وخصوصاً في إقليم فارس الذي حاول أهله الخروج على الطاعة أكثر من مرة، فقام علي وأمراؤه بتأديب الثوار والمحافظة على تلك المناطق وتبعيتها للدولة الإسلامية . كما توجهت في أيامه جموع من المجاهدين المتطوعين إلى نواحي بلاد السند، وتمكنوا من فتح بعض المناطق، إلا أن كثرة الأعداء فيها جعلتهم لايتمكنون من ضمها إلى الدولة الإسلامية .

---

(١) انظر : الطبري : تاريخه : ج٥/ ١٥٧ ، ج٦/ ٨٣

الفصل الثالث

عصر الدولة الأموية

الفتوحات في العصر الأموي (٤١ - ١٣٢ هـ)

مرت الدولة الأموية ابتداء من مبايعة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بالخلافة إلى أن سقطت سنة ١٣٢ هـ بمراحل مختلفة من القوة والضعف، وقد تخلل ذلك قيام فتوح عظيمة لمناطق واسعة خلال مراحل القوة في هذه الدولة تعد من أهم الفتوح عبر التاريخ الإسلامي حيث انتشر الإسلام لأول مرة في العديد من المناطق. ومن أهم تلك الفتوح:

الفتوح في بلاد الروم:

كان معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه صاحب خبرة في قتال الروم منذ أن اشترك في الفتوح الأولى، أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وحين آلت إليه الخلافة استمر في ضرب الحدود الرومية، فكان يرسل الصوائف والشواتي، وهي جيوش تخرج كل عام في الصيف أو الشتاء تغير على الروم، وتغزو بلادهم[1]، وقد نجحت هذه الحملات في إرباك الروم وإضعافهم باستمرار، كما أنها كانت تعد المسلمين لمحاولة غزو القسطنطينية وفتحها وإسقاط دولة الروم.

---

(١) انظر: خليفة بن خياط: تاريخه ٢٠٨، البلاذري: فتوح البلدان ١٨٩، الطبري: تاريخه ج٥/ ١٣٠، الذهبي: سير أعلام النبلاء: ج٣/ ١٥١، انظر حول هذا المفهوم: كوركيس عواد: مصادر التراث العسكري عند العرب، الذي ذكر أن هناك كتاباً ألف في الصوائف للهيثم بن عدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ.

وفي سنة (٤٨هـ) جهز معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه جيشاً كثيفاً برياً وبحرياً لفتح القسطنطينية، وقد كان في هذا الجيش مجموعة من الصحابة، منهم (عبدالله بن عباس) و(عبدالله بن عمر) و(عبدالله بن الزبير) و(أبو أيوب الأنصاري) رضي الله عنهم، وكان قائد هذا الجيش (يزيد بن أبي سفيان)، وقد تمكن الجيش من اختراق جبال طوروس عبر آسيا الصغرى، ولاقى الصعاب والمشاق حتى وصل إلى أسوار القسطنطينية، حيث وقعت عندها العديد من المعارك بين المسلمين والروم الذين استماتوا في الدفاع عن عاصمتهم، ولم ينجح المسلمون في اقتحام القسطنطينية لعدة أسباب، منها شدة البرد وطول فترة الحصار، إضافة إلى قوة أسوار القسطنطينية وحصونها، واستخدام الروم لسلاح النار الإغريقية التي عملت على إحراق سفن المسلمين، فاضطر المسلمون إلى الانسحاب، وقد استشهد أثناء الحصار (أبو أيوب الأنصاري) رضي الله عنه ودفن بالقرب من القسطنطينية[1]. وكانت هذه الغزوة هي المحاولة الإسلامية الأولى لفتح القسطنطينية، وقد لحقتها محاولة أخرى في خلافة معاوية سنة ٥٤هـ حيث خرجت جيوش برية وبحرية من بلاد الشام وتمكنت من الاستيلاء على بعض المدن، وكذلك بعض الجزر المجاورة للقسطنطينية، واتخذتها قواعد عسكرية أخذت تشن منها الحملات على القسطنطينية، وتمكنت من حصارها، إلا أن هذا الحصار لم يكن كاملاً، نظراً لموقع القسطنطينية الجغرافي الذي أعطاها حصانة طبيعية تمنع محاصرتها

(١) الطبري: تاريخه ج٥/ ١٣٠، ابن الأثير: الكامل ج٣/ ٤٥٨، ابن كثير: البداية والنهاية ج٨/ ٣٢، «وقد جعلها بعضهم سنة ٤٩ هـ».

بالكامل، حيث كان البحر يمنع ذلك في جوانب مختلفة من المدينة، وقد استمر الجيش الإسلامي مرابطاً بالقرب منها من سنة ٥٤ حتى سنة ٦٠ هـ إلا أنه لم ينجح في فتحها فعاد هذا الجيش بعد وفاة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه بأمر من ابنه يزيد (١).

وقد تمكن المسلمون في خلافة معاوية من فتح جزيرة (رودس) سنة ٥٢هـ ونزلها جماعة من المسلمين أخذوا يعترضون سفن الروم ويمنعونها من الإغارة على المسلمين وبلادهم .

وقد اضطربت الأحوال في الدولة الأموية بعد وفاة معاوية، واختلفت العلاقة مع الروم ، وخفت الهجمات الإسلامية عليهم، وعندما استقرت الأحوال في خلافة عبدالملك بن مروان سنة ٧٣هـ بعث الصوائف والشواتي إلى آسيا الصغرى، وأكثر من غزو الروم حتى أرهق قواهم . وتمكن المسلمون بقيادة محمد بن مروان ومسلمة بن عبد الملك من تخريب قلاع الروم وتحصيناتهم بالقرب من بلاد الشام حتى يسهل على المسلمين اجتياح آسيا الصغرى .

وبعد وفاة عبد الملك بن مروان قام من بعده ابنه الوليد بن عبد الملك بمواصلة غزو أراضي الروم، وتمكن المسلمون من الاستيلاء على (طرسوس) و(هرقلة) و(عمورية) وتمهد الطريق إلى (القسطنطينية) .

---

(١) الطبري : تاريخه ج٥/ ١٦٤ ابن الأثير : الكامل ج٣/ ٤٩٧ .

وفي هذه الأثناء كان الوليد يعد الجيوش والأساطيل الإسلامية لغزو القسطنطينية عاصمة الروم، وقد توفي الوليد قبل إتمام المشروع، فعمل من بعده الخليفة سليمان بن عبدالملك علىٰ إتمامه، وسير الجيوش والأساطيل الإسلامية سنة ٩٨هـ لغزو (القسطنطينية)، وكان يقود هذه الحملات مسلمة بن عبدالملك، وقد وصلت الجيوش إلىٰ أسوار (القسطنطينية)، وعملت علىٰ حصارها ولقيت المشاق العظيمة في ذلك نظراً لشدة البرد في ذلك العام (١)، ونقص التموينات نتيجة لذلك، وفي أثناء الحصار توفي سليمان بن عبدالملك، وتولىٰ من بعده عمر بن عبدالعزيز الذي غير من سياسة الدولة، حيث أمر جيوش المسلمين حول القسطنطينية بالعودة، وآثر أن يركز جهوده علىٰ نشر الإسلام في المناطق المفتوحة والخاضعة للدولة الإسلامية بدلاً من فتح أراضٍ جديدة (٢)، ولا شك أن الحملات الأموية علىٰ القسطنطينية، وإن لم تنجح في فتحها، فقد نجحت في إثبات قوة المسلمين أيام الأمويين، وقدرتهم علىٰ الوصول إلىٰ عاصمة الروم نفسها، وهذا بالطبع يعني قدرة المسلمين علىٰ اختراق دفاعات الروم في آسيا الوسطىٰ وفي غيرها.

فتوح المشرق:

قام الأمويون ابتداءً من عصر معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه

(١) خليفة بن خياط: تاريخه ٣١٥، الطبري: تاريخه ج ٨ / ١١٧، ابن الأثير: الكامل ج٥/ ٢٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج٩/ ١٧٤.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخه ٣٢٠، الطبري: تاريخه ج٨/ ١٣٠، ابن الأثير: الكامل ج٥/ ٤٣، ابن كثير: البداية والنهاية ج٩/ ١٨٤.

بفتوحات عظيمة في بلاد المشرق، إضافة إلى الجهود المبذولة في تثبيت الإسلام في المناطق المفتوحة سابقاً أو التي حاول أهلها الخروج عن طاعة الدولة الإسلامية، ومن أهم تلك الفتوح ماقام به ولاة العراق من فتوح في (فارس) و(خراسان) و(سجستان)، والتي حاول أهلها الانتقاض على المسلمين والامتناع عن دفع الجزية، وأولى تلك الحملات هي التي قام بإرسالها عبدالله بن عامر بن كريز والي معاوية على البصرة سنة٤١هـ، وتمكن من خلالها من فتح أو إعادة فتح العديد من المناطق، ومن أشهرها: (هيرات) و(كابل) و(غزنة) و(بلخ) و(قندهار)، من مدن أفغانستان حالياً كما قام بنقل آلاف الأسر المسلمة من بلادالعراق إلى تلك المدن تمهيداً لانطلاق الفتح في بلاد ماوراء النهر[١].

كما استعمل معاوية بن أبي سفيان (عبيدالله بن زياد) على خراسان، وأوصاه بغزو بلاد ما وراء النهر ـ نهر جيحون ـ وكانت تحتوي على أقاليم وأسلحة ومدن كثيرة، فعبر عبيدالله إلى ماوراء النهر، وتمكن من فتح بعض مدنها ومنها (ترمذ) و(بخارى) و(بيكند) سنة ٥٤هـ[٢]، ثم تولى (خراسان) (سعيد بن عثمان بن عفان) ففتح (سمرقند) وأعاد فتح ترمذ وبخارى بعد انتقاضهما، وفرض على أهلها الجزية[٣] كما أن (المهلب بن أبي صفرة) قاد

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٣٨٨، ٣٩٨.

(٢) البلاذري: ٤٠١، الطبري: تاريخه ج٥/ ١٦٧، ابن الأثير: الكامل ج٣/ ٤٩٩.

(٤١٣) انظر إلى مواقع هذه المدن حسب الخارطة المرفقة.

الفتوح جنوبي كابل حتىٰ وصل بالمسلمين إلىٰ أرض الهند وأوقع بالمشركين وغنم منهم غنائم كثيرة [١].

وفي خلافة عبدالملك بن مروان قاد الفتوح في بلاد ماوراء النهر (المهلب بن أبي صفرة) إلا أن جزءاً من جهوده كانت تتركز في تثبيت أقدام المسلمين والقضاء على الخوارج في تلك المناطق [٢].

وفي خلافة الوليد بن عبدالملك أيضاً قام الحجاج بن يوسف الثقفي والي العراق بتعيين (قتيبة بن مسلم الباهلي) علىٰ (خراسان) سنة ٨٦هـ [٣] فبدأت الفتوح في بلاد ماوراء النهر تأخذ طابعاً جديداً يدفعها الحماس لنشر الإسلام، والجهاد الصادق من قتيبة وجنده لتثبيت أركان الدولة الإسلامية في تلك البقاع، وقد بدأ قتيبة وجنده بفتح مدينة (بلخ) التي تقع علىٰ مفترق الطرق المؤدية إلىٰ (الصفد) و(الصين)، ومنها تقدم حتىٰ عبرنهرجيحون، وخضعت له معظم القبائل الموجودة في المنطقة وتمكن من الاستيلاء علىٰ (بيكند) سنة ٨٧ هـ، وهي من المدن المهمة في طريق (بخارىٰ) واستولىٰ علىٰ بعض المدن الأخرىٰ[٤]، ورغم محاولة القبائل التركمانية القضاء علىٰ جيش المسلمين فقد تمكن قتيبة سنة ٩٠هـ من فتح مدينة (بخارىٰ) وفرمنها

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ٢٠٦ .

(٢) انظر : خليفة بن خياط : تاريخه ٢٧٩ ، ٢٨٨ , ٢٩٥ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٤٥٣ .

(٣)خليفة بن خياط : تاريخه ٢٩١ ، الطبري : تاريخه ج٨/ ٥٩ ، ابن الأثير ج٤/ ٥٢٣ .

(٤) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٠ الطبري ٨/ ٦١ ، ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٢٧ .

ملكها [١] .

وفي سنة ٩٣هـ قام قتيبة بغزو مناطق(خوارزم)على مصب نهر جيحون بالقرب من بحيرة خوارزم ،وأدخل المنطقة في طاعة الأمويين، ثم غزا قتيبة (سمرقند)، وكانت قدخلعت الطاعة، فحاول أهلها المصالحة ودفع الجزية فرفض قتيبة إلا أن يقبل أهلها ببناء مسجد ببلدتهم، وأن يضمنوا حمايته، ويؤمنوا من يدخل في الإسلام . ودخل قتيبة (سمرقند) ونقل إليها كثيراً من الأسر المسلمة التي ساعدت في نشر الإسلام بها[٢] .

وفي سنة ٩٤هـ غزا قتيبة بلاد (الشاس) و(فرغانة) وفتح العديد من المدن[٣] حتى وصل سنة ٩٦هـ إلى حدود الصين، ودارت بينه وبين ملكها المراسلات، حيث قال ملك الصين لرسل قتيبة : انصرفوا إلى صاحبكم فقولوا له ينصرف فإني عرفت حرصه وقلة أصحابه، وإلا بعثت إليكم من يهلككم ويهلكه، فقال رسول قتيبة :كيف يكون قليل الأصحاب من أول خيله عندكم وآخرها في منابت الزيتون . . وإن لنا آجالاً إذا حضرت فأكرمها القتل فلسنا نكرهه ولا نخافه ، فقال الملك : فماذا يرضيكم ؟ قال رسول قتيبة : إن القائد حلف أن لا ينصرف حتى يطأ أرضكم ويختم ملوككم ويأخذ

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٢ . ٣٠٣ ، الطبري : تاريخه ج٨/ ٦٨ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٤٢ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٥، الطبري : تاريخه ٨/ ٨٣ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٧٠ ـ ٥٧٥ .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٦ ، الطبري : تاريخه ج٨/ ٩١ .

الجزية منكم . فقال: فإنا نخرجه من قسمه فنبعث إليه بتراب من تراب أرضنا فيطؤه، ونبعث ببعض أبنائنا فيختمهم، ونبعث إليه بجزية يرضاها، ثم بعث ملك الصين إلى قتيبة بالهدايا والجزية وبعث بأواني من ذهب فيها من تراب الصين وأربعة غلمان من أبناء الملوك فقبل قتيبة الجزية والهدايا ووطئ التراب وختم الغلمان ثم عاد إلى (خراسان) (١).

ويتضح من خلال ماسبق أن قتيبة بن مسلم رحمه الله كان الفاتح الحقيقي لبلاد ما وراء النهر، وقد تمكن أن يمد فيها نفوذ الدولة الأموية إلى حدود الصين، وكان له دور كبير في نشر الإسلام في تلك البلاد حيث شجع الناس على اعتناقه واعتنى بنشر المساجد وتوزيع العلماء في الشرق حتى غدا أهل تلك المنطقة جلهم مسلمين، وبرز منهم علماء فطاحل .

فتوح السند (٢) :

كانت بداية الفتوح الأولى في بلاد السند أثناء خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، حيث قامت بعض جيوش البصرة بقيادة المهلب بن أبي صفرة سنة ٤٤ هـ بغزو أطراف السند، وتمكنت من فتح (مكران)، كما غزا المسلمون حوض نهر السند من (سجستان) ، وتمكنوا من فتح بعض

---

(١) البلاذري : فتوح البلدان ٣٩١ ، ٣٩٢ ، الطبري : تاريخه ج٨/ ١٠٠ ، ابن الأثير : الكامل ج٥/ ٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج٩/ ١٤٠ .

(٢) هي البلاد الممتدة من إيران غرباً إلى جبال الهملايا في الشمال الشرقي ، وهي حالياً تشمل جزءاً كبيراً من دولة الباكستان .

المواقع مثل (كش) و(قصدار) [١] وغيرها. على أن هذه المناطق المفتوحة لم تُضم إدارياً إلى الدولة الأموية في تلك الفترة، بل بقيت السيطرة فيها لغير المسلمين إلى وقت فتوح (محمد بن القاسم الثقفي).

وقداقترن اسم (محمد بن القاسم) ببلاد السند، فهو الفاتح الحقيقي الأول لها، حيث كانت ملجأً للخارجين على الدولة الإسلامية، وكان أهلها كثيراً ما يعتدون على سفن المسلمين في البحر، مما دعا الحجاج بن يوسف والي العراق للوليد بن عبد الملك أن يُلح على الوليد بفتح تلك البلاد، فأذن له الوليد بذلك فجهز جيشاً كبيراً قوامه عشرون ألف مقاتل، وعين (محمد بن القاسم) قائداً لذلك الجيش، وكان عمره سبع عشرة سنة [٢].

وفي عام ٩١هـ تحركت الجيوش من بلاد فارس عن طريق الساحل، وفي الوقت نفسه تحركت السفن من البصرة تحمل العتاد والرجال وقد تام وصول الجيوش البرية والبحرية إلى (الديبل) وعسكر محمد بن القاسم على أسوارها وحاصرها، وضربها بالمنجنيقات، وأتلف أسوارها، وهدم المعبد البوذي فيها، وتمكن من دخولها عنوة، فهرب أميرها فبنى المسلمون بها مسجداً وأقام بها جماعة منهم، ثم تقدم ابن القاسم شمالاً في بلاد السند وتمكن من فتح العديد من المواقع، ثم دارت معركة شديدة بين ملك السند

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ٢٠٦ ، البلاذري : فتوح البلدان ٤٢١ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٤٤٦ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٤ ، البلاذري : فتوح البلدان ٤٢٤ ، الطبري : تاريخه ج٨/ ٦٨ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٣٦ .

(داهر) وبين (محمد بن القاسم) ومن معه من المسلمين بالقرب من نهر السند قتل فيها (داهر) وقُضي على قواته [١]، وسار المسلمون يفتحون في بلاد السند حتى وصلوا إلى (الملتان)، وتمكنوا من فتحها عنوة، وكان بها معبد للبوذية يحج إليه أهل السند فهدمه المسلمون وحطموا أصنامه، واستقر ابن القاسم في (الملتان)، وصارت مركزاً رئيساً للمسلمين، وأخذ ينظم الحاميات الإسلامية ويبني المساجد بمختلف أنحائها، كما نظم أمورها الإدارية والمالية والحربية، وتمكن من تأمين سفن المسلمين في البحر، وبدأ الإسلام ينتشر في تلك المناطق [٢].

وحينما بويع (سليمان بن عبد الملك) بالخلافة سنة ٩٦هـ قام بعزل (محمد بن القاسم) عن ولاية السند [٣]، فاضطربت أحوالها إلى أن أسلم معظم أهلها وأمرائها عن طريق الدعوة في أيام عمر بن عبد العزيز رحمه الله ولم تخل السند من بعض المشاكل، ومع ذلك فقد انطلق المسلمون منها لغزو بلاد الهند عدة مرات أيام الأمويين [٤].

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٥ ، البلاذزي : فتوح البلدان ٤٢٦ ،ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٣٦ ، .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٧، البلاذري : فتوح البلدان ٢٢٧، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٣٩، ٥٨٨ .

(٣) البلاذري : فتوح البلدان ٤٢٨، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٨٨ .

(٤) انظر : البلاذري : فتوح البلدان ٤٢٩ ـ ٤٣٣ .

فتح شمال إفريقيا:

بعد استقرار الأمور لمعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كتب إلى واليه على مصر عمرو بن العاص رضي الله عنه أن يرسل الجيوش لاستكمال فتح شمال إفريقيا، فانطلقت أولى الجيوش سنة ٤١ هـ بقيادة عقبة بن نافع [١]، حيث تمكن من فتح العديد من المواقع. وقد استمرت حملات عقبة الأولى حتى سنة ٤٥هـ [٢]، ثم قاد الفتوح في تلك المناطق (معاوية بن خديج السكوني) حيث اتخذ من (برقة) قاعدة لانطلاق الجيوش الإسلامية، وامتدت فتوحه إلى منطقة (القرن) بالقرب من القيروان و(بنزرت)، وقد اشترك في تلك الفتوح عبدالله بن الزبير رضي الله عنه وعبد الملك بن مروان رحمه الله، وقد اشتركت الأساطيل الإسلامية المتحركة من مصر في فتوح سواحل إفريقيا.

وفي سنة ٥٠ هـ تم تعيين (عقبة بن نافع) لأول مرة والياً على الشمال الإفريقي بأمر من معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكان عقبة من المجاهدين في الشمال الإفريقي منذ أن بدأ المسلمون في فتحها. وقد شرع عقبة في بداية ولايته بتأسيس مدينة إسلامية تكون قاعدة ثابتة لجند المسلمين،

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن جهود هذا القائد راجع: محمود شيت خطاب: قادة الفتح الإسلامي (عقبة بن نافع الفهري)، دار الفكر بيروت ١٣٩٧هـ.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخه ٢٠٤، البلاذري: فتوح البلدان ٢٣٠، ابن الأثير: الكامل ج٣/ ٤١٩.

فأنشأ مدينة (القيروان)(١) بعيداً عن البحر حتى تكون في مأمن من أساطيل الروم، فكانت هذه المدينة حلقة اتصال بين المسلمين والبربر الذين أقبلوا على تلك المدينة وخالطوا المسلمين وكثر فيهم الإسلام .

وقد عزل عقبة بن نافع عن ولاية إفريقية سنة ٥٥هـ، وعين بدلاً عنه (أبو المهاجر بن دينار) الذي أخذ يحارب البربر بقيادة(كسيلة) وتمكن المسلمون من أسر (كسيلة) فاستبقاه أبو المهاجر ثم لم يلبث أن أعلن إسلامه واشترك مع أبي المهاجر في حرب البيزنطيين في (قرطاج) وما جاورها، حيث تمكن المسلمون من فتح العديد من المواقع والمدن في سواحل إفريقيا في منطقة تونس حالياً (٢)، وقد ظل أبو المهاجر والياً على شمال إفريقيا حتى سنة ٦٢هـ حيث قام (يزيد بن معاوية)بعزله، وأعاد (عقبة بن نافع) مرة أخرى لولاية شمال إفريقيا (٣) .

وصل عقبة إلى (القيروان) وأعاد ترتيبها واستخلف عليها، ثم قال : إني قد بعت نفسي لله عز وجل فلا أزال مجاهداً حتى أخلص أفريقية من الكفر، وأدخلها في دار الإسلام، أو أقضي دون ذلك (٤)، وخرج في جيش المسلمين فاتحاً في إفريقيا فتمكن من فتح (بجاية) و(قسنطينة) و(تلمسان)

---

(١) خليفة بن خياط : تاريخه ٢١٠ ،البلاذري : فتوح البلدان٢٣٠ ، الطبري : تاريخه ج٦/ ١٣٤، ابن الأثير : الكامل ج٣/ ٤٦٤ .

(٢)البلاذري : فتوح البلدان ٢٣٠ .

(٣) الرقيق القيرواني :تاريخ أفريقية والمغرب ٤٠ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ١٠٥ .

(٤) انظر الرقيق القيرواني : تاريخ أفريقية والمغرب ٤١، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ١٠٥ .

و(تاهرت) ثم توجه إلىٰ المغرب الأقصىٰ حيث فتح مدنه الواحدة تلو الأخرىٰ، رغم المقاومة الشديدة التي جوبه بها من قبل قوىٰ البربر والروم المتحدة، حتىٰ وصل عقبة في مسيره إلىٰ ساحل بحر الظلمات ـ المحيط الأطلسي ـ في بلاد المغرب فأقحم فرسه فيه، وأخذ يناجي الله في دعاء، مماقال فيه : اللهم إنك تعلم أني لا أريد أن يعبد علىٰ وجه الأرض أحد سواك، ولوكنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضاً لوطئتها أذكر فيها اسمك العلي العظيم اللهم اشهد أني قد بلغت عذراً [1] .

واستطاع عقبة أن يبث سراياه في بلاد (السوس) ريف المغرب، وفكر في العبور شمالاً إلىٰ الأندلس، لكنه قرر العودة إلىٰ القيروان مؤقتاً، وفي الطريق كان معه (كسيلة) أحد قواد البربر وكان يظهر منه الإسلام، ولكن خلافاً وقع بينه وبين عقبة فاستغل انفصال عقبة عن أصحابه فقتله حيث استشهد رحمه الله سنة ٦٣هـ [2] .

أدىٰ مقتل عقبة إلىٰ ارتداد الكثيرمن البربرعن الإسلام وثورتهم علىٰ المسلمين حتىٰ ساءت أوضاعهم فاضطروا إلىٰ مغادرة شمال إفريقيا فتركوا (القيروان) متجهين إلىٰ (برقة) في الشرق، وأصبحت السيطرة في(القيروان) وغيرها لـ (كسيلة) .

---

(١)انظر : ابن الأثير : الكامل ج٤/ ١٠٦ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ٢٥١ ، ابن الأثير : أسد الغابة ج٣/ ٤٢١ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٣/ ٥٣٤ .

وحينما استقرت الخلافة لـ (عبد الملك بن مروان) ولى (زهيراً بن قيس البلوي) على إفريقيا، فتوجه بجيش كبير من المسلمين قاصداً القيروان سنة ٦٦هـ ووقعت بينه وبين (كسيلة) ومن معه من جيوش الروم والبربر معركة كبيرة انتهت بقتل (كسيلة) والقضاء على قواته [١] . وتمكن زهير من تثبيت الأمن في معظم شمال إفريقية إلا أن الروم هاجموا (برقة) في الشرق عن طريق البحر، وأسروا جموعاً كبيرة من المسلمين فيها فتوجه إليهم زهير في قلة من أصحابه فتمكن الروم من قتله سنة ٦٩هـ رحمه الله [٢] .

ثم التف البربر حول امرأة منهم تسمى (الكاهنة) تمكنت من الاستيلاء على معظم شمال إفريقيا، في حين كان المسلمون مشغولين بالفتن التي حدثت في تلك الفترة من خلافة عبدالملك بن مروان .

وبعد أن هدأت الأمور في الشرق بعث (عبد الملك بن مروان) بـ (حسان بن النعمان) فاتحاً وقائداً لشمال إفريقيا، فتوجه إليها سنة ٧٤هـ، في قوة كبيرة بلغت قرابة أربعين ألف مقاتل، وقد ركز حسان جهوده الأولى لفتح (قرطاجنة) أكبر مدن الروم في شمال إفريقيا، وبعد معارك طويلة تمكن من فتحها سنة ٧٤ [٣]، وحاول أهلها الثورة بعد أشهر إلا أن حساناً تمكن من القضاء على ثورتهم وتأديبهم، كما تمكن من الاستيلاء على المواقع الرومية في

---

(١)الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ٥١ ، ابن الأثير : الكامل ج/ ١٠٨ .
(٢) البلاذري : فتوح البلدان ٢٣١ ، الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ٥٣ . .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٣٦٩ .

تونس وشمال إفريقيا وغيرها، وعمل على بناء المساجد في تلك الأقاليم [١]، وفي خلال هذه الفترة وقعت معركة كبرى بين حسان وجموع البربر بقيادة (الكاهنة) بالقرب من جبال (أوراس)، فانهزم المسلمون في المعركة، ووقع بعضهم أسرى في يد البربر، وتراجع بقية المسلمين إلى الشرق، واستطاعت الكاهنة الاستيلاء على البلاد مرة أخرى.

وقد حكمت الكاهنة شمال إفريقيا أربع سنوات، وفي هذه الأثناء أخذ المسلمون في الشرق يعدون العدة لفتح جديد لشمال إفريقيا، فوصلت الأنباء إلى الكاهنة، وكانت تتصور أن محاولات الفتح الإسلامية هي مجرد غزوات للنهب أوالسلب، فأصدرت أوامرها لجنودها لتخريب البلاد تخريباً تاماً حتى لايطمع فيها المسلمون، فخربوا المدن وهدموا الحصون وقطعوا الأشجار وأتلفوا المزارع، حتى أصبحت البلاد خراباً، فخرج أكثر الأفارقة إلى إسبانيا (الأندلس) وغيرها، وأما من بقي منهم فكانوا يتطلعون لقدوم المسلمين لإنقاذهم من هذا الخراب الظالم [٢].

وتحرك حسان بن النعمان في غزوته الثانية سنة (٨٠) هـ فاستقبله الأفارقة والروم في المنطقة بالفرح والسرور، وكانوا يريدون تخليصهم من تسلط الكاهنة، واستمر حسان يزحف على البلاد حتى أدرك الكاهنة وجندها، فوقعت بينهم معركة عظيمة في (برقة) انتهت بمقتل الكاهنة وتفرق

---

(١) الرقيق القيرواني: تاريخ إفريقية والمغرب ٥٦، ابن الأثير: الكامل ج٤/ ٣٧٠.

(٢) الرقيق القيرواني: ٥٧ ـ ٦١، ابن الأثير: الكامل ج٤/ ٣٧٠, ٣٧١.

جنودها سنة ٨٢ هـ(١)، فخلصت إفريقيا للمسلمين بقيادة (حسان) وأسلمت جموع كبيرة من البربر وكان فيهم ولدا الكاهنة، فأخذوا يغزون مع المسلمين حتى وصلوا إلى نواحي (موريتانيا) ـ حالياً ـ واستمر المسلمون في تعليم البربر الإسلام وفتحوا لهم المساجد، فأقبلوا على الإسلام بصدق وحماس، وبدأ حسان ينظم إفريقيا، فدون الدواوين ونظم الخراج ومهد الطرق ووزع الحاميات، وعمل على إيجاد أسطول يمنع غارات الروم البحرية . وبعد استقرار الأمور في إفريقيا عُزل حسان بن النعمان سنة ٨٩هـ وعين بدلاً عنه(موسى بن نصير) بأمر من الخليفة الأموي الوليد بن عبدالملك (٢)، وفي أيام موسى حاولت جماعات من البربر الخروج عن الطاعة، فتمكن موسى من تأديبهم وأعاد تنظيم البلاد (٣)، وزاد دخول البربر عن ذي قبل في الإسلام، فاستفاد منهم في الإدارة وعين بعضهم أمراء على قومهم، وأسكن جماعة من العرب في المغرب الأقصى، وعين مولاه (طارق بن زياد) على (طنجة)، وأوكل إليه إدارة ما جاورها من الغرب(٤)، وأصبحت الأوضاع في

---

(١) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ٦٤ ، وقد جعل موتها سنة ٧٤ وهو خطأ على ما يبدو ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٣٧١ ، وألمح إلى أنهاقتلت بعد أربع سنوات من هزيمتها للمسلمين سنة ٧٤هـ .

(٢) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٢ ، الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ٦٥ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٣٩ .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٢ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٣٢ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٤٠ .

(٤) البلاذري : فتوح البلدان ٢٣٢ ، الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ٦٩ .

أيام موسىٰ مستقرة، وأصبح المسلمون في المنطقة من العرب أوالبربر يتطلعون إلىٰ فتوح جديدة .

فتح الأندلس سنة ٩٢هـ :

يعتبر فتح الأندلس امتداداً لحركة الفتوح العامة التي كان باعثها الأول نشر الإسلام وتبليغه للناس، وقد كانت الظروف في عهد الوليد بن عبد الملك مواتية لنشاط الفتوح، حيث كانت الأحوال العامة للدولة الإسلامية مستقرة، مما أدىٰ إلىٰ التوجه العام للجهاد رسمياً وشعبياً، كما أن الأحوال في إفريقية كانت مستقرة، ويتطلع من فيها من المسلمين إلىٰ الجهاد، وكانت بلاد الأندلس محكومة من قبل القوط الغربيين وملكهم (لذريق) وقد عانىٰ أهل الأندلس ظلماً شديداً من ذلك الحكم، وسمعوا بما قام به المسلمون من تنظيم لأفريقية، وحسن معاملة وعدل بين الناس، ولذلك تطلعوا إلىٰ الدخول تحت حكم الإسلام وأحسوا أن في ذلك إنقاذاً لهم من الظلم الذي كانوا يعيشونه[1] ، كما أن المسلمين كانوا يفكرون في فتح الأندلس منذ أيام عثمان ابن عفان رضي الله عنه، حيث وصلت إليها أساطيل المسلمين في تلك الفترة[2]، يضاف لذلك أن الكثير من البربر قد دخلوا في الإسلام عن اقتناع، وتولىٰ بعض منهم مهمات إدارية وعسكرية في شمال إفريقيا، فتحمسوا لنشر الإسلام ولفتح مناطق جديدة، فكانت الأندلس هي أقرب مايمكن فتحه من

---

(١) انظر : ابن الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ٧٣، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٦٠ ، ٥٦١ .

(٢) انظر : ابن الأثير : الكامل ج٣/ ٩٣ .

البلدان بالنسبة لهم .

وقد بدأ موسىٰ بن نصير والي إفريقية التفكير عملياً بفتح الأندلس فأرسل سنة ٩١هـ حملة صغيرة قوامها ٥٠٠ رجل بقيادة (طريف بن مالك) عبرت إلىٰ الأندلس ونجحت في ضرب بعض المواقع جنوبيها وتمكنت من العودة بسلام محملة بالغنائم، كان ذلك حافزاً لموسىٰ لإعداد حملة كبرىٰ لمباشرة الفتح[١] .

حملة طارق بن زياد :

كان (طارق بن زياد) أحد قواد البربر الذين يعتمد عليهم (موسىٰ بن نصير) في إدارة شؤون شمال إفريقيا، وكان معروفاً بالشجاعة والديانة وحسن الإسلام [٢]، فأسند إليه موسىٰ بن نصير قيادة حملة عسكرية مكونة من اثني عشر ألف مقاتل لمباشرة الفتح في الأندلس، وقد عبر طارق بمن معه من الجند إلىٰ الأندلس بمساعدة (يوليان) حاكم (سبتة)، فنزل هو ومن معه من الجند أرض الأندلس، وغادرت السفن [٣]، فخطب طارق في جنوده حاثاً لهم علىٰ الجهاد وابتغاء ما عند الله [٤]، ثم باشروا فتح المواقع، والتقوا

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٦١ ، المقري التلمساني : نفح الطيب ج١/ ٢٢٩، ٢٣٠ .

(٢) انظر ترجمته في : الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٤/ ٥٠٠ .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٤ ، الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ٧٤ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٦٢ ، المقري التلمساني : نفح الطيب ج١/ ٢٣١ .

(٤) تحدث كثير من المؤرخين عن إحراق طارق بن زياد للسفن وهي قضية غير ثابتة ولمزيد من التفاصيل راجع : د. عبد الحليم عويس : قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ ، دار الصحوة القاهرة ١٤٠٧هـ .

بجنود القوط في عدة معارك، وفي هذا الوقت تحرك ملك الإسبان (لذريق) متجهاً ألى الجنوب على رأس جيش قوامه مائة ألف جندي والتقى مع المسلمين يقودهم (طارق بن زياد) .

معركة وادي لكة (شذونة) ٢٨ رمضان ٩٢ هـ :

كان معظم جيش طارق بن زياد من البربر ومعه ثلاثمائة فقط من العرب، وقد بعث لذريق ملك الإسبان أحد جواسيسه ليتوغل في صفوف المسلمين ويأتيه بالأخبار. وبعد فتره عاد إليه وقدم تقريراً قال فيه : «لقد جاءك من لايريد إلا الموت أو إصابة ما تحت قدميك حطوا في السهل موطنين أنفسهم على الثبات ليس لهم في أرضنا مهرب ولاسفن يتعلقون بها» .

وقد انزعج لذريق من التقرير وعبأ قواته لمقاومة المسلمين، وكان قوام جيشة أربعين ألف مقاتل. مما اضطر طارق بن زياد لطلب النجدة من موسى ابن نصير والي إفريقية فأمده بخمسة آلاف مقاتل فأصبح جيش المسلمين اثني عشر ألفاً(١)، مقابل أربعين ألفاً من الإسبان الذين غرتهم أنفسهم واستعدادهم، وكانوا متأكدين من تغلبهم لدرجة أنهم قد أعدوا مايحملون عليه أسرى المسلمين حيث كان مع لذريق عربات تحمل الأموال وهو على سرير تحمله ثلاث بغلات مقرونات وعليه قبة مكللة بالدر والياقوت، وعلى جسمه حلة لؤلؤ (٢)، ومعهم عدد من الدواب لاتحمل غير الحبال لكتاف

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٦٢ .

(٢) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والمغرب ٧٥، المقري التلمساني: نفح الطيب ج١/ ٢٢٣، ٢٤٠ .

الأسرىٰ المسلمين، إذ لم يشكوا في انتصارهم علىٰ المسلمين وأسرهم أوقتلهم، حيث كان جيش الإسبان أقوىٰ تنظيماً وأكثر عدة واستعداداً، وأعلم منهم بالأرض ومسلكها، وأقرب إلىٰ مصادر التموين وكانت كل العوامل المادية في صالحه .

وقد تجمع الجيشان في وادي لكة قرب شذونة جنوب غرب الأندلس ، وبدأت المعركة في يوم الأحد ٢٨ رمضان سنه ٩٢ واستمرت ثمانية أيام أبلىٰ المسلمون فيها بلاءً حسناً، وقدموا فيها ثلاثه آلاف شهيد أي قرابة ربع الجيش وصبروا وصابروا .

ولله در طارق بن زياد وهو يمثل تلك الجموع من المجاهدين قائلاً :

ولسنا نبالي كيف سالت نفوسنا

إذا نحن أدركنا الذي كان أجدرا (١) .

كان الجيش الإسلامي في هذه المعركة يتفوق بقوة العقيدة(٢) وحب الموت وطلب الشهادة والتماسك والثبات وإعداد ما استطاعوا من قوة مادية، وهذه الصفات تغلبت علىٰ كل القوىٰ المادية التي كانت في ظاهرها في صالح الإسبان، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين ومقتل (لذريق) ملك الإسبان(٣)، وأسر الألوف منهم في الحبال التي أعدوها للمسلمين .

(١) انظر المقري التلمساني : نفح الطيب ج١/ ٣٦٥ .

(٢) انظر : عبد الرحمن الحجي ٥٤ .

(٣) ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ١٥٣ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٦٣ ، المقري : التلمساني : نفح الطيب١/ ٢٤٢ .

وكان من نتيجة المعركة أن أصبح الطريق سالكاً للمسلين لفتح بقية الأندلس ونشر الإسلام فيها . والملاحظ أن المسلمين كانوا يجدون التعاون والتشجيع من أهل البلاد الأصليين من الإسبان ضد حكامهم الأصليين، لما يعلمونه من عدل الإسلام وسماحة المسلمين .

ولم يكتف طارق بهذا النصر، بل سارع إلىٰ فتح المدن الإسبانية رغم مقاومتها الشديدة للمسلمين، فتمكن من فتح (إشبيلية) و(قرطبة)، وانقسم جيش طارق إلىٰ فريقين اتجه كل واحد منهما لفتح بعض المناطق والتقىٰ الفريقان عند (طليطلة)، حيث تمكن المسلمون من فتحها [(١)].

وفي هذه الأثناء كان طارق يكتب إلىٰ موسىٰ بن نصير بأخبار الفتح، فرأىٰ موسىٰ أن يشارك في ذلك الفتح بنفسه لينال الأجر والثواب ويساعد طارق في مهمته، خصوصاً أن بلاد الأندلس كانت واسعة وتحتاج إلىٰ قوات أكبر لفتح المواقع المتعددة والمنتشرة في أنحائها ولتثبيت فتوح طارق في المواقع التي حاول أهلها الانتقاض .

حملة موسى بن نصير:

استخلف موسىٰ أحد الأمراءعلىٰ إفريقيا، وعبر إلىٰ بلاد الأندلس ومعه عشرة آلاف مقاتل، وكان ذلك في رجب سنة ٩٣هـ[(٢)]، وبعث الرسل

---

(١) الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والأندلس ٧٦ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٦٣، ٥٦٤، ابن الكردبوس : ١٣٥ ، المقري التلمساني : نفح الطيب ج١/ ٢٦٠ .

(٢) انظر : الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والأندلس ١٤٤، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ١٤٤ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٦٤ ، المقري التلمساني : نفح الطيب ج١/ ٢٦٩ .

يطلب من طارق التريث في الفتح وعدم العجلة فيه نظراً لانتقاض بعض البلاد المفتوحة . وعمد موسى إلى سلوك طرق أخرى لم يسلكها طارق، حتى يتشرف بفتح مواقع جديدة، وقد عمل موسى على إعادة فتح (إشبيلية) بعد أن انتقضت ثم سار إلى (ماردة) حيث تمكن من فتحها بعد حصاردام عدة أشهر، ذهب فيه الكثير من شهداء المسلمين، ثم نكث أهل (اشبيلية) العهد، فاضطر موسى إلى فتحها للمرة الثالثة، ثم اتجه إلى (طليطلة) [(١)]، حيث التقى مع (طارق بن زياد)بالقرب منها ، ودار نقاش بين القائدين حول تفاصيل الفتوح القادمة، واتفقا على خطة معينة، ثم تابع القائدان فتوحهما في شمال إسبانيا، وأخذت المدن تتساقط تباعاً، ومنها (سرقسطة) و(وشقة) و(لاردة) في الشمال حتى وصل المسلمون (جبال البرانس) في شمال الأندلس عند الطرف الجنوبي لفرنسا [(٢)]، وهكذا تمكن المسلمون من فتح معظم إسبانيا . وقد اضطر (طارق بن زياد) و(موسى بن نصير) سنة ٩٥هـ لمغادرة الأندلس إلى بلاد الشام بناء على طلب الخليفة (الوليد بن عبد الملك) . وقد خلف موسى بن نصير ابنه (عبدالعزيز) على ولاية الأندلس [(٣)]، فقام باستكمال الفتح في

---

(١) انظر ابن الرقيق القيرواني : تاريخ إفريقية والأندلس ٧٨ ، ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس ١٤٧، ١٤٨، ١٥٥ .

(٢) المقري التلمساني : نفح الطيب ج١/ ٢٦٩, ٢٧٣ .

(٣) خليفة بن خياط : تاريخه ٣٠٦ ، البلاذري : فتوح البلدان ٢٣٢ ، ابن الأثير : الكامل ج٤/ ٥٦٦، ابن خلدون : العبر ج٤/ ١١٨ ، المقري التلمساني : نفح الطيب ج١/ ٢٨٠ .

بعض المواقع شرق (الأندلس)(١). وقد بقيت بعض المواقع الجبلية في الركن الشمالي الغربي لبلاد الأندلس لم يفتحها المسلمون، مما جعل النصارى الإسبان يتجمعون فيها، ويكونون مع مرور الزمن قوة نصرانية أخذت تحارب المسلمين، وتعمل على طردهم من الأندلس (٢).

وقد حاول المسلمون بعد فتح إسبانيا التقدم في فرنسا وغرب أوربا من بلاد الأندلس(٣).

بلاط الشهداء سنة ١١٤هـ:

استمر المسلمون في تنظيم شؤون الأندلس المختلفة، وتعاقب عليها ولاة مختلفون كان هم الكثير منهم مواصلة الجهاد والفتح في مناطق جديدة، وكان من أشهر هؤلاء الولاة (السمح بن مالك الخولاني) الذي أعد سنة ١٠٢هـ جموعاً كبيرة من المجاهدين وعبر بهم جبال البرتات (البرانس) فاتحاً في جنوب غرب فرنسا أو ما عرف بـ (بلاد الفرنجة) أو (الغال)، وقد تمكن من فتح العديد من المدن والمواقع في تلك المنطقة ووصل إلى مدينة (تولوز)، وكان يرافقه في تلك الغزوة (عبد الرحمن الغافقي)، وقد دارت بين جيوش المسلمين وبين أمير إكتانيا الدوق ديو معركة شرسة استشهد فيها جموع كبيرة من المسلمين على رأسهم قائدهم السمح بن مالك الخولاني فقام عبد الرحمن

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج٤/ ٥٦٦، المقري: نفح الطيب ج١/ ٢٨١.

(٢) انظر: د. عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ١٢٥..

(٣) لمزيد من التوسع حول هذا الموضوع، انظر: الأمير شكيب أرسلان: تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط.

الغـافـقي بتنظيم من تبـقىٰ من الجيش المسلـم والانسـحاب بهم جنوب جبـال البرانس بعد أن أصيب عدد كبير منهم (١) .

وأصبح الوالي لبلاد الأندلس من بعد ه (عنبسة بن سحيم الكلبي) الذي واصل طريقـة سلفه في الجـهاد في تلك النواحي حتىٰ استشـهد وهو غـاز فيـها سنة ١٠٧ هـ(٢) .

وبقيت الأندلس دون ولاة محـدودين حتىٰ سنة ١١٢ هـ حيث أصبح عبد الرحـمن الغافقي والياً علىٰ الأندلس وكان يرنـو ببصـره لإعادة الفتح في بلاد الفرنجه جنوب فرنسا ، خصوصاً أنه كـما ذكرنا سبق أن جاهد فيـها زمن السمح بن مالك الخولاني فكسب خبرة ودراية في مجاهدة أهلها .

واشتهر عن الغافقي ورعه وتقـواه وصلاحه وإيمانه القوي وكان يقول : لوكانت السموات والأرض رتقاً لجعل الله للمتقين منها مخرجاً (٣) .

وأعد الغافقي جيشاً كثيفاً للجـهاد وراء جبال البرانس في جنوب فرنسا وجـهزه بما يحتـاجه من سلاح وعتـاد وتحرك به سنة ١١٢هـ ، وبدأ يخـوض العديد من المعارك في المنطقة لمدة زادت علىٰ العام انتصر في العديد منها (٤) .

---

(١) المقري التلمساني : نفح الطيب ج٣/ ١٥ ، شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ٧١ ، عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ص ١٨٥ .
(٢) المقري التلمساني : نفح الطيب ج٣/ ١٦ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج٥/ ١٧٤ .
(٤) انظر : المقري التلمساني : نفج الطيب ج٣/ ١٦ .

كان الفرنجة خلال هذه الفترة بقيادة (شارل مارتيل) يعدون جيشاً قوياً لمواجهة المسلمين، حتى إذا أقبل الشتاء تصدوا للمسلمين في موقعة اشتهرت عند المسلمين باسم بلاط الشهداء وعند الفرنسيين باسم تير بواتييه نسبة إلى مدينتين فرنسيتين وقعت المعركة بالقرب منهما .

وكان جيش الفرنجة أقوى وأكثر عدداً وعدة من المسلمين وأعرف بطبيعة الأرض وأكثر استعداداً لتحمل الجو البارد، ومع هذا فقد قاتل المسلمون ببسالة نادرة لعدة أيام، وقد ظهرت بوادر انتصار للفرنجة على المسلمين، فحاولوا الالتفاف على الأعداء واستشهد عبدالرحمن الغافقي قائد المسلمين ولما يكمل المسلمون استعدادهم في الالتفاف، مما هز جيش المسلمين، ومع ذلك فقد حاولوا إعادة الكرة على الفرنجة ولكن الهزيمة حلت بهم فاستشهدت جماعة كبيرة منهم [1]، وقيل إنه لم ينج من المسلمين أحد [2].

وقد عولت المصادر الفرنسية كثيراً على هذه المعركة ، واعتبرت أن الانتصار فيهاعلى المسلمين قد أوقف تقدمهم في أوربا الغربية [3] .

مع العلم أن المسلمين حاولوا العودة إلى جنوب فرنسا بعد الغافقي بل ونجحوا في إقامة بعض الإمارات في جنوب فرنسا [4].

---

(١) انظر : د. عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ١٩٨ .

(٢) المقري التلمساني : نفح الطيب ج٣/ ١٥ .

(٣) انظر إلى ما أورده شكيب أرسلان : تاريخ غزوات العرب ٩٨ ، ١٠٢ ، و د. عبد الرحمن الحجي : التاريخ الأندلسي ١٩٩ .

(٤) انظر : ابن الأثير : الكامل ج٤/ ١٨١ .

ومن الجدير بالملاحظة أن الفتوحات في العصر الأموي كانت تنشط عندما تقل المشاكل داخل الدولة الإسلامية، والعكس صحيح، فحينما ينشغل المسلمون بالجهاد والفتوح تقل المشاكل الداخلية، وحينما يتوقفون عن الجهاد تظهر الفتن والقلاقل. ويُعد عصر معاوية عصراً زاهراً بالفتوح، كما يُعد عصر الوليد بن عبدالملك العصر الذهبي للفتوح أيام الأمويين، حيث فتحت مناطق جديده في السند والأندلس وماوراء النهر. ومن خلال مقارنة العصر الأموي بما سبقه أو لحقه من العصور نجد أنه لامثيل له في سعة الفتوح سوىٰ ما حدث في عصر االراشدين قبله، أو في العصر العثماني في أزمان لاحقة فهذه العصور الثلاثة هي عصور الفتوح والمد الإسلامي الرئيسة .

الفصل الرابع

عصر الدولة العباسية

الفتوحات في العصر العباسي

امتد العصر العباسي من سنة ١٣٢هـ حتىٰ سنة ٦٥٦هـ، وقد تخلل ذلك العصر فترات قوة وفترات ضعف، كما أن السمة الغالبة لعصر الدولة العباسية كانت ظهور دول إسلامية مختلفة في أنحاء متفرقة من العالم الإسلامي، بعضها يدين بالولاء للخلافة العباسية وبعضها مستقل عنها تماماً، بل ومعاد لها أحياناً، وللكثير من هذه الدول فتوحها وحركاتها الجهادية الخاصة، وتعتبر الفتوح التي باشرها الخلفاء العباسيون أو أمراؤهم محدودة جداً مقارنة بالعصور السابقة لهم أو اللاحقة، إلا أن العباسيين نجحوا في المحافظة علىٰ الدولة الإسلامية، وحدودها في غالب الأحيان، وهذا بالطبع استلزم منهم حروباً وقائية ضد الروم بالدرجة الأولىٰ، وضد غيرها من الدول المجاورة .

الحروب مع الروم :

عاشت الدولة العباسية حروباً مختلفة مع الروم، وخصوصاً في العصر العباسي الأول، ومن أهم الحروب التي دارت بين المسلمين والروم ماجرىٰ في أيام (هارون الرشيد ١٧٠ ـ ١٩٣هـ)، حيث عمل علىٰ تقوية الثغور الإسلامية مع الروم وعزلها وأسكنها الجنود [١]، وجعلها ولاية واحدة تمتد من الشرق إلىٰ الغرب بمحاذاة الروم سميت (العواصم) وأكثر فيها الحصون [٢]، وكان

---

(١) انظر البلاذري : فتوح البلدان ١٧١، ١٧٥ .

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ١٩٤، الطبري : تاريخه ج١٠/ ٩٨ .

المسلمون يغزون الروم صيفاً وشتاء فيما عرف بالصوائف والشواتي منذ أيام الأمويين [١]. واستمر العباسيون على ذلك في عصورهم الأولى، وقد خرج الرشيد بنفسه سنة ١٨١هـ لغزو الروم [٢]، مما جعل ملكتهم (إيرين) تدفع الجزية للمسلمين مقابل الصلح، ورضي الرشيد بذلك .

وفي سنة ١٨٧هـ أزيحت الملكة (إيرين) عن الحكم وعين مكانها (نقفور) ملكاً جديداً على الروم، فنقض الصلح مع المسلمين، وكتب إلى هارون الرشيد يهدد ويتوعد قائلاً : من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب أما بعد فإن الملكة التي كانت قبلي أقامتك مقام (الرخ) ـ طائر ضخم يفترس الطيور ـ وأقامت نفسها مكان (البيدق) فحملت إليك من أموالها ماكنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، لكن ذلك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي هذا فاردد ماحصل قبلك من أموالها وافتد نفسك بما تقع به المصادرة لك وإلا فالسيف بيننا وبينك .

فلما قرأ الرشيد كتابه استشاط غضباً حتى خشي من ذلك جلساؤه، ثم دعا بدواة وكتب على ظهر كتاب نقفور : « بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم، قد قرأت كتابك يابن الفاجرة والجواب ماتراه دون ماتسمعه » [٣]. . . . . . !!!، ثم خرج الرشيد بالأجناد

(١) البلاذري : فتوح البلدان ١٦٧ .

(٢) الطبري : تاريخه ج١٠/ ٦٩ .

(٣) الطبري : تاريخه ج١٠/ ٩٢ ، وانظر الكامل ج٦/ ١٨٤ .

لقتال الروم في اليوم الذي وصل فيه الكتاب . وقصد (هرقلة)، وهي من أكبر مدن الروم ففتحها، وغنم منها الغنائم وأخذ يصول ويجول في بلاد الروم حتىٰ اضطر نقفور صاغراً أن يوادع الرشيد ويعقد معه معاهدة جديدة، فرجع الرشيد من غزوته، إلا أن نقفور نقض المعاهدة وكان الرشيد لايزال في الطريق والوقت شتاء ، فخشي جلساء الرشيد من إبلاغه بنقض نقفور للعهد فطلبوا من أحد الشعراء إبلاغه بذلك من خلال قصيدة لعلها تخفف من غضبه وكان منها :

نقض الذي أعطيته نقفور وعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه غنم أتاك به الإله كبير

. . . .

فتح يزيد علىٰ الفتوح يؤمنا بالنصر فيه لواؤك المنصور

إلىٰ آخر القصيدة التي ما أن سمعها الرشيد حتىٰ عاد أدراجه مرة أخرىٰ للإيقاع بنقفور وجنده الروم فغزا وفتح العديد من المواقع مما دفع نقفور إلىٰ طلب الصلح مرة أخرىٰ، واستمرت جيوش المسلمين في الغزو نواحي بلاد الروم حتىٰ عاد الرشيد بنفسه لغزو بلاد الروم مرة أخرىٰ سنة ١٩٠هـ وتمكن من فتح هرقلة وهي من أعز مدن الروم عليهم ومسقط رأس نقفور، مما دفع نقفور إلىٰ التذلل والخضوع للمسلمين وأقر بدفع الجزية عن نفسه وأهل بيته أولاً وعن جميع أهل مملكته ثانياً(١) .

(١) انظر : . الطبري : تاريخه ج١٠/ ٩٢، ٩٣ ،ابن الأثير : الكامل ج٦/ ١٨٦ ،ابن كثير : البداية والنهايةج١٠/ ٢٠٣ (وانظر ، خليفة بن خياط : تاريخه ٤٥٨، ٤٥٩) .

ومن أبرز الفتوح في عهد العباسيين ماقام به المأمون حيث خرج بنفسه لغزوالروم سنة٢١٥هـ، وفتح ما يزيد على عشرين حصناً من حصونهم (١) ، مما دفع ملك الروم (تيوفلس) إلى طلب الهدنة مع المسلمين، وتأمين التجارة، ورد الأسرى من الجانبين . وفي سنة ٢١٨هـ قام المأمون بنفسه بغزو الروم بعد أن تلقى رسالة من ملكهم أغضبته ، فرد المأمون على رسالته وعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية، وكان مما قال المأمون في تلك الرسالة : «إني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة، من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية، والشريعة الحنيفية، فإن أبيت ففدية توجب ذمة، وتثبت نظرة، وإن تركت ذلك ففي يقين المعاينة بنعوتنا ما يغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة، والسلام على من اتبع الهدى »(٢) . فرفض ملك الروم الاستجابة ممادفع المأمون للاستمرار في الفتوح في بلادهم(٣) .

وقد عزم المأمون على غزوالقسطنطينية عاصمة الروم إلا أنه توفي في الغزو في رجب سنة ٢١٨هـ قبل أن يتم مشروعه (٤) .

ثم بويع المعتصم بالخلافة من بعده، وكانت الحرب دائرة بين المسلمين

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج٦/ ٤١٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٠/ ٢٦٩ .
(٢) الطبري : تاريخه ج١٠/ ٢٨٤ .
(٣) الطبري: تاريخه ج١٠/ ٢٨٤ .
(٤) انظر، خليفة بن خياط : تاريخه ٤٧٦ ، الطبري : تاريخه ج١٠/ ٢٨٤، ٢٩٥، ابن الأثير : الكامل ج٦/ ٤٢٨، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٠/ ٢٧١، ٢٧٤ .

والروم، وفي الوقت نفسه قامت فتنة داخل الدولة العباسية تزعمها (بابك الخُرمي) أخذت تبث الفساد في نواحي (همذان) وماجاورها، وقتلت من المسلمين مايزيد على مائة ألف، فانشغلت قوات الدولة العباسية في القضاء عليها[١]، وبالتالي استغل الروم الفرصة فهاجموا شمال الشام والجزيرة واستولوا على بعض مدنها وسبوا من نسائها، فصاحت امرأة ممن وقعن في الأسر : وامعتصماه .... وامعتصماه ...

فلما بلغ المعتصم هذا النبأ استعظمه ، وصاح من فوره قائلاً : لبيك . . ، ونهض من ساعته ونادى في جنده بالنفير ، وغادر بعد أيام بصحبته مايزيد على مائة ألف جندي، قادهم بنفسه لغزو بلاد الروم، حيث أوقع الهزائم في جيوشهم، وتمكن من فتح العديد من المواقع، وعلى رأسها (عمورية) مسقط رأس ملك الروم، حيث تمكن المعتصم من فتحها في رمضان سنة ٢٢٣هـ بعد حصار دام ستة أشهر، [٢] ، وفي ذلك يقول الشاعر أبو تمام :

السيف أصدق أنباء من الكتب ... في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفائح لا سود الصحائف ... في متونهن جلاء الشك والريب

---

(١) انظر تفصيلات هذه الفتنة في الطبري : تاريخه ج١٠/ ٣١٤ ،ابن الأثير : الكامل ج٦/ ٤٤٧، ٤٥١ .

(٢) انظر الطبري : تاريخه ج١٠/ ٣٣٤ ـ ٣٤٣ ،ابن الأثير : الكامل ج٦/ ٤٨٠ ،ابن كثير : البداية والنهاية ج١٠/ ٢٨٦(وانظر د. عبد العزيز اللميلم : نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء ج١ من ٢٣٠ ـ ٢٤٤ .

أين الرواية أم أين النجـــوم   وما صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
تخرصـــاً وأحاديثاً ملفقـــة   ليست بنبع إذا عدت ولا غرب
يا يوم وقعة عمـــورية انصرفت   منك المنى حفلاً معســـولة الحلب
أبقيت جد بني الإسلام في صعد   والمشركين ودار الشرك في صبب[(١)]

وبعد عصر المعتصم لم تنقطع المناوشات بين المسلمين والروم، بل استمرت الحروب، واستمر ضغط المسلمين على حدود الروم في الصوائف والشواتي، واستمر المجاهدون في المرابطة في الثغور لمدافعة الروم، غير أن هذه الحروب والغزوات لم تكن ذات تأثير كبير على أراضي الروم، غير أنه كان لها قيمة كبيرة في المحافظة على الأراضي الإسلامية .

وفي منتصف القرن الرابع الهجري أيام حكم بني حمدان لبلاد الشام قام الروم بالإغارة على بلاد الشام والتخريب فيها عدة مرات فيما بين ٣٤٩ ـ ٣٥٨ هـ[(٢)]، إلى أن ظهر السلاجقة [(٣)] على مسرح الأحداث في القرن

(١) انظر : ابن الطقطقا : الفخري في الآداب السلطانية ٢٣٠ ، ود. عبد العزيز اللميلم : نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية ج١/ ٣٤١ .

(٢) انظر الأزدي : أخبار الدولة الحمدانية ٢٤ ، أحمد إسماعيل علي : بلاد الشام في العصر العباسي ص ١١٠ .

(٣) يعود السلاجقة في أصلهم إلى قبائل الغز التي هاجرت من تركستان ، وسموا بهذا الاسم نسبة إلى (سلجوق بن دقاق) ، تكونت لديهم قوة كبيرة وأصبح لديهم سلاطينهم الخاصون، ولقوا قبولاً من الخلافة العباسية لاعتناقهم المذهب السني واحترامهم الظاهر للخلفاء، تمكنوا من السيطرة على خراسان سنة ٤٢٩هـ بعد نزاع مع الغزنويين ، أخذت =

الخامس الهجري بعد دخولهم بغداد في رمضان سنة ٤٤٧هـ[(١)]، فتمكنوا من تطهير بلاد الشام من الروم، وأخذوا يفتحون في بلاد الروم ويستوطنون بها .

موقعة ملاز كرد سنة ٤٦٣هـ :

قام السلطان السلجوقي ألب أرسلان في سنة ٤٦٣ هـ بالجهاد في نواحي بلاد الروم وما جاورها إلى الشرق، فتمكن من فتح العديد من المناطق في أرمينية وجورجيا ومهد للإسلام في تلك المنطقة، مما أغضب الإمبراطور البيزنطي (رومانوس) فخرج في جمع كبير من الروم والروس والكرج والفرنجة وغيرهم من الشعوب النصرانية ،حتى قدر ذلك الجمع بـ ثلاثمائة ألف جندي[(٢)] أعدهم الإمبرواطور لملاقاة السلطان السلجوقي، الذي ما إن علم باقتراب الروم ومن معهم حتى استعد للأمر واحتسب نفسه ومن معه، وكان في قلة من أصحابه لاتقارن بعدد الروم وأتباعهم قيل إنهم قرابة خمسة

=دولتهم تقوى واعترفت بهم الدولة العباسية ،وأخذوا يمدون سلطانهم على منطقة إيران ثم امتدوا إلى العراق إلى أن سيطروا عليها واستولوا على بغداد زمن السلطان السلجوقي طغرل ابن ميكائيل سنة ٤٤٧هـ، وأصبح اسم سلطان السلاجقة يذكر مقروناً مع الخليفة العباسي وتحملوا مسؤولية مقارعة العدو الأول للمسلمين وهم الروم ومن جاورهم من نصارى أرمينيا جورجيا وما حول تلك المناطق(انظر البنداري الأصفهاني : مختصر تاريخ دولة ال سلجوق من ص ٧ ـ ٢٦ ، د. عبد المنعم حسنين : دولة السلاجقة من ٢٢ ـ ٣٦ .

(١) البنداري الأصفهاني : مختصر تاريخ آل سلجوق ١٢ .

(٢) انظر البنداري الأصفهاني : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ٤٠ .

عشر ألف [١] . ولم يكن لديه وقت لاستدعاء مدد من المناطق التابعة له وقال قولته المشهورة : « أنا أحتسب عند الله نفسي ، وإن سعدت بالشهادة ففي حواصل الطيور الخضر من حواصل النسور الغبر رمسي ، وإن نصرت فما أسعدني وأنا أمسي ، ويومي خير من أمسي»[٢] ، وهجم بمن معه على مقدمة الأعداء وكان فيهاعشرون ألفاً معظمهم من الروس ، فأحرز المسلمون عليهم انتصاراً عظيماً وتمكنوا من أسر معظم قوادهم [٣] .

ثم أرسل السلطان ألب أرسلان من قبله وفداً إلى إمبراطور الروم وعرض عليه المصالحة ولكنه تكبر وطغى ولم يقبل ذلك العرض ، وقال : هيهات !! لا هدنة ولا رجوع إلا بعد أن أفعل ببلاد الإسلام مثل مافُعل ببلاد الروم [٤] . فأعد المسلمون العدة للقائة واجتمع الجيشان يوم الخميس الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٤٦٣ هـ « فلما كان وقت الصلاة من يوم الجمعة صلى السلطان بالعسكر ودعا الله تعالى وابتهل وبكى وتضرع وقال لهم : نحن مع القوم تحت الناقص[٥] وأريد أن أطرح نفسي عليهم في هذه الساعة التي يدعى فيها لنا وللمسلمين على المنابر ، فإما أن أبلغ الغرض وإما أن أمضي شهيداً إلى الجنة ، فمن أحب أن يتبعني منكم فليتبعني ، ومن أحب أن ينصرف

---

(١) البنداري الأصبهاني : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ٤٠ .

(٢) البنداري الأصبهاني : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ص ٤٠ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١٠/ ٦٥ ، ابن الجوزي : المنتظم ج٨/ ٢٦١ ، البنداري الأصبهاني : مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ٤٢ .

(٤) ابن الجوزي : المنتظم ج ٨/ ٣٦١ .

(٥) هذه العبارة التي قالها ، ويقصد بها قلة العدد .

فليمض مصاحباً عني فما هاهنا سلطان يأمر ولا عسكر يؤمر فإنما أنا اليوم واحد منكم، وغاز معكم، فمن تبعني ووهب نفسه لله تعالىٰ فله الجنةوالغنيمة ومن مضىٰ حقت عليه النار والفضيحة . فقالوا : مهما فعلت تبعناك فيه وأعناك عليه » (١) .

فبادر ولبس البياض وتحنط استعداداً للموت وقال : إن قتلت فهذا كفني (٢) .

ثم وقع الزحف بين الطرفين ونزل السلطان ألب أرسلان عن فرسه ومرغ وجهه بالتراب وأظهر الخضوع والبكاء لله تعالىٰ وأكثر من الدعاء ثم ركب وحمل علىٰ الأعداء، وصدق المسلمون القتال وصبروا وصابروا حتىٰ زلزل الله الأعداء وقذف الرعب في قلوبهم، ونصر الله المسلمين عليهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وأسروا منهم جموعاً كبيرة ،كان علىٰ رأسهم ملك الروم نفسه الذي أسره أحد غلمان المسلمين (٣)، فأُحضر ذليلاً إلىٰ السلطان، فقرعه وذكره بما كان عرضه عليه من صلح وبرده القبيح علىٰ المسلمين، ثم إن السلطان أطلقه مقابل فكاك جميع أسرىٰ المسلمين لدىٰ الروم ودفع مقدار من الأموال جزية عن إطلاق الملك ومبلغ سنوي ثابت للمسلمين علىٰ الروم ،

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم ج٨/ ٢٦٢ .وانظر: ابن الأثير : الكامل ج١٠/ ٦٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٠/ ٦٦ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١٠/ ٦٦ ،ابن الجوزي : المنتظم ج٨/ ٢٦٢ .

وأن يرد الروم بعض ما أخذوه من أراضي المسلمين في الشام [١]، وكان هذا الانتصار الإسلامي من أهم الانتصارات على الروم كسرت فيه شوكتهم وفرق قوتهم وحطم كبرياءهم ودفعهم إلى أن يأخذوا الحساب للمسلمين .

فتوحات المشرق :

انشغل الخلفاء العباسيون الأوائل بقمع الفتن التي ظهرت في بلاد (السند) على يد الهنادكة والزط وغيرهم، وكانت تلك البلاد تعيش فترات من الاضطراب، ومع ذلك استمر مد الإسلام فيها . أما بلاد (سجستان) و(هراة) وماجاورها فقد قامت فيها ثورة (المقنع) سنة ١٦١هـ، فاستغل ملوك المناطق المجاورة تلك الثورة فقطعوا علاقتهم بالدولة العباسية[١]، وما إن انتهت ثورة المقنع حتى سارع ملوك (كابل) و(الصفد) و(طخارستان) و(فرغانة) و(خراسان) إلى إعلان الولاء للدولة العباسية سنة ١٦٣هـ[٣] .

وفي عهد الرشيد قامت عدة ثورات في تلك المناطق، وخصوصاً من الأتراك تطلبت من المسلمين جهوداً عظيمة لإخمادها ، أما في أيام المأمون فقد أكد على ولاته في (خراسان) بإكرام من أسلم من الأتراك، وغزو من لم يسلم منهم مما دفع ملوك الترك إلى الخضوع والطاعة، حتى أسلم كثير منهم في تلك

---

(١) انظر ابن الجوزي : المنتظم ج٨/ ٢٦٢ ـ ٢٦٤، ابن الأثير : الكامل ج١٠/ ٦٧، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ١٠٠ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج٥/ ٨٧ .

(٢) انظر : . الطبري : تاريخه ج٩/ ٣٣٨ .

(٣) انظر : الطبري : تاريخه ج٩/ ٣٤٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٠/ ١٤٥ .

الفترة[١]، فكان لهم مكانة خاصة في الدولة بعد ذلك، خصوصاً أيام المعتصم[٢].

وفي نهاية العصر العباسي ومابعده ظهرت دويلات إسلامية مختلفة في المشرق، استقلت عن الخلافة العباسية، مع اعتراف بعضها في أغلب الأحيان بالخلافة العباسية، مع أن هذا الاعتراف الشكلي في كثير من الأحيان لم يمنع استقلال هذه الدول شبه التام عن الخلافة العباسية، وقد تنازعت هذه الدول المشرق الإسلامي في فترات مختلفة، وأهمها: الدولة الطاهرية في (خراسان) «٢٠٥ـ٢٥٩هـ»، والدولة الصفارية في (سجستان والهند) «٢٥٤ـ٢٩٨هـ»، والدولة السامانية في (إيران) «٢٦١ـ٣٨٩هـ»، والدولة الغزنوية في (سجستان والهند) «٣٥١ـ٥٨٢هـ»، وكان لهذه الدول وحكامها المختلفين جهودهم الخاصة في الفتوح والجهاد[٣].

الغزنويون:

تعد فتوح الغزنويين من أهم الأحداث الجهادية في زمانهم، والتي نشروا من خلالها الإسلام في مناطق جديدة لأول مرة، ورغم أن الغزنويين

---

(١) انظر: د. عبد العزيز اللميلم: نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء ج١/ ٢١٠.

(٢) انظر: . د. عبد العزيز اللميلم: نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء ج١/ ٢٤١.

(٣) لمزيد من التوسع في معرفة أحوال هذه الدول انظر: د. عصام عبد الرؤوف الفقي: الدول الإسلامية المستقلة في الشرق، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٨٧م.

كانوا مستقلين تماماً عن الخلافة العباسية إلا أنهم كانوا يستمدون سلطتهم الاسمية من الخليفة العباسي حيث كانوا يعترفون بالخليفة ويدعون له، وفي الوقت نفسه ترسل مراسيم تعيين أمراء الغزنويين من بغداد .

وقد كان الغزنويون في مبدأ أمرهم عمالاً للسامانيين (١)في إقليم (غزنة) في أفغانستان ـ حالياً ـ ، ثم خلفوا الدولة السامانية بعد سقوطها، واتجهوا إلى الفتح في بلاد الهند، وكان(سبكتكين ت٣٨٧ هـ) (٢)، أول الملوك الغزنويين، وتمكن من فتح العديد من المناطق في بلاد السند، وخصوصاً في (البنجاب) ثم جاء من بعده ابنه (محمود ت ٤٢١هـ) (٣)، الذي غزا بلاد السند والهند مايزيد على سبع عشرة غزوة، خلال سبعة وعشرين عاماً، تمكن فيها من فتح (كشمير) و(لاهور) و(الملتان) و(الكجرات)، كما حطم أعظم معبد للهنادكة في (سومنات) وبه صنم مشهور عندهم، وحينما فاوضه الهندوس على أن يدفعوا له ما يريد من الأموال مقابل تركه لهم سليماً قال : أفضل أن أكون محطم أصنام بدلاً من أن أكون بائعاً (٤)، وقد اهتم السلطان محمود الغزنوي بنشر الإسلام والعلوم وإقامة العدل بين السكان، حتى اعتبر بحق فاتح الهند

---

(١) د. عصام الفقي : الدول الإسلامية المستقلة في الشرق ص١٩، ٧٦، ٧٧ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٧/ ٤٨٥ .

(٣) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٧/ ٤٨٨، ابن الجوزي : المنتظم ج٨/ ٥٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج٩/ ١٣٠، ١٣٩، ١٤٧، ١٦٩، ٢٤٤، ابن الجوزي : المنتظم ج٨/ ٥٤، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٧/ ٤٨٥، ابن تغري بردى: النجوم الزاهرة ٤/ ٢٦٢، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٥/ ١٧٦ .

واستحق ثناء المؤرخين المسلمين بالدرجة الأولى كما أثنى عليه بعض مؤرخي الهنود رغم تحطيمه لمعتقداتهم الوثنية حيث وصفوه بالعدل والعلم ونشر الثقافة (١).

الفتوح البحرية :

اعتنى العباسيون الأوائل بالثغور البحرية، في مصر والشام فحصنوها ضد هجمات الروم البحرية، كما عملوا على بناء الأساطيل في تلك المناطق لتعمل على صد هجمات الروم، وليستفاد منها في الغزو في بحر الروم - الأبيض المتوسط -، وبالفعل هاجم المسلمون بأساطيلهم العديد من جزر بحر الروم، كما هاجموا (القسطنطينية) أكثر من مرة عن طريق البحر، إلا أن جهودهم الخاصة في هذا المجال كانت أقل بكثير من الدولة الأموية أو الدول المستقلة في شمال أفريقيا (٢).

وقد نشأت دول إسلامية مختلفة في إفريقيا كانت تدين بالولاء للدولة العباسية قامت ببعض الفتوح في بحر الروم، من أهمها دولة (الأغالبة) في المغرب الأوسط تونس«١٨٤-٢٩٦هـ» الذين اعتنوا بالأساطيل عناية كبيرة،

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج١٧/ ٤٩١ وانظر إلى د. عبد الله الطرزي : موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلاميةلبلاد السند والبنجاب ج١/ ٣٠٣، ٤٠٠، ٤١٩ ، ٤٢٣، د. عصام الفقي : الدول الإسلامية المستقلة بالشرق ص١٣٣ .

(٢) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع انظر : .مجموعة من الباحثين : تاريخ البحرية المصرية ص ٢٩٧ ، أحمد مختار العبادي : تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ج١/ ٨٨ (وانظر البلاذري : فتوح البلدان ٢٣٨) .

ومن أهم عملياتهم البحرية فتح (صقلية) سنة ٢١٢هـ-٨٢٧م وقاده قاضي (القيروان) وعالمها «أسد بن الفرات» ومعه جماعة من المسلمين المتطوعة، حيث نزل بهم على سواحل صقلية وخطبهم ووعظهم مذكراً إياهم بفضل الجهاد والعلم به والعمل له: وكان مما قال: لا إله إلا الله وحده لاشريك له، والله يامعشر المسلمين ما ولي لي أب ولاجد ولا رأى أحد الناس من سلفي مثل هذا. ولا بلغت ما ترون إلا بالأقلام فاجتهدوا أنفسكم فيها وثابروا على تدوين العلم تنالوا به الدنيا والآخرة . . . وكان في يده اللواء وهو يزمزم، وأقبل على قراءة يس، ثم حرض الناس، وحمل وحملوا معه فهزم الله جموع النصارى، ورأيت أسداً وقد سالت الدماء على قناة اللواء، حتى صار تحت أبطه . . . » [1]، وقد استمر أسد بن الفراس غازياً مع المجاهدين في قبرص متنقلاً من مكان إلى مكان حتى استشهد رحمه الله، في الجزيرة سنة ٢١٣ هـ [2]، وقد واصل المسلمون من بعده تكرارفتحها بعد انتقاض عدة مرات حتى دانت لهم سنة ٢٦٤هـ [3]، كما استولى المسلمون على (مالطة) في ٢٥٥هـ [4]، وتمكنوا من الاستيلاء على بعض جزر المضائق المجاورة لإيطاليا، ونزلوا في البر الإيطالي [5]، وبذلك فرضوا سيطرتهم على

---

(١) انظر: القاضي عياض: ترتيب المدارك م١ج٢/ ٤٧٧.

(٢) القاضي عياض: ترتيب المدارك م١ج٢/ ٤٨٠.

(٣) انظر البلاذري: فتوح البلدان٢٣٧، ابن الأثير: الكامل ج٧/ ٣٢٠، تركي العتيبي: الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صقلية الإسلامية ٢١.

(٤) الحميري: الروض المعطار: ٥٢٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل ج٦/ ٣٣٧.

البحار المحيطة بإيطاليا الواقعة إلى الشمال من المغرب الأوسط ، وهي مايعرف بمضائق مسينا Massina. ، ثم تمكن المسلمون من النزول إلى السواحل الإيطالية الجنوبية مرات متكررة منها سنة ٢٨٩هـ حيث فرضوا الجزية على أهلها (١) كما فتحوا مدينة (باري) سنة ٣٢٩ هـ، بالإضافة إلى العديد من المواقع الأخرى، وصار للمسلمين وجود في جنوب إيطاليا فيما عرف بـ (قلورية). وقد تبع الاستيلاء على هذه المناطق البحرية انتشار الإسلام بين أهلها، حيث استمر المسلمون يحكمون تلك المناطق حتى منتصف القرن الخامس الهجري وكان منها بعض العلماء المسلمين المشهورين(٢)، وبقيت الجاليات الإسلامية في تلك المناطق لعدة قرون تالية . ولايزال تأثيرهم في عادات أهالي تلك المنطقة وأطعمتهم واضحاً.

(١) الحميري : الروض المعطار ١٠٢ ،وانظر : . تركي العتيبي : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صقلية الإسلامية ١٨ .

(٢) انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ج٤/ ٣٩٢، ابن الأثير : الكامل ج٨/ ٧٢ ، تركي العتيبي : الحياة الاجتماعية والاقتصادية في صقلية الإسلامية .

الفصل الخامس

عصر الحروب الصليبية

عصر الحروب الصليبية

يعتبر عصر الحروب الصليبية ضمنياً داخلاً في عصور إسلامية مختلفة فأوله داخل ضمن العصر العباسي (العصر السلجوقي) وآخره داخل ضمن العصر المملوكي ، ويتخلل ذلك العصر الأيوبي ، ولكن نظراً لأن هناك جامعاً مشتركا لذلك العصر هو الصراع الإسلامي الصليبي ، والذي خاضة المسلمون في بلاد الشام ومصر مع قوىٰ الفرنجة ونصارىٰ المنطقة ، وهذا الصراع طغىٰ علىٰ أحداث ذلك العصر ، فتركزت حركات الفتح والجهاد بالدرجة الأولىٰ ضد الصليبين ، وتوقفت الفتوح الجديدة وأصبح المسلمون إما في حال دفاع عن بلادهم ضد الغزو الصليبي ، أو علىٰ أحسن حال يحاولون استرداد ما أخذه الصليبيون من بلاد المسلمين .

رغم أن أول حملة صليبة قدمت إلىٰ الديار الإسلامة كانت أثناء وجود الخلافة العباسية في بغداد إلا أن هذا الوجود كان وجوداً شكلياً بالدرجة الأولىٰ ، فقد كانت هناك العديد من الإمارات والدويلات الصغيرة المتناثرة والمتصارعة في بعض الأحيان في بلاد الشام بل وفي شمال العراق نفسه وهو مقر الخلافة العباسية ، وكانت الخلافة تضفي شئ من الشرعية علىٰ تلك الدويلات وذلك الإنقسام . فقد كان في كل من ، الموصل، وحران ، وميافارقين ، وطرابلس ، وصور ، وشيزر وغيرها[١]، إمارت صغيرة مستقلة

---

(١) لمزيد من التوسع حول معرفة أوضاع بلاد الشام قبيل الغزو الصليبي راجع : د. حامد =

ولكنها ضعيفة لاتستطيع الدفاع عن نفسها .

وقد كان السلاجقة يسيطرون على الخلافة العباسية في بغداد ، وفي الوقت نفسه تسيطر أقسام منهم بجيوشهم التركمانية على منطقة شمال الشام تركيا حالياً بعد أن استولوا على أجزاء كبيرة من الأراضي الرومية «البيرنطي» .

الحملة الصليبية الأولى واحتلال بيت المقدس :

تحرك الصليبيون لأول مرة من أوربا بعد الدعوة التي وجهها البابا (أوربان الثانيII Urban) (١) والتي حملها إلى مختلف أنحاء أوربا (بطرس الناسك) فسارت وراءه جموع من الأوربيين قدرت الدفعة الأولى منهم بخمسة عشر ألفاً ، ثم تزايد عددهم حتى وصل إلى خمسة وعشرين ألفاً كانوا يشقون الأراضي الأوربية من الشرق إلى الغرب ، ورغم أنهم كانوا يسيرون في أراض نصرانية فإنهم كانوا يخربون مايمرون به من أماكن ويقتلون

=أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج١ ، مكتبة الشباب القاهرة ١٩٧١م ، وكذلك د. سهيل زكار ، مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية . دار الفكر بيروت ١٤١٠هـ وانظر الخارطة المرفقة في ص ٤٢١ من هذا الكتاب .

(١) لمزيد من التوسع عن هذه الدعوة وكيف جرت ، وما حملته من نتائج انظر : فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة الصليبية الأولى إلى القدس ، ترجمة د ، زياد العسلي ، دار الشرق عمان الأردن ١٩٩٠م ص ٣٢ ومابعدها ، وكذلك وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١٦ ومابعدها .

الناس ويسيئون معاملتهم، فقتل منهم ألوف على أيدي الأوربيين قبل أن يصلوا إلى القسطنطينية [١]، وهي معبرهم إلى الشرق الإسلامي ، وقد وصلت جموعهم الأولى إلى القسطنطينية فيما عرف بحملة العامة في شهر رجب من سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م ، وقد أحسن نصارى القسطنطينية على رأسهم الإمبراطور البيزنطي استقبالهم ، وقدموا لهم المساعدات ونصحوهم بعدم التعجل في العبور، وبمزيد من الاستعداد ، ولكن زعماء تلك الحملة، لم يستجيبوا للنصح ، وأكثروا من الإفساد في نواحي القسطنطينية، فقام البيزنطيون بمساعدة الصليبيين على العبور إلى الجانب الشرقي للبسفور في طريقهم إلى بلاد الشام ، وعاثوا فساداً في الأناضول ، وآذوا المسلمين والنصارى في تلك المنطقة ، واقتربوا من مناطق السلاجقة وحاولوا الهجوم على قونية أحد مدنهم ، ولكن السلاجقة كانوا لهم بالمرصاد ، حيث هاجموا تلك الجموع الغوغائية وأبادوهم ولم يبق من مجموعهم سوى ثلاثة آلاف شريد من بين خمسة وعشرين ألفاً ، وبذلك فشلت هذه الحملة الغوغائية التي قادها بطرس الناسك وعرفت بحملة العامة، وقد نجا بطرس نفسه من القتل .

الموجة الثانية في الحملة الصليبية الأولى عرفت باسم حملة الأمراء وكانت أكثر تنظيماً واستعداداً من سابقتها، وضمت عدداً من الأمراء الأوربيين الكبار ، الذين قدموا في أوقات متفرقة من أوربا ومعهم أعداد كبيرة

(١) انظر وليم الصوري ج ١ / ١٨١ .

من الفرسان والجنود المدربين، كما كانوا بحكم عملهم السياسي أكثر تنظيماً واستعداداً للتعاون مع الأمبراطور البيزنطي ، مما أكسبهم دعمه المتواصل ، وقد استطاع أولئك الأمراء عبور البسفور متوجهين إلىٰ الأناضول وخاضوا عدة معارك مع الأمراء السلاجقة ، انتصروا في معضمها واستطاعوا الاستيلاء علىٰ عدد من مدن الأناضول وعلىٰ رأسها(نيقية) (١) .

ثم بعد ذلك انقسموا إلىٰ قسمين رئيسيين أحدهما اتجه شرقاً يقوده بلدوين ، وكان هدفه مدينة الرها التي كان للأرمن وجود كبير فيها وبالتالي فقد ضمن الصليبيون ولاءهم ومساعدتم ، وتمكنوا من الاستيلاء علىٰ الرها وتأسيس أول إمارة صليبية فيها وذلك سنة ٤٩٠هـ والتي أخذت بالتوسع التدريجي علىٰ حساب المناطق الإسلامية المجاورة حتىٰ أصبح لها شأن يذكر .

أما القسم الآخر فقد اتجه غرباً يقوده بوهمند وكانت وجهته أنطاكية ، وقد كانت تحت حكم الأمير ياغي سيان السلجوقي الذي استمات في الدفاع عن المدينة ، وقد حاصره الصليبيون مايزيد علىٰ تسعة أشهر وهو صامد في وجوههم ، وقد حاول عبثاً الاستنجاد بالمسلمين في دمشق وحلب وبغداد وغيرها ، ولكن الأوضاع الإسلامية كانت ضعيفة والخلافات كانت قوية وبالتالي لم تصله مساعدات ذات شأن ، كما ذكر المؤرخون أنه جرىٰ اتصال

---

(١) فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلىٰ القدس ٤٦ ، فايد حماد عاشور جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ١٠٢ . وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج ١ / ٢٢٩ ، ابن الأثير : الكامل ج١٠/ ٢٧٤ .

بين الصليبيين والفاطميين اتفق فيه الفاطميون على منع المساعدات عن أنطاكية حتى تسقط بأيدي الصليبيين في الوقت الذي يسمح فيه الصليبيون للفاطميين بالاستيلاء على بيت المقدس من أيدي الموالين للعباسيين (١) ، وبعد عدة معارك وحصار طويل قام أحد الأرمن بخيانة الأمير السلجوقي ، وفتح أبواب أنطاكية للصليبيين فدخلوها ، وأعملوا فيها القتل والنهب ، ولم ينج من المسلمين إلا القلة مما أرعب المسلمين في المناطق المجاورة (٢) ودفع الكثير منهم إلى الرحيل وترك المنطقة ، مما يسر على الصليبيين التحرك إلى الجنوب أكثر من ذي قبل ، وبذلك تأسست الإمارة الصليبية الثانية في أنطاكية تحت زعامة (بوهمند)، وأصبح لدى الصليبيين قاعدتين رئيسيتين في الشمال الشرقي والشمال الغربي من بلاد الشام .

أقام الصليبيون في أنطاكية تسعة أشهر ثبتوا فيها أقدامهم وجاءتهم مزيد من الإمدادات ، ثم قرروا التوجه جنوباً نحو هدفهم المنشود بيت المقدس ، وفي الطريق إليها استولوا على العديد من المواقع ومنها معرة النعمان التي قتلوا

---

(١) ابن الأثير : الكامل حوادث سنة ٤٩١ ج ١٠/ ٢٧٣ وانظر ، د . حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج١ / ١٤٦ ، الغامدي : الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ١١٩ . د. المعاضيدي وآخرون : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٣٩ ، وليم أسقف صور : تاريخ الحروب الصليبية ترجمة سهيل زكار ج ١ / ٣٩٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٠/ ٢٧٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ١٥٥ ، وانظر : فوشيه الشارتري : تاريخ الحملة إلى القدس ٥٧ ، وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج١/ ٢٩٩ .

جميع سكانها في مذبحة همجية (١) ، ثم واصلوا مسيرتهم ومروا علىٰ طرابلس وبيروت وصور وغيرها من المواقع ، وقد كان نصارىٰ الشام وخصوصاً نصارىٰ لبنان يستقبلون الصليبيين مرحبين بهم ومهنئين لهم ومثنين عليهم ، كما كانوا هم أدلاءهم ومرشديهم في طريقهم إلىٰ بيت المقدس ، وكان الصليبيون يسمونهم المؤمنين من أهل المنطقة (٢) حتىٰ أوصلوهم إلىٰ القدس ، وكان الفاطميون قد انتزعوها من السلاجقة معاندة للعباسيين قبل الهجوم الصليبي بعدة أشهر ، وحاولوا نشر مذهبهم الباطني فيها ، وقد حاولت عبثاً حاميتها المقاومة ، وطلبت المدد من القاهرة ولكنها لم تستجب ، وفي الوقت نفسة كانت الإمدادات تصل باستمرار إلىٰ الصليبيين وهم يحاصرونها مما زاد من قوة الصليبيين وأضعف من مقاومة حامية بيت المقدس ، وقام الصليبيون بعمل أبراج خشبية تمكنوا بها من اقتحام أسوار القدس ، ودخلوا المدينة واحتلوها وقتلوا من فيها من المسلمين حتىٰ قيل إنهم قتلوا في ساحة المسجد الأقصىٰ أكثر من سبعين ألف (٣) . يقول أحد مؤرخي الصليبيين : «اندفعوا هنا وهناك خلال شوارع ومساحات لمدينة مستلين سيوفهم ، وبحماية دروعهم وخوذهم ، وقتلوا جميع من صادفوا من الأعداء بصرف النظر عن العمر أو الحالة ودون تمييز ، وقد انتشرت المذابح المخيفة في كل مكان ،

---

(١) د . سهيل زكار : تاريخ الحروب الصليبية ٥٠ .

(٢) وليم الصوري : ج ١ / ٣٩٨ ، وانظر ص ٤١٧ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ٢٨٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢/ ١٥٦ .

وتكدست الرؤوس المقطوعة في كل ناحية بحيث تعذر الانتقال على الفور من مكان لآخر إلا على جثث المقتولين ، وكان القادة قد شقوا في وقت سابق طريقاً لهم بواسطة مسالك متنوعه إلى مركز المدينة تقريباً وأحدثوا عندما تقدموا قتلاً لايوصف . وتبع موكبهم حشد من الناس متعطش لدماء الأعداءومصمم تصميماً كاملاً على إبادتهم»(١) . ويقول في موضع آخر من كتابه : « ولقد كانت المجزرة التي ارتكبت في كل مكان من المدينة مخيفة جداً وكان سفك الدماء رهيباً جداً لدرجة عانى فيها حتى المنتصرون من أحاسيس الرعب والاشمئزاز»(٢) . ويقول في موضع آخر مصوراً فيه بشاعة الصليبيين وجرائمهم في بيت المقدس : «كان القسم الأكبر من الناس قد التجأ إلى ساحة الهيكل لأنها واقعة في قسم منعزل من المدينة ، وكانت محمية حماية قوية بسور وأبراج وبوابات إلا أن هروبهم لم ينقذهم حيث تبعهم تانكرد على الفور بالجزء الأكبر من الجيش ، وشق طريقه إلى داخل الهيكل ، ونقل معه حسب إحدى الروايات بعد مذبحة مخيفة كمية ضخمة من الذهب والفضة والجواهر ، هذا ومن المعتقد أنه أعاد هذه الكنوز سالمة بعد أن كان الصخب قد هدأ .

وعلم القادة الآخرون ، بعد أن كانو قد قتلوا من واجهوا في الأجزاء المختلفة من المدينة أن الكثير قد هربوا للالتجاء في الأروقة المقدسة للهيكل ،

---

(١) وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج ١ / ٤٣٥ .

(٢) الصدر السابق ج١ / ٤٣٦ .

ولذلك اندفعوا بالإجماع إلىٰ هناك، ودخلت مجموعة كبيرة من الفرسان والرجالة قتلت جميع الذين كانوا قد التجأوا إلىٰ هناك. ولم تظهر أي شفقة لأي واحد منهم، وغمر المكان كله بدم الضحايا. لقد كان بالفعل حكم الله القويم الذي قضىٰ على الذين دنسوا حرم المسيح بطقوسهم الخرافية، وجعلوه مكاناً غريباً بالنسبة لأهله المؤمنين أن يكفروا عن خطاياهم بالموت وأن يطهروا الأروقة المقدسة بسفك دمائهم . .

وبات من المحال النظر إلىٰ الأعداد الكبيرة للمقتولين دون هلع، فقد انتشرت أشلاء الجثث البشرية في كل مكان، وكانت الأرض ذاتها مغطاة بدم القتلىٰ ولم يكن مشهد الجثث التي فصلت الرؤوس عنها والأضلاع المبتورة المتناثرة في جمع الاتجاهات هو وحده الذي أثار الرعب في كل من نظر إليها، فقد كان الأرهب من ذلك هو النظر إلىٰ المنتصرين أنفسهم وهم ملطخون بالدم من رؤوسهم إلىٰ أقدامهم. إنه منظر مشؤوم جلب الرعب لجميع من واجههم، ويروىٰ أنه هلك داخل حرم الهيكل فقط قرابة عشرة آلاف من الكفرة بالإضافة إلىٰ المطروحين في كل مكان من المدينة والشوارع والساحات حيث قدر عددهم أنه كان مساوياً لعدد القتلىٰ داخل حرم الهيكل.

وطاف بقية الجنود خلال المدينة بحثاً عن التعساء الباقين علىٰ قيد الحياة، والذين يمكن أن يكونوا مختبئين في مداخل ضيقة وطرق فرعية للنجاة من الموت، وسحب هؤلاء علىٰ مرأىٰ الجميع وذبحوا كالأغنام، وتشكل البعض في زمر واقتحموا المنازل، حتىٰ قبضوا علىٰ أرباب الأسر وزوجاتهم

وأطفالهم ، وجميع أسرهم وقتلت هذه الضحايا ، أو قذفت من مكان مرتفع حيث هلكت بشكل مأساوي ، وادعى كل واحد من المغيرين ملكية دائمة للمنزل الذي كان قد اقتحمه ، وذلك بالإضافة إلى تملك كل ماكان موجوداً فيه ، لأن الحجاج كانوا قد اتفقوا قبل الاستيلاء على المدينة أن كل رجل يحصل على شيء بعد الاستيلاء على المدينة بالقوة يكون حقاً له وملكاً إلى الأبد دون إزعاج ، ونتيجة لهذا فتش الحجاج المدينة بدقة قصوى وقتلوا سكانها بجرأة وتغلغلوا في أكثر الأماكن عزلة وبعداً واقتحموا غرف الأعداء الخاصة جداً ، وعلق كل منتصر درعه وأسلحته عند مدخل البيت الذي استولى عليه كإشارة لكل من يقترب منه حتى لا يتوقف عنده بل ليتجاوز ذلك المكان لأنه أصبح ملكية لشخص آخر »(١) ، قد ذكر مؤرخ آخر يصف شيئاً من فظائع النصارى في بيت المقدس ويقول : « وبعد فوزهم بالنصر العظيم وبعد الحرارة والخوف وسفك الدماء في اليومين أو الثلاثة الأخيرة في حالة شعور مفرط هستيري تقريباً ، وبعد ذلك لم يشكوا لحظة في أن المسلمين المدافعين عن القدس كانوا كارهين للرب ومدنسين للأماكن المقدسة وعاملين لدى أعداء المسيح ، وعابدين لشيء بغيض في مكان مهجور ذكر في الأنجيل ، ولذلك قاموا بقتل كل رجل وامرأة وطفل وجدوهم في المدينة بفرح وباطمئنان تامين ، وهم يرون أنهم كانوا ينفذون إرادة الرب ، ودامت المذبحة طوال الليل وقسماً من الليلة التالية . وعندما ذهب الراهب ريموند أوف أغيلرز لزيارة منطقة الهيكل

---

(١) وليم الصوري : ج ١ / ٤٣٦ ـ ٤٣٧ .

في صباح اليوم التالي وجدها قفراء مليئة بالجثث، بحيث أن المسجد الأقصى وعلى لوائه يرفرف علم تانكرد وقبة الصخرة كانا مليئين بجثث المذبوحين ، الذين وصلت دماءهم لمستوى الركب ، أما الناجون وحدهم من المدينة فكانوا الحاكم وطائفة من حرسه الذين سمح لهم ريموند بمغادرتها بعد دفع فدية ضخمة وتسليم خزائن هائلة ، وذبح الباقون بما فيهم اليهود الذين حشدوا في معبدهم الرئيسي ثم أضرمت النار في المبنى وهم أحياء ، وعندما لم يبق من يقتلونه سار المنتصرون خلال شوارع المدينة التي لاتزال مفروشة بالجثث وتفوح منها رائحة الموت ، إلى كنيسة القيامة لتقديم الشكر للرب لرحمته العظيمة المتنوعة ، ومن أجل انتصار الصليب الذي فازوا بها باسمه »(١) .

هذا كلام المصادر الصليبية وقد حرصت على أن أنقل هذا الكلام من مصادر النصارى التاريخية وهم بلاشك يحاولون التخفيف مما حدث وإلا ففي المصادر الإسلامية أعظم مما ذكر بكثير ولكني آثرت أن أكتفي بذكر ما أوردوه عن أنفسهم من هذا العمل (٢) ، وعلينا أن نتذكر هنا كيف دخل عمر ابن الخطاب بيت المقدس ولم يرق قطرة دم واحدة ولم يعتد على كنائسهم ،

---

(١) أنتوني برج : تاريخ الحروب الصليبية ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٢) للاطلاع على بعض ماكتبته المصادر الإسلاميةعن هذه الحادثة انظر : ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ٢٣٤ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٥ / ١٤٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ / ١٥٦ ، وانظر د. فايد حماد عاشور جهاد السملمين في الحروب الصليبية ١١٣ ، سعيد برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق ١٦٨ ، وانظر من مصادر نصارى العرب : ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ١٩٧ .

ولاعلى حقوقهم بل ضمنها لهم واستمر المسلمون يراعون معاهدة عمر بن الخطاب حتى لحظة استيلاء الصليبيين على بيت المقدس وذلك في يوم جمعة من سنة ٤٩٢هـ (١) الموافق ١٥ حزيران ١٠٩٩م (٢) .

أما المسجد الأقصى نفسه فقد اقتطعوا محرابه وجعلوه مكاناً للقمامة والخنازير ، وهدموا في مبنى المسجد وجعلوا بعضها مساكن لهم ، وبنوا فيه أبنية أخرى تخدم قسسهم ورهبانهم ومنع المسلمون من الصلاة فيه ، هذا إن كان قد بقي مسلمون (٣) .

وباستيلاء الصليبيين على بيت المقدس أسسوا المملكة الصليبية اللاتينية الثالثة فيها ، وبدأوا يمدون سلطانهم خلال السنوات الأولى من حكمهم لبيت المقدس على بعض المناطق المجاورة في فلسطين والساحل الشامي فاستولوا على نابلس وعكا ، وقنسرين ، مما ساعد على تثبيت أقدامهم ، كما حاولوا لعدة سنوات الاستيلاء على طرابلس ، ولم ينجحوا في ذلك إلا سنة ١١٠٩م ، ثم استولوا على بيروت وبانياس وصيدا ، ولم تأت سنة ٥٠٤هـ إلا وكان الصليبيون يسيطرون على معظم الساحل الشامي ، وفشل أهل المناطق في الاستنجاد بالفاطميين وهم الأقرب إليهم والأقدر على نجدتهم ، كما أن العباسيين في بغداد وأمراءهم السلاجقة لم يقدموا مساعدة

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢/ ١٥٦ .

(٢) انظر سعيد برجاوي : الحروب الصليبية في المشرق ١٦٨ .

(٣) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢/ ٢١٧ .

تذكر لإنقاذ المسلمين في تلك المناطق .

واستطاع الصليبيون أن يؤسسوا مملكة صليبية لاتينية رابعة جعلوا من طرابلس مركزاً لها بعد استيلائهم على صيدا (١) .

وقد يتساءل البعض : أين المسلمون بجموعهم الكثيرة عن هذا الغزو وأين روح الجهاد ؟والحقيقة أن هذا السؤل في محلة ، ولكن المطلع على أحوال العالم الإسلامي في تلك الفترة وما سبقها لايستغرب الضعف الناشئ فيهم ، إذ أن المذاهب الباطنية والشيعية قد انتشرت بين الناس وفرضت عليهم بالقوة على يد الإسماعيليين والفاطميين والقرامطة ، كما أن القوى الفاطمية كانت موجهة لضرب أهل السنة ، والاستيلاء على مواقعهم العسكرية قبل وأثناء وصول الصليبيين إلى المنطقة ، ومع ذلك فقد عجزوا أن يقاوموا الصليبيين ، كما كانت الدولة العباسية قد هرمت ولم يكن للخلفاء سوى المظاهر والشكل ، أما القوات العسكرية فقد كانت في يد السلاجقة الذين أخذ الضعف يدب في أوصالهم في تلك الفترة وبدأ الكثير منهم يؤثرون الدنيا ويكرهون الموت(٢) ، مع أن بعض أمرائهم قد قام ببعض المحاولات لمقاومة الصليبيين ، ولكن هذه المحاولات لم تكن ناجحة لأنها كانت تفتقد بالدرجة الأولى إلى التعاون فيما بينهم .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ٤٧٩ .

(٢) لمزيد من الاطلاع حول هذا الموضوع انظر : محمد العبده : أيعيد التاريخ نفسه (دراسة لأحوال العالم الإسلامي قبل صلاح الدين) .

بداية الجهاد ضد الصليبين :

لاشك أن المسلمين عموماً قد تأثروا باحتلال القدس من قبل الصليبيين كما أن قيام الممالك الصليبية في بلادالشام قد أثر على جميع بلاد الشام دون استثناء ، حيث اضطر بعض الأمراء إلى مصانعتهم بل وتقديم الجزية لهم أحياناً ، كما أصبح الصليبيون يسيطرون على أهم الطرق في بلاد الشام وبالتالي لم يكن الناس يأمنون في تنقلاتهم ، وكانت البلاد التي لم تخضع للنصارى مهددة في أي وقت من قبلهم ، وقد كانت هناك جهود جهادية منذ أن وصل الصليبيون إلى البلاد الإسلامية ، على رأسها جهود المقاومة في أنطاكية وغيرها من المواقع التي احتلها الصليبيون . كذلك محاولات الأمير قوام الدولة كربوقا أمير الموصل استعادة أنطاكية بعد أن استولوا عليها بعدة أسابيع[١] .

وتعتبر البدايات الرئيسية لمقاومة الصليبيين بعد استقرار إماراتهم بشكل مؤثر وفعال على يد كمشتكين بن داشمند أمير تركماني كان أبوه أحد الأمراء الموالين للسلطان السلجوقي ألب أرسلان [٢] ، وقد اتخذ من بلاد الأناضول إلى الشمال من ملطية مقراً له حتى تمكن من توسيع دولته على حساب

---

(١) انظر : د . مسفر الغامدي : الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ١٣٨ .

(٢) للتوسع في الدراسة عن هذا الأمير اقرأ ماكتبه الدكتور علي محمد عوده الغامدي بعنوان (المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين) الطبعة الأولى ، مكتبة الصديق بالطائف ١٤١١هـ .

البيزنطيين ووصل بها إلى البحر الأسود .

كان الصليبيون في إمارتي الرها وأنطاكية قد طمعوا في التوسع في بلاد الأناضول شمالاً وفي بلاد الشام جنوباً ، ولذلك فقد حاولوا عدة مرات الاستيلاء على حلب ، فلما لم ينجحوا في ذلك عملوا على إقامة حصون في الإراضي التابعة لها حتى يمنعوا المحصولات من الوصول إلى حلب ، وقد اضطر أمراؤها في كثير من الأحيان إلى مسالمة الصليبيين ، لكنهم لم ينجحوا في الاستيلاء على حلب ، ولذلك فقد طمعوا في الاستيلاء على ملطية إلى الشمال ، وهي مدينة لها أهميتها بالنسبة لبلاد الشام وللأناضول على حد سواء . وقد كانت الظروف مواتية للصليبيين حيث كانت المدينة خاضعة لأحد الأمراء الأرمن ويسمى جبريل ، وقد أحس بعزم كمشتكين بن دانشمد بالسيطرة على مدينته ، وبالتالي ، فإنه اتصل بإمارة أنطاكية ، وعرض على أميرها بوهمند النورماندي استلام المدينة وفق شروط معينة ، وقد وافق بوهمند على ذلك ، واصطحب معه مجموعة من الفرسان متوجهاً إلى ملطية حسب موعد محدد مع حاكمها جبريل الأرمني ، ولكن الأمير كمشتكين ، كان يراقب الموقف عن كثب ويتتبع الأخبار ، ولذلك فقد كمن لبوهمند النورماندي ومن معه من جند وتمكن كمشتكين من القضاء على قوات بوهمند وأسره وبعض الأمراء الصليبيين المرافقين له ، وذلك في رمضان سنة ٤٩٣هـ(١) ، وكان أسر بوهمند ضربة موجعة للصليبيين ، فهو أحد قادتهم

(١) وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج١ / ٤٧٤ ، ابن الوردي : تاريخه ج ٢ / ١٦ .

الرئيسيين في الحملة الصليبية الأولى، وهو المؤسس لإمارة أنطاكية النصرانية، وبالتالي فقد تحرك بلدوين حاكم إمارة الرها الصليبية لمطاردة كمشتكين الذي كان يحاصر ملطية بجنوده، فرأى من المصلحة أن يفك الحصار راحلاً بأسيره بوهمند متوغلاً داخل الأناضول، ورغم أن حركة كمشتكين لم تتمكن من احتلال ملطية، فإنها تعد من أوائل المحاولات الجهادية الإسلامية خصوصاً أنها حدث قبل مرور ثلاث سنوات على تأسيس أول إمارة صليبية في المنطقة، كما أن هذا الانتصار على بوهمند أضعف من محاولات الصليبيين الاستيلاء على حلب، وبالتالي سلمت منهم، كما شجع بعض الأمراء المسلمين في مهاجمة بعض المواقع والمحطات العسكرية الصليبية فيما بين حلب وأنطاكية [١] .

وقد استمر بعض الأمراء المحليين في مقاومة الصليبيين، ولكن جهودهم كانت مبعثرة وضعيفة ولم تؤثر في تغيير الوضع بشكل جذري .

ومن أشهر من قاموا بمجاهدة الصليبيين أمير الموصل الأتابك مودود بن التونتكن، حيث كلف بذلك من قبل العباسيين وسلاطينهم السلاجقة، وقد خاض مع الصليبيين معارك عديدة في نواحي الرها وأنطاكية خلا ل الفترة من ٥٠٢ حتى مقتله سنة ٥٠٧ هـ [٢] ، وقد كان مودود محل احترام المسلمين وتقديرهم لما كان يقوم به من جهاد ضد الصليبيين، كما كان الصليبيون

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ٤٨٥ ، ٤٩٢ ، ٤٩٥ ، ود. علي الغامدي : كمشتكين ص ٢٠ .
(٢) المعاضيدي وزملاؤه : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٨٠ .

يحترمونه ويقدرون فيه إخلاصه لأمته ،وقد استشهد رحمه الله في مؤامرة وقعت له في دمشق على يد الباطنية الإسماعيلية ، وهو صائم في يوم جمعة، وقد كتب أحد ملوك الفرنج إلى حاكم دمشق شامتاً في مقتل مودود وكان مما قال : « إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها حقيق على الله أن يبيدها » (١) كما أن من الأمراء الذين كان لهم دور في مقاومة الصليبيين الأتابك ظهير الدين صاحب دمشق حيث قاتل جموعاً منهم سنة ٥٠٩ و٥١٢و٥١٣هـ ، كما قام بالتعاون مع أمراء الموصل وحلب في عدة مواقع ، كما أن أمير الموصل (سيف الدين آق سنقر البرسقي) تمكن من فك الحصار الذي ضربه الصليبيون على حلب سنة ٥١٨ هـ الموافق ١١٢٤م، ومنذ ذلك التاريخ وحلب والموصل تشكلان محوراً واحداً في مقاومة الصليبيين وجهادهم حتى جاء الزنكيون ودفعوا حركةالجهاد في المنطقة .

---

(١) ابن الأثير : التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية ١٩، وانظر الكامل : ج ١٠ / ٤٩٧ .

جهاد عماد الدين زنكي

كان عماد الدين زنكي أحد قواد الموصل المشهورين أثناء حكم مودود ابن التونتكين الذي كان أتابكاً على الموصل من قبل السلاجقة ، كما اشترك عماد الدين مع بقية أمراء الموصل الآخرين في جهاد الصليبيين ، وكانت إمارة الموصل مهددة من قبل الصليبيين في الرها ، كما أن تهديدها يعني تهديد بغداد نفسها وهي عاصمة الخلافة ، ولذلك ما أن شغرت إمارة الموصل سنة ٥٢١هـ للهجرة حتى تم تعيين عماد الدين أميراً عليها [(١)] ، فأصبح هو المسؤول مباشرة عن الموصل وجهادها القادم ضد الصليبيين .

كانت همة عماد الدين مذ تولى على الموصل هي مجاهدة الصليبيين ، وقد تطلب منه هذا الأمر أن يبدأ بالموصل نفسها ليرتب أمورها ويعد قواتها ويوحد صفوف أهلها قبل أي معركة مع الأعداء ، فتفقد القلاع وعين لها الأمراء ورتب لها الأجناد في مختلف أنحاء إمارته[(٢)] ، كما عمل زنكي فيما بين عامي ٥٢١ ـ ٥٢٢هـ على مد نفوذه على بعض المناطق المجاورة وخصوصاً في الغرب حيث بلاد الشام والمجابهة المتوقعة مع الصليبيين ، وكان لحسن تعامله وتدبيره للأمور موفقاً في استقطاب كثير من القوى المجاورة وضمها إلى صفه ، واستطاع تكوين جبهة إسلامية قوية في شمالي العراق وبلاد الشام

---

(١) ابن الأثير : الباهر ٣٥، الكامل ج ١٠ / ٦٤١ ، ٦٤٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢/ ١٩٨ .

(٢) انظر ابن الأثير : الباهر ٣٥ .

تمتد من الموصل إلى حلب ، وتشمل معظم بلاد الجزيرة وحلب نفسها وما جاورها (١) ، ومع هذا ظل يعاني في بعض الأحيان من بعض زعماء الشام وقوادهم الذين كانت تغلب عليهم مصالحهم الشخصية ، وخصوصاً أمراء دمشق الذين رفضوا الانضمام إلى الجبهة الإسلامية الجديدة واستمروا في مجابهة دائمة مع عماد الدين زنكي . كانت بلاد الجزيرة ونصيبين والمناطق المجاورة للصليبيين تعيش في ذل وصغار لضعفهم أمام الصليبيين الأقوياء(٢) ، وقد فرض الصليبيون الجزية والخراج على المناطق الإسلامية المجاورة لهم .

كان زنكي أثناء إعداده للقوى الإسلامية في المناطق الخاضعة له يسعى إلى عدم مصادمة الصليبيين قبل أن يكون مستعدا لذلك ، وعلى هذا فقد عقد معاهدة مدتها سنتان مع أمير الرها الكونت جوسلين الثاني بحيث لايتعرض أحد منهما للآخر طيلة مدة المعاهدة(٣) .

وما أن انتهت فترة المعاهدة حتى بدأ زنكي حركة جهادية ضد الصليبيين بعد أن كوّن القوة اللازمة لذلك ، كانت أول محاولة له لفرض السيطرة على إحدى الإمارات الصليبية موجهة إلى إمارة أنطاكية قي الشمال الغربي لبلاد

---

(١) انظر ابن الأثير : الباهر ص ٣٥ ـ ٣٧ ، أبو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين ٣١ ، وانظر : ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ / ١٩٨ ، ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ٢ / ٣٢٨ .

(٢) انظر ابن الأثير : الباهر ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) ابن الأثير : الباهر ٣٨ ، وانظر . رنسيمان : الحروب الصليبية ٢٩١ .

الشام وهي من أقدم الإمارات الصليبية وأهمها ، وهي مفتاح الشام لقوىٰ الفرنجة القادمة من أوربا عن طريق البر ، حاول عماد الدين استغلال الظروف الواقعة في أنطاكية نتيجة مقتل ملكها وتولىٰ زوجته مكانه ، وكانت امرأة ضعيفة [١] ، ولها معارضون كثر في الإمارة فجرىٰ بين عماد الدين وبينها بعض الاتصالات حيث حاولت الاستنجاد به ضد خصومها ، لكن هذا الأمر لم يتم حيث وصلت إمدادات من الفرنجة في بيت المقدس واضطرت إلىٰ التسليم لتلك القوات .

كان لإمارة أنطاكية الصليبية حصن قوي إلىٰ الغرب من حلب وهو مجمع لفرسان الصليبيين ، ويسبب أذىٰ كثيراً للمسلمين وكانوا من خلاله يفرضون الإتاوات علىٰ المناطق الزراعية القريبة من حلب ، بل تمكنوا بقوات ذلك الحصن من أخذ الكثير من أراضي حلب المجاورة لها من الغرب ، وكان يمثل تهديداً دائماً لحلب نفسها ، فاستعد عماد الدين للاستيلاء عليه بالقوة ، وحاصره سنة ٥٢٤هـ ، فلما سمع الصليبيون في النواحي الأخرىٰ من بلاد الشام بحصاره توجهوا بقوات كبيرة للدفاع عنه ، فجمع زنكي قواته وأخبرهم بالإمدادات القادمة للصليبيين المحاصرين واستشارهم في الأمر ، فأشار كثير منهم بالانسحاب وترك الحصن إذ لا طاقة لهم بقتال تلك الجموع الكثيرة من الصليبيين ، والذين سيستميتون في الدفاع عن حصنهم ، وعندما سمع زنكي

---

(١) رنسيمان : الحروب الصليبية ٢٩٤ .

رأي أصحابه قال : «هذه خطة خسف تجرئهم علينا وتطمعهم فيما لدينا لكن الرأي أن نستعين بالله عليهم ونلقاهم فإما لنا وإما علينا»(١) ، ثم تأهب رحمه الله ومن معه من جند وسار إلىٰ جيوش الفرنجة القادمة حيث نشبت بينه وبينهم معركة حامية انتصر فيها المسلمون وقتلوا وأسروا عدداً كبيراً من النصارىٰ ، ثم رجع جند المسلمين مرة أخرىٰ لمهاجمة حصن الأثارب ، وتمكنوا من الاستيلاء عليه بالقوة وقتل المدافعين عنه ، ثم قاموا بتخريب الحصن حتىٰ أصبح ليس له قيمة عسكرية تذكر ، وذلك خوفاً أن لايستطيع المسلمون المحافظة عليه فيعود الصليبيون لاحتلاله (٢)، وبتحطيم هذا الحصن استراح أهل حلب وما جاورها من شره وتوسعوا في الأراضي المجاورة .

ما أن فرغ زنكي رحمه الله من فتح الأثارب حتىٰ توجه بجيشه إلىٰ حصن حارم المجاور لحلب فحاصره طمعاً في فتحه ثم دارت المراسلات بينه وبين من بداخله من الصليبيين حيث طلبوا الصلح وبذلوا له نصف خراج حارم إن تركهم ، فعقد عماد الدين معهم هدنة ثم ترك حصارهم ورحل عنهم(٣) .

وقد انشغل عماد الدين شخصياً ببعض الأمور في بلاد العراق ولكنه رتب نواباً له في بلاد الشام علىٰ قدرة كبيرة في مجاهدة الصليبيين ، وكان من هؤلاء الأمير أسوار نائبه علىٰ حلب الذي تمكن سنة ٥٢٧هـ من صد هجومين

---

(١) ابن الأثير : الباهر ٤٠ ، الكامل ج١٠/ ٦٦٣ ، وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٠٠ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٠/ ٦٦٢ ، الباهر ٣٩ ، وانظر د. حامد غنيم : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج ١ / ٢٥٩ .

(٣) ابن الأثير : الباهر ٤٢ ، الكامل ج١٠/ ٦٦٣ د. حامد غنيم : الجبهة الإسلامية ٢٦٠ .

للصليبيين على حلب حيث انتصر عليهم وقتل جموعاً كبيرة منهم[١]. ولم يتوقف أسوار عند الدفاع عن بلاده ضد الصليبيين بل إنه بادر إلى الهجوم بجند حلب على بعض المواقع الصليبية ، وهذا يعد تقدماً كبيراً في جهاد المسلمين للصليبيين حيث أصبح الأمراء النواب دون أن يكون أمراؤهم الكبار موجودين ، فقد قام أسوار نائب زنكي على حلب بهجوم على تل باشر وهو أحد الحصون الصليبية القريبة من إمارة حلب ، وجرت بينه وبين الفرنجة معركة حامية انتصر فيها المسلمون وقتل من النصارى قريباً من ألف رجل مابين فارس وراجل ، وقد قامت قوات زنكي بقيادة نائبه على حلب الأمير أسوار ومعه جيوش من حلب وحماة بهجوم على اللاذقية وأعمالهاسنة ٥٣٠هـ، حيث حصلوا على الكثير من الغنائم وأربكوا الفرنج وقتلوا وأسروا الكثيرمنهم حتى بلغ الأسرى قرابة سبعة آلاف أسير ، وبلغت الغنائم قرابة مائة ألف رأس من الماشية « وفرح المسلمون بذلك ولم يقدر الفرنج على شيء يفعلونه مقابل هذه الحادثة عجزاً ووهناً »[٢] .

ومن أهم أعمال زنكي حملته على حصن بعرين حيث هاجمه بعد صدام مع الصليبيين حول حمص ، وقد توجهت جيوش صليبية يتزعمها ملك بيت المقدس فولك وريموند كونت طرابلس في محاولة لصد عماد الدين عن الحصن ولكن عماد الدين أصر على الاستمرار في الحصار ، وفي الوقت نفسه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١٠ / ٦٨٥ ، وانظر : ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ / ٢٠٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل : ج ١١ / ٤٠ .

توجهت قوات كبيرة من الصليبيين من بلاد الشام المختلفة ومن الروم في محاولة منهم لإنقاذ المحاصرين في الحصن ، ولكن عماد الدين تمكن من منع الأخبار عن المحاصرين داخل الحصن حتىٰ يئسوا واستسلموا لعماد الدين وسلموه الحصن قبل وصول الإمدادات التي كانت في الطريق إليهم بيوم أو يومين ، فلما فارقوا الحصن« بلغهم اجتماع من اجتمع بسببهم، فندموا علىٰ التسليم حيث لاينفعهم الندم ، وكان لايصلهم شيء من الأخبار ألبتة ولهذا سلموا»(١) .

كما تصدىٰ عماد الدين زنكي لحملة الدولة البيزنطية علىٰ بلاد الشام بقيادة الإمبراطور البيزنطي حنا كومنين الذي زحف علىٰ بلاد الشام، بعد طلب نصارىٰ الشام نجدته ، فوصل إلىٰ الشام سنة ٥٣١هـ وكانت أولىٰ محطاته بها أنطاكية حيث تجمعت قواته القادمة عن طريق البر والبحر ، ثم زحف بها شرقاً حيث احتل العديد من المواقع الإسلامية ومنها نيقية وعين زربة، وتل بحمدون وغيرها ، ثم توجه إلىٰ بزاعة وهي من أقرب الحصون إلىٰ حلب ، وتمكن الروم يقودهم الإمبراطور من الاستيلاء عليها فعملوا بها مذبحة رهيبة حيث قتلوا الآلاف من أهلها وجرحوا مايزيد علىٰ خمسة آلاف وأجبروا بعض أهلها علىٰ التنصر(٢)، وقد أراد الإمبراطور البيزنطي أن يصل

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١/ ٥٢ ، وانظر وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢/ ٦٨٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ١١ / ٥٦ ، رنسيمان : الحروب الصليبية ٣٤٤ ، وانظر ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٢ / ٢١٢ ، ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ / ٧٣ .

إلىٰ حلب ، حيث كانت بزاعة في نظره محطة علىٰ الطريق ، إلا أن أهل بزاعة تمكنوا من إنذار أهل حلب ، فقام الحلبيون ومعهم جنود عماد الدين زنكي بتجهيز التحصينات الدفاعية في حلب ، وكتبوا إلىٰ زنكي وكان غائباً عن حلب يخبرونه بالخطر المتوقع ، فأمدهم ببعض الفرسان ليشاركوا في الدفاع عن حلب وليرفع من معنويات أهلها ، ثم وصل الروم ومن حالفهم من فرنجة الشام وفرضوا الحصار علىٰ حلب حيث صمد أهلها صمود الأبطال ، وأخذ شجعان أهل حلب من الشباب والشيوخ والأحداث يقومون بهجمات مباغتة علىٰ الصليبيين فيقتلون من ينفرد منهم ويغيرون عليهم ويفرون دون أن يصاب منهم أحد ، ويتسللون داخل معسكراتهم ، مما أوقع الرعب في قلوب الأعداء ، كما أن تحصن أهل حلب منهم جعلهم ييأسون من الاستيلاء عليها وبالتالي آثر الروم وأعوانهم من صليبيي بلاد الشام رفع الحصار عن حلب بعد ثلاثة أيام من حصارها ، وتوجهوا إلىٰ حصن الأثارب الذي سبق أن استعاده زنكي من الصليبيين ، فخاف من فيها من المسلمين فهربوا عنها بعد أن أحرقوا قلعتها وتحصيناتها حتىٰ لايستفيد منها الأعداء ، فتمكن الروم من احتلالها ، ثم غادروها بعد أن جمعوا فيها عدداً كبيراً من أسرىٰ المسلمين ، ومعهم حاميةمن الروم تحرسهم ، وكان أسوار أمير حلب من قبل عماد الدين يتابع الموقف عن بعد ، فقام بهجوم مباغت علىٰ الأثارب بعد رحيل الروم عنها وتمكن من قتل حامية الروم وخلص من فيها من أسرىٰ المسلمين وعاد إلىٰ حلب سالماً غانماً (١) .

---

(١) ابن كثير : الكامل ج ١١ / ٥٧ .

وقد قام الروم بعد ذلك بالهجوم علىٰ شيزر وهي إمارة مستقلة لآل منقذ فقام أمراؤها بالاستنجاد بعماد الدين زنكي فأعد جيشاً أخذ يناوش به الروم ، وفي الوقت نفسه عمل علىٰ إيقاع الخلاف بين الروم وحلفائهم من نصارىٰ الشام، ولم تقع مواجهة مباشرة بين المسلمين والروم حيث آثر إمبراطور الروم الانسحاب وعدم الاحتكاك بعماد الدين زنكي(١) . وقد كان وقوف عماد الدين زنكي وتصديه حتىٰ ولولم يكن مباشرة لحملة الإمبراطور البيزنطي دور كبير في فشل تلك الحملة الرومية الصليبية التي استهدفت تحطيم الجهاد الذي قاده عماد الدين في تلك المرحلة، كما أن عمل عماد الدين علىٰ إيقاد العداوة بين الروم وصليبيي الشام من الأسباب الرئيسة في فشل الحملة .

وقد قام عماد الدين سنة ٥٣٣هـ باستعادة ما أخذ الروم من حصون المسلمين في بلاد الشام كما نجح في فتح مواقع أخرىٰ كانت بأيدي الصليبيين . وقد اضطر عماد الدين لمواجهة حلف القوىٰ الإسلامية في دمشق مع الصليبيين وذلك في الفترة من ٥٣٤ ـ ٥٣٦هـ ، وكان عماد الدين يخفف من هجومه علىٰ القوىٰ الإسلامية المعارضة له في هذه المرحلة لكي لايدعم أواصر التعاون بينها وبين الصليبيين .

وقد قام بعض قواد عماد الدين بعدة غارات ناجحة علىٰ أنطاكية وما

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ١١ / ٥٨ ، رنسميان : الحروب الصليبية ٤٦ ، وانظر : عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ١٤٧ ، وانظر وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢/ ٦٩٧ .

حولها سنة ٥٣٦هـ تمكنت من الإيقاع بالصليبيين في العديد من المواقع القريبة من أنطاكية ، وقتلت في أحد المرات مايزيد على سبعمائة صليبي وعادت محملة بالغنائم والأسلاب (١) .

فتح الرها: جمادى الأخر ٥٣٩هـ :

تعد الرها من أهم وأقدم المراكز الصليبية في بلاد الشام ، كما أنها تعد من أخطر المراكز المعادية للمسلمين ، ويمتد خطرها إلى المسلمين في الشام والجزيرة وفي العراق مركز الخلافة الإسلامية ، وكانت غارات فرسان الصليبيين تصل إلى مختلف المناطق المجاورة لها ، وتوقع بالمسلمين ، وقد تمكنت من الاستيلاء على العديد من المواقع والحصون ومدت أراضيها حتى كانت تتبعها حصون كثيرة تمنع المسلمين من الوصول إلى الرها نفسها ، كان عماد الدين قد نجح في الإيقاع بالصليبيين في العديد من المواقع وبالتالي صاروا يخشونه ويحسبون لقوته حساباً خاصاً ، وقد كان عماد الدين يفكر باستمرار في مجاهدة هذه القاعدة الصليبية منذ أن استقرت له الأمور في الموصل ، ويدرك أن الاستيلاء عليها يتطلب استعداداً قوياً كما يتطلب معرفة دقيقة بأحوال العدو فيها ، ولذلك ركزت استخباراته على متابعة أحوالها ورفع التقارير عنها باستمرار لكي يرى عماد الدين الوقت المناسب للهجوم عليها ، وفي جمادى الآخر سنة ٥٣٩هـ وصلت تقارير الاستخبارات الزنكية من الرها تفيد بمغادرة جوسلين الثاني حاكم الرها إلى بعض المواقع الصليبية في الشام(٢) ، فأعلن عماد الدين التعبئة العامة في مختلف المناطق التابعة ،

(١) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٩٠ ، وانظر : عماد الدين خليل : عماد الدين زنكي ١٦٢ .

(٢) ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق ٢٧٩ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٩٨ .

وزحف مسرعاً بأجناد المسلمين إلىٰ الرهامستغلين خلوها من قائدها، واستطاع عماد الدين بمن معه من المسلمين محاصرتها حصاراً شديداً ومباغتاً ، وتمكن المسلمون من منع الإمدادات عنها تماماً حيث نجحوا في إكمال حصارها من جميع الجهات، وأخذت منجنيقات المسلمين ترميها من كل ناحية دون توقف أوفتورفي محاولة لتدمير أسوارها وحصونها . وقد أوقعت آلات المسلمين الضخمة الرعب في قلوب الصليبيين في الرها في الوقت الذي نجح المسلمون في قطعهم عن كل من حاول مساعدتهم من صليبيي الشام أو من قوات الرها نفسها التي خرجت مع ملكها قبل الحصار، وتمكن المسلمون من منعها من العودة إليها مرة أخرىٰ، في الوقت الذي استمرت فيه الإمدادات في الوصول إلىٰ الجيش الإسلامي وخصوصاً من قبائل التركمان الذين كانوا متحمسين للجهاد ، وبدأ النقابون محاولات جادة لفتح بعض الثغرات في مناطق الضعف في الأسوار والتحصينات، وفي الوقت نفسه كان عماد الدين يفاوض أهل الرها ويكاتبهم طمعاً في استسلامهم وفتح المدينة سلماً ، ولكن أهلها أبوا ذلك رغم الوعود التي بذلها لهم(١) ، وحينذاك اشتد زنكي في التضييق علىٰ المدينة أكثر من ذي قبل محاولاً فتح المدينة في أقصر وقت ليمنع بقية صليبيي الشام من التدخل ، ونجح عماد الدين في التصدي للنجدات الصليبية التي قادها ملك الرها جوسلين الذي كان خارجها ، حيث تمكن المسلمون من منعه من الوصول إليها ، وقد استمر حصار المدينة ثمانية وعشرين يوماً تمكن

---

(١) ابن الأثير : الباهر ص ٦٩ ، الكامل : ج١١/ ٩٨ .

المسلمون في نهايتها من تحطيم الأسوار عن طريق النقب تحتها وإشعال النار، وكان عماد الدين زنكي رحمه الله يشرف شخصياً على أعمال النقابين ويشاركهم العمل، وتمكن المسلمون من اقتحام الرها عنوة في وضح النهارفي السادس والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٥٣٩هـ[١]، وقتلت جموع كبيرة من الصليبيين في ذلك الاقتحام حيث استماتوا في الدفاع عن المدينة كما استشهدت جموع كبيرة من المسلمين في ذلك الفتح المبين، وقد صمدت قلعة المدينة في وجه المسلمين مدة يومين كاملين رغم سقوط المدينة ولكن المتحصنين بها اضطروا لاستسلام بعد ذلك، وأصدر زنكي أوامره إلى الأجناد بالكف عن القتل والإحسان إلى الأسرى فامتثل المسلمون للأوامر، كما وعد أهلها من النصارى بالعدل وحسن المعاملة والتدبير[٢]، وشرع المسلمون في عمارة ماتهدم من تحصينات المدينة، كما عمل عماد الدين على إثارة النعرات والعداء بين النصارى الشرقيين والنصارى الفرنجة للتفريق بينهم قدر الاستطاعة[٣].

ويعتبر فتح الرها بداية مرحلة جديدة في الجهاد ضد الصليبيين، إذ تمكن المسلمون لأول مرة من إسقاط إمارة كبرى ورئيسة من إمارات الصليبيين في

---

(١) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٨٠، ابن الأثير: الباهر ٦٩، الكامل ج١١/ ٩٨، ابن الجوزي: المنتظم ج١٠/ ١١٢. ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢١٩، وانظر: عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي ١٥٢، وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج ٢/ ٧٣٩.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق ٢٨٠.

(٣) عماد الدين خليل: عماد الدين زنكي ١٥٣.

الشام، ولذلك فقد تحولت موازين القوى ـ المعنوية على الأقل ـ لصالح المسلمين حيث أخذوا يهاجمون المواقع الكبرى للصليبيين بشجاعة أكبر من ذي قبل، حيث أصبح للمسلمين هيبة أكبر عند الصليبيين (١) .

ولم يتوقف عماد الدين زنكي عند فتح الرها ، بل تابع الهجوم على الحصون التابعة لها والتي كانت مشحونة بقوات مستقلة ، وتمكن من فتح العديد منها بعد الرها حيث فتح حصن البيرة في أوائل سنة ٥٣٩هـ (٢) .

لم يعش عماد الدين كثيراً بعد فتح الرها فقد حاول الاستيلاء على بعض المواقع الإسلامية المحكومة من بعض الأمراء المستقلين ، وكان من آخرها قلعة جعبر التابعة لأبناء العقيلي ، وفي أثناء حصار عماد الدين لتلك القلعة قام بعض غلمانه وخدمه بالدخول عليه وهو نائم وتمكنوا من اغتياله ، واستشهد رحمه الله في الخامس من ربيع الآخر سنة ٥٤١هـ بعد سنوات حافلة بالجهاد والتضحية (٣) ، وبعد أن فتح صفحات جديدة في تاريخ الجهاد الإسلامي مع الصليبيين ، وبعد أن وضع بداية النهاية للوجود الصليبي على أرض الإسلام في بلاد الشام ، رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

---

(١) انظر : وليم الصوري ج ٢ / ٢٤٠ .

(٢) ابن الأثير : الباهر ٧٣ .

(٣) انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢/ ٣٢٧ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ١١٠ ، ابن الجوزي : المنتظم ج١٠/ ١١٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢١ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠/ ١٩١ ، وانظر إلى فرح الصليبيين في وفاة هذا المجاهد في : وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج ٢ / ٧٤٢ .

جهاد نور الدين محمود

نورالدين محمود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل، كان أحد أبناء أبيه الذين يعتمد عليهم في حياته في تسيير أموره، وكان مرافقاً له أثناء حصاره لقلعة جعبر، حين قتل أبوه غيله سنة ٥٤١هـ، فأخذ خاتمه وبعد تجهيز أبيه ودفنه توجه إلى حلب فملكها [١]، وكانت تابعة لأبيه، كما قام أخوه الأكبر سيف الدين زنكي بالاستيلاء على الموصل وهي مركز مملكة أبيه، ورغم منافسة أخيه له في الموصل، ومحاولة الوشاة الإيقاع بينهما، فقد أحس كل منهما بأهمية الاتفاق وعدم الفرقة والبعد عن حب الذات، نظراً لما كان المسلمون عليه من خطر من قبل الصليبيين وأن أي اختلاف بينهما سيستغله الصليبيون الأفرنج، ولذلك فقد تواضع نور الدين لأخيه الأكبر سيف الدين والتقيا في الشام أثناء زيارة لسيف الدين حاكم الموصل فقال: «إنما غرضي أن تعلم الملوك والفرنج اتفاقنا فمن يريد السوء بنا يكف عنا»[٢]. وقد كان رحمه الله يتمثل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ﴾. [الأنفال آية: ٤٦] ولم يلبث سيف الدين أن توفي سنة ٥٤٤ هـ فأصبح نور الدين صاحب الكلمة العليا في مملكة حلب ومايتبعها دون أن يكون خاضعاً

(١) ابن الأثير: الكامل: ج١١/ ١١٢، ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١٠٩، وابن الوردي: تاريخه ج٢/ ٦٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٠/ ٥٣٢.
(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ١١٢.

لأحد[١] .

كان نور الدين رحمه الله قد تربى منذ صغره على القرآن الكريم والفروسية، حيث كان والده قد أوكله إلى أحد العلماء ليتولي تربيته . فلما شب كان مرافقاً لأبيه في جهاده مما أكسبه خبرة في هذا المجال، فكان رجلاً صالحاً ومجاهداً في الوقت نفسه، ومنذ أن تولى على حلب، وضع نصب عينيه قضية الإصلاح الداخلي وجهاد أعداء الإسلام من الصليبيين وأعوانهم، بعد أن أصبح في مواجهة مباشرة مع الصليبيين، وكان من أوائل أعماله صده هجوماً للصليبيين على الرها سنة ٥٤١هـ حين حاولوا إعادة احتلالها بعد تحريرها من عماد الدين زنكي، وبعد أن علموا بوفاته ظنوا أنه لامدافع عنها، ولكن نور الدين كان لهم بالمرصاد فاضطروا إلى الهرب، وكان رحمه الله حازماً فأدب من فيها من الأرمن الذين مالؤوا الصليبيين[٢]، وقطع بذلك أمل الصليبيين في استعادة الرها مرة أخرى ، كما قام رحمه الله باحتلال العديد من الحصون والمواقع العسكرية الصليبية المجاورة لحلب، وقد ركز جهوده إلى الغرب من حلب، حيث أخذ يهاجم المواقع العسكرية التابعة لإمارة أنطاكية فتمكن سنة ٥٤٢هـ ١١٤٧م من فتح (أرتاح) وتجريد أنطاكية من معظم قلاعها الشرقية بعد معارك عديدةمع (ريمون دي بواتييه) صاحبها[٣] .

---

(١) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢٠/ ١٩٢، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٢٧ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ١١٤، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١١١، وانظر: وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٧٥٤،د. فايد عاشور : جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ٢٠٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ١٢٢ ،و انظر د. مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ص٢٤٧،د. فايد عاشور : جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ٢١١ .

كان لاستعادة المسلمين الرها في الفتح المشهور على يد عماد الدين زنكي دور رئيس في تحرك الحملة الصليبية الثانية، حيث إن ذلك السقوط الصليبي الذي جاء بعد أقل من خمسين سنة من إقامة تلك الإمارة إيذاناً بسقوط بقية الإمارات الصليبية الأخرى في بلاد الشام خصوصاً أن الرها هي أول الإمارات الصليبية تأسيساً في البلاد الإسلامية. وكانت الحملة الصليبية الثانية بزعامة إمبراطور ألمانيا (كونراد الثاني) وملك فرنسا (لويس السابع). وقد تعرضت هذه الحملة لهجمات سلاجقة الروم عند عبورها الأناضول[١]، وخسرت الكثير من رجالها واستنزفت، ثم وصلت أنطاكية، حيث حاول حكامها استغلال هذه الحمله لاستعادة ما أخذ منهم من حصون ومواقع عسكرية على يد نور الدين، ولكن الحملة واصلت مسيرتها إلى بيت المقدس، وهناك بحثوا الوضع والأولويات، فقرروا الهجوم على دمشق.

كانت دمشق محكومة من قبل (معين الدين أنر) وهو مسالم للصليبيين وبينه وبين مملكة بيت المقدس معاهدة، إذ إنه يخشى استيلاء نور الدين على دمشق وضمها إلى مملكته، وحين تناسى الصليبيون المعاهدة وهجموا على دمشق في ربيع الأول سنة ٥٤٣هـ ضغط العلماء والعامة في دمشق على حاكمها، فاضطر معين الدين أنر إلى أن يستنجد بنور الدين محمود في حلب وأخيه سيف الدين في الموصل، ومع هذا فقد بذل أهل دمشق جهوداً كبيرة في الإيقاع بالصليبيين، ولم تصل نجدات نور الدين محمود، ومع ذلك فقد

(١) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٧٦٤.

خشي الصليبيون من وصولها وانسحبوا من مواقعهم بالقرب من دمشق تاركين وراءهم مئات القتلى[١]، وقد أتاح ذلك لنور الدين محمود التفكير بجدية لضم دمشق إلى مملكة حلب، ولكن حاكمها (معين الدين أنر) كان عقبة في سبيل ذلك، وكان نور الدين على استعداد تام للتعاون معه ولو لم يضم بلده لكي يبعده عن الصليبيين الذين تحالف معهم سابقاً وكان على استعداد للتعاون معهم من أجل استمراره في حكم البلد[٢]، ولكن نورالدين محمود كان سياسياً ومرناً في التعامل مع معين الدين أنر، حيث استطاع طمأنته واستماله وتعاون معه في ضرب الصليبيين في العديد من المواقع سنة ٥٤٤هـ[٣]. كما أن خلافاً بدأ يظهر بين صليبيي بلاد الشام وبعض زعماء الحملة الصليبية الثانية دفع بعضهم إلى الاستعانة بنور الدين محمود، فقد طلب (ريموند الثاني) صاحب طرابلس مساعدة نور الدين محمود ضد (برتراند بن الفونسو) صاحب طليطلة وهو من ملوك الأسبان الذين قدموا مع الحملة الصليبية الثانية، واستولى بالقوة على (حصن العزيمة) رغماً عن صاحب طرابلس، فتوجه نور الدين محمود ومعين الدين أنر بالإضافة إلى بعض القوات التي قدمت للمساعدة من الموصل وحاصروا حصن العزيمة

---

(١) ابن الأثير: الكامل: ج١١/ ١٣٠، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ج١/ ١٣٤، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٢٤، وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٧٨٥.

(٢) انظر: ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ١٢٢، وانظر مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ٢٥٣، وانظر وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٧٤٣.

(٣) د. المعاضيدي وزملاؤه: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ١١٧.

وتمكنوا من فتحه بالقوة وأسر ابن الفونسو ووالدته وهما من أهم زعماء الحملة الصليبية الثانية من ملوك أسبانيا، وتم ترحيلهما أسرىٰ إلىٰ حلب [١]، وبذلك فإن جهود الحملة الصليبية الثانية ضاعت وتبعثرت نتيجة مواقف نور الدين محمود وإصراره علىٰ مجابهتها في كل مكان، كما تمكن نور الدين من هزيمة الروم في عدد من المواقع بالقرب من حلب ومنها (بَيَغْرَي)، سنة ٥٤٣هـ، حيث قتل جماعة كبيرة منهم وأسر جموعاً أخرىٰ، ولأهمية هذا الفتح فقد أرسل نور الدين شيئاً من غنائمه إلىٰ الخليفة العباسي (المتقي لأمر الله) وإلىٰ السلطان السلجوقي (مسعود بن محمد) ملكشاه وإلىٰ أخيه (سيف الدين غاري) [٢]. ومنذ ذلك الوقت أصبح المسلمون في بلاد الشام يسخرون من قوة الصليبيين «وسمت قوتهم وشجاعتم إلىٰ قوة عاليه حيث لم يعودوا يخافون من القوة المسيحية ولم يترددوا في مهاجمتهم بشكل منقطع النظير» [٣].

وفي السنوات اللاحقة بذل نور الدين جهوداً كبيرة في تنقية الصف الإسلامي، حيث وجه جهده لأهل التشيع والإسماعيلية في البلاد الخاضعة له، ومنعهم من سب الصحابة وأبطل كلمة «حي علىٰ خير العمل» وما معها من زياداتهم في الأذان، وضيق عليهم فحاولوا التحالف مع الصليبيين ضده، كما قام نور الدين بدعم السنة دون التعصب لمذهب فقهي معين، فقد كان علىٰ

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج١١/ ١٣٢، ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١١٤، وانظر د. مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ٢٥٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١١٤.

(٣) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٧٨٩.

مذهب أبي حنيفة، من غير تحيز، ومع ذلك ساعد في بناء مدارس للمذاهب الأخرىٰ[١].

كما سعىٰ رحمه الله لإزالة المظالم فقد بنىٰ داراً للعدل كان يجلس فيها يومين في الأسبوع للنظر في مظالم الرعية، فخشيه الأمراء والقواد وأصبحوا لايظلمون الناس شيئاً مما زاد في ترابط المجتمع المسلم[٢].

وقد كان متواضعاً يعطف علىٰ العلماء والفقراء والمحتاجين وينفق عليهم فقيل له في وقت حاجة لو قللت من تلك النفقات واستعنت بها علىٰ الجهاد فقال: « والله إني لأرجو النصر بأولئك فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم، كيف أقطع صلات قوم يقاتلون عني وأنا نائم في فراشي بسهام لاتخطئ وأصرفها إلىٰ من لايقاتل إلا إذا رآني بسهام قد تخطئ وقد تصيب ثم هؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال أصرفه إليهم كيف أعطيه غيرهم »[٣]، وقد عمد في كثير من الأحيان إلىٰ تعويض ما يفقده المجاهدون من سلاحهم ومتاعهم في القتال ضد الأعداء في الوقت الذي كان يترك لهم نصيبهم من الغنائم، [٤]، وكان ورعاً يأكل من عمل يده ولا يسرف في النفقة من بيت المال ويحرص علىٰ الإنفاق من غنائمه في الجهاد[٥]. ونظراً لحسن سيرته فقد

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٠/ ٥٣٢، د. مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ٢٤٣.

(٢) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ١/ ٨، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٠/ ٥٣٦.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١٣٦، وانظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٠/ ٥٣٦ - ٥٣٧.

(٤) انظر المصدر السابق نفس الصفحة.

(٥) انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٠/ ٥٣٦.

أحبه الناس وكانوا يسمونه الشهيد في حياته نظراً لحبه للجهاد والشهادة[١] .
كما أحبه الأمراءالواقعون تحت إمرته بالإضافة إلى الذين يحكمون من قبل أمراء آخرين ولذلك حرص بعض الأمراء على مسايرته، خصوصاً ما يتعلق بمجاهدة الفرنج، وقد كانَ رحمه اللهُ مسايساً لحكام دمشق من بيت طغتكين، يتعاون معهم ضد الصليبيين، ولكنهم وقفوا متفرجين من هجوم الروم على عسقلان سنة ٥٤٧هـ، وكانوا يحولون بين نور الدين والدفاع عن عسقلان، وفي الوقت نفسه ذل حكام دمشق للصليبيين حتى أصبحوا يدفعون لهم جزية سنوية، واستذل حاكم دمشق مجير الدين للصليبيين حتى أنه سمح لهم بدخول دمشق، وأخذ الأتاوة من أهل البلد، وسمح لهم باستعراض الرقيق من النصارى الذين أسرهم المسلمون في حروبهم معهم واطلاق من شاؤوا منهم، فضاق أهل دمشق بحاكمهم ذرعاً وحاصروه وبعض أعوانه في القلعة، فتحايل نور الدين في استمالة حاكم دمشق حتى لايستعين بالفرنجة، وحاول ملاطفته وكان يخطط في الوقت نفسه للاستيلاء على المدينة، كما استطاع نورالدين استمالة كثير من القواد والأمراء حتى قل أعوان حاكم دمشق، وفي هذه الأثناء، كتب مجير الدين إلى الفرنجة ليدافعوا عنه، وبذل لهم الأموال، فأسرع نور الدين بدخول دمشق قبل وصول الفرنجة، وفرح به أهلها فرحاً عظيماً، وكان مجير الدين لايزال في قلعة دمشق ثم استسلم لنور الدين على شرط أن يجعله في إمارة حمص، فوفى له نور الدين، ولكنه أحس بخيانته

(١) المصدر السابق ج٢٠/ ٥٣٧ .

بعد ذلك فعزله، وبتولي نور الدين على دمشق سنة ٥٤٩هـ أصبحت بلاد الشام شبه موحدة في يده لاينازعه عليها أحد (١)، كما دخلت بعلبك تحت سيادة نور الدين سنة ٥٥٢هـ بعد تسليمها من قبل أميرها العربي. كما استولى على العديد من المدن والمواقع الأخرى ومنها بصرى وتوابعها سنة ٥٥٥هـ (٢).

وأثناء تلك الأعمال وبعدها تيسر لنور الدين توجيه ضربات موجعة إلى الصليبيين في شمال الشام، أو جنوبه دون الدخول في مشاكل مع القوى الإسلامية الأخرى، كما أصبحت أجناد الشام موحدة في وجه الأعداء بعد تفرقها بين الأمراء المختلفين سابقاً، وقد اضطر نور الدين إلى الدخول مع الصليبيين في بيت المقدس في هدنة مؤقته يستمر فيها في دفع الأموال التي كان يدفعها أمير دمشق سابقاً حتى يتمكن من ترتيب أمورها، وقد تجرأ الصليبيون على نقض هدنتهم مع نور الدين سنة ٥٥٢هـ، دون أية مقدمات (٣) فعمل نورالدين في موجة جديدة من الجهاد.

وخلال هذه الفترة المذكورة من عمل نور الدين على توحيد الصف الإسلامي فإنه لم يتوقف عن الجهاد. فقد حارب سنة ٥٤٤هـ م إمارة أنطاكية الصليبية، وخرب قلعة حارم ورحل منها إلى (إنَب) فحاصرها فتجمعت حشود يقودها (البرنس) صاحب أنطاكية وهو أحد عتاة الفرنجة، ووقعت

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل ج١١/ ١٩٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٣١.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج١١/ ١٤٧، ١٤٩، ١٦٣، ١٨٨، ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١٢٨ـ ١٢٩.

(٣) انظر وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٨٤٣.

بينهم وبين نور الدين وجنده معركة حامية انهزم فيها الفرنجة وقتل فيها البرنس ملك أنطاكيه، ثم حاول أهل انطاكية الجمع لنور الدين وكروا عليه ولكنه هزمهم مرة أخرى[١]، كما فتح حصن أفامية سنة ٥٤٥هـ.

وفي سنة ٥٤٦هـ، وقعت معركة كبرى بين نور الدين و(جوسلين) أحد أمراء الصليبيين وصاحب تل باشر وغيرها من القلاع الصليبية حول حلب، فهُزم نور الدين، وقتل جماعة كبيرة من أتباعه وأسر حامل سلاح نور الدين وأصبح جوسلين يتهكم بنور الدين، حيث بعث سلاح نور الدين إلى أحد أمراء السلاجقه وهو صهر لنور الدين وقال له: هذا سلاح زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه، فتأثر نور الدين وأخذ يتصيد لجوسلين، وواعد فرسان التركمان من يأتيه بجوسلين حياً أو ميتاً فله جائزة عظيمة، فتمكن بعضهم من أسره وقد خرج إلى الصيد، فأحضر إلى نور الدين فأجاز آسريه، ثم أخذه معه أسيراً إلى حلب وقتل هناك سنة ٥٤٦هـ[٢]، وكان أسر جوسلين وقتله من أهم أعمال عمال نور الدين التي ذاعت في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، كما أنه بعد ذلك تمكن بالتدريج من احتلال المواقع التابعة له مثل تل باشر وغيرها.

وقد خاض نورالدين معارك مختلفة مع مملكة أنطاكية ومملكة طرابلس،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج١١/ ١٤٤، ابن واصل: مفرج الكروب ج١ / ١٢١، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٢٨، وانظر وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج١/ ٧٨٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١٢٣، وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٧٩٣، وانظر د. مسفر الغامدي: الجهاد ضد الصليبيين ٢٥٩.

وفي إحدىٰ تلك المعارك التي وقعت سنة ٥٥٨هـ بالقرب من طرابلس هزم نورالدين وكاد أن يقع أسيراً أو قتيلاً في يد الصليبيين لولا شجاعة أحد الأكراد المسلمين الذي ساعد في نجاة نور الدين من بين أيديهم (١)، وقد أصر نورالدين علىٰ قتال الصليبيين مرة أخرىٰ والانتقام لما أصابه والمسلمين معه في تلك المعركة، فجمع الأجناد من مختلف البلاد الشامية، وصمم علىٰ التوجه إلىٰ حارم وفتحها، فأعد الصليبيون قوات من مختلف إماراتهم للتصدي لنورالدين، حيث اجتمعوا سنة ٥٥٩هـ تحت قيادة (بوهمند الثالث) صاحب أنطاكية و(ريموند الثالث) صاحب طرابلس وعامل الروم علىٰ قلقيلية، فاضطر نور الدين إلىٰ الانسحاب من حارم لاستدراجهم، فتبعوه إلىٰ مكان بين أنطاكية وحلب، فهجم عليهم نور الدين بمن معه من مجاهدي المسلمين، وأوقعوا بالروم هزيمة نكراء قتلوا فيها مايزيد علىٰ عشرة آلاف من جندهم ووقع فيها أمراؤهم أسرىٰ في أيدي المسلمين. وتمكن نور الدين بعدها مباشرة من الاستيلاء علىٰ حارم وقد كان بإمكانه الهجوم علىٰ أنطاكية، ولكنه آثر التريث في ذلك خشية الدخول في معركة مع البيزنطيين في وقت لم يكن فيه علىٰ استعداد لمواجهتهم. (٢)

وفي السنة نفسها ٥٥٩هـ ـ ١١٦٣م قام نور الدين بالهجوم علىٰ بانياس ومحاصرتها وضيق علىٰ أهلها حتىٰ تمكن من أخذها بالقوة رغم محاولة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج١/ ١٣٥، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٢٩٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٣٠١، ابن واصل: مفرج الكروب .ج١/ ١٤٤، وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٨٨٩، د. مسفر الغامدي ،الجهاد الإسلامي ٢٧٠ .

الصليبيين في بيت المقدس إنقاذها (١)، وقد قام نور الدين سنة ٥٦١هـ بالهجوم على حصن (المنيطرة) بالقرب من طرابلس، وتمكن من احتلاله بالقوة وقتل وسبى من فيه من الصليبيين وغنم من ذلك مغانم كثيرة (٢).

وبعد هذه المرحلة تأتي مرحلة أخرى في جهاد نور الدين تمثلت في الصراع مع الصليبيين في مصر ومحاولة إبعادهم عنها والسيطرة على مصر تمهيداً لضمها مع الشام لتصبح قوة واحدة في مواجهة الصليبيين.

فقد كانت الدولة الفاطمية تمر بمرحلة ضعف والوزراء في الدولة هم الحكام الفعليون والمسيطرون على الأوضاع في مصر، والصراع بين القواد على منصب الوزارة قائم على أشده، وسفكت في ذلك دماء كثيرة وكل منهم مستعد للتعاون حتى مع الصليبيين دون تورع للحصول على هذا المنصب، والخليفة الفاطمي العاضد لدين الله يتفرج على الأوضاع ويرضى بتوزير من يفرض قوته على الآخرين ومن يأتي برأس منافسه، وقد حدث نزاع بين أمير الجيوش المصرية (شاور بن مجير الدين)، و(مستنصر الدين علي ضرغام) الذي تمكن من التغلب على الوزارة بالقوة وقتل بعض أبناء شاور، فحضر شاور إلى دمشق، مستنجداً بنور الدين على ضرغام، وطالباً إرسال الجند معه إلى مصر لمساعدته على استعادة منصبه مقابل أن يعلن ولاءه لنور

(١) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٨٩١، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٣٠٤، ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١٤٧، د. مسفر الغامدي: الجهاد الإسلامي ٢٧١.
(٢) ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٣٢٢، ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١٤٨، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٥١، ابن تغرى بردى: النجوم الزاهرة ٥/ ٣٦٧.

الدين، وقد تردد نور الدين نظراً لخطورة الوضع على الجبهة مع الصليبيين، ونظراً لأن الصليبيين في مملكة بيت المقدس خصوصاً سوف يتدخلون في مصر، وسيجدون من يساعدهم من الخونة، وستفتح على نور الدين وأجناده جبهات أخرى تفرق قواته، وفي الوقت نفسه كان نور الدين يرغب في موالاة مصر للشام ووجود قوة إسلامية فيها تعيد لمصر شبابها وتعيدها إلى الصف الإسلامي الصحيح بعيداً عن المتعاونين مع الصليبيين، من الباطنية وأتباعهم، وبعد تردد شديد قرر نور الدين مساعدة الوزير شاور على استعادة منصبه المفقود بإرسال قائد من قواده وهو أسد الدين شيركوه مع مجموعة من الجند قدرت بألفي مقاتل وذلك في جمادى الأولى سنة٥٥٩هـ، وقد قام نور الدين بمناورات عسكرية في ممتلكات الصليبيين حتى يشغلهم عن جيش أسد الدين شيركوه الذي كانت طريقه تمر بالأعداء الصليبيين، وتمكن شيركوه من الوصول إلى مصر، ودارت بينه وبين ضرغام معركة انتهت بانتصار شيركوه على جند ضرغام ثم قتل بعد ذلك وصفا الجو لشاور حيث أعاد الخليفة الفاطمي العاضد تنصيبه على الوزارة مرة أخرى(١).

ولما تم للوزير شاور ما أراد نقض عهده مع نور الدين وطلب من شيركوه الرحيل من مصر وهدد بالاستعانة بالفرنجة، ولما لم يستجب له شيركوه طلب شاور من الفرنجة المساعدة، وجاءتهم الفرصة مواتية حيث كانوا قد انزعجوا

(١) انظر: . ابن كثير: الكامل ج١٢/ ٢٤٧، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٢٩٨، ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٣٦ .

من وصول الجيوش النورية إلى القاهرة، وأحسوا باحتمال سيطرتها على مصر، فحضرت الجيوش الصليبية إلى مصر يترأسها (عموري) ملك بيت المقدس، وتعاون معها الفاطميون ووقعت بينهم وبين جيوش نور الدين مناوشات بالقرب من بلبيس انتهت بمصالحة على أن يخرج شيركوه بمن معه من الجند إلى الشام، وقد ضغط نور الدين بعد ذلك على الصليبيين في بلاد الشام فأوقع بهم هزائم في (بانياس) و(حارم) اضطرت الصليبيين إلى الانسحاب من مصر، وتوجيه قواتهم إلى نور الدين في الشام، فبعث مرة أخرى بأسد الدين شيركوه، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي في حملته الثانية على مصر سنة ٥٦٢هـ لتأديب الوزير الفاطمي شاور الذي نقض عهده مع نور الدين واستدعى الصليبيين إلى مصر، وما أن علم شاور باقتراب جنود نور الدين، حتى أسرع بالاستنجاد مرة أخرى بالصليبيين، الذين قدموا إلى مصر على عجل، فدارت بينهم وبين أسد الدين وجنده بعض المعارك بالقرب من القاهره والإسكندريه انتصر أسد الدين في معظمها، ولكنه نظراً لكثافة جند الفرنج والمتعاونين معهم من الفاطميين وأتباع شاورفقد وقعت مصالحة بينهم على أن يخرج الفرنجة الصليبيون وشيركوه ومن معه من أتباع نور الدين من مصر [1]، وبقيت بعض المناطق في مصر مفتوحة للصليبيين، حيث كانت لهم بقايا رغم رحيل أسد الدين شيركوه ومن معه، وقد أحس الصليبيون بضعف الدولة الفاطمية وعجزها عن مقاومتهم بعد رحيل الجيوش النورية،

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٣٢٤، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٥٢، ابن شداد: النوادر السلطانية ٣٧، وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٩١٨.

فكتبوا إلىٰ ملك بيت المقدس يلحون عليه بدخول مصر مرة أخرىٰ، ولكن دخولهم هذه المرة لم يكن بطلب من شاور، فقدموا بقوات كبيرة وجرت بينهم وبين القوات المصرية مناوشات أدت إلىٰ احتراق أحياء كبيرة من القاهرة وإلىٰ تأذي الناس [١] ، وسارع الوزير شاور للاستنجاد بنور الدين ناسياً خياناته السابقة، ولم يتردد نور الدين في إرسال أسد الدين شيركوه للمرة الثالثة ويصاحبه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي الذي بدأ يبرز كفارس من فرسان عمه شيركوه، ولما اقتربت جيوش أسد الدين شيركوه رحل الصليبيون من مصر دون قتال وذلك في ربيع الآخر سنة ٥٦٤هـ[٢] ، وأصبحت قوات نور الدين هي المسيطرة في مصر دون منازع، ولم تمض سوىٰ فترة قصيرة حتىٰ قبض أتباع شيركوه علىٰ الوزير الفاطمي شاور وقتلوه، فقام الخليفة الفاطمي بتعيين أسد الدين شيركوه وزيراً فاطمياً، فأصبحت الوزارة الفاطمية في مصر لقائد من أخلص قواد نور الدين، وأصبحت أجناد مصر وممتلكاتها ودولتها كاملة بيد نور الدين محمود بطريقة مباشرة لضعف الخلافة الفاطمية مع بقائها اسمياً، وبعد فترة قصيرة استمرت شهرين وخمسة أيام توفي أسد الدين شيركوه، فعُين صلاح الدين الأيوبي من بعده وزيراً للخليفة الفاطمي

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٨، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٥٥، وليم الصوري : تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٩٣٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج١/ ١٦٠، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٣٣٤، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٥٥، ابن شداد : النوادر السلطانية ٣٨ .

العاضد[١] وبدأت مصر بل والعالم الإسلامي بأسره مرحلة جديدة في العديد من القضايا وعلى رأسها الجهاد ضد الصليبيين الذين كانوا أكثر الناس تضرراً بهذا التغير[٢] .

وهكذا نلاحظ أن نور الدين محمود جاهد جهاداً عسكرياً وسياسياً ضد الصليبيين، وكانت حلبة الصراع في هذه المرحلة الأخيرة هي مصر التي أدرك كل من نور الدين والصليبيون في وقت واحد أهميتها في الصراع الجاري بينهما خصوصاً أن مصر الفاطمية كانت تقف موقف المتفرج من الصليبيين، بل إن حكامها ووزراءها لم يتورعوا عن الاستنجاد بالصليبيين ضد بعضهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٣٤١، ٣٤٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٥٦ ، ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١٦٨ .

(٢) يقول وليم الصوري : «قد كانت رغبة مفرطة لحيازة الممتلكات قد دفعتنا من حالة سلمية آمنة إلى وضع قلق ومضطرب ، لقد لبت جميع موارد مصر وثرواتها الضخمة حاجاتنا، وكانت حدود مملكتنا آمنة في ذلك الجانب ولم يكن هناك أي عدو يخشى منه في ناحية الجنوب ، وكان البحر يقدم ممراً آمناً وسليماً إلى الذين يرغبون بالقدوم إلينا ، وكان بإمكان شعبنا دخول الأراضي المصرية دون خوف أو وجل والقيام بأعمال الشراء والبيع وفق ظروف مواتية ، وجلب المصريون من جانبهم ثروات أجنبية وسلعاً غريبة إلى المملكة لم تكن معروفة حتى الآن بالنسبة لنا ، وكانوا يقدمون لنا منافع كثيرة وشرفاً، كلما قاموا بزيارتنا . وعلاوة على ذلك فإن المبالغ الطائلة التي أنفقوها كل عام بيننا أغنت الخزينة المالية وزادت الثروة الشخصية للأفراد بيد أن حدث العكس الآن وتغيرت الأمور إلى الأسوأ . . . . وحينما ألتفت لا أجد سوى أسباب الخوف والقلق فالبحر يرفض أن يقدم لنا طريقاً آمناً والعدو يسيطر على جميع المناطق المجاورة الأخرى التي تستعد لإبادتنا» تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٩٣٦ .

البعض، وكانت الدولة الفاطمية تحتضر، ومع ذلك فقد صبر نور الدين وصابر، وأرسل الحملة تلو الأخرىٰ إلىٰ مصر، ولم ييأس حتىٰ كان النجاح حليفه، وتمكن أتباعه من السيطرة التامة علىٰ مصر ويئس الصليبيون منها بعد أن دخلوها عدة مرات بل صاروا ييأسون من الشام كلها لوجود قوة موحدة في الشام ومصر كان كل همها تطهير بلاد الشام من الصليبيين الغزاة، ومع كل هذا الجهاد والهم الذي حمله نور الدين طيلة خمس سنوات في محاولته السيطرة علىٰ مصر فإنه لم يتوقف عن مقارعة الصليبيين في الشام بل وفي مصر بكل مايملكه من وسائل.

فقد قام الصليبيون سنة ٥٦٥هـ بالإغارة علىٰ مصر من البحر، وتمكنوا من الوصول إلىٰ دمياط ومحاصرتها وضايقوا جند صلاح الدين بها ولما تستقر له أوضاع مصر، فاستنجد بنور الدين فأهمه أمر المسلمين بمصر، وبدأ هجوماً معاكساً علىٰ مراكز الصليبيين في الشام، وأهمه الأمر حتىٰ ذكر عنه أن أحد العلماء كان يقرأ بحضرته حديثاً عن التبسم فطلب منه بعض الحاضرين أن يتبسم، فرد عليهم نور الدين رحمه الله :إني لأستحي من الله تعالىٰ أن يراني مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج»[(١)]. وبدأ نور الدين بإرسال الإمدادات إلىٰ مصر في الوقت الذي كان يضغط فيه علىٰ الصليبيين قبل الشام مما اضطرهم إلىٰ الانسحاب من مصر خائبين بعد حصار لدمياط دام خمسين يوماً[(٢)].

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب، ج١/ ١٨٢ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٣٥١، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٦٠ ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٨٣، ابن تغرىٰ بردىٰ : النجوم الزاهرة ج٦/ ٣ .

وقد حاول نور الدين أن يقوم بحملة على الصليبيين بالتنسيق مع صلاح الدين، وطلب منه الإعداد لذلك، لكن صلاح الدين كان يتعذر بانشغاله بترتيب أحوال مصر وخوفه من أن يثب بعض الأجناد بمصر فيفسدوا ترتيبها، وهذه الأعذارلم ترق لنور الدين الذي كان شغله الشاغل مقارعة الصليبيين[١]، ومع ذلك فقد سكت على مضض، وكادت أن تقع وحشة بين نور الدين وصلاح الدين لولا نجاح والد صلاح الدين في تهدئته وفي تطويعه لأميره نور الدين .

توفي نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله في شوال سنة ٥٦٩هـ[٢] بعد أن روى غرسة الجهاد التي غرسها والده بدماء الشهداء وعرق المجاهدين وجراحهم، وبعد أن غرس غرسة جديدة حملت راية الجهاد بتأسيس الأمور في مصر لصلاح الدين الأيوبي جندياً جديداً من جند الجهاد الإسلامي .

---

(١) د. مسفر الغامدي : الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين ج١/ ٣٢٠ .

(٢) الذهبي : سير أعلام النبلاء ج ٢٠/ ٢٣٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٧٧ ، ابن الأثير : الكامل ج ١١/ ٢٠٤ ، ابن الجوزي: المنتظم ج ١٠/ ٢٤٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج ٢ / ٢٥٨ .

لمزيد من التفاصيل عن نور الدين محمود وسيرته وأعماله راجع : د. عماد الدين خليل : نور الدين محمود الرجل والتجربة ، د . حسين مؤنس : رائد نصر المسلمين على الصليبيين نور الدين محمود سيرة مؤمن صادق .

جهاد صلاح الدين الأيوبي

كان صلاح الدين الأيوبي أحد الجنود الأكراد المرافقين لعمه أسد الدين شيركوه في حملته على مصر سنة ٥٥٨هـ[١]، وأبلى بلاء حسناً أثناء حصار الفرنج الصليبيين للإسكندرية سنة ٥٦٢ هـ[٢]، وقد كان شاباً فتياً حينما تهيأت له الظروف لحكم مصر، إلا أنه لم يكن له ما يميزه عن قواد نور الدين الآخرين في بداية هذا الأمر، وحينما مات عمه أسد الدين شيركوه اختير وزيراً من بعده حلاً وسطاً بين القواد المختلفين، حيث كان في منافسيه من هو أقدر منه على المنصب، وبعد اختياره جد في العمل ونجح في تثبيت سلطته بالتدريج بالتعاون مع بقية قواد نور الدين في مصر، وتمكن من القضاء على مراكز القوى التابعة للفاطميين والتي من الممكن أن تحدث له مشاكل، ولم يعد في البلد من يستطيع معارضته، حتى أصبح الخليفة الفاطمي العاضد لايجد من يستعين به لو خالف صلاح الدين.

وفي أيامه بدأ يقل أتباع المذهب الإسماعيلي من العلماء والدعاة، حيث لا مكان لهم في مثل هذا الجو، وبدأوا يختفون عن الأنظار، حتى فكر

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٢٩٨، ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ٣٦، اين كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٤٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٥٣، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٣٣٦، ابن شداد: النوادر السلطانية ٤١.

صلاح الدين في إيقاف الدعوة على المنابر للفاطميين وإعلانها للعباسيين، وكان متردداً في ذلك حذراً فيه يخشى من رد فعل الناس، ولكن الأوامر جاءته، صريحة من نور الدين محمود بالدعاء للخليفة العباسي وإيقاف الدعاء للفاطمي، وكان هذا يعني سقوط الدولة الفاطمية الإسماعيلية، وهذا ليس بالأمر الهين على أتباعها ودعاتها، فخاف بعض الأئمة من هذا الأمر ولكن رجلاً يعرف بالأمير العالم« لما رأى مابهم من الإحجام قال: أنا أبتدئ بها، فلما كان يوم الجمعة من المحرم سنة سبع وستين وخمسمائة صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة الإمام المستضيء بنور الله فلم ينكر ذلك أحد عليه، فلما كانت الجمعة الآتية أمر صلاح الدين بمصر والقاهرة بقطع الخطبة للعاضد، وإقامة الخطبة للمستضئ بنور الله العباسي ففعلوا ذلك فلم يتحرك مخالف لذكر ولامنكرله وانتظم الأمر، وكوتب الخطباء في ذلك في سائر الأقاليم، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يُعلمه أهله وأصحابه بذلك وقالوا: إن سلم فهو يعلم فلا ينبغي أن ننغص عليه هذه الأيام التي بقيت من أجله، ثم توفي العاضد في يوم عاشوراء من السنة ٥٦٧هـ »[1] . وقد كانت الظروف في صالح صلاح الدين حيث أن وفاة العاضد في هذا الوقت بالذات قطعت الطريق على دعاة الفاطميين .

وقد عمت الفرحة جميع أنحاء العالم الإسلامي بانتهاء هذه الدولة التي

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج١/ ٢٠٠، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٦٤، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٣٦٨، ابن الجوزي : المنتظم ج١٠/ ٢٣٧، ابن شداد : النوادر السلطانية ٤٥، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧/ ١٥٨ .

فضلت خلال سنواتها الأخيرة التعامل مع الصليبيين الفرنجة على مد يدها إلى المسلمين الآخرين، وكان أشد الناس فرحاً بهذا الأمر نور الدين محمود عليه رحمة الله الذي طير المبشرين بهذا الخبر إلى بغداد وإلى كل مكان، ولاشك أن الفضل يعود بعد الله له أولاً ثم لصلاح الدين الذي باشر العملية بنفسه .

وقد حاول بعض رؤوس النظام الفاطمي المنقرض التجمع مرة أخرى والاستعانة بالصليبيين ، حتى إذا خرج إليهم صلاح الدين بجنده سيطروا على مصر مرة أخرى، ولكن صلاح الدين اكتشف المؤامرة وقبض على الرسالة التي وجهوها إلى الصليبيين، وتمكن من القضاء على زعماء هذه المؤامرة وحرص على إمساك زمام الأمور في البلد، ولم يتح لهم أي فرصة لتنفيذ تلك المؤامرة [١] .

وبهذا العمل لم يصبح هناك أي سلطة في مصر سوى سلطة صلاح الدين، الذي كان بالطبع خاضعاً اسمياً لنور الدين محمود، حيث حرص صلاح الدين على عدم منازعة نور الدين، وكان لأبيه أثر واضح في هذا مما أبعد الخلاف، وجعل أفكارهما مشتركة في التعاون معاً لصد الغزاة الصليبيين وتطهير البلاد الإسلامية منهم، مع أن صلاح الدين كان يتخوف من أن يعزله نور الدين ويعين قائداً آخر مكانه .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج١/ ٢٤٤، ابن شداد : النوادر السلطانية ٤٧ ،ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧/ ١٦٥ ، المعاضيدي وزملاؤه ، تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ١٤٩ .

وكانت جهوده الأولىٰ موجهة إلىٰ ترتيب أحوال مصر وإعادتها إلىٰ الصف الإسلامي الصحيح بعد الحكم الفاطمي الباطني الذي استمر مايزيد علىٰ مائتي سنة، فقد تملك قلوب الناس بكثرة عطاياه ثم سمح في بداية حكمه بافتتاح مدارس سنية، وكانت أول مدرسة أسسها بنفسه مدرسة الشافعية سنة ٥٦٦هـ، كما جعل القضاء إلىٰ أحد علماء الشافعية بعد أن كان هذا المنصب مقصوراً علىٰ الإسماعيلية، وكان يكثر من مجالسة العلماء الصالحين من أهل السنة، حيث يتردد علىٰ مجلس أحد العلماء ثلاثة أيام في الأسبوع لسماع الحديث ويحرص علىٰ أن يسمعه أولاده [١]، وكان يستمع إلىٰ الشعراء الصادقين الذين كانوا يذكرونه باستمرار بالقدس الأسيرة ووجوب فكاكها ومن هؤلاء عماد الدين الكاتب الذي أنشده في أحد الأيام قصيدة قال فيها:

فسر وافتح القدس واسفك به ... دماً متىٰ تجرها تنظف
وأهدي إلىٰ السبتار البتار ... وهد السيوف علىٰ الأسقف
وخلص من الكفر تلك البلا ... د يخلصك ربك في الموقف [٢]

ولذلك فقد كانت القدس شغله الشاغل ومن بحضرته من العلماء والشعراء والأدباء يذكرونه ذلك باستمرار.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٥٦، ابن شداد: النوادر السلطانية ٧، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢١/ ٢٨٢، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧/ ٢٠٦.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٥٧.

و منذ أن تولىٰ مصر وهو يفكر بجهاد الصليبيين، ويرىٰ أن تكون البداية بالهجوم علىٰ مواقعهم الساحلية، ولكن الصليبيين بدأوه قبل أن يبدأهم، فقد فرضوا عليه أن يكون أول جهاد يخوضه معهم هو مدافعة هجومهم علىٰ دمياط في صفر سنة ٥٦٥هـ بقوات برية وبحرية من مملكة بيت المقدس ومن البيزنطيين وغيرهم، وقد تعاون صلاح الدين وقواده مع قوات من الشام بعثها نور الدين، وتمكنوا من مقاومة حصار الفرنج، والقيام بهجوم معاكس حيث أحرقوا كثيراً من سفنهم وتمكنوا من قتل عدد كبير من جندهم، مما جعلهم يعلنون عجزهم ويعقدون معاهدة مع المسلمين تمهلهم عدة أيام للجلاء، وعند الجلاء تعرضت سفنهم البحرية لرياح عاتية أغرقت معظمها ولم يكد ينجو منهم أحد إلا القلة القليلة[١]، وقد أثبتت هذه المعركة أن التعاون بين جند المسلمين في مصر والشام له ثمرة كبيرة لايستهان بها كما أثبتت تعاون نور الدين مع صلاح الدين في صد هذا العدوان الصليبي.

وبعد ذلك قام صلاح الدين بالهجوم علىٰ الرملة وعسقلان وغزة في العام نفسه وأرهب الصليبيين بها[٢].

كما كان من أوائل أعمال صلاح الدين العسكرية الهجوم علىٰ قاعدة بحرية في جزيرة علىٰ بحر أيلة ـ خليج العقبة ـ، أقامها الصليبيون بالقرب من أيلة، وكان يمكنهم منها الاعتداء علىٰ سفن المسلمين في البحر الأحمر حيث

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١٨١، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٦١، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٣٥١، وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ٩٤١-٩٤٥.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج١/ ١٩٨.

يستطيعون تهديد سفن الحجاج وإغراقها، وقد عمل صلاح الدين على صناعة سفن مفككة في القاهرة ثم نقلها إلى ناحية البحر على الجمال وركبت في البحر وهجم منها على تلك القلعة في الجزيرة وتمكن من أخذها، وأسر وقتل جميع من فيها من الصليبيين وكان ذلك في ربيع الآخر سنة٥٦٦هـ[(١)] .

وفي الفترة من سنة ٥٦٦هـ إلى٥٦٩هـ حاول نور الدين محمود أن يتعاون مع صلاح الدين في شن غارات مشتركة على المواقع الصليبية في الشام، ولكن الظروف لم تكن مناسبة حيث انشغل نور الدين بتوحيد بعض أجزاء الشام وضمها إلى الدولة النورية كما انشغل صلاح الدين في الوقت نفسه بترتيب أحوال مصر، والسيطرة على الحجاز واليمن[(٢)]، وبالتالي لم تتهيأ الفرصة لجهاد مشترك بين نور الدين وصلاح الدين ضد الصليبيين إلى أن توفي نور الدين رحمه الله في شوال سنة ٥٦٩هـ، فأصبح صلاح الدين الزعيم الإسلامي المواجه للصليبيين .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٣٦٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج١/ ١٩٩ .

(٢) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج١/ ٢٣٧ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ٤٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧/ ١٦٥ .

توحيد جبهتي مصر والشام :

كان صلاح الدين يدين بالولاء لنور الدين محمود ويعتبر نفسه تابعاً له وأميراً من أمرائه، وبعد وفاة نورالدين محمود تغيرت الأحوال، فقد أحس أنه واحد من الأمراء الباقين، مع أنه كان أكثرهم تأهيلاً لتولي الأمور بعد نور الدين، ومع ذلك حرص على عدم الاصطدام ببقية الأمراء، خصوصاً أن بعضهم تمسك بالملك الصالح إسماعيل بن نور الدين رغم أنه كان طفلاً صغيراً، ومع هذا فقد كان صلاح الدين سياسياً، وحريصاً على عدم شق الصف، وفي الوقت نفسه حريصاً على أن لايستغل بعض القواد والأمراء وضعاف النفوس هذا الأمر، ويسيروا الأمور باسم ذلك الشاب الحدث بمقتضى مصالحهم الخاصة على حساب مصالح المسلمين وجهادهم، ولذلك فقد كان الأمر صعباً وشائكاً لصلاح الدين، وكان عامة أهل الشام مهتمين أشد الاهتمام لوفاة نور الدين وخشيتهم من الفراغ الذي حدث، وخوفهم من الصليبيين في بلاد الشام واستغلالهم للظروف، وما قد يحدث من نزاع، ولذلك فإن العلماء رغبوا في أن يكون الأمر لصلاح الدين أكثر من غيره (١)، لعلمهم بانشغاله في جهاد الأعداء، ومع ذلك لم يستجب قواد دمشق وحلب لهذا الأمر وأصروا على إبعاد صلاح الدين وتحكمهم بالصالح إسماعيل مباشرة، بل ومحاولتهم السيطرة على صلاح الدين باسمه وأنه خليفة لأبيه

---

(١) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣، ابن خلكان : وفيات الأعيان ١٦٦ .

نور الدين، ونزعاً للخلاف فإن صلاح الدين قد عمل على أن تكون الخطبة في بلاده للصالح إسماعيل (١) اعلاناً للوفاء والوحدة ولكنه في الوقت نفسة كان حريصاً على أن يتولى هو شؤون الصالح إسماعيل بنفسه، وأن يبعد عنه أولئك المنتفعين الذين يتسببون باستمرار الخلاف والفرقة، وقد كان بعض أولئك الأمراء يعقدون الهدنة مع الفرنجة لأجل التفرغ لمواجهة صلاح الدين، كما أنهم تعاونوا مع الإسماعيلية ليكونوا صفاً واحداً في مجابهته، وقد استغل الفرنجة تلك الظروف وهجموا على بعض المواقع ومنها (بانياس) وحاولوا الاستيلاء عليها ولكنهم لم ينجحوا (٢)، ومع كل هذه المشاكل فإن صلاح الدين ظل يناور أحياناً ويبذل المال أحياناً أخرى، ويعاقب أحياناً ويستعمل اللين والعنف، لأجل توحيد الصف في بلاد الشام خوفاً من الأعداء الفرنجة، واضطر لترك كثير من البلاد في يد قواد معاندين وغير خاضعين له حتى لايبدد صف جنده، وظل يسايس هذا الأمر مايزيد على عشر سنوات بعد وفاة نور الدين (٣)، ومع هذا فإنه لم يتوقف عن مواجهة الصليبيين خلال تلك الفترة بل كان له معهم جهاد طويل .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٧، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤٠٨ .

(٣) لم يتمكن صلاح الدين من حلب وهي من أهم مدن الشام، ومن قواعد الجهاد فيه إلا بعد عدة منازلات وبعد وفاة الصالح إسماعيل ومنازلة للقواد من بعده حتى استسلمت له في شهر صفر من عام ٥٧٩هـ (وانظر الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١/ ٢٨٥ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤٠٥، ٤٠٨، ٤١٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢ ـ ٤) .

الإعداد للجهاد :

لقد وعى صلاح الدين منذ أن كان جندياً في صفوف نور الدين أهمية إعداد القوة وبذل الأسباب للجهاد ، ولا شك أن مجالسته المستمرة للعلماء أوصلته إلى هذه القناعة بالإضافة لخبرته العسكرية ، فلما أصبح مسؤولاً مباشراً بنفسه بعد وفاة نور الدين محمود ، ولديه الصلاحية في توجيه الأموال ، صرفها في هذا الأمر بعناية كاملة فجعل التجهيز والإعداد من أكبر همومه ، ولذلك فإنه حرص على بناء القوة العسكرية الإسلامية ، متمثلة في بناء الرجال وتجميعهم وبذل لهم الأموال التي يحتاجونها حتى يتفرغوا للجهاد ، كما أنه ربى مجموعة من القادة الثقات الذين يعتمد عليهم في مختلف الأمور وبذل لهم من الأعطيات والأموال ماجعلهم أكثر راحة للعمل معه ، كما أنه رحمه الله جعل من أكبر همومه استنقاذ الأسرى المسلمين من أيدي الصليبيين حتى ولولم يكونوا من أتباعه ، وكان يبذل الأموال الطائلة في ذلك(١) ، ومن ثم يعود هؤلاء للجهاد مرة أخرى ، ولمحبة الناس لصلاح الدين فقد كان كثير من العلماء والمتطوعة ينضمون إليه (٢) ويرغبون في الجهاد في صفه ، ويبذل هؤلاء المتطوعة من التضحيات والفداء وحب الشهادة أكثر مما يبذله الجند النظاميون ، وقد كان صلاح الدين وقواته يواجهون أذى كبيراً

---

(١) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٧٦، ٨٢ ، ١٤٧ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ١٩٣ .

(٢)انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٦٤ ، ٨٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧/ ١٨٩ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١/ ٢٨٢ .

من الإسماعيلية ـ الحشاشين ـ الذين قتلوا بعض رجال وقواد صلاح الدين[١]، وحاولوا اغتيال صلاح الدين نفسه أكثر من مرة وكادوا أن ينجحوا في أحداها، حيث كان خمسة منهم قد اندسوا في جند صلاح الدين فهجم أحدهم عليه فقَتل وقُتل ثم هجم الثاني والثالث وكلهم يحاول قتل صلاح الدين حتىٰ أنهم وصلوا إليه وأصابوه ولكنه كان يلبس بعض الملابس الواقية التي منعت السلاح من التأثير فيه[٢]، ولذلك فقد وجه بعض جهوده لقمعهم ومنعهم من أذىٰ المسلمين[٣].

كما أنه رحمه الله اعتنىٰ بقمع الأرمن حيث كانوا يروعون المسلمين المجاورين لهم، فغزاهم صلاح الدين في ديارهم وأدبهم واضطرهم إلىٰ احترام المسلمين وإطلاق من بأيديهم من الأسرىٰ[٤].

وقد عني رحمه الله بمختلف أنواع التسليح في عصره فكان يجمع الأسلحة ويشجع علىٰ تصنيعها ويبذل الأموال الطائلة في ذلك، كما اهتم بالمنجنيقات والدبابات ومختلف آلات الحصار[٥].

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٦٣.

(٢) انظر: ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٢٤، ٤٤، ابن شداد: النوادر السلطانية ٥٢، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٤٣٠، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٩٣.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٤٧، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٤٣٠، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٢٩٣.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٩٩، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ج٢/ ١٦، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٤٦٦، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٣٠٥.

(٥) انظر: ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٤٤، ابن شداد: النوادر السلطانية ٢٦، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢١/ ١٨١.

وكذلك عني بالمواقع العسكرية البرية منها والبحرية، فقد حرص على تحصين القاهرة عاصمة دولته وبذل في ذلك الأموال وعمل فيها من الأسوار والحصون مالم تشهد مثله [(١)]، كما قام ببناء العديد من الحصون في مواجهة العدو في بلاد الشام[(٢)]، وفي الوقت نفسه انشغل بالتطهير العسكري للمواقع الصليبية التي تفصل بين حصون المسلمين[(٣)] وتهدد مواقعهم العسكرية أو طرقهم التجارية، لتأمين اتصال بعضهم ببعض، وفي الوقت الذي حرص صلاح الدين على بناء القوة الإسلامية في مختلف المجالات فإنه عمل على تحطيم قوى الأعداء واستنزافها وإشغالهم باستمرارعن الاستعداد الأمثل، فقد كان يشن الغارة تلو الأخرى على مواقعهم، ويحطم مايبنون من قلاع وحصون إن استطاع إلى ذلك سبيلاً، ومن ذلك عمله على تحطيم حصن بيت (الأحزان) الذي بناه الصليبيون بالقرب من دمشق [(٤)]، كما كان يفاوض الفرنجة ويحاول إغراءهم بالتنازل عن بعض الحصون مقابل أموال يدفعها لهم فإن رفضوا ذلك استعمل معهم القوة، وقد قام بهذه الخطة مع الصليبيين في حصن بيت الأحزان القريب من دمشق والذي كان يهددها باستمرار حيث عرض عليهم الأموا ل التي وصلت إلى مائة ألف دينار لكي يتركوا الحصن، فلما رفضوا ذلك هجم عليه وحاصره أربعة عشر يوماً حتى تمكن من فتحه

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٥٢، ٦٧، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦/ ٧٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٨٤، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧/ ١٨٦ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ،ج٢/ ٦٥ ،٦٨ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٧٢، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤٥٥، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٠٣ .

وأسر قواد الصليبيين فيه، فاستبقاهم عنده وأراهم بعيونهم وهو يهدمه مع المسلمين صخرة صخرة وقد غنم المسلمون من هذا الحصن وحده قرابة مائة ألف قطعة سلاح أصبحت في نحور الأعداء، وندموا على عدم بيعه للمسلمين(١) وفي الوقت نفسه فإن المواقع التي لايتمكن من الاستيلاء عليها فإنه يعمل على التضييق عليها في تموينها الخارجي وفي محاصيلها الزراعية الخاصة بها (٢) .

كما كان يعقد الهدنة مع بعض الصليبيين، في محاولة منه لتفتيت قواهم وعزل بعضهم عن بعض وتفريق صفهم أحياناً ، وقد نجح في ذلك وتمكن من ايقاف بعضهم على الحياد أو استمالتهم أحياناً في الوقت الذي كان يجاهد قسماً آخر منهم مع أنهم في كثير من الأحيان لايفون بتلك المعاهدات، ومع ذلك فقد كان لمن يغدر منهم بالمرصاد (٣) .

الجهاد البحري :

في الوقت الذي كان صلاح الدين يعمل على إعداد قوات المسلمين البرية وتجهيز تحصيناتها، فإنه لم ينس القوات والأساطيل والقواعد البحرية،

---

(١) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٨٠, ٨١، وانظر: ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٤٥٦، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٠٣ .

(٢) انظرابن واصل : مفرح الكروب ج٢/ ٧٥، ١٨٦، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٢٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٠ .

(٣) انظر ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١١٣ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٢٦، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣١٩ .

حيث كان لها أهميتها القصوىٰ في هذا الصراع ، مقابل الأساطيل الصليبية التي تقوم بجلب الأعداد البشرية الكبيرة للفرنجة من أوربا والتموينات والأسلحة ومختلف أنواع العتاد، لأن المسلمين قد ضيقوا الطرق البرية عليهم، ولذلك فقد اعتنىٰ صلاح الدين ببناء السفن وتجهيزها، بل إنه أعد نوعاً من السفن البحرية المنقولة براً والتي تنقل قطعاً متفرقة علىٰ الإبل إلىٰ المواقع المطلوبة ثم يتم تركيب تلك القطع في البحر وضم بعضها إلىٰ بعض لتشكل سفناً قتالية بحرية[1] ، وقد كانت أساطيل المسلمين أيام صلاح الدين تجوب بحر الروم ـ البحر الأبيض المتوسط ـ وكذلك بحر القلزم الأحمرلتحمي سفن المسلمين فيها وتضيق علىٰ سفن الأعداء .

لقد عانىٰ المسلمون أيام صلاح الدين من مجابهة الروم بحرياً وخصوصاً مقابل سواحل مصر والشام .

فقد قامت سفن فرنجية مشتركة علىٰ رأسها سفن صقلية في أواخرذي الحجة سنة ٥٦٩هـ بمهاجمة الأسكندرية من البحر بقوة بحرية قوامها ٢٥٠ سفينة، وأنزلت مايزيد علىٰ ألف وخمسمائة من الفرسان إضافة إلىٰ مايقرب من ثلاثين ألف جندي راجل، وحاولوا الاستيلاء علىٰ الأسطول الإسلامي في ميناء الإسكندرية، ولكن المجاهدين عطلوا مايمكن تعطيله من السفن التي لم يستطيعوا الدفاع عنها حتىٰ لا يستفيد منها الأعداء، وقدحاصر الفرنجة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٧٧، ١٢٧ ، ١٣١ ،أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين ج٢/ ٣٦، ٣٧ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤٩٠، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣١١ .

الإسكندرية، وضربوها بالمجانيق، وحاولوا اقتحامها بالدبابات، فتصدىٰ لهم المجاهدون من أهل الاسكندرية، وقتل منهم سبعمائة شخص في اليوم الأول، وفي اليوم الثالث من الحصار خرج أهل الإسكندرية بشجاعة متناهية وهاجموا الأبراج والدبابات وآلات الحصار وأحرقوها، وقاتلوا الفرنجة قتال الأبطال، وتمكنوا من إغراق بعض سفنهم وأسر البعض الآخر، ووقعت الهزيمة في صفوفهم ولم ينج منهم إلا القليل الذين فروا بسفنهم تاركين خيامهم وأسلحتهم وأمتعتهم[١]، وكان هذا الغزو الصليبي البحري من أكبر الامتحانات لصلاح الدين وجنده عليه رحمة الله في بداية ولايته بعد وفاة نور الدين محمود .

وقد كان أسطول صلاح الدين البحري في تلك الفترة يجوب بحر الروم باستمرار ليقطع الطريق بين أوربا والفرنجة في بلاد الشام، والتي كانت تمد الممالك الصليبية باستمرار بالجنود والسلاح والعتاد، ففي سنة ٥٧٤هـ تمكن الأسطول من أسر بعض السفن التي كانت تحمل ما يقرب من ألف مقاتل[٢] .

وقد فكر الصليبيون في سنة ٥٧٨هـ بالوصول إلىٰ المدينة المنورة عن طريق بحر القلزم الأحمر، وكان هذا أحد أهدافهم حينما بنوا قوة في جزيرة في بحر أيلة ـ خليج العقبة ـ ولكن المسلمين تمكنوا من الاستيلاء عليها، فأعد

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٦، وانظر : ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤١٢، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٨٧ .

(٢)ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٧٧، .

الفرنجة مجموعة من السفن وجهوها في بحر القلزم الأحمر وأخذت تقطع الطريق على سفن المسلمين التجارية كما تعرضت لبعض السفن التي تحمل الحجاج وأغرقتها وأخذت تقتل وتسلب المتوجهين بحراً إلى الحجاز، وقد أغاظ ذلك صلاح الدين رحمه الله، فوجه إليهم بعض السفن الإسلامية التي منعتهم من إيذاء المسلمين وضيقت عليهم، فهربوا في نواحي عيذاب من الأراضي السودانية فلحق بهم المسلمون براً وأسروهم وأمر صلاح الدين ببعضهم ان يساقوا في موسم الحج إلى مكة وينحروا مع الهدي(١)، الذي يقدمه المسلمون في الحج، فكان هذا تأديباً لكل من تسول له نفسه من الصليبيين إيذاء الحجاج أو الوصول إلى الحجاز.

وفي نفس السنة ٥٧٨هـ تمكن الأسطول الإسلامي من الإغارة على بعض الجزر الصليبية في البحر الأبيض. كما استولى على بعض السفن المتوجهة إلى عكا وبها أخشاب ومعدات ونجارون لصناعة السفن فأخذها المسلمون واستفادوا منها وحرموا منها الأعداء(٢).

كما تصدى الأسطول الإسلامي سنة ٥٧٩ هـ لسفن صليبية متوجهة بالمقاتلين والأسلحة من أوربا إلى الصليبيين في سواحل الشام، فغنم المسلمون

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ١٢٨، وانظر: ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٤٩٠، أبو شامة: الروضتين ج٢/ ٣٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٣١١، المقريزي: السلوك ق١ج١/ ١٠٣، نخبة من الأساتذة: تاريخ البحرية المصرية ٥٦٩.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ١٣١، وانظر: ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٤٩٥، المقريزي: السلوك ق١ج١/ ١٠٣.

منها سفينة كبيرة وأسروا فيها مايزيد على ثلاثمائة مقاتل بكامل أسلحتهم وعتادهم [١] .

الجهاد البري :

لاشك أن الممالك التي أنشأها الصليبيون كانت في معظمها داخل البر الإسلامي في بلاد الشام، ولذلك فإن الصراع بين المسلمين والصليبيين كان في غالبه صراعاً برياً، بالإضافة لما ذكرنا من أهمية البحر في ذلك الصراع، وقد كانت القدس هي الهدف الأساسي لصلاح الدين الأيوبي، وكان يرى أن بقاءها في أيدي الصليبيين يعني باستمرار تفكيرهم في مواقع أخرى قد تصل إلى الحجاز نفسه وأن طردهم يعني يأسهم من بقية مواقعهم الأخرى في بلاد الشام[٢] ، ولذلك فإنه خاض بنفسه أوبواسطة قواده الآخرين العديد من المعارك البرية مع الأعداء تمهيداً لفتحه الكبير في بيت المقدس، وقد كان جهاده إما هجومياً على مواقع الأعداء أو دفاعياً، ومن أوائل معارك صلاح الدين مع الصليبيين، المساعدة في مقاومة هجومهم العسكري على (بانياس) سنة ٥٦٩هـ [٣] . وقد قام بالاستعداد لمهاجمة الصليبيين في الشام سنة ٥٧٠هـ ووصل إلى نواحي مرج الصفر، فأتاه الصليبيون وعقدوا معه هدنة أطلقوا

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٣٩، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٠٤، .

(٢) انظر : أبو شامه: الروضتين ج١/ ٢٤٣، ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٢٨، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣١٥ .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤٠٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٧ .

بموجبها بعض أسرىٰ المسلمين فكف عنهم[١] ، وقد تعاون بعض الأمراء المسلمين في حلب مع البرنس صاحب انطاكية في محاولة منهم للإيقاع بصلاح الدين ومن معه من جند المسلمين في شوال سنة ٥٧١هـ ولكنهم لم يتمكنوا من هزيمته رغم ضعف قواته[٢] .

وقد تعرض المسلمون للهزيمة من الفرنجة أكثر من مرة، ومن ذلك أن صلاح الدين خرج في جمادىٰ الأولىٰ سنة ٥٧٣ هـ للإغارة علىٰ العدوفي نواحي الرملة في فلسطين، فتمكن من غنيمة العدو وأسر وقتل جموعاً من رجالهم، وقد حاول صلاح الدين عبور أحد الأنهار مع جنوده، ولكنهم فوجئوا بهجوم مباغت من الصليبيين تزعمه البرنس صاحب أنطاكيةفانكسر المسلمون وانهزموا وتفرق شملهم وقتل وأسر كثير من الجند، وكان ضمن القتلىٰ بعض الأمراء من أقارب صلاح الدين، كما كان ضمن الأسرىٰ بعض العلماء والفقهاء، وقد كاد صلاح الدين نفسه أن يقع بيد الأعداء، ولكن الليل حال بينهم، فسار في قلة من أصحابه وتاه في الطريق ووصل مصر بعد إعياء شديد وبعد فقد معظم جنده المرافقين له، وقد كانت هذه الوقعة من أعظم ما ابتلي به صلاح الدين رحمه الله، ومع ذلك فما ازداد إلا تصميماً علىٰ الجهاد، فقد خرج بعد شهرين من تلك الحادثة إلىٰ الشام بغرض مجاهدة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣٥، وانظر ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤١٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣٨، أبو شامة : الروضتين ج١/ ٢٥٥ ، وانظر : ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤٢٧ .

الصليبيين مرة أخرى حيث تمكن من تأمين طرق المسلمين (١) .

في سنة ٥٧٤هـ كان صلاح الدين في دمشق وقد جاءته الأنباء باستعداد الصليبيين وتجمعهم للإغارة على المواقع الإسلامية يتزعمهم ملك بيت المقدس وبعض قواده، وقد وجه صلاح الدين بعض قواده للخروج لقتالهم، وأمره أن يمهلهم حتى يتوغلوا في بلاد المسلمين، وبالفعل توغلوا في البلاد وأخذوا يقتلون ويسوقون مواشي المسلمين وأنعامهم، فهجم عليهم المسلمون هجوماً صاعقاً وقتلوا وجرحوا معظم الجند، وكاد ملك بيت المقدس أن يقع في أيديهم لولا الدفاع المستميت من بعض مساعديه بعد أن تمكن المسلمون من إصابة فرسه فنجا بصعوبة، وكان لهذه الهزيمة دورها في إرباك مملكة بيت المقدس واشعارهم بخطر صلاح الدين وقواده (٢) .

وقد استعد (أرناط) صاحب الكرك سنة ٥٧٧هـ بقوات كبيرة كان ينوي التوجه بها إلى نواحي تيما ومنها إلى المدينة المنورة، فبادر صلاح الدين بتوجيه قواته للتصدي له، فسارت تلك القوات إلى منطقة الكرك وأخذت تغير على بلده مما اضطره للانسحاب، ثم توجهت تلك القوات لتحول بينه وبين تيماء

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٦٥، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤٤٢، أبو شامة : الروضتين ج١/ ٢٧٦، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٢٩٧، ابن شداد: النوادر السلطانية ٥٣، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ٨٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٧١، أبو شامة : الروضتين ج٢/ ٦ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٧٠ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ٨٩، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٠٠ .

هدفه، ولما رأىٰ أرناط حماس تلك القوات وعلم أنها لن تدع الطريق ولا الإغارة علىٰ بلاده إلا عند تفرق جنده، بادر بتفريق تلك الجموع التي أعدت لهذا الغرض وانتهىٰ عما نوىٰ (١) ، ومع ذلك فقد حاول الصليبيون مرة أخرىٰ الإغارة علىٰ نواحي تيماء، سنة ٥٧٩ فخرجوا فيما بينها وبين أيلة فقاتلهم المسلمون وانتصروا عليهم وفرقوا جمعهم (٢) ، كما هاجم صلاح الدين بنفسه جموعاً للصليبيين حول (صفورية) وجرىٰ بينه وبينهم قتال ومطاردة من مكان إلىٰ مكان، فقتل وأسر كثيراً منهم، كما هاجم الكرك مرة أخرىٰ في نفس العام حتىٰ أرهق العدو واستنزفهم (٣) .

وقد هاجم صلاح الدين الكرك مرة أخرىٰ سنة ٥٨٠هـ هجوماً قوياً وصاعقاً حيث أقام المنجنيقات وآلات الحصار عليها وتمكن من نقب أسوارها وتخليص بعض الأسرىٰ المسلمين من أيدي أهلها ، كما ردم المسلمون خندقها استعداداً لاقتحام المدينة، ويذكر أنتوني برج قصة طريفة لصلاح الدين أثناء حصارها حيث كان هناك زواج قائم للأمراء أثناء الحصار . يقول : « وأرسلت أم العريس السيدة الوريثة لما وراء الأردن شخصياً بعض الأطباق من مائدتها إلىٰ صلاح الدين، مرفقة برسالة تقول إنها لو علمت أنه سيقدم لأعدت شيئاً

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٠١ ،وانظر : المقريزي : السلوك ق١ج١/ ٩٨، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٤٥٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٤٠، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٠١، ٥٠٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٤٨، ١٥٠، وانظر : وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ١٠٤٢ .

خاصاً لضيف نبيل ، وبشكل لم يتفوق عليه أحد ، استعلم صلاح الدين الذي كان بطبيعته رجلاً متسماً بالفروسية والكياسة عن الجزء الذي يسكنه الزوجان العروسان من القلعة وأصدر أوامره بعدم قصفه بينما استمرت آلات الحصار تقصف الصخور الكبيرة على الأجزاء الأخرى»(١) وقد أهم الصليبيين أمر الكرك فتجمعوا من كل جهة لفكاكها بقيادة بلدوين ملك بيت المقدس ، فاضطر صلاح الدين لترك حصارها لمواجهة الجموع القادمة من النصارى ولكنهم تحايلوا والتجأوا إلى بعض المواقع ولم يتمكن المسلمون من لقائهم ثم أنهم تمكنوا من الوصول إلى الكرك ودخولها وتعزيز حامياتها فيئس منها صلاح الدين في تلك الغزوة وعاد عنها(٢) ، وفي طريق عودة صلاح الدين من الكرك أغار على العديد من المواقع والمدن الصليبية وعلى رأسها نابلس حيث تمكن من استنقاذ مجموعة من أسرى المسلمين في تلك المناطق .

التمهيد لفتح بيت المقدس :

وبعد هذه المحاولة لفتح الكرك وغيرها وجه صلاح الدين جهوده لبعض الوقت في محاولة لتوسيع دولته في مناطق جديدة في بلاد الشام والجزيرة وبعض المناطق الأخرى(٣) ، وكان هذا التوسع يعني المزيد من

---

(١) انتوني برج : تاريخ الحروب الصليبية ١٩١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٥٨ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٠٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣١٤ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٠٨ ، وانظر : وليم الصوري : تارخ الحروب الصليبية ج٢/ ١٠٧٠ ، وكذلك أنتوني برج : تاريخ الحروب الصليبية ١٩٠ .

(٣) انظر : ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٦٤ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥١١ـ٥١٨=

القوات والجند في صف صلاح الدين وهذا بالطبع ما يرعب الأعداء ويخوفهم ويقرب من نهايتهم في بيت المقدس وغيرها، ولقد أحس الصليبيون بخطورة توسع صلاح الدين في البلاد الإسلامية، يقول وليم الصوري: « وسبب تقدمه ونجاحاته الكثير من الإرباك للمسيحيين ونظروا بذعر كبير إلى الازدياد في سلطانه خشية أن يعود إليهم بتعزيزات كبيرة، وبناء عليه عقد في القدس في شهر شباط اللاحق اجتماع عام لجميع نبلاء المملكة للتداول حول الوضع وكان هناك خوف كبير من عودته كما تم ذكر ذلك وتقرر لذلك السبب استخدام كل وسيلة ممكنة لمقاومته »[1] ، ولقد كان السؤال التالي للصليبيين هل يمكن إنقاذ القدس؟[2] ، حيث تيقنوا أن الجولات القادمة مع صلاح الدين سوف تكون مركزة على بيت المقدس قبل غيرها إذ يعلمون أنها الهدف المنشود لصلاح الدين.

لقد زاد ضغط صلاح الدين على الأمراء الصليبيين سنة ٥٨٢هـ، حتى أن بعضهم حاول أن يكسب ود صلاح الدين، ومن هؤلاء (القومص) كونت طرابلس الذي كان بينه وبين ملك بيت المقدس معاهدة انضم بموجبها لخدمة صلاح الدين، فكان يغزو المواقع الصليبية لأبناء ملته كسباً لرضا صلاح

= المقريزي: السلوك ق١ج١/ ١١٤، ابن كثير: البداية والنهاية ٣١٥، الذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢١/ ٢٨٠، ابن شداد: النوادر السلطانية ٥٦، ٥٧.

(١) وليم الصوري: تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ١٠٥٤.

(٢) انظر إلى العنوان الذي صدر به وليم الصوري أحد فصوله الرئيسة في كتابه تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ١٠٧٣.

الدين[١] ، كما قام (أرناط) صاحب الكرك بعقد هدنة مع صلاح الدين حتى أمنت الطرق وكثرت القوافل بين مصر والشام وأصبحت تسير آمنة مطمئنة ولما رأى أرناط قافلة كبيرة من التجار والحجاج المسلمين اغتنم الفرصة غير آبه بالغدر الذي سيحدثه ، فاستولى على القافلة وأسر من فيها من التجار والجند ، فأرسل إليه صلاح الدين يقبح فعله ويطلب منه إطلاقهم ، فأصر على عناده وعصيانه ، وطلب صلاح الدين تدخل ملك بيت المقدس لحفظ المعاهدة التي كان هو طرفاً فيها ، ولكنه تجاهل الأمر فأقسم صلاح الدين إن ظفر بأرناط أن يستبيح دمه[٢] ، وكان قد أسر قبل ذلك عدة مرات من قبل المسلمين وأطلق في تبادل أسرى أو فداء .

وفي سنة ٥٨٣هـ حرص صلاح الدين في أولها أن يؤمن الطريق للحجاج العائدين من مكة قبل موجة جديدة من الفتح ، في الوقت الذي جمع فيه القوات الإسلامية من مصر والشام ، وبعد أن أمن صلاح الدين على الحجاج بدأ الإغارة على المواقع الصليبية في (عين الصفر) وما جاورها وكسر تلك القوات في العديد من المواقع ، ثم توجهت القوات الإسلامية إلى طبرية ، وتمكنت من فتحها بالقوة في نفس اليوم واستعصت قلعتها على المسلمين فترة قصيرة من الوقت [٣] .

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٨٤ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٢٦ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١١٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣١٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٨٦ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٢٨ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ٧٨ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ٧٩ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٣٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٢ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١١٨ .

معركة (حطين) :

تعتبر معركة حطين أهم المعارك التي خاضها المسلمون مع الصليبيين فهي المقدمة المباشرة لاستعادة المسلمين لبيت المقدس .

أحس الصليبيون بعد استعادة المسلمين لطبرية أن بيت المقدس هي الهدف المقبل ولذلك تكاتفوا جميعاً واجتمعت قواتهم من مختلف الممالك النصرانية ، حتى أن الذين كانوا في صلح مع صلاح الدين نقضوا عهدهم وانضموا إلى بني ملتهم ، وقدتجمع فرسان الداوية والاسبتارية ، كما تجمع أرناط صاحب الكرك وخصم صلاح الدين العنيد ، بالإضافة إلى ملك بيت المقدس (جاي) ، كما اشترك في التجمع بطريرك بيت المقدس (هرقل) وأسقف عكا ، وقد حملوا معهم في هذه المعركة أعز رموزهم الدينية لديهم وهو صليب الصلبوت الذي يعتقدون أنه بقايا الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام(١) ، وخروج هذا الرمز يعني عندهم أنها معركة حاسمة إذ أنه لايخرج لكل المعارك ، كان تجمع الصليبيين في صفورية وهي موقع أكثر تحصيناً وأوفر مياه من غيره ، ومع ذلك فقد خرجوامنه إلى حطين ، وهي أقل مياه ، وأكثر استواء وهذا الموقع يعني أيضاً مأساة للمنهزم أي كان لأن الموقع المكشوف لاملجأ فيه إلا للسيف أوالقوة ، وقد فرح صلاح الدين والمسلمون بتحرك النصارى لهذا الموقع وتفاءلوا بذلك كثيراً ، فأعد المسلمون أسلحتهم

---

(١) انظر : ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٣٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٨٩ ، أبو شامة : الروضتين ج٢/ ٨٠ .

وملؤوا كنانهم بالنبل التي وفرت للجيش بكثرة فكانت أحمالاً مفرقة في المواضع المختلفة ليتزود منها المقاتلون، كما قام المسلمون بردم المياه الموجودة في المناطق المتوقع نزول الأعداء فيها، وما إن ظهر الصليبيون في أحد الهضاب القريبة من حطين، حتىٰ أسرع المسلمون بالاصطدام بهم، فبادروا إلىٰ التحصن وباتوا ليلتهم تلك، فلما أصبح الصباح اكتشفوا أنهم بعيدون عن المياه، وأنهم محاصرون بالمسلمين من كل جانب، وقد بدأت أولىٰ المعارك بينهم وبين المسلمين في صبيحة يوم الجمعة ٢٤ ربيع الآخر سنة ٥٨٣هـ، واستمر القتال طوال النهار وتوقف في المساء، فلما أصبح الفريقان في يوم السبت الخامس والعشرين منه، كان الماء قد قل لدىٰ الصليبيين وأصابهم العطش، اضافة إلىٰ من أصيب منهم بجراح في اليوم السابق، فحملوا علىٰ المسلمين حملات شجاعة ليصلوا إلىٰ الماء ولكن المسلمين كانوا لهم بالمرصاد فردوهم، وأسروا منهم وقتلوا، وتجمع بقيتهم في جبل حطين، ليحتموا به وهرب بعض قوادهم، فعمل المسلمون علىٰ إشعال النار في الحشائش المحيطة بمعسكرهم(١)، وكانت أرضاً مليئة بالحلفاء، فارتفعت عليهم ألسنة النيران من كل جانب واجتمع عليهم حر النيران وحر الهاجرة والعطش وقلة المياه، فحملوا علىٰ المسلمين وهم مستميتون ولكن الله ثبت أقدام المسلمين ومكنهم منهم، فقتلوا جموعاً كبيرة منهم وأُسرت مجموعات أخرىٰ، وحاولوا تجميع أنفسهم حول ملكهم أكثر من مرة ونصبوا لذلك خيمة واستماتوا في الدفاع

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ١٩٠، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٣٣٥، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٠.

عنه وعنهـا، ولكـن المسلمين صـدقـوا العـزم فلم يتـركـوهـم حـتىٰ أزالوا خيمتهم[١]، وأسروا ملكهم وقد استـولىٰ المسلمـون علىٰ صليبهـم المزعـوم صليب الصلبوت ففت ذلك في عضدهم، وكثر الأسرفيهم، ولم يبق لهم أي مقـاومـة، وقد ذكـر أنه كـان الجندي الواحـد من المسلمين يسير وقد قـرن معـه مايقـارب من ثلاثين أسيراً دفعـة واحدة، وكـان ضمن الأسرىٰ أرنـاط صـاحب الكرك وخـائن العـهـود والمواثيق وملك بيت المقـدس (غي لوزنجان) وأخـوه، وعـدد مـن أمـراء المدن والبـارونات، ولم ينج من تلك الألوف إلا آحـاد من الناس، وبعد أن ظهر نصر المسلمين نزل صلاح الدين علىٰ الأرض وصلىٰ لله شكراً علىٰ أن نصره علىٰ هؤلاء الأعـداء، وكـانت أصـوات المسلمين عـالية بالحمد والتكبيروالصلاة شكراً لله علىٰ نصره [٢]، ثم أحـضر الأسـرىٰ بين يدي صلاح الدين، وفي مقدمتهم ملك بيت المقدس غي وأجلس إلىٰ جانب صلاح الدين كمـا أحضر أرناط صاحب الكرك الذي غـدر بالمسلمين العزل في وقت هدنة، وحـاول صـلاح الدين أن يذهب الروع عن ملك بيت المقـدس، فطلب ماءً مثلجاً ممزوجاً بماء الورد وأمر بإسقاء الملك (غي لوزنجان) وكان قد أخذه العطش، فشرب من الماء حتىٰ إذا ارتوىٰ قدمه (غي) إلىٰ أرناط دون إذن من صلاح الدين، فقال له: لم آذن لك في سقيه وليس هذا أماناً منا له، وهذا يعني أن صـلاح الدين حينمـا سقىٰ الملـك فقـد أمنه أمـا أرناط الغـادر فليس آمناً لأنه حتىٰ لوشـرب ماء صلاح الدين فـليس بأمره ولاموافقته، وبعـد ذلك أخذ

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ١٩١، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٥٣٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٥٣٦، ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ١٩١.

صلاح الدين يؤنب أرناط على مافعله بالمسلمين من غدر، وكان حينما غدر بالمسلمين وأسر وقتل منهم قال : قولوا لمحمدكم يخلصكم، فقام صلاح الدين وقال له ها أنذا انتصر لمحمد فعرض عليه الإسلام فأبى ثم ضربه بنفسه بالسيف فقتله فلما رأى ملك بيت المقدس مقتل أرناط ظن أنه سيقتل من بعده، فخاف وارتاع فأحضره صلاح الدين وطيب خاطره وقال له : لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فتجاوز حده فجرى عليه ماجرى، ثم رحل بقية الأسرى إلى دمشق، حيث فرقوا في البلاد الإسلامية لإعلان الانتصار، وفي الطريق أمر بقتل جميع الاسبارتية والداوية، وهم فرسان خاصون قدموا لحرب المسلمين من أوربا ومن غيرها [١] .

وكانت هذه النكبة للصليبين ليس لها ، مثيل يقول انتوني برج : «وكانت معركة حطين نكبة لامثيل لها بالنسبة للمسيحيين في الممالك الصليبية، فقد هزم جيشهم، ولم يترك من الرجال المقاتلين سوى أولئك المنتشرين فوق الأرض في الحاميات وفي المدن والقلاع، وبدأ صلاح الدين يطهر بقاياهم بشكل همجي، وفي أوقات الفراغ . وفي هذه العملية أسر العديد من الصليبيين إلى درجة أنهم أصبحوا فيضاً في أسواق النخاسة في العالم الإسلامي . وكانت قيمتهم التجارية تهبط إلى مستوى منخفض، حتى

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢١، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٣٧، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١١٩، وانظر إلى أحداث وقعة حطين بتفصيل واف عند ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ من ص١٨٨ حتى ١٩٧، وانظر : أنتوني برج : تاريخ الحروب الصليبية . و المعاضيدي وزملاؤه ١٧١ .

أن رجلاً قايض رجلاً منهم بزوج من الأحذية »[١] . ولا شك أن في هذا الكلام مبالغة ولكنه يصور الحالة النفسية التي وصل إليه الصليبيون بعد معركة حطين. ومع كل هذه الهزيمة التي ألحقها بهم صلاح الدين، فقد كان الصليبيون ينظرون إليه باحترام يقول انتوني برج : «كان الإسلام قد دخله لعدة قرون الفساد بالابتزازغير المشروع والأنانية والكذب ونوع من إساءة الحكم والإجرام التي دمرت الدولة الفاطمية في مصر، والتي أصبح لديها الآن قائد برهن بنفسه أنه أهل ثقة تماماً وأنه الرجل الذي لم يعرف عنه أنه نقض عهده لصديق أو عدو، وكان ذلك شيئاً غير عادي في معايير ذلك العصر، وقارب أن يكون غير مصدق، حيث فاز باحترام هائل يين إخوانه المسلمين وبين خصومه المسيحيين »[٢] .

فتح بيت المقدس :

أصبح الطريق ممهداً أمام صلاح الدين للتوجه إلىٰ بيت المقدس بعد حطين مباشرة حيث كان ملكها ومعظم قواده أسرىٰ لديه، كما أن الممالك الأخرىٰ كانت مهمومة بما أصابها من هزيمة في حطين مع مملكة بيت المقدس، ومع كل هذا فإن صلاح الدين لم يتوجه إلىٰ بيت المقدس مباشرة وإنما آثر أن يقوم ببعض الخطوات العسكرية في مناطق أخرىٰ قبل أن يتوجه إلىٰ بيت

---

(١) انتوني برج : تاريخ الحروب الصليبية ج٢/ ١٩٧ ، وانظر : ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢١ .

(٢)أنتوني برج : تاريخ الحروب الصليبية ١٩٨ .

المقدس، فبذل جهده أولاً في احتلال العديد من المواقع القريبة من بيت المقدس، حيث توجه يوم الأحد ٢٦ ربيع الآخر أي بعد نهاية معركة حطين بيوم واحد إلى طبرية وحاصر حصنها، واستسلم أهله فأمنهم المسلمون وسمحوا لهم بالرحيل إلى طرابلس [١] .

وبعد ذلك بأربعة أيام كان صلاح الدين رحمه الله يحاصر عكا، ففوجىء أهلها بالحصار وكانوا عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم، فخرجوا إلى صلاح الدين وهم يتضرعون ويطلبون الأمان لأنفسهم، فأمنهم وخيرهم بين الإقامة تحت حكمه أو الرحيل فاختاروا الرحيل وأن يحملوا ما يستطيعون من أموالهم، فتفرقوا في البلدان [٢] ، وأقام المسلمون أول جمعة بعد حطين في إحدى كنائس عكا بعد أن حولها المسلمون إلى مسجد، ولعلها كانت أحد المساجد التي قلبها الصليبيون إلى كنائس بعد احتلالهم لعكا، وقد استمر في فتح المواقع والحصون التابعة لها ففتح مايزيد على تسعة حصون [٣] .

كما توجهت بعض جيوش صلاح الدين في الوقت نفسه إلى نابلس، وكان معظم أهلها مسلمين والسيطرة فيها للصليبيين فتمكن المسلمون من

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٩٥، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٣٨، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٢، ابن شداد : النوادر السلطانية ٧٩ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢٠١، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٣٩، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٢، ابن شداد: النوادر السلطانية ٧٩ .

(٣) ابن واصل : مفروج الكروب ج٢/ ٢٠٢، ابن شداد : النوادر السلطانية ٧٩، ابن الأثير : الكامل ٥٣٩ـ٥٤٠ ، المقريزي : ق١ج١/ ١٢٠، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٢ .

تخليصها من الصليبيين وأمنوهم على أن يكونوا أهل ذمة(١). وقد وجه صلاح الدين في الوقت نفسه همه إلى الساحل حيث عمل على تطهيره من الصليبيين، ففتح(تبنين)و(صيدا)و(بيروت) واستسلم أهلها وعاملهم المسلمون معاملة حسنة وسمحوا لمن أراد منهم بالرحيل كما اعتبروا من بقي منهم أهل ذمة (٢) ، وأطلق صلاح الدين في تلك الفتوح جموعاً كبيرة من المسلمين كانوا أسرى في أيدي الصليبيين وقد زادت أعدادهم على عشرين ألف أسير قام صلاح الدين بكسوتهم وترحيلهم إلى أهلهم(٣) .

وقد توجه صلاح الدين بعد ذلك إلى عسقلان وكانت من أهم وأقوى المراكز العسكرية الصليبية، ولها موقعها العسكري الهام على طريق مصر الشام، واهتم صلاح الدين بفتحها لهذا الأمر، وقد استعصت على المسلمين فأقاموا عليها المنجنيقات وزحفوا عليها واستمر حصارها أربعين يوماً، وأهلها يرفضون التسليم ولكنهم أمام قلة الجند ونقص الإمدادات اقتنعوا بتسليم البلد وذلك في نهاية جمادى الآخرة وطلبوا أن يسمح لهم بالرحيل إلى بيت المقدس فسمح لهم بذلك(٤) ، وباستسلام عسقلان سلمت (غزة) والحصون

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢٠٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢٠٥، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٤١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٢ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١/ ١٨٠ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٢١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢٠٤ , ٢٠٥، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٤٢ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢١٠ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٤٥، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٢، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٢١، ابن شداد : النوادر السلطانية ٨٠.

المجاورة لها، فاستدعى صلاح الدين الأساطيل الإسلامية من مصر للمحافظة على تلك المواقع الساحلية الهامة[١] .

وعندما ضمن صلاح الدين حماية السواحل بالأساطيل الإسلامية ضد أي هجوم بحري متوقع، توجه إلى بيت المقدس، وقد تجمع بها بقايا الصليبيين، يقودهم بطريرك بيت المقدس، وصاحب الرملة وبقايا من سلم من حطين، ومن هاجر إليها من البلاد والحصون التي فتحها المسلمون وأمنوا أهلها على الرحيل، وكانت القدس مزدحمة بالمدافعين عنها، والذين يرون أن الموت أهون عليهم من استعادة المسلمين لبيت المقدس، التي كما هو معروف لها شأن كبير عند جميع الطوائف النصرانية، وقد كمن النصارى للطلائع الأولى من قوات صلاح الدين فأوقعوا بهم وقتلوا قائداً من أعظم قواده فأهم المسلمين أمره[٢] ، ولكنهم مع ذلك أصروا على التقدم إلى القدس. وصل المسلمون إلى أسوارها الغربية يوم الأحد الخامس عشر من رجب وكانت القدس مدينة محصنة تحصيناً عالياً، وبها من المقاتلين مايزيدون عن الستين ألفاً، معظمهم أهل خبرة ومدافعة[٣] ، مارسوا هذا الأمر في الحصون التي سقطت في يد المسلمين قبل ذلك، وقد بقي صلاح الدين وجنده خمسة أيام وهم يدورون بالمدينة يتحسسونها كالصقور، ويتسقطون أخبارها ويراقبون

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢١٠ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٤٦ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٤٧ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢١٣ ، .

(٣) ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٤٧ . ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢١١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٣ ، أبو شامة : الروضتين ج٢/ ٩٤ .

مواقعها العسكرية الدفاعية ليختاروا المكان المناسب للهجوم، وقد وقع اختيار المختصين العسكريين المسلمين على الجهة الشمالية من المدينة، فلم يصبح الناس يوم الجمعة العشرين من رجب إلا وقد نصبت المنجنيقات على ذلك الجانب، وفي المقابل نصب الصليبيون منجنيقات داخل أسوار القدس كانوا يرمون بها المسلمين، وتقاتل الفريقان قتالاً شديداً، وكان شجعان الصليبيين يخرجون كل يوم إلى ظاهر البلد ويقاتلون المسلمين، والحماس شديد بين الطرفين فبقدر ماكان الصليبيون حريصين على الاحتفاظ بالقدس لوازع ديني عندهم، كان المسلمون أشد حرصاً منهم على استرداد المدينة لنفس الوازع الديني وأقوى واستمات كثير من المسلمين في القتال طلباً للشهادة عند أسوار القدس[١]، وقد تحمس المسلمون في القتال حتى اضطروا فرسان الصليبيين إلى الالتجاء وعدم الخروج من المدينة ووصل المسلمون إلى الخندق، وتمكنوا من بدء النقب في الأسوار في الوقت الذي كانت المنجنيقات تمنع الأعداء من الدفاع عن الأسوار، حتى أيس الصليبيون من جدوى دفاعهم وأحسوا أن القدس مأخوذة منهم وأن المسلمين لن يدعوها، عند ذلك بدأوا التفاوض مع صلاح الدين على تسليم البلد، وهنا ذكرهم صلاح الدين بما فعلوه بأهلها عندما احتلوها قبل تسعين عاماً تقريباً، فخشي الصليبيون أن يقتلوا كلهم كما فعلوا بالمسلمين، عند ذلك هددوا بحرق المدينة وقتل من عندهم من أسرى المسلمين وتخريب الصخرة وما بقي من المسجد الأقصى وقتل أهلهم والخروج

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٥٤٧، ٥٤٨، ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٢١٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٣، قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي ٣٣٠.

على المسلمين مستميتين للقتال، فاستشار صلاح الدين العلماء والقواد، فأشاروا عليه بتأمين الناس على أن يدفع كل واحد منهم مقداراً محدداً من المال ويسمح له بالخروج، ويعطى الناس مهلة أربعين يوماً لمن أراد الخروج منهم بهذه الشروط، ، وتم تسليم المدينة يوم الجمعة ٢٧رجب ٥٨٣هـ، الموافق ٢/ ١١/ ١١٨٧م [١] وكان يوماً مشهوداً علا فيه صوت التكبير والتهليل والتحميد في مختلف أنحاء القدس، وتوجه المسلمون إلى المسجد الأقصى وطهروه من بقايا عبث النصارى، وكانوا قد أقاموا في محرابه الخنازير، وتم تنظيف ما حوله وأزيلت الأبنية التي قسموا بها المسجد وأعاده المسلمون كما كان، وأنزلوا الصليب الذي وضعه النصارى على قبته، يقول ابن واصل: «وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من ذهب، فلما دخل المسلمون البلد يوم الجمعة تسلق جماعة منهم أعلى القبة ليقتلعوا الصليب فحين صعدوا نظر المسلمون إليهم وإلى الأفرنج لينظروا ماذا يصنعون، فلما قلعوه وسقط صاح الناس كلهم صوتاً واحداً من البلد ومن ظاهره المسلمون والفرنج، أما المسلمون فكبروا فرحاً وأما الفرنج فصاحوا توجعاً وتفجعاً فسمع الناس صيحة كادت الأرض تميد بهم لعظمها وشدتها»[٢] ، وتم تجهيزه للصلاة في أول

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٥٤٩، ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٢١٤، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٣، أبو شامة: الروضتين: ح٢/ ٩٧، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٧/ ١٧٩، المقريزي: السلوك ق١ج١/ ١٢٢، قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي ٣٣٧. .

(٢) مفرج الكروب: ج٢/ ٢١٧، وانظر: ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٥٥١ ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ / ٣٢٤.

جمعة، أي بعد قرابة أسبوع من استلام المدينة، وكان يوماً مشهوداً حضره المسلمون من مختلف بلاد الشام القريبة ليشهدوا أول جمعة في الأقصىٰ بعد تطهيره من شرك الصليبيين وشرهم، وذرفت دموع المسلمين، هم يشهدون هذا التجمع المهيب، ويهللون ويكبرون ولربهم يتواضعون، وصعد خطيب المسلمين منبر الأقصىٰ الذي أعد لهذا الأمر مسبقاً منذ أيام نور الدين محمود انتظاراً لفتحها (١) وبحضور صلاح الدين بدأ الخطيب خطبته بقوله تعالىٰ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢) [سورة الأنعام: آية ٤٥].

وكان مما قال: «الحمدلله معز الإسلام بنصره ومذل الشرك بقهره ومديم النعم بشكره، الذي قدر الأيام دولاً بعدله وجعل العاقبة للمتقين بفضله وأفاض علىٰ عباده من ظله وأظهر دينه علىٰ الدين كله القاهر فوق عباده فلا يمانع . . . ثم قال . . الله أكبر فتح الله ونصر وغلب الله وقهر وأذل من كفر» واستمر في خطبته التي حفظتها كتب التاريخ لأهمية يومها حيث كانت أول جمعة بعد التطهير (٢).

وبعد هذالفتح وفىٰ المسلمون للنصارىٰ بعهودهم فأخرجوا من أراد الخروج بالمبلغ المتفق عليه، وبقيت كنائسهم علىٰ ماهي عليه سوىٰ ما أخذوه

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٥٥١.

(٢) للاطلاع علىٰ نص الخطبة انظر: ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٢٢٤، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٤.

من مساجد المسلمين، وقد خرج كثير من كبرائهم بأموالهم ولم يدفعوا عن ضعفائهم، وعلى رأس هؤلاء بطريرك القدس وجمع كبير من رجال الدين النصارى والأمراء والقواد (١) ، وبذل بعض المسلمين من أموالهم فدية عن النصارى . وقد كان صلاح الدين رحمه الله رحيماً بالضعفاء والأرامل وأعزة القوم الذين ذلوا ويذكر ابن واصل بعضاً من الحوادث حول هذا الأمر «كان في القدس بعض نساء ملك الروم وقد ترهبت وأقامت به ومعها من الحشم والعبيد والجواري خلق كثير ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء عظيم فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيرها » .

وكذلك خرجت زوجة الملك (غي) وهي ابنة الملك أماري، وكانت مقيمة بالقدس مع ما لها من الخدم والخول والجواري فاستأذنت السلطان في الاجتماع بزوجها، وكان مقيماً في برج نابلس موكلاً به فأذن لها في ذلك فتوجهت إليه وأقامت عنده .

وأتت أيضاً امرأة الأبرنس أرناط صاحب الكرك الذي قتله السلطان بيده يوم حطين فشفعت في ولد لها مأسور فقال لها السلطان : إن سلمت الكرك أطلقته فسارت إلى الكرك، فلم يسمع منها الفرنج الذين فيه، ولم يسلموه فلم يطلق ولدها ولكنه أطلق مالها ومن يتبعها .

وخرج البطريرك الكبير الذي للفرنج ومعه من أموال البيع ومن الصخرة

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢١٦، وانظر : قدري قلعجي : صلاح الدين ٣٣٩ .

والأقصى وقمامة(١) ما لا يعلمه إلا الله تعالى، وكان له من المال مثل ذلك، فلم يعرض له السلطان، فقيل له خذ مامعه لتقوي المسلمين فقال : لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير وسير الجميع ومعهم من يحميهم إلى مدينة صور »(٢). وقد أشاد المؤرخون بمعاملة المسلمين لأعدائهم معاملة حسنة «ويثني المؤرخون جميعاً غربيين وشرقيين، على الموقف النبيل الذي وقفه صلاح الدين أثناء فتح بيت المقدس ويتحدثون بإعجاب شديد عن توزيعه المال والدواب على المرضى والمسنين، والمحتاجين من الفرنجة، وعن إكرامه النساء ورأفته بالأطفال ورعايته للضعفاء منهم ويشهدون بأن جنوده كانوا على غراره في المروءة والشهامة، فلم يقع في هذا الحادث التاريخي الخطير أي أمر من الأمور التي تقع عادة في مثل هذه الظروف على أيدي الجنود المنتصرين، والتي وقع كثيرمنها لما احتل الفرنجة القدس» (٣) .

وعُدَّ هذا الفتح نعمة كبيرة من الله على المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي حيث عمت به البشرى ودعا الناس لصلاح الدين وأنشده الشعراء قصائد عرفت بالقدسيات وتكلم الأدباء في هذه المناسبة التي أفرحت المسلمين في كل مكان وذكرت بفتح عمربن الخطاب الأول للبيت المقدس، وكان مما

(١) هي المسماة حالياً عند نصارى العرب كنيسة القيامة .

(٢) مفرج الكروب ج٢/ ٢١٦ ، وانظر : ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٥٠، ٥٥١ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٤ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧/ ١٨٩ ، قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ٣٣٨ ـ ٣٤٥ .

(٣)قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ٣٣٨ .

قاله بعض الشعراء :

أترىٰ مناماً مابعينـــي أُبصـــــر القدس يفتح والفـرنجــة تُكسـر

وقمامة قمت من الرجس الذي بزوالـه وزوالـهـــا يتطـــــهـــر

ومليكهم في القيد مصفود ولم ير قبل ذاك لهم مليك يؤســـــر

قد جاء نصـر الله والفتــح الذي وعد الرسول فسبحوا واستغفروا (١)

ومن ذلك قصيدة أخرىٰ لأحد الشعراء في قرابة مائة بيت مطلعها :

هذا الذي كانت الآمال تنتظر فليـوف لـلـه أقـوام بما نذروا (٢)

وقد بقي صلاح الدين في القدس قرابة شهر بعد الفتح أشرف بنفسه علىٰ تنظيم شؤون المدينة المختلفة وفتح بعض المدارس وترتيب المساجد وأئمتها ومؤذنيها وما يلزمها، كما اعتنىٰ بإقامة الحق والعدل لجميع رعاياها(٣) وبعد ذلك خرج مرة أخرىٰ للجهاد .

مابعد القدس :

رغم أن صلاح الدين قد فتح العديد من المواقع الصليبية قبل توجهه إلىٰ بيت المقدس فقد كانت لاتزال هناك مواقع هامة للصليبين امتلأت باللاجئين إليها من بقاياهم فأصبحت تشكل خطراً علىٰ المسلمين، وكان أهمها طرابلس

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢٢٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧/ ١٨٧ .

(٣) انظر : قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ٣٥٠ .

وصور وأنطاكية وهي تشكل موطئ قدم لغزاة جدد من الصليبيين خصوصاً أن مواقعها البحرية قد تؤهلها لذلك(١) .

كانت (صور) أول المواقع التي حرص صلاح الدين على فتحها وهي مدينة حصينة على البحر ، أهمت المسلمين نظراً لتجمع شراذم الصليبيين فيها ، وقد حاصرها صلاح الدين في شهر رمضان من العام نفسه ٥٨٣هـ ، واستدعى الأسطول المصري للمشاركة في الحصار ، وقد جرت حول المدينة معركة بحرية كانت في صالح الصليبيين ، كما جرت معركة برية انتصر فيها المسلمون ، ودخل الشتاء والمسلمون يحاصرون المدينة ، فألح الأمراء والقواد على صلاح الدين بتركها لوقت آخر ، وكان رحمه الله يرى الاستمرار في الحصار حتى يتم الفتح ولكنه أمام إلحاحهم ترك حصارها(٢) ، وقد حاول فتح بعض الحصون الأخرى قبل التوجه إلى دمشق ، ونجح في بعضها وفشل في البعض الآخر ، وبعد انقضاء موسم الشتاء توجه السلطان للفتح مرة أخرى في موجة جديدة ، تمكن خلالها من فتح مايزيد على عشرة حصون للفرنجة كانت بعضها مدنا مهمة مثل(اللاذقية) و(طرطوس) و(جبلة)(٣) ، ولما شاهد

---

(١)انتوني برج : تاريخ الحروب الصليبية ١٩٨ .

(٢)ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢٤٦ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٥٥٣ ـ ٥٥٥ ، ابن كثير : البداية والنهاية ١٢/ ٣٢٧ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ٨٣ .

(٣) انظر إلى هذه الحصون وكيفية فتحها في : ابن واصل : مفرج الكروب ج٢ من ص٢٥٥ إلى ٢٦٩ ، ابن الاثير : الكامل ج١١/ ٥٥٧ ، ، ج١٢/ ١٩٥ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ٨٤ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١/ ٢٨٦ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٢٩ ـ ٣٣١ .

الصليبيون قلاعهم تسقط الواحدة تلو الأخرىٰ طلب صاحب أنطاكية المصالحة مع صلاح الدين وأن تكون بينهما هدنة، فرضي صلاح الدين بذلك وأن تكون هدنة محددة بثمانية أشهر بشرط أن يطلق صاحب أنطاكية من عنده من أسرىٰ المسلمين وكانت عدتهم قرابة ألف أسير(١)، وكان المسلمون في الوقت نفسه يحاصرون (الكرك) منذ عام تقريباً حتىٰ أجهدوها وأرهقوها فسلمت لهم في شهر رمضان ٥٨٤هـ(٢)، واستمرت الحال بين المسلمين والصليبيين حيث كان المسلمون يهجمون علىٰ حصونهم وأولئك يدافعون إلىٰ أن جاءت الحملة الصليبية الثانية.

لاشك أن استيلاء المسلمين علىٰ القدس قد أحدث ردة فعل كبيرة في أوربا، وقد بعث البابا (جريجوري) الثامن بالرسل إلىٰ مختلف البلاد الأوربية يحث العامة والخاصة فيها علىٰ الخروج لبيت المقدس، وأخذ الرهبان والقسس يلعبون دوراً في التحريض وإخراج الناس من أوربا لحرب المسلمين مرة أخرىٰ، ويصور ابن واصل هذه الحال فيقول: «كان الرهبان والقسس من حين ملك المسلمون بيت المقدس قد لبسوا السواد وأظهروا الحزن وأخذهم بطرك القدس ودخل بهم بلاد الإفرنج يطوفها بهم جميعاً ويستنجدون أهلها ويحثونهم علىٰ استرجاع القدس وقد صوروا المسيح عليه السلام وجعلوا معه

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٢٦٩، وانظر: ابن الأثير: الكامل ج١٢/ ١٩ ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٣٣٠.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٢٧٢، ابن الأثير: الكامل ج١٢/ ، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٣٣٠.

صورة رجل عربي يضربه بعصا، وقدجعلوا الدماء على صورة المسيح وقالوا هذا المسيح يضربه محمد نبي المسلمين وقد جرحه وقتله »[١] . ولاشك أن تلك الحملات الدعائية في أوروبا كانت تلقى نجاحاً كبيراً فقد أسرع الناس بالتجمع لحرب المسلمين، وكان على رأس أولئك ملكا فرنسا وانجلترا، كما تحرك ملك ألمانيا ومعه قرابة ألف جندي، ولكنه آثر الطريق البري مروراً بأراضي السلاجقة في الأناضول، وقتل أوتاه، وبالتالي تحطمت تلك الحملة الألمانية التي كانت أقوى الحملات لو نجحت في الوصول إلى الشام[٢] .

كان صلاح الدين قد أسر ملك بيت المقدس (غي لوزنجان) ثم أطلق سراحه بعد أن أخذ عليه عهداً أن لايحارب المسلمين، ولكنه جمع مايقرب من عشرين ألف مقاتل من بقايا الصليبيين وخرج بهم من صور لينازل بهم عكا وذلك في جمادى الآخر سنة ٥٨٥هـ، وكانت هذه أول محاولة هجومية من قبل الصليبيين بعد سقوط بيت المقدس، ولاشك أن علم الصليبيين بقرب وصول الحملات من أوربا هو الذي شجعهم على مهاجمة عكا إذ أن عكا على ساحل البحر والإمدادات الأوربية قادمة عن طريق البحر، وقد انشغل صلاح الدين بهذا الأمر فكاتب الأمصار الإسلاميه يطلب الأجناد، وفي الوقت نفسه توجه إلى عكا حيث تمكن من هزيمة بعض جند العدو المحاصرين لها، واتخذ للمسلمين طريقاً إلى داخل المدينة، وتمكن صلاح الدين بنفسه من دخولها،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢٨٨، وانظر : قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ٦٢ .

(٢) انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٠٣، المعاضيدي وزملاؤه ١٧٧ .

وقد جرت العديد من المعارك المستمرة بين المسلمين والصليبيين المحاصرين لها، وكانت الإمدادات للفرنجة من البحر مستمرة ومتواصلة، فوصلت أساطيل من فرنسا ومن روما وغيرها من البلاد الأوربية(١) . والأغرب من هذا أن الفرنجة وصلهم مركب فيه نساء للترويح عن جنودهم وهم يدعون التقوىٰ والطهارة، يقول ابن واصل: «ووصل في مركب ثلاثمائة إفرنجيه مستحسنات اجتمعن من الجزائر وسبلن أنفسهن لله بزعمهن والتزمن أن لايمنعن من أراد وطأهن من مقاتلة الفرنج وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربةلاسيما إن مكن من اجتمع فيه غربة وعزبة»(٢) . وقد استغرب بعض الصليبيين المعاصرين للحدث مثل هذا العمل وتسائلوا أبمثل هذا السلاح يسترد ميراث الرب (٣) .

كان حصار عكا طويلاً وقاسيا ولذلك طلب بعض الأمراء من صلاح الدين أن يأذن لهم بالانصراف لشدة الإرهاق وكان رأيه البقاء والدفاع عن المدينة حتىٰ هزيمة الأعداء، ولكنه أمام ضغط الجند والأمراء رتب جنداً للدفاع عن المدينة وتركها تصارع الأعداء، وبعد ذلك كثر مدد الفرنج وقل مدد المسلمين ووصل ملك بريطانيا (ريتشارد قلب الأسد)(٤) وملك

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٢٨٨ ابن الأثير: الكامل ج١٢/ ٦١، ابن كثير: البداية والنهاية ٣٤٢، قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي ٣٦٩ .

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٣٠٨ .

(٣) انظر: المعاضيدي وزملاؤه ١٧٨ .

(٤) انظر: ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٣٥٠، ابن الأثير: الكامل ج١٢/ ٦٤، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٢/ ٣٤٢ .

فرنسا(اغسطس) فتغير ميزان القوىٰ لصالح الصليبيين المحاصرين لعكا، وكان صلاح الدين يحاول مهاجمة المحاصرين لعكا من الخلف، وفي الوقت نفسه يشرف علىٰ الأسطول الإسلامي الذي مهمته إيصال المؤن والأطعمة إلىٰ المسلمين المحاصرين داخل عكا، وكان لأجل ذلك يخوض المعارك والمغامرات البحرية وأحياناً تتشبه سفنه وجنده بسفن وجند الأعداء ليتمكنوا من المرور بين السفن المحاصرة والوصول بالأطعمة لأهالي عكا المحاصرين (١) ولكن قوات الصليبيين كانت أكثر من المسلمين ولم يبق من يدافع عن المدينة سوىٰ ستة الآف يقابلون مائة ألف في البر والبحر، وقد طلب المدافعون عن عكا أن يأذن لهم صلاح الدين بتسليم المدينة ولكنه كان مصراً علىٰ التمسك بها ، وأخيراً عقدوا معاهدة للتسليم علىٰ شروط بينهم وبين المسلمين علىٰ أن يضمن النصارىٰ خروج من في عكا من المسلمين سالمين، مقابل جزية يدفعونها، وهكذا خرج المسلمون منها وهم محل إعجاب الفرنجة لصبرهم وصمودهم لمدة سنتين كاملتين« وسمح للمسلمين بمغادرة المدينة دون إزعاج، وفي الحقيقة شاهدهم المنتصرون يخرجون بشيء من العطف، بينما خرجوا من المكان إلىٰ الأسر، لأن شجاعتهم كانت باسلةجداً إلىٰ درجة أنهم فازوا بالاحترام وبشيء شبيه بالتعاطف من قبل أعدائهم، وقد كانوا هزيلين مغبري الشعر يتضورون جوعاً ومتسخين، وألبستهم رثة، ولكنهم غير مطأطيء

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣٣١ ، ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ٤١، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٣٣ .

الرؤوس الشيء الذي أعجب الصليبيين »[١] . فسقطت المدينة في أيديهم في ١٢ ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ الموافق ١١٩١م بعد حصار دام سنتين، وبعد حوالي أربع سنوات من معركة حطين[٢] ، وكان المسلمون أسرىٰ في يد الفرنج بموجب معاهدة التسليم علىٰ أنهم آمنون ولكن الفرنجه جمعوهم في يوم من الأيام، وقتلوهم صبراً دفعة واحدة، وقد كان عددهم يزيد علىٰ الألفين، فاغتم المسلمون لذلك غماً شديداً [٣] .

وكانت المعارك التي جرت حول عكا طوال السنتين من أشد ما وقع بين المسلمين والصليبين، ومع أن الصليبيين قد احتلوا عكا بالقوة وقتلوا أسراهم فيها من المسلمين، فإن قتلاهم حولها زادوا علىٰ الخمسين ألفاً[٤] .

الدفاع عن القدس وصلح الرملة :

كانت القدس هي الشغل الشاغل لصلاح الدين، وهو يعلم يقيناً أن الصليبيين ماأخذوا عكا إلا في طريقهم للقدس، ولذلك فقد كان هم صلاح

---

(١) انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية٢١٢ .

(٢)انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ص٢٠٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣٦٤ ، وقد كتب بتوسع عن هذا الحصار في ج٢ من ص٢٨٩ حتىٰ ٣٦٤ ، ابن الأثير : الكامل :ج١١/ ٦٨، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٤٥ ، ابن خلكان وفيات الأعيان ج٧/ ١٩٧ ، ابن شداد: النوادر السلطانية ١٧٤ ، وقد كتب بتوسع شديد في حصار عكا من ص ٩٧حتىٰ ص١٧٥ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٣٢ .

(٤) انظر : . المصادر السابقة .

الدين المحافظة عليها ومنع الصليبيين منها، ومع هذا فقد توجه الصليبيون براً وبحراً إلى عسقلان وهي من أخطر وأهم المواقع بين مصر والشام حيث أن من يسيطر عليها يستطيع أن يبعث منها بيسر جنداً إلى مصر أو جنداً إلى الشام، وقد أهم ذلك الأمر صلاح الدين فأخذ يساير الجيوش الصليبية ويغير عليها باستمرار، ووقع العديد من القتلى والجرحى من الطرفين والصليبيون مصممون على الوصول إلى عسقلان، وفي هذه الأثناء وقع اجتماع بين الملك العادل أخو صلاح الدين وأكبر قواده وبين ملك الانجليز رتشارد قلب الأسد، طلب فيه رتشارد تسليم بعض المواقع دون قتال فرد عليه الملك العادل رداً قوياً[١] ، ولما رأى صلاح الدين إصرار الصليبيين على احتلال عسقلان، وخشي في الوقت نفسه من هجومهم على القدس، سارع بتخريب حصونها وأسوارها حتى لايتحصن بها الصليبيون[٢] ، وقد ثبت صحة إجراء صلاح الدين حيث احتلها الصليبيون بعد ذلك وعملوا فترة طويلة على إعادة تحصينها[٣] ، ومإإن فرغ صلاح الدين من تخريب عسقلان حتى أسرع بالتوجه إلى القدس لإعدادها وتحصينها ضد أي هجوم متوقع، وترك في الوقت نفسه بعض القوات لمشاغلة الأعداء، وقد نجحت تلك القوات في إشغالهم، وكادت أن تأسر الملك ريتشارد قلب الأسد نفسه في إحدى تلك

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣٦٧ ، ابن شداد: النوادر السلطانية ١٨٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣٦٩ . ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٧٢، النوادر السلطانية ١٨٧ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٤٥ .

(٣) انظر : ابن الأثيرالكامل :ج١١/ ٧٨ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣٨٠ .

الوقائع [١] .

وصل صلاح الدين إلىٰ القدس وشرع في تحصينها وأحضر العمال للعمل في الصخور وفي الحفر من مختلف الأماكن، وعمل بنفسه هو وأمراؤه وقواده في نقل الحجارة، وشاركهم في ذلك العلماء والقضاة[٢] ، وقد صح ظن صلاح الدين فقد توجه الصليبيون إلىٰ بيت المقدس، فاهتم لذلك الأمر اهتماماً شديداً وعزم علىٰ مقاومتهم من داخل البلد، واقترح عليه بعض قواده أن يخرج ويصافهم خارج البلد فإن عجز رحل وتركها ، فاهتم لهذا الأمر أكثر من غيره ورأىٰ أن موته أهون عليه من أخذهم بيت المقدس، وشكىٰ هذا الأمر إلىٰ أحد العلماء، وكان كثيراً ما يلجأ إليهم فكان مما نصحه به ذلك العالم أنه «ينبغي أن يرجع إلىٰ الله تعالىٰ وهذا يوم جمعة وهو أبرك أيام الأسبوع وفيه دعوة مستجابة في صحيح الأحاديث، ونحن في أبرك موضع نقدر أن نكون فيه في يومنا هذا، فالسلطان يغتسل للجمعة ويتصدق بشيء خفية بحيث لايشعر أنه منك وتصلي بين الأذان والإقامة لربك وتفوض مقاليد أمرك إليه وتعترف بعجزك عما تصديت له فلعل الله يرحمك ويستجيب دعاك . . . . . فلما كان وقت الجمعة صليت إلىٰ جانبه في الأقصىٰ، وصلىٰ ركعتين ورأيته ساجداً ودموعه تتقاطر علىٰ مصلاه »[٣] ،

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣٧١، ٣٧٣، أبو شامة : الروضتين ج٢/ ١٩٢، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٧٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٣٧٥، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٧٤، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٤٧ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢٨٨ , ٢٨٩ .

وهكذا كان صلاح الدين مع اتخاذه للقوة والاستعداد وكونه في مقدمة جندة شجاعة وقتالاً، فقد كان يتضرع إلىٰ الله ليعلن عجزه وحاجته الدائمة إليه وإلىٰ نصر من عنده سبحانه، كما كان يكثر من الصدقات الخفية في مثل هذه الحالة، ولاشك أن العلماء الناصحين الذين كان يأنس بهم دائماً لهم دور كبير في توجيهه إلىٰ هذه الأمور.

وصل الصليبيون قرب بيت المقدس يتزعمهم رتشارد قلب الأسد بعد أن مات فيليب أغسطس ملك فرنسا[(١)]، وقد أقاموا بالقرب من اللد وتواصلت المفاوضات بينهم وبين صلاح الدين، حيث أحس ملك الأنجليز بصعوبة الاستيلاء علىٰ بيت المقدس، نظراً لشدة تحصيناتها، ولما رأىٰ ما عند المسلمين من تصميم علىٰ الدفاع، وقد ألح الانجليز علىٰ الصلح إلا أنهم اشتطوا بالشروط فلم يقبل منهم صلاح الدين ذلك، وقد ظهر ضعف الفرنجة وعلىٰ رأسهم الإنجليز فوجه صلاح الدين بعض قواته إلىٰ يافا لإعادة فتحها في رجب سنة ٥٨٨هـ ونجح في ذلك[(٢)]، وانسحب الإنجليز عن حصار القدس، واستمر صلاح الدين في القيام بأعمال عسكرية مختلفة ضد الصليبيين، فاضطر ملك الانجليز إلىٰ إعادة المفاوضات مع المسلمين، وبناء علىٰ ذلك عقدت مصالحة بين صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد عرفت بصلح الرملة

---

(١) انظر: ابن شداد: النوادر السلطانية ١٩١، ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٣٧٢،

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية ٢٤٤، ابن الأثير: الكامل ج١١/ ٨٤، ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٣٩٣.

وذلك في شعبان سنة ٥٨٨هـ [١]، ومدة المعاهدة ثلاث سنوات بقيت بموجبها القدس في يد المسلمين على أن يسمح للحجاج النصارى بزيارتها دون سلاح ويحميهم المسلمون أثناء الزيارة، وأن تتوقف الأعمال الحربية بين الطرفين، وأن تكون منطقة الساحل مناصفة بينهما، وأن يدخل المسلمون إلى البلاد التي بيد الصليبيين، والصليبيون كذلك، وتؤمن التجارة بين الطرفين ويسمح بحريتها، وقد فرح المقاتلون من الطرفين بهذه الهدنة، إذ أن الجميع قد أرهقوا من تواصل القتال على مدى الخمس سنوات السابقة منذ أن استعاد المسلمون بيت المقدس، ومن الجدير بالذكر أنه سادت علاقات سلمية بين ملك الانجليز وصلاح الدين أثناء القتال، فقد مرض ريتشارد قلب الأسد فأرسل له صلاح الدين الأطباء، كما أنه كان يحتاج إلى الثلج والفاكهة أثناء مرضه فكان صلاح الدين يبعث له ذلك مع أنه خصمه وعدوه مما أثار إعجاب الإفرنج [٢]. وبعد تلك الهدنة عاد صلاح الدين إلى بيت المقدس، وأخذ يرتب أمورها ويعتني بتحصينها، ورغم أن المسلمين كانوا في هدنة فإنهم ما كانوا يأمنون غدر الأعداء، ولذلك فهم يتخذون القوة المطلوبه ويحتاطون للأمور، وفي الوقت نفسه يفون ولايغدرون، كما قام صلاح الدين في هذه الزيارة بترتيب عدد من المدارس العلمية في القدس وأنشأ لها أوقافاً خاصة بها وعين لها

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ٨٥ ،ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٥٠ ،ابن شداد : النوادر السلطانية ٢٢٣ ،ابن واصل : مفرج الكروب ،ج٢/ ٤٠٣ ،المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٣٧ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٤٠٣ ، أبو شامة : الروضتين ج٢/ ١٩٣ ،ابن كثير : البداية والنهاية ج١٢/ ٣٥٠ ،وانظر : قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ٤١٢ .

العلماء[١] ، وقد غادر صلاح الدين بعد ذلك إلى دمشق وأقام فيها بضعة أشهر ثم توفي عليه رحمة الله فجر يوم الإربعاء ٢٧ صفر ٥٨٩هـ، بعد أن جاهد بنفسه ولنفسه طول سنوات حياته فكان في مقدمة المسلمين وضرب لهم مثالاً لاينسى على مر التاريخ واستحق ثناء المسلمين عليه والدعاء له جيلاً بعد جيل فهل لهذا الزمان من صلاح الدين جديد !! .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٤٠٧ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٧/ ٢٠٢ ، ابن الأثير : الكامل ج١١/ ٩٥ ، ابن شداد : النوادر السلطانية ٢٤٦ ، الذهبي : سير أعلام النبلاء ج٢١/ ٢٨٦ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٤٠ .

الجهاد بعد صلاح الدين

لاشك أن وفاة صلاح الدين الأيوبي عليه رحمة الله قد ولدت فراغاً كبيراً في القيادة الإسلامية، لكن صلاح الدين لم يكن وحده في الميدان، ولذلك فإن راية الجهاد ظلت مرفوعة من بعده، وإن بهت لونها وضعف حاملوها في بعض الأحيان .

وقد انقسمت البلاد بين ثلاثة من أبناء صلاح الدين كان أكبرهم (الأفضل) واستقل بدمشق وبعض المدن الساحلية، والثاني العزيز(عثمان) واحتفظ بمصر، وأما الثالث الظاهر (غازي) فقداحتفظ بحلب وأعمالها، كما احتفظ عمهم الملك (العادل) بالأردن وبلاد الجزيرة وديار بكر، وبالإضافة إلى هذه الأقسام فقد كانت هناك مناطق أخرى كثيرة اقتسمها الأمراء من أقارب صلاح الدين[١] ، وكان الأفضل هو السلطان رسمياً بوصية من صلاح الدين نفسه، ولكن كثرة النزاع بين أولاد صلاح الدين جعل الملك العادل عمهم، هو سيد الموقف والموجه لهم، يدعم ذلك ماعرف عنه من جهاد وتضحية في مشاركة صلاح الدين باستمرار في معاركه ضد الصليبيين، وقد انتهت تلك الخلافات سنة ٥٩٦هـ بسيطرة العادل على الحكم في مصر

---

(١) انظر إلى هذه الأقسام في : ابن واصل : مفرج الكروب ج٣/ ٣، ٤، وانظر : ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ٩٦ . المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٤٢ ـ ١٤٣ .

والشام بعد سنوات من التفرق (١) ، وقد كانت هناك بعض المناوشات مع الفرنجة ولكنها لم تكن كثيرة إذ أن المسلمين كانوا في هدنة معهم منذ أيام صلاح الدين (٢) ، وقد اشتد القتال مع الصليبيين بعد مرور عشر سنوات من صلح الرملة . وكان من أسباب ذلك أن الصليبيين في بلاد الشام قد بلغهم تحرك حملة صليبية رابعة بقيادة ملك ألمانيا كان هدفها الاستيلاء على الشام ، ولذلك تحرك صليبيو الشام مع بعض من وصل إليهم من أوربا ، وبدأوا المعارك مع المسلمين انتظاراً لوصول هذه الحملة التي لم تصل أبداً ، حيث غيرت وجهتها واستولت على القسطنطينية وعاشت في صراع مع الدولة البيزنطية ، ودارت معارك بين الصليبيين وبين الملك المنصور أمير حماة انتهت بانتصار المسلمين وأسر وقتل قوات كبيرة من الصليبيين . وكان ذلك في رمضان من سنة٥٩٩هـ (٣) ، ولما يئس صليبيو الشام اضطروا إلى المفاوضة مع المسلمين ، وتم عقد معاهدة جديدة بينهم في أوائل سنة ٦٠١هـ(٤) ، ورغم المعاهدة فقد وقعت العديد من المعارك بين المسلمين والصليبيين تحت قيادة الملك العادل .

---

(١) انظر : ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ١٠٩ ، ١٢١ ، ١٥٥ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٠٨ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٤٦ ، ١٤٩ .

(٢) انظر : ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ١٢٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب : ج٣/ ٧١ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب . ج٣/ ١٤٨ ، وانظر : . ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ١٩٠ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ١٩٦ .

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ١٦٢ ، المقريزي : السلوك ق١ج٢/ ١٩٧ ، ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ١٩٤ .

الحملة الصليبية (الخامسة) على مصر :

في سنة ٦١٤هـ جاءت الحملة الصليبية الخامسةعن طريق البحر إلى بلاد الشام [(١)]، وكانت قادمة من (ألمانيا) و(قبرص)و(هنغاريا) و(النمسا) و (ايطاليا) وسائر البلاد الأوربية، وكانت هذه الحملة بدعم البابا هنري الثالث، ورعايته ، كانت أولى محطات تلك الحملة هي (عكا) وهي المقر لملك بيت المقدس الرمزي «حنا دي برين » إذ أنها كانت لاتزال بيد المسلمين، وحينما تكاملت الحملة أخذت تناوش المسلمين في بعض المواقع الشامية، ولكن المخططين لها كانوا يعتزمون توجيهها إلى مصر، حيث كانت لديهم قناعة أنهم لن يتمكنوا من الاستيلاء على القدس مادام في مصر قوة إسلامية تدافع عنه، وتوجهت السفن الصليبية تحمل الأجناد والعتاد مستهدفة مصر التي كانت في تلك الفترة خاضعة للملك العادل ويديرها من قبله ابنه الكامل، ووصلت في شهر صفر من سنة ٦١٥هـ، وأخذ الصليبيون في حصار دمياط التي امتنعت عليهم لمدة تسعة أشهر، رغم تواصل الإمدادات إليهم من أوربا، ورغم استخدامهم لمختلف أنواع الأسلحة لتحطيم تحصينات المدينة من ناحية البر والبحر . وفي فترة الحصار توفي الملك العادل واستمر الكامل في المقاومة رغم ظهور بعض القلاقل في جيشه[(٢)] . وأخيراً تمكن الصليبيون بعد

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ٣٢٦ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٢/ ٢٥٤ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ٣٢٣ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ٣٥٠ ، ابن واصل : مفرج الكروب ج٣/ ٢٧٠ ، ج٤/ ١٥ . المقريزي : السلوك ق١ج١/ ٢٢٣ ، وانظر . المعاضيدي وزملاؤه : تاريخ الوطن العربي ٢٠٤ .

مضي تسعة أشهر من احتلال المدينة في رمضان سنة ٦١٦هـ، فأعملوا السيف في المدافعين عنها، وحولوا جامعها إلى كنيسة، وحطموا منبره وبعثوا قطعاً مختلفة منه هدايا رمزية إلى ملوك أوربا (١) وأخذوا يخربون في القرى المجاورة لها (٢)، وقد قام الملك الكامل بوقف تقدم الصليبيين إلى القاهرة وبنى على الفور مدينة المنصورة لتكون مقراً له ولجيوش مصر المرابطة لمقاومة الصليبيين، وأحس أمراء المسلمين في بلاد الشام وغيرها بخطورة استيلاء الصليبيين على مصر، وبادروا بإرسال النجدات والجيوش لمساعدة الملك الكامل. ووصل كثير من الأمراء للمشاركة في الجهاد بنفسه، كما كثر المتطوعون من مختلف البلاد الإسلامية، فكانوا في كثير من الأحيان أكثر نكاية بالعدو من الجيوش والفرسان النظامية (٣)، وقد أسهم ذلك في تقوية المسلمين والفت في عضد الفرنجة الصليبيين، وفي هذه الفترة قام والي دمشق بتحطيم تحصينات بيت المقدس خشية من استيلاء الصليبيين عليها والاستفادة منها، فحزن أهلها حزناً عظيماً ورحل عنها معظم سكانها (٤). واستمر

---

(١) ابن الأثير: الكامل ج١٢/ ٣٢٣، ابن واصل: مفرج الكروب ج٤/ ١٠٠، المقريزي ق١ج١/ ٢٣٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٨٠، ٨٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ج١٢/ ٣٢٦، ابن واصل: مفرج الكروب ج٤/ ٣٢، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٩٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل ج١٢/ ٣٢٧، انظر ابن واصل: مفرج الكروب ج٤/ ٩٢، ٩٥، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٩٥.

(٤) ابن واصل: مفرج الكروب ج٢/ ٣٢، وانظر: ابن الأثير: الكامل ج١٢/ ٣٢٩، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٩٥، انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ٢٤٩.

القتال بين المسلمين والصليبيين، وكان بعض المجاهدين المسلمين يقومون باختطاف بعض سفن الصليبيين من النيل أو إغراقها، كما تمكن الأسطول الإسلامي من الاستيلاء على عدد من سفن الأعداء المملوءة بالرجال والسلاح، مما قوىٰ من عزيمة المسلمين وفت في عضد الأعداء، حيث بدأوا يبعثون رسلهم للصلح مع المسلمين، وقد عرض عليهم الملك الصالح تسليمهم بيت المقدس وجميع الأماكن التي فتحها صلاح الدين علىٰ أن يعودوا ويتركوا مصر، ولكنهم تجبروا (١) وطلبوا زيادة في الحصون والمدن، وأصروا علىٰ أن يأخذوا من المسلمين ثلاثمائة ألف دينار مقابل تحصينات بيت المقدس حتىٰ يعيدوها مرة أخرىٰ، فامتنع الكامل من ذلك بتشجيع من بعض المجاهدين والقواد، وعملوا علىٰ التضييق علىٰ الصليبيين الذين بدأوا يزحفون إلىٰ الجنوب من مصر متوجهين إلىٰ القاهرة، وكان الزمان موسم ارتفاع نهر النيل، وتمكن بعض الفدائيين المسلمين من رصد العدو، حتىٰ إذا أصبحوا في منخفض معروف لدىٰ المسلمين عمل أولئك الفدائيون علىٰ تفجير بعض السدود وتوجيه بعض أفرع النيل إلىٰ معسكر الصليبيين، ففوجئوا بالمياه تحيط بهم من كل جانب، حيث لم يستطيعوا الحركة، فلا هم في البر ولا هم في الماء، حيث تحولت مواقعهم إلىٰ مستنقعات تمنعهم من الحركة، كما حالت المياه بينهم وبين الوصول إلىٰ معسكراتهم في دمياط، فأحس الصليبيون بالهزيمة وذلوا، وطلبوا من المسلمين أن يؤمنوهم للخروج من مصر دون أي

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ٢١٩ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٩٥، انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ص٢٤٨ .

شروط أخرىٰ، وقد تردد المسلمون في ذلك فبعضهم يرىٰ أن الله قد أمكن من الأعداء وأنهم لاأمان لهم وأنهم يجب أن يستسلموا دون قيد أو شرط، والبعض الآخر يخشىٰ أن تصلهم إمدادات أخرىٰ، أو حملات أوروبية جديدة تحاول فكاكهم وتنتقم لهم، ولذلك أمنهم المسلمون علىٰ أن يخرجوا من مصر واشترطوا عليهم تسليم عشرين من الرهائن من ملوكهم حتىٰ يضمن المسلمون انسحابهم، فسلمت عشرون رهينة من كبراء الكرادلة ومعهم ممثل البابا الشخصي في تلك الحملة، وملك عكا وبعض الكونتات والأمراء، كما سلم لهم أحد أبناء الكامل ليضمنوا رد رهائنهم بعد ذلك، فسلم الصليبيون دمياط إلىٰ المسلمين في التاسع عشر من رجب سنة ٦١٨هـ ورحل الفرنجة الصليبيون وأعيد الرهائن من الطرفين (١)، وسلمت مواقع المسلمين وعلىٰ رأسها القدس من الوقوع في يد الصليبين، وكان فشل هذه الحملة ضربة كبيرة وموجعة للجهود الصليبية (٢) ولكنها في الوقت نفسه أوجدت عند الملك الكامل نوعاً من الخوف من الصليبيين، فبدأ يغير من طريقته في التعامل معهم، وحاول أن يرتبط ببعض ملوكهم بعلاقات سلمية أثرت علىٰ تصرفاته معهم فيما بعد .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ٣٣٠، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٩٥، ابن واصل : مفرج الكروب ج٤/ ٩٦ ـ ٩٩، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ٢٤٤، ٢٤٥ .

(٢) انظر : أنتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٥٠، حيث عبر عن خيبة أملهم بقوله : «وانتهت الحملة الصليبية الخامسة بهزيمة مخزية وشائنة للصليبيين» .

الملك الكامل وتسليم بيت المقدس :

كان الصليبيون قد عقدوا معاهدة مع الكامل غادروا بموجبها الأراضي المصرية وتعهدوا فيها بعدم الهجوم على الأراضي الإسلامية، إلا أن صاحب المعاهدة نفسه «حنا دي بريين» الملك الرمزي لبيت المقدس رحل إلى أوربا ليستحث النصارى على حملة جديدة على الديار الإسلامية عرفت بالحملة الصليبية السادسة، تزعمها أمبراطور ألمانيا (فردريك الثاني) سنة ٦٢٥هـ الموافق ١٢٢٨م، وقد نشب خلاف بينه وبين البابا «أنوسنت الثالث»، قبل مغادرة الحملة، أصدر البابا بناءً عليه قرار حرمان في حق الإمبراطور، وذلك مما زاده حماسة للقيام بالحملة ليثبت فساد البابا وقراراته [١]، وقد كان هناك نوع من العلاقة الدبلوماسية بين فردريك الثاني والملك الكامل، حيث يحاول كل منهما الاستعانة بالآخر على خصومه المحليين، ويضاف لذلك أن الإمبراطور الألماني كان على اطلاع كامل على الإسلام وتعاليمه، وكان يحترمه احتراماً شديداً ويجيد اللغة العربية ويطلع على الثقافة المتصلة بها، ولذلك فقد كان محل احتقار الصليبيين[٢]، كما أن اطلاعه على الإسلام وأحوال المسلمين جعل لديه شيئاً من الاحتقار للكهنوتية النصرانية وطبقات رجال الدين المتصلة بها .

وصل فردريك بأساطيله إلى بلاد الشام، وتمكن من الاستيلاء على

(١) انظر : انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٥٢ .

(٢) انظر : انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٥٤ .

عكا وتحصينها (١) .

وبادر بإرسال الخطابات المرفقة بالهدايا إلى الكامل، وأظهر أنه يرغب تسلم بيت المقدس بسلام ودون إراقة دماء، وتذلل للكامل واستعطفه، وبين له أن هدفه من الحصول على بيت المقدس الطعن في قرار البابا حرمانه، وكان فردريك سياسياً لبقاً ومن جملة قوله: «لولا انكسار جاهي عند الفرنج لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك، ومالي غرض في القدس ولاغيره وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم»(٢)، ورغم أن الامبراطور فردريك ليس لديه قوة كبيرة ولايحظى بدعم كامل من البابا أومن أوربا ولايتوقع أن يمدوه بمزيد من المقاتلين فإن الملك الكامل لان له وتجاوب معه في الهدنه رغم تعنيف علماء المسلمين له، وعقد معه اتفاقية يتم بموجبها تسليم بعض فتوح صلاح الدين في الساحل وفي فلسطين إلى فردريك، كما أن الشرط الأهم أن يتم تسليمه بيت المقدس وطريق تربطها بالساحل (٣)، على أن يبقى بدون تحصينات ولاتجدد أسواره ولاقلاعه، وأن لايكون للفرنج شيء من المناطق المحيطة به، وأن يبقى المسلمون في بيت المقدس ولهم وال مقيم بجواره، وأن منطقة الحرم وتشمل الصخره والمسجد الأقصى تكون بأيدي المسلمين لايغير منها شيء،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤/ ٢٣٥، وانظر . انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ص٢٥٢، ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ٤٧٨ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤/ ٢٤٣ .

(٣) انظر : ابن الأثير : الكامل ج١٢/ ٤٨٢ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ١٢٣، ١٢٤، المقريزي : السلوك ق١ج٢٦٨١، انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٥٣ .

ولايدخلها أحد من الفرنج الصليبيين إلا للزيارة .

وقعت الهدنة وتخلى الكامل بموجبها عن القدس وسلمها (التسليم الأول) باسم السياسة وباسم العلاقات مع فردريك ودعمه ضد البابوية ، وباسم احترام فردريك للإسلام والمسلمين وحبه لعلومهم وحضارتهم ، وباسم الوقوف في وجه الأعداء الداخليين والتفرغ لهم إلى غير ذلك من الأعذار المشابهة لما يتحدث به سياسيو هذا العصر ، وعم المسلمين البكاء لتفريط الكامل ببيت المقدس التي استعادها صلاح الدين بالدم والسلاح . «ولما نودي في القدس بخروج المسلمين وتسليم القدس إلى الفرنج وقع في أهلها الضجيج والبكاء ، وعظم ذلك على المسلمين ، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم ، وأنكروا على الملك الكامل هذا الفعل ، واستشنعوه منه ، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين »[1] .

وبعد تسليم بيت المقدس أخذ العلماء يحركون العامة للضغط على أمرائهم لاستعادتها ، وكان لكثير منهم مجالس علمية ركزوا في بعضها على ذكر فضائل بيت المقدس ، وفضائل الجهاد [2] ، كما أن بعضهم عمد إلى إنشاد

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤/ ٢٤٣ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤/ ٢٤٦ ، ويصف المقريزي الحالة وشيئاً من جهد العلماء بقوله : « وبعث السلطان فنودي بالقدس بخروج المسلمين ، وتسليمه إلى الفرنج ، فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وحضر الأئمة والمؤذنون من القدس إلى مخيم الكامل ، وأذنوا على بابه في غير وقت الأذان ، فعز عليه ذلك » .

الشعر في هذه الحادثة والتشنيع على الكامل وتحريك العامة والخاصة للعمل على استعادة القدس، ومن ذلك ما كان يجري في جامع دمشق من تجمعات ودروس لتحريك الناس للضغط على الكامل، كما كانت تنشد فيه الأشعار لهذه الغاية، ومن ذلك قصيدة لأحد العلماء ومماقال فيها :

على قبة المعراج والصخـــرة التي   تفاخر مافي الأرض من صخرات

مدارس من آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحي مقفر العرصـــات[(١)]

وقد دخل فردريك بعد ذلك بيت المقدس ودارفيه يرافقه وفد من الملك الكامل، وقد أظهر هذا الملك الأوربي شيئاً من الاحترام للمسلمين في بداية الأمر، ولكن بقية الصليبيين على مايبدو لم يكونوا مقتنعين باستيلائهم بهذه الطريقة على بيت المقدس، حيث كانوا يريدون زوال المسلمين من المدينة بالكلية [(٢)]، وأن تكون منطقة عسكرية لامنطقة دينية فقط، وقد عاد الإمبراطور بعد ذلك إلى بلاده واستمر على علاقة طيبة بالكامل عن طريق المراسلة[(٣)]، بعد أن حقق لبني جلدته بالدهاء والسياسة مالم يحققه سالفوه بالقوة والسيف.

الصراع الأيوبي الأخير مع الصليبيين :

انشغلت أوربا بعد تسلمها لبيت المقدس بالعديد من مشاكلها الداخلية،

(١) المقريزي : السلوك ق١ج١/ ٢٧٢ .

(٢) انظر : . انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٥٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤/ ٢٤٦، انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٥٤ .

كما شغل العالم الإسلامي وخصوصاً في بلاد الشام بالخلافات الجانبية بين الأسرة الأيوبية قبل وبعد وفاة الملك الكامل سنة ٦٣٥هـ[(١)] . واستمرت المعاهدة التي وقعها الكامل مع الإمبراطور فردريك ومدتها عشر سنوات، وقبل نهايتها استعدت أوربا بحملة صليبية جديدة لتستولي على بيت المقدس هذه المرة بالقوة، فما أن علم أمراء الأيوبيين في منطقة الأردن بذلك حتى بادر الملك الناصر داود، ومعه جماعة من جند الملك الصالح نجم الدين أيوب، بالتوجه إلى القدس، وكان الصليبيون فيها قد تسلحوا واحتموا بقلعة هناك، وهذا بالطبع مخالف لشروطهم مع الملك الكامل، وفي سنة٦٣٧هـ نازل الملك الناصر تلك القلعة، وحاصرها ونصب عليها المنجنيق حتى سلمت إليه وأمن من فيها ورحلهم، ثم هدم تلك القلعة التي حصنها الفرنج، وقد فرح المسلمون جداً باستعادة بيت المقدس بعد أن ظلت في يد الصليبيين عشر سنوات منذ أن سلمهم إياها الملك الكامل[(٢)] ، وقد تجمع الصليبيون في نواحي غزة ولكن جموعاً من المسلمين يقودهم أحد أمراء الصالح أيوب لم تمهلهم حيث أوقعوا بهم وهزموهم[(٣)] .

وقد اشتد الخلاف بين أمراء الأيوبيين وخصوصاً بين الصالح إسماعيل

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥/ ١٥٣ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ١٤٩ ، المقريزي : السلوك ق١ج١/ ٢٩٧ . « للاطلاع على تفاصيل الخلافات ومادار حولها راجع : ابن واصل : مفرج الكروب ج٥ من ص ١٧١ حتى ص٢٠٥ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥/ ٢٤٦ ، أنتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٦٢ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥/ ٢٦٨ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦/ ٣٢٣، ٣٢٤ ، انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٦٢ ، انظر د. حامد غنيم أبو سعيد : الجبهة الإسلامية في عصر الحروب الصليبية ج٢/ ٢٦٧ .

حاكم دمشق والصالح أيوب حاكم مصر، وتفرقت القوات الإسلامية بينهما، ولم يتورع الصالح إسماعيل في مد يده للصليبيين والتحالف معهم ضد الصالح أيوب وبقية الأمراء المتعاونين معه، وبالطبع فإن للصليبيين مطالباً من أجل هذا التحالف، وكان على رأس مطالبهم تسليم بيت المقدس إليهم، إضافة إلى بعض المواقع العسكرية الهامة، وبالفعل قام الصالح إسماعيل سنة ٦٣٨هـ بتسليم الصليبيين (عسقلان) و(طبرية) ونصف (صيدا) إضافة إلى بيت المقدس، وقد أزعج هذا العمل المسلمين كثيراً فتكلم العلماء وشنعوا على الصالح إسماعيل هذا الأمر، وكان على رأس هؤلاء (العز بن عبد السلام) خطيب جامع دمشق الذي كان يتكلم علناً من على المنبر وبحضور الصالح إسماعيل عن تلك الجريمة مما أزعج الصالح إسماعيل كثيراً فسجنه ثم طلب منه مغادرة دمشق(١)، كما أن قواد بعض هذه الحصون رفضوا التسليم للصليبيين، فحضر الصالح إسماعيل بنفسه وحاصرها حتى سلمت له ثم قام بتسليمها إلى الصليبيين (٢)، وقد وجد الصالح إسماعيل معارضة قوية من قواته في الشام لتعاونه مع الصليبيين، مما دفع الكثير منهم إلى الانضمام إلى الصالح أيوب في مصر وترك دمشق، وقد أثر هذا بالتالي على موقف الصالح إسماعيل وحلفائه من الصليبيين الذين حاولوا التوجه إلى مصر في جيش مشترك لمحاربة الصالح أيوب، وقد كاتب الصالح أيوب أمراء الخوارزمية

---

(١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٥/ ١٨٩, ٣٠٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥/ ٣٠٢، ٣٣٢، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ١٥٥، وانظر : المعاضيدي وزملاؤه تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢١٤ .

الذين وصلوا إلى الشام في تلك الفترة نتيجة للضغط المغولي وطلب منهم المدد، واندفعت ألوف الفرسان من هؤلاء إلى فلسطين حيث استولوا في طريقهم على (القدس)و(نابلس) وقتلوا وطردوا من فيها من الصليبيين، ثم واصلوا المسير إلى بيت المقدس حيث استعادوه من أيدي الصليبيين سنة ٦٤٢هـ وطردوا من فيه وكانوا قرابة ستة آلاف أخذوا طريقهم إلى عكا وتخطفهم المسلمون ولم يصل منهم إلا قرابة ثلاثمائة[١] ، وقد واصل الخوارزمية بعد ذلك مسيرهم إلى غزة لنجدة الصالح أيوب ضد الصالح إسماعيل ومن معه من حلفائه الصليبيين، ووقعت معركة كبيرة سنة ٦٤٢هـ هزم فيها جيش الصالح إسماعيل ومن معه الفرنجة الذين وقع فيهم القتل والأسر وكان أكثر القتل في الفرنجة الصليبيين أما جند الشام المتعاونين مع الفرنجة فقد كثر فيهم الأسر «وأخذت سيوف المسلمين الفرنجة فأفنوهم قتلاً، وسبياً، ولم يفلت منهم إلا الشارد النادر »[٢] ، وقتل من الصليبيين في هذه المعركة قرابة ثلاثين ألفاً وأسر منهم مايزيد على الألف رُحلوا إلى مصر [٣] . وقد كانت المعركة قاسية بالنسبة للصليبيين حتى سماها بعضهم «حطين الثانية»[٤] .

كانت هذه المعركة درساً لاينسى للمتعاونين مع الصليبيين بأن الله

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب : ج٤/ ٣٣٦، المعاضيدي وزملاؤه : تاريخ الوطن العربي ٢١٤ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٥/ ٣٣٨ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهايةج١٣/ ١٦٤، ابن واصل : مفرج الكروب ج٥/ ٣٣٨ .

(٤) المعاضيدي وزملاؤه : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢١٥ .

خاذلهم هم وأعوانهم، كما أن كثيراً من جنود المسلمين رفضوا الاستمرار مع من سلم القدس للفرنجة الصليبيين، وبالتالي فإنهم في الوقت الذي زادت قوتهم بجند الفرنجة فإنهانقصت برحيل المخلصين من جند المسلمين .

وبهذه الأحداث عادت القدس للمرة الثانية إلى المسلمين بعد الاحتلال الصليبي الثالث والأخير، حيث لم يعودوا إليها مرة أخرى طوال العصور الإسلامية سوى أيام الاستعمار الذي جاء على أيدي الإنجليز بعد سقوط الدولة العثمانية، حيث سلمها الإنجليز وأشباههم لليهود بعد ذلك. وبعد تلك المعركة تمكنت القوات الإسلامية من تطهير بلاد الشام من المتعاونين مع الصليبيين، وطردتهم من المناطق التي يحكمونها، ثم حاولت الجيوش الشامية الاستيلاءعلى (عسقلان) وحاصرتها، ولكنها لم تتمكن من فتحها(١) ، وقد أعدت قوات الصالح أيوب المصرية محاولة أخرى لفتحها سنة ٦٤٥هـ وبعد حصار شديد نجحت في ذلك وتمكنت من تطهيرها من الصليبيين (٢) .

الحملة الصليبية السابعة والأخيرة :

كان لاستعادة المسلمين لبيت المقدس أيام الصالح أيوب صداها الكبير في أوربا، وبالتالي تحرك البابا (أنوست الرابع)، ودعا ملوك أوربا إلى الخروج في حملة صليبية جديدة. وقد أجاب هذه الدعوة الملك الفرنسي

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ج٤/ ٣٤٠ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤/ ٣٧٨، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ١٧٣ ، قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ٥٢١ .

(لويس التاسع)[١]، الذي كان من أكثر ملوك أوربا تحمساً للنصرانية في تلك الفترة، وأخذ يعد لهذه الحملة على مدى ثلاث سنوات فاجتمع له مايقرب من خمسين ألف مقاتل، على رأسهم العديد من الملوك والنبلاء وكبار رجالات أوربا السياسيين والدينيين والعسكريين، وقد علم المسلمون بأخبار هذه الحملة قبل تحركها سنة ٦٤٧هـ فاستعد المسلمون لها[٢] ، وقد أشرف الصالح أيوب بنفسه على الاستعداد لمواجهة هذا الاعتداء الجديد للصليبيين، رغم أنه كان يعاني من مرض شديد مات منه بعد ذلك أثناء الحملة [٣] ، وقد وصل الصليبيون إلى نواحي (دمياط) في صفر من هذه السنة(٦٤٧هـ)، فدارت خارجها معركة بينهم وبين حاميتها انتصر فيها الصليبيون، فانسحب من في دمياط من القوات قبل وصول الصليبيين إليها مما اضطر أهلها إلى مغادرتها فاستولى عليها الصليبيون دون عناء[٤] ، وحولوا مسجدها مرة أخرى إلى كنيسة، وقد قام الملك الفرنسي لويس التاسع بإرسال العديد من الكتب إلى الصالح أيوب يهدد فيها ويتوعد باستئصال المسلمين، مظهراً غطرسته ومعتمداً على قوته، فرد عليه الصالح أيوب بكتاب جعل نهايته

---

(١) قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ٥٢٢ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب ج٤/ ٢٧٤، المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ٢١٩، قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي الأيوبي ٥٢٣ .

(٣) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ٣١٩ ،ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ١٧٧، قدري قلعجي : صلاح الدين ٥٢٥ .

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ١٧٧، المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ٢١٩ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج٦/ ٣٦٢ ، انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٦٥ .

« . . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون »الآية . وقد رابط الصالح أيوب بنفسه في المنصورة بين القوات الإسلامية المدافعة رغم مرضه الشديد، وقد تحرك الصليبيون من دمياط باتجاه المنصورة، واتخذوا لهم طريقاً محصوراً بين المياه ليمنعوا المسلمين من الإغارة عليهم ولكنهم في الوقت نفسه فوجئوا بأنهم لايستطيعون العبور إلىٰ المسلمين، فقام بعض النصارىٰ المصريين من أهل المنطقة بإرشادهم إلىٰ مخاضة تمكنوا من العبور منها إلىٰ المسلمين، ودارت معركة كبرىٰ في المنصورة بعد أن دخلها الصليبيون يقودهم لويس التاسع وبعض القواد الإنجليز والفرنسيين، صبر فيها المسلمون وأبلىٰ المماليك بلاءً حسناً، وبرز فيهم (بيبرس البندقداري) الذي أصبح فيما بعد من أشهر سلاطين المماليك. وقد توفي الصالح أيوب أثناء المعركة، ولكن زوجته شجرة الدر أخفت الأمر حتىٰ لايَهِن المسلمون واستمر القتال ضارياً، وكان النصر فيه حليف المسلمين، حيث عملوا قتلاً وأسراً في الصليبيين، حتىٰ اضطر لويس التاسع إلىٰ الفرار باتجاه دمياط، ولكن المجاهدين المسلمين لحقوا به وتمكنوا من أسره، كما استولىٰ المسلمون علىٰ أسطول الصليبيين ودمروا بعضه، وأصبح ذلك المتغطرس أسيراً لدىٰ المسلمين (١) ، ومع ماسبق منه في حق الصالح أيوب وفي حق المسلمين، فقد أحسن إليه المسلمون في الأسر

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١/ ٢١٩ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٦/ ٣٦٥، العيني : عقد الجمان ١٩ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج٥/ ٢٣٩، قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ٥٤٧ ، انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٧٠ .

وعاملوه بكل كرم واحترام، ثم أطلقه المسلمون من الأسر على أن يتعهد الصليبيون بالانسحاب وترك ما بقي بأيديهم من مواقع، وأن لا يحاربوا المسلمين لمدة عشر سنوات(١) .

جهاد المماليك ضد الصليبين :

بعد وفاة الصالح أيوب بويع لابنه (توران شاه)، ولكنه كان صغير السن، وما لبث أن قتل في ظروف غامضة فأصبحت السيطرة في مصر للمماليك(٢) . وبذلك انتهى العصر الأيوبي، وبدأ مايعرف بعصر المماليك.

وقد عمل المماليك بالتدريج على سحب الإمارة الأيوبية من أمرائها في بلاد الشام، وكان من أبرز سلاطين المماليك في هذه الفترة (سيف الدين قطز)، و(الظاهر بيبرس)، وكان المسلمون قد ابتلوا قبيل تلك الأيام بالغزو المغولي على العالم الإسلامي الذي ابتدأ في الأطراف الشرقية منه في (مرو) وبلاد (ماوراء النهر)، وقام بمجازر بشرية وحشية لم يعرف لها مثيل في تاريخ الإنسانية، وبدأ يتجه غرباً، في بلاد فارس وأذربيجان، حتى اقترب في هذه المرحلة من العراق وبلاد الجزيرة وبدأ تهديده للخلافة الإسلامية في بغداد واضحاً، كما أن تهديده لبلاد الشام موطن الصراع الإسلامي الصليبي بات

---

(١) المعاضيدي وزملاؤه : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢١٩ .

(٢) انظر : ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ١٧٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٦/ ٣٦٨، ابن الوردي : تاريخه ج٢/ ٧٦٢ ، المقريزي : المواعظ والاعتبار ج٢/ ٢٣٦ ، العيني : عقد الجمان ٢٣، قدري قلعجي : صلاح الدين الايوبي ٥٥٠ .

قريباً، ولذلك فقد انشغل المسلمون بترقب أحداث ذلك الغزو البغيض [١] .

كان لبلاد الشام نصيبها من الغزو المغولي، وقد مارس الصليبيون دوراً في هذا الغزو، حيث اعتبروه يحقق أهدافهم على كل حال[٢] ، كما كان هناك تعاون بين الصليبيين في أوربا وفي بلاد الشام وبين المغول، حيث أن هناك تعاوناً بين ملك فرنسا (لويس التاسع) قائد الحملة الصليبية السابعة على مصر وبين قواد المغول الذين شجعوه في هجومه على مصر وتبودلت بينهم الرسائل حول هذا الأمر[٣] ، وقد أثمر هذا التعاون عن نوع من العمل المشترك ضد المسلمين، وقد لعب نصارى الأرمن دوراً كبيراً في هذا التعاون، حيث اشتركوا مع جيش هولاكو في مهاجمة بعض المواقع الإسلامية في الجزيرة ومنها « ميافارقين »، التي سقطت في أيدي القوات المغولية الأرمنية المشتركة، بعد حصار دام سنتين، فأعمل المغول في أهلها قتلاً وسلباً وفيها تخريباً، ومنها توجه المغول وحلفاؤهم الأرمن إلى ماردين وتمكنوا من احتلالها واحتلال نصيبين والعديد من القلاع والحصون في شمال شرق بلاد الشام سنة ٦٥٧هـ[٤] . وبعد ذلك ركزت قوات المغول على حلب، حيث

---

(١) انظر : د. فؤاد الصياد : المغول في التاريخ ٦١، إسماعيل الخالدي : العالم الإسلامي والغزو المغولي ٤٧ .

(٢) انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٦١، إسماعيل الخالدي : العالم الاسلامي والغزو المغولي ١٧٩ .

(٣) انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٦٤، ٢٧٨ .

(٤) انظر : إسماعيل الخالدي : العالم الإسلامي والغزو المغولي ٩٥ ـ ٩٨ .

استقبلهم نصاراها بكل ترحاب، وكان لهم دور في سقوط المدينة بأيدي المغول ومرافقيهم من نصارىٰ الأرمن، وقد أعمل المغول القتل في أهلها أكثر من ستة أيام وأسروا مايزيد عن مائة ألف مسلم من الأطفال والنساء بيعوا في أسواق الرقيق الصليبية في الشام وأوربا، وقد أساءوا إلىٰ مساجد المسلمين حيث قام (هيثوم) ملك نصارىٰ الأرمن بنفسه بحرق المسجد الجامع في حلب (١)، وكان لسقوطها أثر كبير في زيادة الرعب بين المسلمين في الشام مما دفع الألوف من الناس إلىٰ الهجرة إلىٰ مصر، ودفع العديد من الأمراء الأيوبيين إلىٰ الفرار بأنفسهم، مثل ماحدث لأمير دمشق الملك الناصر الأيوبي، واستسلم بعض الأمراء المسلمين الآخرين حتىٰ أصبح المسلمون لاشوكة لهم في بلاد الشام.

دخل المغول وحلفاؤهم من الصليبيين دمشق وتمكنوا من السيطرة عليها تماماً بعد سقوط قلعتها التي صمدت أربعين يوماً، وقد تعرض سكانها المسلمون للقتل والسلب ومختلف أنواع الأذىٰ علىٰ أيدي المغول وعلىٰ أيدي الصليبيين، بل وحتىٰ علىٰ أيدي نصارىٰ دمشق نفسها الذين كانوا يعيشون تحت رعاية المسلمين وحمايتهم، فلما سقطت المدينة في أيدي المغول أخذوا يتجولون في طرقاتها وهم يرتلون تراتيلهم الدينية النصرانية، وأخذوا يدقون نواقيسهم في طرقات دمشق إمعاناً في أذىٰ المسلمين. بل إنهم عمدوا إلىٰ شرب الخمور في نهار رمضان في مساجد المسلمين في دمشق وصبوه فيها،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧/ ٤٧.

كما قاموا بتحويل بعض مساجد المسلمين إلىٰ كنائس، بالاتفاق مع المغول، وأخذوا يمرون بالصلبان علىٰ المسلمين ويلزمونهم بالقيام لها وتعظيمها [١]، وهكذا أثبت الصليبيون في بلاد الشام بل ونصارىٰ العرب فيها تعاونهم مع الغزاة الهمج من المغول، الذين لاهمّ لهم سوىٰ سفك الدماء، وإفساد الأرض وتحطيم مظاهر الحياة الإنسانية، كل ذلك بدافع من الحقد الأعمىٰ الذي كانوا ولازالوا يكنونه ضد المسلمين، وكان هذا التعاون الصليبي المغولي جزءاً من الحرب الصليبية، ويذهب بعض المؤرخين إلىٰ أبعد من ذلك، إذ يرون أن الغزو المغولي لبلاد الشام كان بتخطيط وترتيب من الصليبيين وسفاراتهم إلىٰ بلاط المغول بهدف الاستفادة من قواتهم في احتلال القدس وطرد المسلمين منها[٢].

كان صليبيوا الساحل قد عقدوا هدنة مع المسلمين قبيل معركة (عين جالوت) [٣] والتزموا فيها بالوقوف علىٰ الحياد بين المسلمين والمغول حتىٰ حسم المعركة، وبعد موقعة عين جالوت صار هناك جهاد إسلامي مباشر ضد الصليبيين، قاده في هذه المرحلة الظاهر بيبرس، بعد وفاة سيف الدين قطز، حيث خاض خلال عشر سنوات من حكمه ابتداءً من سنة ٦٥٩هـ العديد من

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٢١٩، المقريزي: السلوك ج١/ ٤١٨، وانظر: المعاضيدي وزملاؤه: تاريخ الوطن العربي و الحروب الصليبية ٢٢٣.

(٢) انظر المعاضيدي وزملاؤه: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٢١، الصياد: المغول في التاريخ ٢٩٧، انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ٢٦١.

(٣) للحديث عنها موضع آخر من هذا الكتاب انظر ص ٣٤٢.

المعارك التي كانت موجهة لبقايا الصليبيين في الشام بعد أن انقطعت عنهم الحملات الصليبية الكبرىٰ من أوربا .

كان لموقعة عين جالوت أثر واضح في تحطيم معنويات نصارىٰ الشام من العرب والأرمن وبقيةالصليبيين الآخرين من الفرنجة الذين ربطوا أنفسهم في هذه المرحلة بالقوة المغولية، وبالتالي ضعفوا بضعفها بعد هزيمتهم (١) ، كما أن تلك المعركة جعلت مصر صاحبة القيادة الفريدة للعالم الإسلامي قاطبة، نظراً لأن الخلافة في بغداد قد سقطت علىٰ يد المغول بسقوط بغداد ومقتل آخر الخلفاء المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ(٢) . ولقد حاول الظاهر بيبرس توحيد الشام ومصر بالقضاء علىٰ بعض الأمراء المعارضين لحكمه، وتمكن من ضمان ولاء معظم بلاد الشام للحكم المملوكي في مصر الممثل بحكم السلطان الظاهر بيبرس، كما قضىٰ علىٰ بعض محاولات التمرد في مصر، وفي الوقت نفسه توجه الظاهر بيبرس إلىٰ إعداد القوات الإسلامية للمواجهات مع الصليبيين، حيث جمع الجند واهتم بتحصين القلاع في بلاد الشام وشحنها بالعتاد والرجال، وفي الوقت نفسه تحالف مع القوىٰ الإسلامية السلجوقية في الأناضول ضد الصليبيين وضد المغول، حيث كان علىٰ بيبرس مواجهة عدوين في وقت واحد في معظم الأحيان، كما أن الصليبيين العدو التقليدي للمسلمين، أصبحوا يستحقون وقفة خاصة وحازمةبعد أن تعاونوا مع المتوحشين من المغول .

---

(١) انظر : انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية٢٨٤ .

(٢) انظر : ابن كثير : البداية والنهايةج١٣/ ٢٠٠ .

كان الساحل الشامي لايزال مليئاً بالمواقع الصليبية والقلاع المتفاوتة الحجم والقوة، وما أن شاهد أولئك النصارىٰ انتصار المسلمين علىٰ المغول حتىٰ بدأوا يحسبون الحساب لتوجه الجهاد الإسلامي نحوهم، وأحسوا أنهم في هذه المرحلة سيكونون وحيدين في الميدان حيث أحس صليبيو أوربا باليأس من الانتصار علىٰ المسلمين منذ هزيمة الفرنجة في الحملة الصليبية السابعة، وأسر لويس التاسع ملك فرنسا، وبالتالي خف دعم أوربا للصليبيين إلىٰ حد ما، وقد بدأ الصليبيون مفاوضات مع المماليك لعقد هدنة معهم، فأصر الظاهر بيبرس علىٰ إطلاق جميع أسرىٰ المسلمين وعلىٰ تراجع الصليبيين عن المواقع التي سبق أن فتحها المسلمون أيام الناصر صلاح الدين، فرفضوا ذلك، ومع هذا فقد اتفقوا مع المسلمين علىٰ إطلاق الأسرىٰ فأطلق المسلمون من بأيديهم من أسرىٰ الصليبيين، ولكنهم بالمقابل غدروا ولم يطلقوا أسرىٰ المسلمين المتفق عليهم [١]، ولما جاءتهم الأخبار بجدية الظاهر بيبرس في قتالهم، وتوجهه إليهم جاءوا مرة أخرىٰ معلنين موافقتهم علىٰ الشروط التي طلبها الظاهر بيبرس سابقاً، ولكن بيبرس رفض الهدنة معلناً أنه قد فات الوقت وأنهم لم يفوا بإطلاق الأسرىٰ، وتحركت جموع المسلمين لقتال بعض حصونهم [٢]، وقد قام الظاهر بيبرس بحملات متكررة، وفي سنوات مختلفة علىٰ العديد من المراكز الصليبية في الشام، كان من أهمها حملته علىٰ (عكا)

---

(١) أنتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ٢٨٣.

(٢) المقريزي: السلوك ج١/ ٥٢٥، وانظر: انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ٢٨٣.

وماجاورها من الحصون سنة ٦٦١هـ ١٢٦٣م[١]، كما هاجم (قيسارية) وتمكن من فتحها، وكانت تلك الهجمات تأديبية وفتحت العديد من المواقع الهامة، ولكنها لم تنجح في طرد الصليبيين من عكا، وهي من أهم مراكزهم في تلك الناحية، كما قام الصليبيون في المقابل بالهجوم على بعض المواقع الإسلامية، ومنها بيسان وتمكنوا من القتل والإفساد وغنموا غنائم كثيرة ساعدتهم على الصمود في بعض المواقع[٢] .

وقد أعاد الظاهر بيبرس الهجوم مرة أخرى على صليبيي الساحل الشامي سنة ٦٦٣هـ ـ١٢٦٥م وركز في هذه المرة على محاولة تطهير بعض المواقع والحصون منهم وتمكن المسلمون خلال هذه الحملة من استعادة قيسارية مرة أخرى بعد معارك قوية[٣] . وما أن علم الصليبيون في يافا بتقدم المسلمين نحوهم حتى فروا وتركوا مدينتهم وبذلك تمكن المسلمون من تحريرها، وقدحاول الظاهر بيبرس الاستيلاء على عكا وعمل على حصارها، إلا أن وصول الإمدادات إليها من قبرص ساعدها على الصمود في وجه المسلمين وبالتالي اضطر بيبرس لرفع الحصار عنها إلى السنة المقبلة نظراً لدخول فصل الشتاء[٤] .

---

(١) العيني : عقد الجمان ٣٥٦ .

(٢) انظر : المعاضيدي وزملاؤه: تاريخ الوطن العربي والحروب الصليبية ٢٣٤، انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٨٥ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٢٤٤، ابن الوردي : تاريخه ج٢/ ٣١٠ ، العيني : عقد الجمان ٣٩٦ .

(٤) المعاضيدي وزملاؤه : تاريخ الوطن العربي والغزوالصليبي٢٣٤ ، انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٨٤ .

كان الملك الأرمني هيثوم من أكثر الصليبيين تعاوناً مع المغول حيث اشترك شخصياً بقواته في صفوفهم الأولى المهاجمة لبلاد الشام كما شارك في مجازرالمسلمين في حلب وفي تخريبها، ولذلك فقد جرد الظاهر بيبرس حملة خاصة لتأديبه توجهت سنة ٦٦٢هـ الموافق ١٢٦٦م إلى أرمينيا يقودها الناصر(قلاوون)، وقد وقعت معركة بين المسلمين والأرمن كان من نتائجها هزيمة الأرمن، ومقتل أحد أبناء الملك هيثوم وأسر ابن آخرله، بالإضافة إلى قرابة أربعين ألف أسير آخر، كما تمكن المسلمون من الاستيلاء على العديد من الحصون الأرمينية بالإضافة إلى عدد آخر من الحصون تنازل عنها هيثوم ملك الأرمن مقابل فكاك أسر ابنه، وبذلك تم تحجيم قوة أرمينيا [1]، وتأديبها على ماقامت به من تعاون مع الغزاة المغول الذين لم يستطيعوا مساعدتها ضد هجوم المماليك المسلمين.

وقد دفعت انتصارات المماليك المستمرة في بلاد الشام وفي أرمينيا إلى أن يخضع بعض أمراء الصليبيين ويستجيبوا لجميع مطالب المسلمين مقابل هدنة محددة بزمن معين، ومن هؤلاء ملكة بيروت إيزابيلا[2] . ومن أهم حملات الظاهر بيبرس الجهادية ضد الصليبيين حملته على (أنطاكية) في رمضان سنة ٦٦٦هـ ١٢٦٨م حيث هاجمها المسلمون من البر والبحر ومنعوا عنها الإمدادات، وأنذروا أهلها ثلاثة أيام، ثم شددوا عليها الحصار براً وبحراً

---

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧/ ١٤١، العيني : عقد الجمان ٣٨٤، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٢٥١، المعاضيدي وزملاؤه: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣٥ .

(٢) المعاضيدي وزملاؤه: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣٥ .

حتى يئس المدافعون عنها، ثم تسلق المسلمون عليهم الأسوار، وقاتلوا أهلها قتالاً شديداً وانتصر المسلمون، وتمكنوا من طرد الصليبيين واستعادتها من أيديهم (١) بعد احتلال قرب من مائتي سنة، وكان تحرير إمارة أنطاكية ضربة موجعة للصليبيين حيث كانت ثاني أقدم الإمارات الصليبية التي أسست في الحملة الصليبية الأولى. كما استعاد المسلمون تبعاً لذلك العديد من القلاع الصليبية التي كانت تهدد حلب وغيرها من حواضر الشام الإسلامية، وباستعادة المسلمين لأنطاكية وما جاورها، انقطع الطريق البري بين ما تبقى من مراكز الصليبيين في الشام وبين أرمينيا والدولة البيزنطية، وساعد ذلك على ضعف تلك المراكز المتبقية وعلى رأسها طرابلس وعكا.

وقد سبب تحرير أنطاكية نوعاً من التضامن بين بقية الإمارات الصليبية في الشام، وخصوصاً عكا وطرابلس وهما أهم ماتبقى من الإمارات الصليبية. كما دخلت قبرص في هذا التعاون بهدف تشكيل جبهة صليبية موحدة للوقوف في وجه الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين، وقد وصلت بعض الحملات العسكرية من أوربا الغربية وخصوصاً من فرنسا بهدف المساعدة في صد الهجمات الإسلامية، لكنها لم توفق في تحقيق أي من أهدافها وخصوصاً حملة الملك الفرنسي لويس التاسع التي عادت أدراجها مرة أخرى من تونس قبل وصولها إلى سواحل بلاد الشام (٢).

---

(١) المقريزي: السلوك ج١ق٢/ ٥٦٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٢٥١.

(٢) المعاضيدي وزملاؤه: تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٣٦، انتوني بردج: تاريخ الحروب الصليبية ٢٨٥.

وقد قام الظاهر بيبرس سنة ٦٦٩هـ ١٢٧٠م بمهاجمة (طرابلس) وتمكن من الاستيلاء على العديد من الحصون التابعة لها، ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على عكا نفسها، وقد اضطر لعقد معاهدة مع ملكها (بوهمند السادس) كما عقد الظاهر بيبرس صلحاً مع ملك صقلية، الذي لم يف بالمعاهدة وتعرض لبعض رسل بيبرس بالأذى، فحاول المسلمون الهجوم على قبرص بالأسطول البحري ولكنهم لم ينجحوا في ذلك [١]، وقد قام الظاهر بيبرس مع وجود المعاهدات بإعداد القوة وبناء السفن لتعويض ما خسره في هجومه على قبرص، وفي الوقت نفسه كان يغير على مواقع الصليبيين الساحلية التي لم تدخل في صلح مع المسلمين [٢].

توفي الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦هـ [٣] بعد أن نجح في تحجيم الوجود الصليبي في الشام وحصره في بعض المواقع الساحلية، كما أضعفت هجماته المتكررة من قواتهم في الشام، وبالتالي أصبحوا مهددين بالزوال تماماً من خارطة الشام وهذا ماقام به المماليك بعد وفاة بيبرس.

القضاء على آخر معاقل الصليبيين:

كان الصراع الإسلامي الصليبي قد دخل مراحله الأخيرة لما عرف

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٢٥٩، ابن الوردي: تاريخه ٣١٤.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٢٦١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج٣/ ٢٧٤، ابن الوردي: تاريخه ٣٢١، ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧/ ٢٧٨.

بالحروب الصليبية في عصر الظاهر بيبرس ثم في عصر السلطان (الناصر قلاوون) الذي تولى بعد فترة قصيرة من وفاة بيبرس، كانت أوائل أعمال قلاوون موجهة إلى توحيد الصف الإسلامي في مصر والشام، والقضاء على محاولات الانفصال من قبل بعض الأمراء، وفي الوقت نفسه سعى إلى الاستمرار في سياسة بيبرس لترتيب القوات الإسلامية وتجهيزها، مما دفع بقايا الصليبيين إلى محاولة عقد معاهدات مع قلاوون، كانت تنم بالدرجة الأولى عن ضعف الصليبيين، حيث كانوا يقبلون أن يقيم بينهم ممثل للسلطان قلاوون يتولى أخذ نصف خراج أراضيهم، كما سعى قلاوون في الوقت نفسه إلى قطع الإمدادت من أوربا عن الصليبيين في الشام عن طريق عقد المعاهدات مع ملوك أوربا المعاصرين له . مما أضعف حماسهم لمساندة صليبيي الشام(١) .

وقد أعد السلطان قلاوون سنة ٦٨٨هـ حملة كبرى لمجاهدة الصليبيين في طرابلس، وهي مكونة من جند مصر وجند الشام وفيهم عدد كبير من العلماء والقضاة والمتطوعة(٢) ، وقد تمكن المسلمون من محاصرة طرابلس من البر والبحر وضربوها بتسعة عشر منجنيقاً، وقد حاولت بعض السفن القبرصية مساندة المحاصرين ولكنها فشلت في ذلك (٣) ، واستمر الحصار ما يزيد على الشهر تمكن المسلمون في نهايته من اقتحام طرابلس ودخولها عنوة

---

(١) المعاضيدي وزملاؤه : تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ٢٤٠، انتوني بردج : تاريخ الحروب الصليبية ٢٨٧ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٣١٢، ابن الوردي : تاريخه٣٣٦ .

(٣) المقريزي : السلوك ق٣ج١/ ٧٤٧ .

وفرض سيطرتهم عليها، وقد وقع كثير من أهلها قتلى أو أسرى بأيدي المسلمين، كما قام قلاوون بتحطيم تحصيناتها وتخريب قلاعها وأسوارها خوفاً من عودة الصليبيين إليها مرة أخرى. ويعد فتح طرابلس سنة ٦٨٨هـ واستعادتها من الصليبيين من أهم أعمال السلطان قلاوون، حيث دام احتلال النصارى لها مايزيد على ١٨٠ سنة، وقد بادر قلاوون بعد الاستيلاء على طرابلس بفتح بعض المواقع المهمة في ساحل لبنان ومنها جبلة وبيروت وماحولها من الحصون[1] .

وقبل وفاة السلطان قلاوون سنة ٦٨٩هـ [2] كانت معظم بلاد الشام قد تطهرت من الصليبيين ولم يبق من معاقلهم الرئيسة سوى (عكا) وقد تولى الأمر من بعده ابنه الأشرف (خليل)[3] ، الذي حطم في أيامه آخر قلاع الصليبيين، وكانت جهوده مركزة بالدرجة الأولى على إمارة عكا التي أصبحت أكبر معاقل الصليبيين في أيامه .

كانت عكا ترتبط مع المسلمين بمعاهدة منذ أيام السلطان بيبرس، لكنها حينما أحست بالخطر بعد فتح المسلمين لطرابلس استنجدت بأوربا، فأخذت تصل إليها الإمدادات من مختلف أنحاء أوربا، في محاولة مستميتة للصمود في وجه المسلمين، ولم يراع الأوربيون الجدد للمسلمين حرمة، وتساهلوا

---

(١) المقريزي : السلوك ق٣ج١/ ٧٤٨ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٧/ ٣٧٨ ، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٣١٢، ابن الوردي : تاريخه ٣٣٤ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٣١٧ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٢١٦ ، ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٨/ ٣ .

بمعاهداتهم معهم، فقتلوا من في عكا من تجار المسلمين(١)، وهاجموا القرىٰ الإسلامية القريبة من عكا، فقتلوا الكثير من أهلها وأفسدوا في الأرض، فأخذ السلطان خليل يعد العدة للهجوم علىٰ عكا. ولما أحس أهل عكا بذلك حاولوا الاعتذار من المسلمين، ولكن السلطان لم يقبل عذرهم(٢)، وأخذ يعد العدة ويجيش الجيوش في الشام استعداداً للهجوم علىٰ عكا، وفي الوقت نفسه جمع السلطان العلماء والفقهاء في القاهرة وطلب من الناس الدعاء بنصر المسلمين، وأخرج الكثير من الصدقات علىٰ الفقراء والمحتاجين(٣) قبل توجهه إلىٰ الشام، ثم وصل السلطان وعسكر قرب عكا ووصلت آلات الحصار المعدة من مختلف بلاد الشام، وبلغت المنجنيقات الإسلامية في ذلك الحصار اثنين وتسعين منجنيقاً(٤)، في الوقت الذي استمر فيه تدفق الإمدادات من أوربا علىٰ عكا في محاولة لإنقاذها، وقد اشتد الحصار علىٰ نصارىٰ عكا رغم استبسالهم في الدفاع عن مدينتهم، وحرص السلطان علىٰ أن يشرف بنفسه علىٰ القتال في عدة أيام. فلما كان اليوم السابع عشر من ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ تمكن المسلمون من الاستيلاء علىٰ عكا بعد حصار استمر أربعين يوماً، وأسروا وقتلوا من فيها من الصليبيين، وهرب الناجون منهم في البحر

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٣٢٠، ابن تغرىٰ بردىٰ : النجوم الزاهرة ج٨/ ٧.
(٢) المقريزي : السلوك ق٣ج١/ ٧٦٢، ابن تغرىٰ بردىٰ : النجوم الزاهرة ج٨/ ٧.
(٣) المقريزي : السلوك ق٣ج١/ ٧٦٤، ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٣٢٠.
(٤) المقريزي : السلوك ق٣ج١/ ٧٦٤.

متوجهين إلىٰ أوربا وغرق منهم خلق كثير في البحر(١) ، وبعد فتح المسلمين لعكا أخذوا يطهرون المواقع الصليبية الأخرىٰ في الشام فتمكنوا من (صور) و(حيفا) و(عثليث)، وعمل المسلمون في الوقت نفسه علىٰ تحطيم الحصون والأسوار في عكا وغيرها من المواقع التي استردوها خوفاً من عودة الفرنجة إليها عن طريق البحر وتحصنهم بها(٢) ، ولم يمض شهران من سقوط عكا حتىٰ كانت الشام كاملة قد تطهرت من أرجاس الصليبيين الفرنجة ولم يبق منهم أحد، وتم طردهم نهائياً من الشام وبلاد الإسلام(٣) ، وقد قال عددمن الشعراء أبياتاً في ذلك ومنها:

الحمدلله زالت دولة الصلب وعز بالترك دين المصطفىٰ العربي

هذاالذي كانت الآمال لوطلبت رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب

مابعد عكا وقدهدت قواعدها في البحر للترك عند البر من أرب

لم يبق من بعدهاللكفر إذخربت في البحروالبرماينجي من الهرب

إلىٰ آخر القصيدة(٤) .

(١) انظر: ابن تغرىٰ بردىٰ: النجوم الزاهرة ج٨/ ٨، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٣٢٠، ابن الوردي: تاريخه٣٣٦، قدري قلعجي: صلاح الدين الأيوبي ٧٨٨، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٣٢١، ابن الوردي: تاريخه ٣٣٧، ابن تغرىٰ بردىٰ: النجوم الزاهرة ج٨/ ١١ .

(٢) المقريزي: السلوك ق٣ج١/ ٧٦٤ ـ ٧٦٦، ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٣٢١، قدري قلعجي: صلاح الدين ٦٠٤ .

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٣٢١، ابن الوردي: تاريخه ٣٣٧، ابن تغرىٰ بردىٰ: النجوم الزاهرة ج٨/ ١١ .

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٣٢٣ .

الفصل السادس

الغزو المغولي للعالم الإسلامي

الغزو المغولي للعالم الإسلامي

ابتلي العالم الإسلامي في الربع الثاني من القرن السابع الهجري بهجمة شرسة لمجموعة من القبائل المغولية المشركة، التي كانت تدين بـ(الشامانية) وتركز على عبادة المظاهر الكونية، وقد قامت فيها حركة سياسية قوية تزعمها جنكيز خان، ووضع لهم قوانين وأنظمة تسير حياتهاعرفت بالألياسا.

كان الوضع في العالم الإسلامي قبل الغزو المغولي في حالة ضعف عامة، نتيجة الانقسامات ووجود القواد والزعماء الذين اهتموا بأنانية بالغة بمصالحهم الشخصية، وقدموها على مصالح المسلمين العامة، حيث ساد بين كثيرمنهم الترف وحب الشهوة واللهو وضعف الأخلاق وفقدان الشجاعة، كما كثرت البدع بين الناس وضعفت أخلاقهم ومعنوياتهم [(١)].

وقد كانت هناك عدة قوى سياسة إسلامية في المشرق كان لها مواجهات مع المغول، ومن تلك القوى الدولة (الخوارزمية) التي كانت تسيطر على مناطق فارس وخراسان في مناطق ما يعرف بـ(إيران) - حالياً - كما كانت هناك الدولة (الغورية) وتقع إلى الجنوب من الخوارزميين في مناطق أفغانستان وبلاد السند وما جاورها، كما وجدت طائفة الإسماعيلية الباطنية وكانت تسيطر على المناطق الواقعة جنوب بحر قزوين، يضاف إلى ذلك أمراء السلاجقة الذين يسيطرون على المناطق المحيطة ببحر قزوين والأناضول وبعض المناطق المجاورة لها من الجزيرة وشمال الشام، كما وجد بعض الأمراء الأيوبيين الذين

---

(١) انظر: إسماعيل عبدالعزيز الخالدي: العالم الإسلامي والغزو المغولي ٤٣.

يحكمون في الحواضر والقلاع الشامية، ويضاف إلىٰ كل هؤلاء الخلافة العباسية في بغداد، التي كان لها سلطة رمزية علىٰ الكثير من هذه الدول التي ذكرنا، وكانت تعاني من ضعف شديد، وتحتضر في آخر أيامها.

كما كانت المذاهب الباطنية تنتشر في العديد من بلاد العالم الإسلامي ولها تأثيرها علىٰ الأحداث في العراق وبلاد الشام وفي مناطق الإسماعيلية جنوب بحر قزوين وفي مناطق كثيرة أخرىٰ .

تحركت تلك الجموع من مواطنها الأصلية في هضبة منغوليا وماجاورها في وسط آسيا مشكلة موجات عسكرية شرسة متجهة إلىٰ الغرب محطمة كل مظاهر الحياة في البلاد الإسلامية الواقعة في طريقها، وكانت أولىٰ مصادماتها مع الدولة الخوارزمية في بلاد ما وراء النهر التي كان يقودها محمد خوارزم شاه، وقد صاحب تلك الهجمات من المغول عنف لم يعرف له أهل تلك المناطق من قبل مثيلاً مما أدخل الرعب في قلوب الناس في مختلف أنحاء العالم الإسلامي، حيث أعمل المغول المذابح الوحشية في مدن (بُخارىٰ) و(جَند) و(سمرقند)و(نساء)و(ترمذ)و(بلخ) وغيرها، وقد وصف بعض المؤرخين ماجرىٰ لأهل بخارىٰ عند سقوطها في يد المغول قائلاً : «ودخل الكفار البلد فنهبوا وقتلوا من وجدوا فيه . . . . . . وأحاط بالمسلمين فأمر أصحابه أن يقتسموهم فاقتسموهم، وكان يوماً عظيماً من كثرة البكاء من الرجال والنساء والولدان وتفرقوا أيدي سبأ، وتمزقوا كل ممزق، واقتسموا النساء أيضاً، وأصبحت بخارىٰ خاوية علىٰ عروشها كأن لم تغن بالأمس، وارتكبوا من النساء العظيم، والناس ينظرون ويبكون، ولايستطيعون أن

يدفعوا شيئاً مما نزل بهم، فمنهم من لم يرض بذلك واختار الموت على ذلك فقاتل حتى قتل . . . . ومن استسلم أخذ أسيراً، وألقوا النارفي المدارس، والمساجد، وعذبوا الناس بأنواع العذاب »[1] . كما وصف مؤرخون آخرون الذلة التي أصابت المسلمين فكانوا يجمعون جموعاً كبيرة في مكان فسيح ثم يكتف بعضهم بعضاً حتى إذا انتهوا من ذلك مر عليهم الذباحون من المغول فذبحوهم ذبح النعاج دون مقاومة تذكر من المذبوحين[2]، وعملوا مجازر أخرى في مرو وهراة وغيرها .

وقد تولى على الدولة الخوارزمية في مراحل الغزو الأولى (جلال الدين منكبرتي) واستطاع أن يجمع جيوشاً كبيرة التقى فيها بالمغول في أكثر من موقعة وانتصر عليهم في بعضها، ومع ذلك فقد كانت نهاية تلك المعارك القضاء على الدولة الخوارزمية وفرار جلال الدين من الساحة، وقد سرت أخبار قوة المغول ووحشيتهم إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي، مما أوقع الرعب في صفوف القوى الأخرى القريبة من مناطق المغول، وجعل بعض منهم يهادن المغول بل ويبعث أحياناً بالأجناد من قبله لمشاركتهم في حرب المواقع الأخرى اتقاءً لشرهم وعلى حساب إخوانهم المسلمين، كما أن تأخر الدولة العباسية في اتخاذ الأسباب لوقف زحف المغول كان له دور كبير فيما حدث، حتى أن هولاكو حينما احتل بغداد ذكر الخليفة المستعصم بما كان يجب أن يفعله في هذه المرحلة، حيث شاهد هولاكو الأموال الكثيرة في

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج٩/ ٣٣٢ .

(٢) انظر : إسماعيل الخالدي : العالم الإسلامي والغزو المغولي ٨١ .

خزينة الخليفة بعد أسره فقدم هولاكو للخليفة طبقاً مملوءاً بالذهب وطلب منه أن يأكله، فقال المستعصم : كيف آكل الذهب ؟ فقال هولاكو : إذا كنت تعرف أن الذهب لايؤكل فلماذا حفظته، ولم توزعه على جندك حتى يصونوا ملكك من هجمات جيشنا، ولم لم تحول تلك الأبواب الحديدية إلى سهام وتسرع إلى شاطئ نهر جيحون لتحول دون عبوري؟ فقال الخليفة : هكذا كان تقدير [١] . وإذا كان الخليفة قد فسر عجزه وتقاعسه عن الواجب بتقدير الله فإن ما أصابه أيضاً هو تقدير الله ولاحول ولاقوة إلا بالله .

سقوط بغداد والخلافة العباسية :

لقد سبق وصول المغول إلى العراق اقتحامهم لجميع الأقاليم الشرقية للخلافة العباسية تدريجياً، ولم يتحرك الخليفة لمقاومة المغول بل كان يضيع الوقت فيما لافائدة فيه، وكان يعتمد في تسيير أمره على وزير رافضي هو مؤيد الدين بن العلقمي الذي كان يتصل سراً بزعيم المغول هولاكو ويراسله، وقد عمل هذا الوزير على إضعاف جيش الخلافة العباسية حيث خفض عدد الجيش ربما باتفاق مع هولاكو، وسير بعض الأموال إلى هولاكو لمصانعته، وقد بعث هولاكو سنة ٦٥٣هـ رسالة إلى الخليفة العباسي المستعصم يطلب منه أن يمده بالجند لقتال قلاع الإسماعيلية في (آلموت) وما جاورها فامتنع الخليفة عن ذلك، وفي سنة ٦٥٥ بعث هولاكو برسالة أخرى إلى الخليفة العباسي يهدد ويتوعد ويطلب أن تكون له هيمنة على الخلافة كما كان ذلك

---

(١) د. الصياد : المغول في التاريخ ٢٦٧ .

للسلاجقة وغيرهم قبل ذلك، فرفض الخليفة طلبه وبادله التهديد بتهديد آخر مماثل، فرد هولاكو بتهديد أقوىٰ من الأول، ثم استشار الخليفة وزيره ابن العلقمي فأشارعليه بتخفيض الجيش وبعث مايتوفرمن المصروفات جزية لهولاكو. ويذكر المؤرخون حادثة أخرىٰ في هذه الفترة تدل علىٰ فارق الاهتمام بين المغول والخلافة العباسية، حيث كان بدر الدين لؤلؤصاحب الموصل قد أقام علاقة قوية مع هولاكو اتقاء لشره، وفي الوقت نفسه كان لايزال علىٰ علاقته بالخلافة العباسية، فوصلت إليه في وقت واحد رسل من هولاكو يطلبون منه إمدادهم بالأسلحة والمنجنيقات، ومايلزم فتح الأسوار استعداداً للهجوم علىٰ بغداد، كما وصلت رسل الخليفة في الوقت نفسه يطلبون مغنية عند صاحب الموصل قد ذكرت بجمال الصوت، فقال صاحب الموصل: انظروا إلىٰ هذين الرسولين وابكوا علىٰ الإسلام وأهله.

وصلت جيوش المغول إلىٰ بغداد وأحاطت بها من الناحية الغربية والشرقية، كان المدافعون عن بغداد لايتجاوزون عشرة آلاف مقاتل في وقت وصل فيه سكان بغداد إلىٰ أكثر من مليون نسمة، ولاشك أنه بالإمكان ترتيب عدد أكبر للدفاع عن بغداد لو جد حكامها في ذلك الأمر، كما أن أهلها يتحملون جزءاً من المسؤولية لكنهم تهاونوا جميعاً في هذا الأمر، ويصور أحد المؤرخين حالة الموجودين من الجند فيقول: «وجيوش بغداد في غاية القلة ونهاية الذلة ولايبلغون عشرة آلاف فارس، وهم بقية الجيش، كلهم قدصرفوا عن إقطاعاتهم، حتىٰ استعطىٰ كثير منهم في الأسواق وأبواب المساجد. وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم، ويرثون علىٰ الإسلام

وأهله، وذلك كله عن آراء الوزير ابن العلقمي الرافضي»(١) . وقد كانت حالة الموجودين من الجيش من الناحية الظاهرية جيدة لكنهم منهزمون معنو يا رغم كل، ذلك ويصف أحد الفرسان المسلمين الفرق بين مظهر الفارس المغولي والفارس المسلم ونتيجته حيث يقول : «كان الفارس منا يخرج إلى المبارزة وتحته فرس عربي وعليه سلاح تام كأنه الجبل العظيم، ثم يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار وفي يده رمح كأنه المغزل، وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من رآه، ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الكرة فكسرونا كسرة عظيمة، كانت مفتاح الشر، ثم كان من الأمر ماكان »(٢) ، وفي أثناء الحصار خرج مؤيد الدين بن العلقمي الوزير الرافضي بأولاده وخدمه وأتباعه لمقابلة هولاكو حيث كُرم وعُزز وكان على اتصال بهولاكو قبل وصوله لبغداد، وقد عاد ابن العلقمي إلى بغداد بأمر هولاكو حيث أشار على الخليفة بالاستسلام دون قيد أوشرط، وبالفعل خرج الخليفة في ٤ صفر ٦٥٦هـ ومعه مايقارب السبعمائة رجل من خواصه وخدمه ومن الأمراء والقضاة والعلماء، فما أن وصلوا إلى مخيم هولاكو حتى أخذت الإهانات تنصب عليهم، وحجز الخليفة وسبعة عشر من الكبراء لملاقاة هولاكو أما بقية السبعمائة فقد قتلوا ونهبوا عن آخرهم(٣) ، ثم إن هولاكو قابل الخليفة واستفسر منه عن الأموال والكنوز، وبعث معه الوزير ابن العلقمي والرافضي (نصير الدين

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٢٠٠، ٢٠١ .

(٢) ابن طباطبا : الآداب السلطانية ٦٩ .

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٢٠٣ .

الطوسي) ليستلما منه بعض تلك الكنوز ويتحفظا عليها، فأحضر الخليفة من داره شيئاً كثيراً من الذهب والمجوهرات وخبأ أشياء أخرىٰ، وقد ذكر أن هولاكو اصطحب الخليفة إلىٰ داره فقال له: أنت المضيف ونحن الضيوف، وكان الخليفة يرتعد فكسرت أقفال الخزائن وأخرجت منها آلاف الدنانير وأنفس المجوهرات فلم يهتم لها هولاكو ووزعها علىٰ أتباعه، ثم ألح هولاكو علىٰ الخليفة أن يخبره بالمدفون من الخزائن فأمر الخليفة بالحفر وسط القصر فأخرجوا حوضاً مملوءاً بالذهب الصافي من القطع الكبيرة، فلام هولاكو الخليفه كيف يحتفظ بكل هذا الذهب ولا ينفق منه لإعداد الجند .

وبعد أن حصل هولاكو علىٰ كل ما يريد من الخليفة عمل علىٰ قتله بطريقة بشعة، حيث كان لديه اعتقاد أن الخلفاء والملوك إذا أريق دمهم انتُقم لهم، فوضع الخليفة في أكياس وضعت عليه البسط وديس بالأقدام حتىٰ مات، وقيل إن المغول جلسوا يأكلون الطعام عليه ويرفسونه حتىٰ مات [1] .

وقبل هذا وبعده كان القتل قد بدأ في أهل بغداد المسلمين دون تمييز، يقول ابن كثير: «ومالوا علىٰ البلد فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والمشايخ والكهول والشبان ودخل كثير من الناس في الآبار، وأماكن الحشوش قضاء الحاجة ـ وقنىٰ الوسخ، وكمنوا كذلك أياماً لايظهرون وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلىٰ الخانات ويغلقون عليهم الأبواب، فتفتحها التتار إما بالكسر وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون إلىٰ أعلىٰ الأمكنة

---

(١) انظر: ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٣ .

فيقتلون بالأسطحة، حتى تجري الميازيب من الدماء بالأزقة فإنا لله وإنا إليه راجعون . وكذلك في المساجد والجوامع والربط، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن التجأ إليهم وإلى دار الوزير ابن العلقمي الرافضي وطائفة من التجار أخذوا لهم أماناً، بذلوا عليه أموالاً جزيلة حتى سلموا وسلمت أموالهم[١] » . وقد عمل المغول في أهل بغداد قتلاً حتى قيل إن عدد القتلى وصل إلى ثمانمائة ألف إنسان، واستمر القتل قرابة أربعين يوماً وقد كانت آخر خطبة خطبت في جامع بغداد بعد مرور أربعة وثلاثين يوماً من التقتيل قال فيها الخطيب : « الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، إلى أن قال : اللهم أجرنا في مصيبتنا التي لم يصب الإسلام وأهله بمثلها وإنا لله وإنا إليه راجعون »[٢] . كما أفسدوا مساجدها، ومنازلها، « وأحرقت كتب العلم التي كانت بها من سائر العلوم والفنون التي ماكانت في الدنيا ، قيل إنهم بنوا بها جسراً من الطين والماء عوضاً عن الآجر »[٣] ، وقيل إنه لكثرة القتلى فقد اضطر من كان في بغداد من المغول وعلى رأسهم هولاكو إلى تركها لعفونة هوائها .

وقد عين هولاكو مؤيد الدين بن العلقمي الوزير الرافضي للخليفة السابق نائباً عنه في بغداد، وكان لسقوط بغداد أثر كبير بين المسلمين وغير المسلمين، فقد صاحب سقوطها سقوط الخلافة الإسلامية الممثلة بالعباسيين

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ١٣/ ٢٠١، ٢٠٢ .

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧/ ٥١ .

(٣) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج٧/ ٥١ .

الذين حكموا مايزيد على خمسمائة سنة، ومع ماكان في فتراتهم من ضعف وذلة للمسلمين في كثير من الأحيان إلا أنه كان ينظر لإقامة الخلافة الإسلامية كشعيرة ورمز للمسلمين، كما أن مقتل هذه الأعداد الكبيرة من المسلمين قد أثر كثيراً في المسلمين في مختلف المناطق، يضاف إلى ذلك أن بغداد كانت طيلة خمسة قرون هي حاضرة العالم الإسلامي، وموطن العلماء والأدباء والمفكرين . وقد رثى العديد من الشعراء بغداد بقصائد عُدت من عيون الشعر ومن ذلك قول أحدهم :

لسائل الدمع عن بغداد أخبـــار فما وقوفك والأحباب قد ساروا
يازائرين إلى الزوراء لاتفـــد وا فما بـذاك الحمى والـدار ديـــار
تاج الخليفة والربع التي شـرفت به المعـــالم قدعفّـاه إقفـــار
أضحى لعطف البلى في ربعه أثر وللدمـــوع على الآثـــار آثـــار

إلى آخر القصيدة [١] .

ومما زاد المصيبة أن ماحدث كان على يد شعب وثني غير متحضرلم يرع لأحد من الناس حرمة، وفي الوقت نفسه لم يتعرض لليهود والنصارى بشئ.

وقد فرح النصارى في مختلف أنحاء العالم بما حدث للمسلمين في بغداد، واعتبروا ذلك جزءاً من حربهم ضد المسلمين . حيث كان ماحدث في أواخر الحروب الصليبية، كما أن وجود زوجات لبعض خانات المغول من

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٧/ ٥٠ .

النصارىٰ دفع الصليبيين لاعتبار ماجرىٰ جزءاً من عملهم وتخطيطهم خصوصاً أن المبعوثين كانوا يترددون بين بلاط هولاكو وملوك الصليبيين .

الهجوم المغولي على الشام :

بعد أن فرغ المغول من العراق توجهوا إلىٰ الشام والجزيرة تسبقهم دعايتهم بالانتصار في بغداد وسفك الدماء، مما كان له الأثر الكبير في فزع الناس منهم أمراء وعامة، وقد دفع ذلك كثيراً من الأمراء إلىٰ التسليم لرسل المغول قبل وصول الأجناد وإلىٰ إمداد المغول بكل ما يطلبون حتىٰ أمدهم البعض بجند مسلمين ليشاركوهم في احتلال المواقع الإسلامية الأخرىٰ، يضاف إلىٰ ذلك أن النصارىٰ في بلاد الشام وفي أرمينية وخصوصاً ملك أرمينيا هيثوم قدموا كل دعم للمغول وشاركوهم في غزو بعض مدن الشام ومنها حلب ودمشق حتىٰ تمكنوا من الوصول إلىٰ فلسطين وأصبحوابالقرب من مصر[١] .

معركة عين جالوت :

بعد وصول المغول إلىٰ فلسطين كانت وجهتهم القادمة مصر التي بقيت المعقل الأول في العالم الإسلامي الذي كان يتمتع بقوة يمكن أن تجابه المغول، وتوقف نيران حقدهم التي أحرقت شرق العالم الإسلامي والعراق وبلاد الشام، وقد كان هولاكو زعيم المغول يخطط للاستيلاء علىٰ مصر، وقبل أن ينفذ شيئاً من ذلك أرسل خطاباً مرعباً إلىٰ سلطان المماليك في مصر سيف

---

(١) انظر إلىٰ ص ٣١٨ من هذا الكتاب .

الدين قطز يهدده فيه ويتوعد، ومنه: «يعلم الملك المظفر قطز وسائر أمراء دولته وأهل مملكته بالديار المصرية وما حولها من الأعمال أنا نحن جند الله في أرضه، خلقنا من سخطه، وسلطنا على من حل به غضبه، فلكم بجميع البلاد معتبر، وعن عزمنا مزدجر فاتعظوا بغيركم، وأسلموا إلينا أمركم قبل أن ينكشف الغطاء، فتندموا، ويعود عليكم الخطأ فنحن مانرحم من بكى ولانرق لمن شكا، وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد، وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد، فعليكم بالهرب، وعلينا الطلب، فأي أرض تؤويكم، وأي طريق تنجيكم، وأي بلاد تحميكم؟ فما من سيوفنا خلاص، ولامن مهابتنا مناص، فخيولنا سوابق، وسهامنا خوارق، وسيوفنا صواعق، وقلوبنا كالجبال. وعددنا كالرمال، فالحصون لدينا لاتمنع، والعساكر لقتالنا لاتنفع، ودعاؤكم علينا لايسمع، فإنكم أكلتم الحرام، ولاتعفّون عند كلام، وخنتم العهود والأيمان، وفشا فيكم العقوق والعصيان فابشروا بالمذلة والهوان، (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)، فمن طلب حربنا ندم، ومن قصد أماننا سلم، فإن أنتم لشرطنا ولأمرنا أطعتم، فلكم مالنا وعليكم ماعلينا، وإن خالفتم هلكتم، فلاتهلكوا أنفسكم بأيديكم، فقد حذّر من أنذر، وقد ثبت عندكم أننا نحن الكفرة وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة وقد سلطنا عليكم من له الأمور والمقدرة، والأحكام المدبرة، فكثيركم عندنا قليل، وعزيزكم عندنا ذليل، وبغير الأهنة ماللوككم عندنا سبيل، فلا تطيلوا الخطاب وأسرعوا برد الجواب»[١] . . . إلى آخر ماكتب.

---

(١) المقريزي: السلوك ج١/ ٤٢٧، ٤٢٧.

كان سلطان المماليك سيف الدين قطز رحمه الله معروفاً بالتقوى والصلاح، كثير الصلاة في الجماعة بعيداً عن الخمر واللهو والمحرمات ناصحاً للإسلام وأهله يحبه الناس ويدعون له بالخير مع أنه لم يتولى سوى عدة أشهر[(١)]، وقد استقبل خطاب هولاكو فجمع العلماء والقادة والأمراء يستشيرهم في الرد عليه، فتفاوتت أراؤهم حول الموضوع، وكان بعضهم جباناً طلب من قطز التسليم للمغول بقيادة هولاكو، وأنه لاداعي لقتالهم حيث أنهم انتصروا على كل من قبله وسينتصرون عايه، وحاول أولئك الجبناء التهويل على قطز وتذكيره بما فعل المغول في الشام والعراق وغيرها وتخويفه من سطوتهم، وقد اقترح بعضهم الفرار إلى المغرب أو اليمن حيث لم يصلها المغول بعد، ولكن رأي قطز ـ رحمه الله ـ كان واضحاً وحازماً وهو أنه سوف يقاتل هؤلاء الغزاة الذين قتلوا العباد وأفسدوا البلاد وانتهكوا المحرمات، ولذلك فقد رد على من يرى عدم القتال من الأمراء والقواد قائلاً: «يا أمراء المسلمين لكم زمان تأكلون أموال بيت المال وأنتم للغزاة كارهون وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته فإن الله مطلع عليه وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين»[(٢)]، ثم أن قطز ـ رحمه الله ـ اتخذ خطوة عملية يقطع فيها التفاوض مع المغول فقد أمر بقتل رُسل هولاكو وتعليقهم على أبواب القاهرة[(٣)]، وكان إعلان قطز خروجه بنفسه

---

(١) ابن كثير: البداية والنهايةج١٣/ ٢٢٥.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٢٢٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٣/ ٢٢٠، ٢٢٥، المقريزي: السلوك ج١/ ٤٢٩.

لقتال المغول أكبر دليل على صدقه في نية القتال، ونودي في القاهرة وسائر الأقاليم المصرية بالخروج للجهاد [١]، وبدأ قطز يعد الأمور المختلفة للترتيب للمعركة، ومن ذلك أن الأجناد كانت بحاجة إلى الكثير من الأموال في طور الإعداد والتجهيز للمعركة، ولذلك فإن قطز ـ رحمه الله ـ فكر في فرض بعض الضرائب والأتاوت على الناس بغرض الإعداد للجهاد، ولكنه ـ رحمه الله ـ لم يقرر هذا الأمر بنفسه ويفرضه على الناس بل جمع العلماء والقادة للتشاور معهم حول هذه القضية، فوافقه القضاة والقادة على فرض الضرائب على الناس ولكنه سمع كلمة حق من سلطان العلماء الشيخ العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ حيث قال: « لابد أن تدفع أنت وجميع الأمراءوالمماليك جميع ما تملكون من ذهب وغيره، فإذا لم تكف هذه الأموال دعونا الناس إلى الجهاد بأموالهم، أما أن يدفع الناس أموالهم وأنتم تكنزون الذهب والفضة؟!! فلابد أن تضربوا للناس المثل الأعلى»[٢]. لقيت كلمات العز بن عبد السلام الناصحة أذناً صاغية عند السلطان قطز فبدأ بنفسه وأخرج ما لديه من الأموال والكنوز قبل أن يطلب من الناس المساعدة بأموالهم لقتال المغول، كما بادر كثيرمن الأمراء إلى الاقتداء به فأخرجوا كنوزهم.

كانت خطة قطز رحمه الله المبادرة لملاقات المغول بهجوم مباغت قبل وصولهم إلى مصر، وقد تطلب هذا الأمر من الجيش المصري المسلم أن يكون مرورهم على الساحل عن طريق بعض المناطق الصليبية التي كانت في حالة

---

(١) المقريزي: السلوك ج١/ ٤٢٩.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ج٧/ ٧٢، ٧٣.

حرب مع المسلمين، وفي حالة وفاق وسلام مع المغول، فخشي المسلمون منهم، ولذلك بادر قطز رحمه الله للاتصال بهم طالباً منهم أن يسمحوا له بالعبور وأن يقفوا على الحياد بين المسلمين وا لمغول وهددهم إن هم لم يفعلوا ذلك أن يوجه جند المسلمين إليهم، وقد أحس الصليبيون بجدية قطز رحمه الله ، ولذلك وافقوا على الوقوف على الحياد(١) وانتظار نتائج المعركة المرتقبة بين المسلمين و المغول، وهذا بالطبع في صالحهم على أي حال .

كان تجمع معسكر الجيش المصري المسلم في نواحي غزة، وقد أكمل المسلمون استعدادهم وتوجهوا لمكان المعركة عن طريق الساحل مروراً ببعض الأراضي الصليبية التي كانت خالية من المدافعين عنها، فحاول بعض القواد إقناع قطز بالاستيلاء على المواقع الصليبية لخلوها من المدافعين، فنهرهم قطزوذكرهم بتعاليم الإسلام بالوفاء بالعهد مهما كانت الظروف وأن المسلم لايستغل ظروف الأعداء لينقض العهد، فكان ـ رحمه الله ـ مثالاً للخلق المسلم في هذا الجانب .

وصل المسلمون إلى منطقة عين جالوت، وكان بعض الأمراء مترددين في قتال المغول فقال : أنا ألقى التتار بنفسي(٢) ، فتشجع أمراء المماليك وبقية القوات، وقد جعل قطز طليعة من الجند بقيادة (ركن الدين بيبرس)، تتقدم المسلمين وتستطلع أخبار العدو، فلقي طليعة التتار بالقرب من عين جالوت فأخذ بيبرس يناوشهم وأرسل إلى السلطان قطز وجنود المسلمين يخبرهم

---

(١) المقريزي : السلوك ج١/ ٤٣٠ .

(٢) المقريزي : السلوك ج١/ ٤٢٩ .

بالوضع، فتقدم قطز ومن معه حتىٰ وصلوا إلىٰ عين جالوت، في الوقت الذي وصلت فيه أجناد المغول يقودهم(كتبغا) نائباً عن هولاكو الذي كان قد رحل عن بلاد الشام بسبب بعض الظروف في شرق بلاده .

كانت المعركة واللقاء مع المغول في عين جالوت يوم الجمعة الخامس عشر من رمضان، كان الجيش المسلم علىٰ خوف عظيم من المغول نتيجة أعمالهم السابقة في البلاد الإسلامية ونتيجة لأن جيوشهم لم تغلب قبل ذلك، ولكن وجود السلطان قطز في صفوف المسلمين وتحميسه وحثه إياهم علىٰ القتال وطلب الشهادة إضافة لما يعرفونه من صدقه كان له دور في ثبات المجاهدين وصدق عزيمتهم .

حرص قطز رحمه الله قبل بدء المعركة أن يتأخر الناس في مواجهة الأعداء كما قال: «حتىٰ تزول الشمس، وتفيء الظلال وتهب الرياح ويدعو لناالخطباء والناس في صلاتهم »[1]، وكان هذا العمل تأسياً برسول الله ﷺ والصحابة من بعده حيث كانوا يحبون أن يكون القتال بعد الزوال . وقد نشبت المعركة وكان القتال شديداً علىٰ المسلمين حتىٰ أن الأعداء كادوا يزيلونهم عن مواقعهم، وكان السلطان قطز رحمه الله يثبت الناس، وينحاز إلىٰ بعض نواحي الجيش حينما يحس ضعفاً منهم حتىٰ يقوي من عزيمتهم ويشجعهم وكان له عدة مواقف شجاعة أثناء المعركة من ذلك: «أنه قُتل جواده ولم يجد أحداً في الساعة الراهنةمن الوشاقية الذين معهم الجنائب فترجل وبقي واقفاً

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٣/ ٢٢٦ .

على الأرض ثابتاً والقتال على أشده في المعركة، وهو في موضع السلطان من القلب، فلما رآه بعض الأمراء ترجل عن فرسه، وحلف على السلطان ليركبنها، فامتنع وقال لذلك الأمير : ما كنت لأحرم المسلمين نفعك . ولم يزل كذلك حتى جاءته الوشاقية بالخيل فركب، فلامه بعض الأمراءوقال : ياخوند لم لاركبت فرس فلان فلو أن بعض الأعداء رآك لقتلك وهلك الإسلام بسببك، فقال : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة، وأما الإسلام فله رب لايضيعه، قد قتل فلان وفلان وفلان حتى عد خلقاً من الملوك، فأقام للإسلام من يحفظه غيرهم ولم يضع الإسلام(١) » . كان قطز ـ رحمه الله ـ يقاتل بنفسه ببسالة وشجاعة نادرة وكان يسمع صوته وهو يتضرع إلى الله باستمرار يا الله انصر عبدك قطز، وقد شن التتار حملة قوية على ميسرة الجيش المسلم وكادت أن تزلزله، فتمكن قطز وبعض الأمراء معه من إسنادهم حتى ثبتوا ، واشتهر رحمه الله في تلك الأثناء بندائه في المعركة«واإسلاماه، واإسلاماه واإسلاماه»(٢) ، وقد اشتد القتال، فكان النصر حليف المسلمين، حيث قتل قائد المغول كتبغايون في المعركة وأُسر ابنه وانهزم جند المغول ولم يبق منهم إلا القلة من الفارين، ولما لاحت الهزيمة في صفوف المغول نزل السلطان قطز عن فرسه ومرغ وجهه على التراب تواضعاً لله تعالى وصلى ركعتين في أرض المعركة شكراً لله على نصره للمؤمنين، وكان قد وقع في أسر الجيوش الإسلامية بعض من انضم إلى المغول من أمراء الشام المسلمين

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٢٢٥ .

(٢) المقريزي : السلوك ج١ق٢/ ٤٣١ .

فأمر قطز ـ رحمه الله ـ بضرب أعناقهم ولم يقبل فيهم شفاعة لأحد جزاءاً لخيانتهم، كما تخطف الناس في مختلف أنحاء الشام من حولهم من المغول أو الموالين لهم من الأمراء والأجناد والمنتفعين، ومن هؤلاء شيخ رافضي كان مصانعاً للتتار على أموال الناس (١) .

وتمكن المسلمون مرة أخرى من فرض سيطرتهم على بلادهم وقمع النصارى الذين استطالوا عليهم في ظل المغول في دمشق وغيرها (٢) .

وقد عمل سيف الدين قطز رحمه الله بعد انتصاره على المغول على ترتيب بلاد الشام وتعبئتها بالأجناد وأقام بها العدل ونشر الأمن، كما أن هذه المعركة أعادت الوحدة مرة أخرى بين الشام ومصر وأسقطت الأمراء المستسلمين للمغول والانفصاليين الباحثين عن مصالحهم الخاصة بعيداً من مصالح المسلمين العامة، وأصبحت مصر بعد المعركة قطب الرحى في أحداث العالم السلامي، لاينافسها أي مكان آخر .

كما أن حكام المغول أنفسهم بدأوا ينظرون إلى المسلمين نظرة أخرى جديدة، وبدأ بعض زعمائهم محاولة إقامة علاقات جيدة مع المسلمين واسترضائهم بدلاً من مصادمتهم .

وقد استشهد سيف الدين قطز رحمه الله في حادث غامض بعد شهرين من معركة عين جالوت، وتولى الأمور من بعده الظاهر بيبرس، وفي

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٢٢١ .

(٢) المقريزي : السلوك ج١ق٢/ ٤٣٢ .

أيام حكمه الأولى حاول المغول الهجوم مرة أخرى على الشام بترتيب من زعيمهم هولاكو إلا أن الظاهر بيبرس رحمه الله تمكن من صدهم وهزيمتهم، فرجعوا خائبين [1] .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣/ ٢٢٣ .

الفصل السابع

الفتوح في عصر الدولة العثمانية

الفتوح في عصر الدولة العثمانية

في أوائل القرن السابع الهجري وبالتحديد سنة ٦١٧هـ تحركت بعض العشائرمن القبائل التركمانية في وسط آسيا متجهة نحو الغرب فراراً من غزو القبائل المغولية التي أخذت تقتل وتفسد في المناطق الشرقية من العالم الإسلامي، وقد عادت كثير من هذه العشائر إلى مواطنها الأصلية بعد أن أحست بشيء من الأمان في تلك الأماكن، وبقي قسم منها يقوده(أرطغرل ابن سليمان) في مناطق السلاجقة في (الأناضول)، وأخذ يراسل الأمير علاء الدين السلجوقي في (قرمان) للحصول منه على إذن للإقامة في أراضيه، وفي هذه الأثناء كان أرطغرل يتجول بمن معه من عشيرته في بعض السهول فإذا به بالقرب من معركة تدور بين جيش سلجوقي يقوده علاء الدين نفسه، وبين أحد الجيوش البيزنطية، فبادر أرطغرل بمساعدة الجيش السلجوقي المسلم ضد البيزنطيين، فكان لتلك المساعدة دور كبير في انتصار السلاجقة المسلمين على البيزنطيين، وبالتالي فإن السلاجقة بقيادة علاء الدين قدروا هذا الموقف لأرطغرل ومجموعته، فأقطعوهم أرضاً في الحدود الغربية للأناضول بجوارالثغورمع الروم [١] ، وأتاحوا لهم بذلك فرصة توسيعها على حساب الروم، وحقق السلاجقة بذلك حليفاً قوياً ومشاركاً في الجهاد ضد الروم،

---

(١) محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية ١١٥ ، وانظر : د. محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ١٤ ، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ٢٧ .

وقد قامت بين هذه الدولة الناشئة وبين سلاجقة الروم علاقة حميمة، نتيجة وجود عدو مشترك، بالإضافة لبعض الأمور الأخرىٰ، وقد استمرت هذه العلاقة طيلة حياة أرطغرل، حتىٰ إذا توفي سنة ٦٩٩ ـ ١٢٩٩م،[١] خلفه من بعده في الحكم ابنه عثمان الذي سار علىٰ سياسة أبيه السابقة في التوسع في أراضي الروم [٢]، وتمكن من فتح قلاع مهمة من قلاع الروم مما أعجب السلطان السلجوقي علاء الدين الثالث مما دفعه إلىٰ إكرام عثمان وخلع عليه ألقاباً سلطانية خاصة، ثم أخذ الضعف يسيطر علىٰ السلاجقة نتيجة عوامل مختلفة ومن ذلك هجوم المغول عليهم، ومات السلطان علاء الدين الثالث سنة ٦٩٩هـ [٣] فاستقل أمراؤه بأقاليمهم، وأصبح عثمان أرطغرل مستقلاً بأراض خاصة في الأناضول، فاتخذ لنفسه لقب سلطان العثمانيين واعتبر بحق مؤسس الدولة العثمانية[٤]، وجعل يني شهر عاصمة له، وبذلك ظهرت الدولة العثمانية مستقلة علىٰ مسرح الأحداث، وأخذ أبناء السلطان من بعده يتوسعون في الأراضي الإسلامية وفي الأراضي الأوربية، وواجهوا قوات معادية كبيرة من داخل البلاد الإسلامية ومن خارجها، وخصوصاً في أوربا، وقد تمكنوا سنة ٩٢٣هـ من القضاء علىٰ المماليك ومعهم الخلافة العباسية في

---

(١) القرماني : تاريخ سلاطين آل عثمان تحقيق بسام الجابي ١٠ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١١٦ .

(٢) محمد فؤاد كوبريلي : قيام الدولة العثمانية ١٨٠ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١١٥ ، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ٢٩ .

(٣) القرماني : سلاطين آل عثمان ١١ ، محمد فريد بك : المصدر السابق : ١١٨ ، .

(٤) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٩٠ .

القاهرة في الوقت الذي استولوا فيه على مصر والشام والعراق والحجاز وشمال أفريقيا[١]، وانتقلت الخلافة إلى الدولة العثمانية بعد أن أصبحت أقوى الدول الإسلامية على يد السلطان العثماني سليم الأول [٢]، وقبل أن تصبح الخلافة في يد العثمانيين فقد خاضوا صراعاً مريراً مع الأوربيين في أوربا نفسها وفي البحر الأبيض المتوسط، وقد تأكدت مواجهة العثمانيين لأوربا النصرانية بعد أن أصبحت الخلافة بأيديهم وجاهدوهم في مختلف الميادين والأراضي الأوربية أثناء الفتوح العثمانية لها، أو في أراضي العالم الإسلامي بعد الهجمات الأوربية الشرسة على العالم الإسلامي في العصر الحديث سواء منها ما أعقب الكشوف الجغرافية في بداية القرن العاشر الهجري، أوالهجمة الثانية في القرن الثالث عشر، وقد استمر الجهاد العثماني ضد أوربا حتى سقطت الخلافة العثمانية بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة .

فتح القسطنطينية :

تعد القسطنطينية من أهم المدن العالمية ، وقد أسست في سنة ٣٣٠م على يد الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الأول [٣]، وقد كان لها موقع عالمي فريد حتى قيل عنها: «لوكانت الدنيا مملكةواحدة لكانت القسطنطينية أصلح

---

(١) انظر إلى: د. أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له ،دار النهضة المصرية القاهرة ١٩٧٦م، .

(٢) انظر : د. محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارةص٢٧ .

(٣) سعيد عاشور : أوربا في العصور الوسطى ٢٩ ،وانظر: برنارد لويس: استنبول ،ترجمة د. سيد رضوان علي، الدار السعودية للنشر الرياض ١٤٠٢هـ ص١١ .

المدن لتكون عاصمة لها »[١]، ومنذ تأسيسها فقد اتخذها البيزنطيون عاصمة لهم وهي من أكبر المدن في العالم وأهمها[٢].

حينما دخل المسلمون في جهاد مع الدولة البيزنطية كان لهذه المدينة مكانتها الخاصة في ذلك الصراع، ولذلك فقد بشر الرسول ﷺ أصحابه بفتحها في عدة مواقف، من ذلك: ما حدث أثناء غزوة الخندق [٣]، ولهذا فقد تنافس خلفاء المسلمين وقادتهم على فتحها عبر العصور المختلفة طمعاً في أن يتحقق فيهم حديث الرسول ﷺ: « لتفتحن القسطنطينية على يد رجل، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش »[٤].

لذلك فقد امتدت إليها يد القوات المسلمة المجاهدة منذ أيام معاوية بن أبي سفيان في أولى الحملات الإسلامية عليهاسنة ٤٤هـ[٥]، ولم تنجح هذه الحملة، وقد تكررت حملات أخرى في عهده حظيت بنفس النتيجة.

---

(١) سالم الرشيدي: محمد الفاتح ص٥٤.

(٢) انظر وصفاً لهذه المدينة في: د. محمد مصطفى صفوت: فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح من ص ٣٦ـ٤٦.

(٣) انظر: الإمام أحمد بن حنبل: المسند ج٤/ ٣٠٣، وانظر إلى تخريج الحديث عند الدكتور أكرم ضياء العُمري في: المجتمع المدني في عهد النبوة (الجهاد ضد المشركين) ١١٥، وقد حسن الحديث الوارد في ذلك، وهناك بشارات أخرى عديدة في فتحها عند أحمد في مسنده ج١/ ١٧٨، ج٢/ ١٧٤، ١٧٦، ج٤/ ١٩٣.

(٤) رواه أحمد في مسنده ج٤/ ٣٣٥.

(٥) انظر خليفة بن خياط: تاريخه ٢٠٧، ٢١١. الطبري: تاريخه ج٦/ ١٣١، ١٦٤، ابن الأثير: الكامل ٣/ ٤٢٠.

كما قامت الدولة الأموية بمحاولة أخرىٰ لفتح القسطنطينية وتعد هذه الحملة أقوىٰ الحملات الأموية عليها، وهي تلك الحملة التي تمت في أيام سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨هـ[١].

واستمرت المحاولة لفتح القسطنطينيةحيث شهد العصر العباسي الأول حملات جهادية مكثفة ضد الدولة البيزنطية، ولكنها لم تتمكن من الوصول إلىٰ القسطنطينية نفسها وتهديدها مع أنها هزتها وأثرت علىٰ الأحداث داخلها، وبخاصة تلك الحملة التي تمت في أيام هارون الرشيد[٢] سنة ١٩٠هـ.

وفي العهد العثماني تجددت المحاولات الإسلامية لفتح القسطنطينية، وكانت البداية حين جرت محاولة لفتحها في أيام السلطان بايزيد (الصاعقة) الذي تمكنت قواته من محاصرتها بقوةسنة ٧٩٦هـ-١٣٩٣م[٣]، وأخذ السلطان يفاوض الإمبراطور البيزنطي لتسليم المدينة سلماً إلىٰ المسلمين، ولكنه أخذ يراوغ ويماطل ويحاول طلب المساعدات الأوربية لصد الهجوم الإسلامي عن القسطنطينية، وفي الوقت نفسه وصلت جيوش المغول يقودها

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخه ٣١٥، الطبري: تاريخه ج٨/ ١١٧، ابن الأثير: الكامل ج٥/ ٢٨، ٤٣، ابن خلدون: العبر ج٣/ ٧٠.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخه ٤٥٨، وانظر الطبري: تاريخه ج١٠/ ٦٩، ابن الأثير: الكامل ج٦/ ١٨٥، ١٨٦.

(٣) القرماني: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٨، محمد فريد بك: المصدر السابق ١٣٩، محمد مصطفىٰ صفوت: فتح القسطنطينية ١٢، وانظر ابن حجر العسقلاني: أنباء الغمر في أبناء العمر ج٣/ ٢٤٧.

تيمور لنك إلى داخل الأراضي العثمانية وأخذت تعيث فساداً، فاضطر السلطان بايزيد لسحب قواته وفك الحصار عن القسطنطينية لمواجهة المغول بنفسه ومعه بقية القوات العثمانية، حيث دارت بين الطرفين معركة أنقرة الشهيرة والتي أُسر فيها بايزيد (الصاعقة) ثم مات بعد ذلك في الأسر سنة ١٤٠٢م [١]، وكان نتيجة ذلك أن تفككت الدولة العثمانية مؤقتاً، وتوقف التفكير في فتح القسطنطينية إلى حين.

وما أن استقرت الأحوال في الدولة حتى عادت روح الجهاد من جديد، ففي أيام السلطان مراد الثاني الذي تولى الحكم في الفترة ٨٢٤هـ- ٨٦٣هـ / ١٤٢١ - ١٤٥١م جرت عدة محاولات لفتح القسطنطينية وتمكنت جيوش العثمانيين في أيامه من محاصرتها أكثر من مرة، وكان الإمبراطور البيزنطي في أثناء تلك المحاولات يعمل على إيقاع الفتنة في صفوف العثمانيين بدعم بعض الخارجين على السلطان [٢]، وبهذه الطريقة نجح في إشغاله عن هدفه الذي حرص عليه، فلم يتمكن العثمانيون من تحقيق ما كانوا يطمحون إليه إلا في زمن ابنه محمد الفاتح فيما بعد.

كان محمد الفاتح يمارس الأعمال السلطانية في حياة أبيه، ومنذ تلك

---

(١) القرماني: المصدر السابق ٢٠، ابن حجر: المصدر السابق ج٣/ ٢٤٧، إبراهيم بك حليم: التحفة الحليمية ٥٠، محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية ٥١، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ٥٣.

(٢) القرماني: المصدر السابق ٢٣، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٢٠-١٢١، د. سعيد عاشور: أوربا في العصور الوسطى ٦٥٤، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ٣٩.

الفترة وهو يعايش صراع الدولة مع البيزنطيين في الظروف المختلفة، كما كان على اطلاع تام بالمحاولات العثمانية السابقة لفتح القسطنطينية، بل ويعلم بما سبقها من محاولات متكررة في العصور الإسلامية المختلفة، وبالتالي فمنذ أن ولي السلطنة العثمانية سنة ٨٥٥هـ الموافق١٤٥١م[١] كان يرنو ببصره إلى القسطنطينية ويفكر في فتحها، ولعل حبه للعلماء وتقريبهم لمجالسه، كان سبباً في تعلمه منهم بعض الأحاديث النبوية التي تثني على فاتح القسطنطينية ومن ذلك ماسبق ذكره من قول رسول الله ﷺ: «لتفتحن القسطنطينية على يد رجل فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش»[٢]، لذلك فإن الفاتح كان يطمح في أن ينطبق عليه حديث رسول الله ﷺ المذكور.

الإعداد للفتح:

بذل السلطان الفاتح جهوده المختلفة للتخطيط والترتيب لفتح القسطنطينية، وقد بذل في ذلك جهوداً كبيرة في تقوية الجيش العثماني بالقوى البشرية حتى وصل تعداده إلى قرابة ربع مليون مجاهد[٣]، وهو عدد كبير مقارنة بجيوش الدول في تلك الفترة، كما عني عناية خاصة بتدريب تلك الجموع على فنون القتال المختلفة وبمختلف أنواع الأسلحة التي تؤهلهم للعملية الجهادية المنتظرة، كما اعتنى الفاتح بإعدادهم إعداداً معنوياً قوياً،

---

(١) انظر: السخاوي: الضوء اللامع ج١٠/ ٤٧، محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية١٦٠، علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية ٢٢.

(٢) انظر ص ٣٥٦ من هذا الكتاب.

(٣) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية١٦١.

وغرس روح الجهاد فيهم، وتذكيرهم بثناء الرسول ﷺ على الجيش الذي يفتح القسطنطينية وعسى أن يكونوا هم الجيش المقصود بذلك، مما أعطاهم قوة معنوية وشجاعة منقطعة النظير، كما كان لانتشار العلماء في صفوف الجيش دور كبير في تقوية عزائمهم وربطهم بالجهاد الحقيقي المؤصل وفق أوامر الله.

وقد اعتنى السلطان بإقامة قلعة (روملي حصار) في الجانب الأوربي على مضيق البسفور في أضيق نقطة منه مقابل القلعة التي أسست في عهد السلطان بايزيد في البر الآسيوي، وقد حاول الإمبراطور البيزنطي ثني السلطان الفاتح عن بناء القلعة مقابل التزامات مالية تعهد بها إلا أن الفاتح أصر على البناء لمايعلمه من أهمية عسكرية لهذا الموقع، حتى اكتملت قلعة عالية ومحصنة، وصل ارتفاعها إلى ٨٢ متراً وأصبحت القلعتان متقابلتين ولايفصل بينهما سوى ٦٦٠م تتحكمان في عبور السفن من شرقي البسفور إلى غربيه وتستطيع نيران مدافعهما منع أي سفينة من الوصول إلى القسطنطينية من المناطق التي تقع شرقها مثل مملكة طرابزون وغيرها من الأماكن التي تستطيع دعم المدينة عند الحاجة (١).

كما اعتنى السلطان عناية خاصة بجمع الأسلحة اللازمة لهذه العملية المقبلة، ومن أهمها المدافع التي أخذت اهتماماً خاصاً منه حيث أحضر مهندساً مجرياً يدعى (أوربان) كان بارعاً في صناعة المدافع فأحسن استقباله ووفر له جميع الإمكانيات المالية والمادية والبشرية، وقد تمكن هذا المهندس من

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣١، محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية ١٦١، وانظر: القرماني: تاريخ سلاطين آل عثمان ٢٦.

تصميم وتنفيذ العديد من المدافع الضخمة كان على رأسها المدفع السلطاني المشهور، والذي ذكر أن وزنه كان يصل إلى مئات الأطنان وأنه يحتاج إلى مئات الثيران القوية لتحريكه، وقد أشرف السلطان بنفسه على صناعة هذه المدافع وتجربتها(١) .

ويضاف إلى هذا الاستعداد مابذله الفاتح من عناية خاصة بالأسطول العثماني حيث عمل على تقويته وتزويده بالسفن المختلفة ليكون مؤهلاً للقيام بدوره في الهجوم على القسطنطينية ، تلك المدينة البحرية التي لايكمل حصارها دون وجود قوة بحرية تقوم بهذه المهمة، وقد ذكر أن السفن التي أعدت لهذا الأمر بلغت أكثر من أربعمائة سفينة(٢) .

كما عمل الفاتح قبل هجومه على القسطنطينية على عقد معاهدات مع أعدائه المختلفين ليتفرغ لعدو واحد، فعقد معاهدة مع إمارة (غلطة) المجاورة للقسطنطينية من الشرق ويفصل بينهما مضيق (القرن الذهبي)، كما عقد معاهدات مع ا(المجد)و(البندقية) وهما من الإمارات الأوربية المجاورة، ولكن هذه المعاهدات لم تصمد حينما بدأ الهجوم الفعلي على القسطنطينية، حيث وصلت قوات من تلك المدن وغيرها للمشاركة في الدفاع عن القسطنطينية(٣) مشاركة لبني جلدتهم من النصارى متناسين عهودهم

(١) انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٣٢ ، عبد العزيز فهمي : محمد الفاتح ٧٩، محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ٧٤ .

(٢) القرماني : سلاطين آل عثمان ٢٦ ، سالم الرشيدي : محمد الفاتح ٩٠ .

(٣) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٣٢ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١٦٢ ، محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ٧٠ ، وانظر يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ٥٨ .

ومواثيقهم مع المسلمين.

في هذه الأثناء التي كان السلطان يعد العدة فيها للفتح استمات الإمبراطور البيزنطي في محاولاته لثنيه عن هدفه، بتقديم الأموال والهدايا المختلفة إليه، وبمحاولة رشوة بعض مستشاريه ليؤثروا على قراره [١]، ولكن السلطان كان عازماً على تنفيذ مخططه ولم تثنه هذه الأمور عن هدفه، ولما رأى الإمبراطور البيزنطي شدة عزيمة السلطان على تنفيذ هدفه عمد إلى طلب المساعدات من مختلف الدول والمدن الأوربية، وعلى رأسها البابا زعيم المذهب الكاثوليكي، في الوقت الذي كانت فيه كنائس الدولة البيزنطية وعلى رأسها القسطنطينية تابعة للكنيسة الأرثوذكسية وكان بينهما عداء شديد، وقد اضطر الامبراطور لمجاملة البابا أن يتقرب إليه ويظهر له استعداده للعمل على توحيد الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية لتصبح خاضعة له، في الوقت الذي لم يكن الأرثوذكس يرغبون في ذلك، وقد قام البابا بناءً على ذلك بإرسال مندوب منه إلى القسطنطينية، خطب في كنيسة أيا صوفيا ودعا للبابا وأعلن توحيد الكنيستين، مما أغضب جمهور الأرثوذكس في المدينة، وجعلهم يقومون بحركة مضادة لهذا العمل الإمبراطوري الكاثوليكي المشترك، حتى قال بعض زعماء الأرثوذكس: « إنني أفضل أن أشاهد في ديار البيزنط عمائم الترك على أن أشاهد القبعة اللاتينية» [٢].

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية، ١٣٤، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ٦٩.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٢، وانظر سالم الرشيدي: محمد الفاتح ٨٩، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ٥٥.

الهجوم :

كانت القسطنطينية محاطة بالمياه البحرية في ثلاث جهات، مضيق البسفور، وبحر مرمرة، والقرن الذهبي الذي كان محمياً بسلسلة ضخمة جداً تتحكم في دخول السفن إليه، بالإضافة إلىٰ ذلك فإن خطين من الأسوار كانت تحيط بها من الناحية البرية من شاطئ بحر مرمرة إلىٰ القرن الذهبي، يتخللها نهر ليكوس، وكان بين السورين فضاء يبلغ عرضه ٦٠ قدماً ويرتفع السور الداخلي منها ٤٠ قدماً وعليه أبراج يصل ارتفاعها إلىٰ ستين قدماً، وأما السور الخارجي فيبلغ ارتفاعه قرابة خمس وعشرين قدماً وعليه أبراج موزعة مليئة بالجند [١]، وبالتالي فإن المدينة من الناحية العسكرية تعد من أفضل مدن العالم تحصيناً، لما عليها من الأسوار والقلاع والحصون إضافة إلي التحصينات الطبيعة، وبالتالي فإنه يصعب اختراقها، ولذلك فقد استعصت علىٰ عشرات المحاولات العسكرية لاقتحامها ومنها إحدىٰ عشرة محاولة إسلامية سابقة.

كان السلطان الفاتح يكمل استعدادات الجهاد من رجال وآلات في (أدرنة)، وفي الوقت نفسه يتفقد القسطنطينية ويعرف أخبارها ويجهز الخرائط اللازمة لحصارها، كما كان يقوم بنفسه بزيارات استطلاعية يشاهد فيها استحكامات القسطنطينية وأسوارها[٢]، وقد عمل السلطان علىٰ تمهيد

---

(١) القرماني: سلاطين آل عثمان ٢٠، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ٩٦، علي حسون: العثمانيون والبلقان٨٨.

(٢) سالم الرشيدي: محمد الفاتح ٨٢، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية١٣٢، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ٥٧.

الطريق بين أدرنة والقسطنطينية لكي تكون صالحة لجر المدافع العملاقة خلالها إلى القسطنطينية، وقد تحركت المدافع من أدرنة إلى قرب القسطنطينية، في مدة شهرين حيث تمت حمايتها بقسم من الجيش حتى وصلت الأجناد العثمانية يقودها الفاتح بنفسه إلى مشارف القسطنطينية في يوم الخميس ٢٦ربيع الأول ٨٥٧هـ الموافق ٦ ابريل ١٤٥٣م، فجمع الجند وكانوا قرابة مائتين وخمسين ألف جندي، فخطب فيهم خطبة قوية حثهم فيها على الجهاد وطلب النصر أو الشهادة، وذكرهم فيها بالتضحية وصدق القتال عند اللقاء، وقرأ عليهم الآيات القرآنية التي تحث على ذلك، كما ذكر لهم الأحاديث النبوية التي تبشر بفتح القسطنطينية وفضل الجيش الفاتح لها وأميره، وما في فتحها من عز للإسلام والمسلمين، وقد بادر الجيش بالتهليل والتكبير والدعاء(١)، وكان العلماء ينبثون في صفوف الجيش مقاتلين ومجاهدين معهم مما أثر في رفع معنوياتهم حتى كان كل جندي ينتظر القتال بفارغ الصبر ليؤدي ما عليه من واجب .

وفي اليوم التالي قام السلطان بتوزيع جيشه البري أمام الأسوار الخارجية للمدينة، مشكلاً ثلاثة أقسام رئيسية تمكنت من إحكام الحصار البري حول مختلف الجهات، كما أقام الفاتح جيوشاً احتياطية خلف الجيوش الرئيسة، وعمل على نصب المدافع أمام الأسوار، ومن أهمها المدفع السلطاني العملاق الذي أقيم أمام باب طوب قابي، كما وضع فرقاً للمراقبة في مختلف المواقع

---

(١) القرماني : سلاطين آل عثمان ٢٤، ٢٥، سالم الرشيدي : محمد الفاتح ٩٣، علي حسون : العثمانيون والبلقان ٨٧ .

المرتفعة والقريبة من المدينة، وفي نفس الوقت انتشرت السفن العثمانية في المياه المحيطة بالمدينة، إلا أنها في البداية عجزت عن الوصول إلى القرن الذهبي حيث كانت السلسلة العملاقة تمنع أي سفينة من دخوله بل وتحطم كل سفينة تحاول الاقتراب، كما قامت السفن العثمانية بالاستيلاء على جزرالأمراء في بحر مرمرة [١].

وفي الوقت نفسه كان البيزنطيون بقيادة الإمبراطور (قسطنطين الحادي عشر) ينتشرون على الأسوار ويبذلون كل الجهود المتوفرة لديهم في تحصين مدينتهم والدفاع عنها.

شدد الجيش العثماني الحصارعلى المدينة وجرت مناوشات مختلفة بين القوات المهاجمة والمدافعة منذ الأيام الأولى للحصار، واستشهد عدد كبير من الجيش العثماني من الأفراد الموكلين بالاقتراب من الأبواب، وفي الوقت نفسه كانت المدفعية العثمانية تطلق مدافعها من المواقع المختلفة نحو المدينة المحاصرة، وكان لقذائفها ولصوتها الرهيب دور كبير في إيقاع الرعب في البيزنط داخل المدينة، كما تمكنت من تحطيم بعض الأسوار حول المدينة، ولكن المدافعين كانوا سرعان مايبادرون لحمايتها وإعادة ترميمها، كما كانت هناك بعض المساعدات التي وصلت من أوربا وحاولت مساندة المدينة في هذا الموقف العصيب، ومنها القوة الجنوية المكونةمن خمس سفن والتي رأسها

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية١٣٣، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ٩٨، علي حسون: العثمانيون والبلقان٨٩.

القائد الجنوي جوستنيان يرافقه سبعمائة مقاتل متطوع من مختلف أنحاء أوربا، وتمكنت سفنهم من الوصول الى القسطنطينية بعد مواجهة بحرية مع السفن العثمانية المحاصرة للمدينة، وكان لوصول هذه القوة أثر كبير في رفع معنويات البيزنطيين، وقد عين قائدها جستنيان المتسم بالذكاء والشجاعة قائداً للقوات المدافعة عن المدينة(١).

وقد حاولت القوات البحرية العثمانية تخطي السلسلة الضخمة التي تتحكم في مدخل القرن الذهبي والوصول بالسفن الإسلامية إليه، وأطلقوا سهامهم على السفن البيزنطية والأوربية في المنطقة ولكنهم لم ينجحوا في تحقيق هدفهم في البداية، مما رفع الروح المعنوية للمدافعين عن المدينة(٢)، وكان القسس ورجال الدين النصارى يجوبون المدينة ويحرضون المدافعين عنها على الثبات والصبر، ويحثون الناس على الذهاب إلى الكنائس ودعاء المسيح والسيدة العذراء أن يخلصوا المدينة، وأخذ الأمبراطور قسطنطين يتردد بنفسه على كنيسة أيا صوفيا لهذا الغرض(٣).

وقد استبسل الفريقان، المهاجمون للمدينة وعلى رأسهم الفاتح، والمدافعون عنها وعلى رأسهم قسطنطين الحادي عشر، الذي قدم عروضاً مختلفة للسلطان ليغريه بالانسحاب مقابل الأموال أو الطاعة، أو غير ذلك من

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٤، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٠٢، علي حسون: العثمانيون والبلقان ٩٢، محمد صفوت فتح القسطنطينية ٧١.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٤، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٢٠.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٧، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٠٠.

العروض التي قدمها، ولكن الفاتح رحمه الله كان يرد بالمقابل طالباً تسليم المدينة سلمياً [١]، وأنه في هذه الحالة لن يتعرض أحد من أهلها ولا كنائسها للأذىٰ، وكان مضمون الرسالة: « فليسلم لي إمبراطوركم مدينة القسطنطينية وأقسم بأن جيشي لن يتعرض لأحد في نفسه وماله وعرضه ومن شاء بقي في المدينة وعاش فيها في أمن وسلام ومن شاء رحل عنها حيث أراد في أمن وسلام أيضاً » [٢].

كان الحصار لايزال ناقصاً ببقاء مضيق القرن الذهبي في أيدي البحرية البيزنطية، ومع ذلك فإن الهجوم العثماني كان مستمراً دون هوادة، حيث أبدىٰ جنود الانكشارية شجاعة عجيبة وبسالة نادرة، فكانوا يقدمون علىٰ الموت دون خوف في أعقاب كل قصف مدفعي، وفي يوم ١٨ أبريل [٣] تمكنت المدافع العثمانية من فتح ثغرة في الأسوار البيزنطية عند وادي ليكوس في الجزء الغربي من الأسوار، فاندفع إليها الجنود العثمانيون بكل بسالة محاولين اقتحام المدينة من الثغرة، كما حاولوا اقتحام الأسوار الأخرىٰ بالسلالم التي ألقوها عليها، ولكن المدافعين عن المدينة بقيادة جستنيان استماتوا في الدفاع عن الثغرة والأسوار، واشتد القتال بين الطرفين، وكانت الثغرة ضيقة وكثرت السهام والنبال والمقذوفات علىٰ الجنود المسلمين، ومع ضيق المكان وشدة

(١) يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان ٥٨.

(٢) عبد السلام فهمي: محمد الفاتح ٩٢.

(٣) تم رصد أيام المعركة بالتاريخ الميلادي يوماً بيوم ولم أجد من يتحدث عنها بأيامها حسب التاريخ الهجري ولذلك أعتذر عن إيراد الأيام حسب التقويم الميلادي..

مقاومة الأعداء وحلول الظلام أصدر الفاتح أوامره للمهاجمين بالانسحاب بعد أن أثاروا الرعب في قلوب أعدائهم متحينين فرصة أخرىٰ للهجوم(١) .

وفي اليوم نفسه حاولت بعض السفن العثمانية اقتحام القرن الذهبي بتحطيم السلسلة الحاجزة عنه، ولكن السفن البيزنطية والأوربية المشتركة، إضافة إلىٰ الفرق الدفاعية الواقعة خلف السلسلة من المدافعين عن مدخل الخليج، تمكنوا مجتمعين من صد السفن الإسلامية وتدمير بعضها حيث استشهد فيها عدد كبير من بحارة المسلمين، فاضطرت بقية السفن إلىٰ العودة بعد أن فشلت في تحقيق مهمتها .

وبعد هذه المعركة بيومين وقعت معركة أخرىٰ بين البحرية العثمانية وبعض السفن الأوربية التي حاولت الوصول إلىٰ الخليج، حيث بذلت السفن الإسلامية جهوداً كبيرة لمنعها، وأشرف الفاتح بنفسه علىٰ المعركة من علىٰ الساحل، لكن السفن الأوربية نجحت في الوصول إلىٰ هدفها ولم تتمكن السفن العثمانية من منعها، رغم الجهود العظيمة المبذولة لذلك، وبالتالي غضب السلطان الفاتح غضباً شديداً فعزل قائد الأسطول(٢)، وكان لتلك الهزائم دور كبير في محاولة بعض مستشاري السلطان وعلىٰ رأسهم الوزير(خليل باشا)إقناعه بالعدول عن الاستيلاء علىٰ القسطنطينية والرضا بمصالحة أهلها دون السيطرة عليها وبالتالي رفع الحصار عنها، ولكن السلطان

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٣٦عبد السلام فهمي : محمد الفاتح١٢٣ .

(٢)يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٣٤ ،عبد السلام فهمي : محمد الفاتح٩٧ ، محمد عبد الله عنان : مواقف حاسمة١٨٠ .

أصر علىٰ محاولة الفتح واستمر في قصف دفاعات المدينة بالمدافع من مختلف المواقع، وفي الوقت نفسه كان يفكر بجدية في إدخال السفن الإسلامية إلىٰ القرن الذهبي، لاسيما أن الأسوار في ناحية القرن الذهبي ضعيفة، وبالتالي سيضطر البيزنطيون إلىٰ سحب بعض قواتهم المدافعة عن الأسوار الغربية من المدينة وبهذا التفريق للقوات المدافعة ستتهيأ فرصة أكبر في الهجوم علىٰ تلك الأسوار بعد أن ينقص عدد المدافعين عنها.

وقد توصل السلطان الفاتح إلىٰ طريقة يستطيع بها إدخال سفنه إلىٰ القرن الذهبي دون الدخول في قتال مع البحرية البيزنطية متجاوزاً السلسلة التي تغلق ذلك القرن، وهذه الطريقة تتمثل في جر السفن العثمانية علىٰ اليابسة حتىٰ تتجاوز السلسلة التي تغلق المضيق والدفاعات الأخرىٰ، ثم إنزالها مرة أخرىٰ إلىٰ البحر، وقد درس الفاتح وخبراؤه العسكريون هذا الأمر، وعرفوا مايحتاجونه من أدوات لتنفيذه، والطريق البرية التي ستسلكها السفن والتي قدرت بثلاثة أميال، وبعد دراسة دقيقة ومتأنية للخطة اطمأن الفاتح للفكرة ولقي التشجيع من المختصين لتنفيذها، وبدأ العمل بصمت علىٰ تسوية الطريق وتجهيزها دون أن يعلم البيزنطيون الهدف من ذلك، كما جمعت كميات كبيرة من الأخشاب والزيوت، وبعد إكمال المعدات اللازمة أمر الفاتح في مساء يوم ٢١ ابريل بإشغال البيزنطيين في القرن الذهبي بمحاولات العبور من خلال السلسلة فتجمعت القوات البيزنطية منشغلة بذلك عما يجري في الجهة الأخرىٰ، حيث تابع السلطان مد الأخشاب علىٰ الطريق الذي سوي ثم دهنت تلك الأخشاب بالزيوت، وجرت السفن من البسفور إلىٰ البر حيث

سحبت على تلك الأخشاب المدهونة بالزيت مسافة ثلاثة أميال، حتى وصلت إلى نقطة آمنة فأنزلت في القرن الذهبي، وتمكن العثمانيون في تلك الليلة من سحب أكثر من سبعين سفينة وإنزالها في القرن الذهبي على حين غفلة من العدو، بطريقة لم يُسبَق إليها السلطان الفاتح قبل ذلك، وقد كان يشرف بنفسه على العملية التي جرت في الليل بعيداً عن أنظار العدو ومراقبته، وفي صباح اليوم ٢٢ ابريل استيقظ أهل المدينة على صيحات العثمانيين وأصواتهم يرفعون التكبير والأناشيد التركية في القرن الذهبي، وفوجئوا بالسفن العثمانية وهي تسيطر على ذلك المعبر المائي، ولم يعد هناك حاجز مائي بين المدافعين عن القسطنطينية وبين الجنود العثمانيين[١]، ولقد عبر أحد المؤرخين البيزنطين عن عجبهم من هذا العمل فقال: «ما رأينا ولا سمعنا من قبل بمثل هذا الشئ الخارق، محمد الفاتح يحول الأرض إلى بحار وتعبر سفنه فوق قمم الجبال بدلاً من الأمواج، لقد فاق محمد الثاني بهذا العمل الأسكندر الأكبر»[٢].

ظهر اليأس في أهل القسطنطينية وكثرت الإشاعات والتنبؤات بينهم، وانتشرت شائعة تقول: «ستسقط القسطنطينية عندما ترى سفن تمخر اليابسة»، وكان لوجود السفن الإسلامية في القرن الذهبي دور كبير في إضعاف الروح المعنوية لدى المدافعين عن المدينة الذين اضطروا لسحب قوات

---

(١) القرماني: تاريخ سلاطين آل عثمان٢٦، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٤، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٠٥، محمد حرب: العثمانيون في التاريخ ٧٢، يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان ٥٨.

(٢) يلماز أوزنتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٥.

كبيرة من المدافعين عن الأسوار الأخرىٰ لكي يتولوا الدفاع عن الأسوار الواقعة علىٰ القرن الذهبي إذ أنها كانت أضعف الأسوار، ولكنها في السابق تحميها المياه، مما أوقع الخلل في الدفاع عن الأسوار الأخرىٰ (١).

وقد حاول الإمبراطور البيزنطي تنظيم أكثر من هجوم ليلي مباغت علىٰ السفن العثمانية في القرن الذهبي في محاولة مستميتة لإغراقها أو تحطيمها، ولكن الأسطول العثماني كان للمهاجمين بالمرصاد حيث فشلت تلك الخطط (٢).

واستمر العثمانيون في ضرب المدينة بالمدافع وتحطيم الأسوار، ومحاولة تسلقها، وفي الوقت نفسه انشغل المدافعون عن المدينة في بناء وترميم ما يتهدم من أسوارمدينتهم، ورد المحاولات المتكررة لتسلق الأسوار مع استمرار الحصار عليهم مما زاد في إرهاقهم وشغل ليلهم مع نهارهم وأصابهم باليأس، كما ركز العثمانيون مدافع خاصة علىٰ الهضاب المجاورة للبسفور والقرن الذهبي، مهمتها تصويب قذائفها إلىٰ السفن البيزنطية والمتعاونة معها في القرن الذهبي والبسفور والمياه المجاورة مما شل حركة سفن الأعداء تماماً، وعقد اجتماع بين الملك قسطنطين ومعاونيه ومستشاريه ورجال النصرانية في المدينة، فأشاروا عليه بالخروج بنفسه من المدينةوالتوجه لطلب النجدات من أوربا والأمم النصرانية المجاورة، لعل ذلك يخوف الفاتح فيرفع الحصار عن مدينتهم، ولكنه رفض هذا الرأي وأصر علىٰ أن يبقىٰ مع شعبه في المدينة حتىٰ

---

(١) سالم الرشيدي : محمد الفاتح ١٠٦ .

(٢) عبد السلام فهمي : محمد الفاتح ١٠٤ ، سالم الرشيدي : محمد الفاتح ١٠٧ .

يكون مصيره ومصيرهم واحداً، وأنه يعتبر هذا الأمر فراراً وأشار عليهم أن لاينصحوه بمثل هذا أبداً واكتفى بإرسال وفود تمثله إلى مختلف أنحاء أوربا لطلب المساعدة (١).

وقد لجأ العثمانيون في المراحل المتقدمة من الحصار إلى طريقة جديدة ومبتكرة في محاولة دخول المدينة حيث عملوا على حفر أنفاق تحت الأرض من أماكن مختلفة إلى داخل المدينة التي سمع سكانها في ١٦ مايو ضربات شديدة تحت الأرض أخذت تقترب من داخل المدينة بالتدريج، فأسرع الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ومستشاروه إلى ناحية الصوت وأدركوا أن العثمانيين يقومون بحفر أنفاق تحت الأرض، للوصول إلى داخل المدينة، فقرر المدافعون الإعداد لمواجهتها بحفر أنفاق مماثلةمقابل أنفاق المهاجمين لمواجهتهم دون أن يعلموا، حتى إذا وصل المهاجمون إلى الأنفاق التي أعدت لهم ظنوا أنهم وصلوا إلى سراديب خاصة وسرية تؤدي إلى داخل المدينة ففرحوا بهذا، ولكن الفرحة لم تطل إذ فاجأهم الروم، فصبوا عليهم ألسنة النيران والنفط المحترق والمواد الملتهبة، فاختنق كثير منهم واحترق قسم آخر، وعاد الناجون منهم أدراجهم من حيث أتوا (٢)، ومع هذا الفشل في هذا الجانب فإن العثمانيين لم ييأسوا من نجاحهم في بعض الأنفاق الأخرى، ولذلك فقد استمروا يحفرون أنفاقاً أخرى في أماكن جديدة مختلفة حتى

---

(١) سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١١٦، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ٩٧.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٦، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١١٣، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ٩٨.

فتحت المدينة، وكان لعمليات الحفر تلك دور كبير في إدخال الذعر في قلوب المدافعين عن المدينة والذين كانوا يتوقعون ظهور العثمانيين في أي لحظة ومن أي مكان تحت الأرض داخل مدينتهم، حتى أخذوا يتوهمون في عدة أماكن أن هناك حفراً تحت الأرض وبذلك ينشغلون في تلك الأماكن بالإعداد لمواجهة فيها لاتقع .

وقد لجأ العثمانيون إلى طريقة جديدة في محاولة الاقتحام وذلك بأن صنعوا قلعة خشبية ضخمة متحركة تتكون من ثلاثة أدوار، وبارتفاع أعلى من الأسوار، وقد كسيت بالدروع والجلود المبللة بالماء لتمنع عنها النيران، وأعدت تلك القلعة بالرجال في كل دور من أدوارها، وكان الذين في الدور العلوي من الرماة يقذفون بالنبال كل من يطل برأسه من فوق الأسوار، وقد وقع الرعب في قلوب المدافعين عن المدينة حينما زحف الأتراك بهذه القلعة واقتربوا بها من الأسوارعند باب رومانوس، فاتجه الإمبراطور بنفسه ومعه قواده ليتابع صد تلك القلعة ودفعها عن الأسوار، وقد تمكن العثمانيون من لصقها بالأسوار ودار بين من فيها وبين المدافعين عن الأسوار قتال حامي، وحاول بعض من فيها تسلق الأسوار ونجحوا في ذلك، وقد يأس الإمبراطور وظن أن الهزيمة واقعة به، ولكن المدافعين كثفوا من قذف القلعة بالنيران حتى أثرت فيها وتمكنت منها النيران فاحترقت، ووقعت على الأبراج البيزنطيةالمجاورة لها فقتلت من فيها من المدافعين، وامتلأ الخندق المجاور لها بالحجارة والتراب [1]، ولم ييأس العثمانيون من المحاولة بل قال الفاتح وكان

(١) سالم الرشيدي : محمد الفاتح ١١٤، محمد صفوت : فتح القسطنطينية ٩٨ .

يشرف بنفسه على ماوقع : غداً نصنع أربعاً أخرى[١] .

زاد الحصار وقوي واشتد حتى أُرهق من بداخل المدينة من البيزنطيين، فعقد زعماء المدينة اجتماعاً في ٢٤مايو داخل قصر الإمبراطور وبحضوره شخصياً، وقد لاح في الأفق بوادر يأس المجتمعين من إنقاذ المدينة حيث اقترح بعضهم على الإمبراطور الخروج بنفسه قبل سقوط المدينة لكي يحاول جمع المساعدات والنجدات لإنقاذها أو استعادتها بعد السقوط، ولكن الامبراطور رفض ذلك مرة أخرى وأصر على البقاء داخل المدينة والاستمرار في قيادة المدافعين عنها، حيث خرج لتفقد الأسوار والتحصينات .

وقد أخذ التشاؤم والإشاعات تسود المدينة وتفت في عضد المدافعين عنها، وكان من أشدها عليهم ما حدث في يوم ١٦ جمادى الأولى الموافق ٢٥ من مايو، حيث حمل أهل المدينة تمثالاً للسيدة مريم العذراء(بزعمهم)، وأخذوا يطوفون به في أنحاء المدينة المختلفة، يدعونه ويتضرعون إلى العذراء أن تخلصهم مما هم فيه، وفجأة سقط التمثال من أيديهم وتحطم، فرأوا في ذلك نذير شؤم، وتأثر بما حدث عموم سكان المدينة وخصوصاً المدافعين عنها، كما حدث في اليوم التالى ٢٦ مايو هطول أمطار غزيرة مصحوبة ببعض الصواعق، ونزلت إحدى الصواعق على كنيسة آيا صوفيا، فتشاءم البطريرك، وذهب إلى الإمبراطور وأخبره أن الله تخلى عنهم وأن المدينة

---

(١)عبد السلام فهمي : محمد الفاتح ١١٢ ، وانظر سالم الرشيدي : محمد الفاتح ١١٥ .

ستسقط في يد المجاهدين العثمانيين، فتأثر الإمبراطور حتىٰ أغمي عليه[١]، وكانت المدفعية العثمانية تعمل عملها وتدك الأسوار والتحصينات، وتهدمت أجزاء كثيرة من السور والأبراج وامتلأت الخنادق بالأنقاض، التي مل المدافعون من رفعها، وأصبحت إمكانية اقتحام المدينة واردة في أي لحظة، إلا أن اختيار موقع الاقتحام لم يحدد بعد، ، وقد درس الفاتح خطة المدينة ومواقع الهجوم، وأوضاع المدافعين وعرف أن المدينة علىٰ وشك السقوط، ومع ذلك حاول أن يكون دخولها بسلام، فكتب إلىٰ الإمبراطور رسالة دعاه فيها إلىٰ تسليم المدينة دون إراقة دماء، وعرض عليه تأمين خروجه وعائلته وأعوانه وكل من يرغب من سكان المدينة إلىٰ حيث يشاؤون بأمان[٢]، وأن تحقن دماء الناس في المدينة ولايتعرضوا لأي أذىٰ ويكونوا بالخيار في البقاء بالمدينةأو الرحيل عنها، ولما وصلت الرسالة إلىٰ الإمبراطور جمع المستشارين وعرض عليهم الأمر، فمال بعضهم إلي التسليم وأصر آخرون علىٰ استمرار الدفاع عن المدينة حتىٰ الموت، فمال الأمبراطور إلىٰ رأي القائلين بالقتال حتىٰ آخر لحظة، فرد الإمبراطور رسول الفاتح برسالة قال فيها: «إنه يشكر الله إذ جنح السلطان إلىٰ السلم وأنه يرضىٰ أن يدفع له الجزية أما القسطنطينية فإنه أقسم أن يدافع عنها إلىٰ آخر نفس في حياته فإما أن يحفظ عرشه أو يدفن تحت أسوارها»[٣]، فلما وصلت الرسالة إلىٰ الفاتح قال: «حسناً عن قريب سيكون

---

(١) انظر: سالم الرشيدي: محمد الفاتح ،١١٨، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ٩٧ .

(٢) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ١٦٤، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١١٩، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ١٠٢ .

(٣) عبد السلام فهمي: محمد الفاتح ١١٦ .

لي في القسطنطينية عرش أو يكون لي فيها قبر »[١] .

وعمد السلطان بعد اليأس من تسليم المدينة صلحاً إلىٰ تكثيف الهجوم وخصوصاً القصف المدفعي علىٰ المدينة، حتىٰ أن المدفع السلطاني الضخم انفجرمن كثرة الاستخدام، وقتل المشغلين له وعلىٰ رأسهم المهندس المجري أوربان الذي تولىٰ الإشراف علىٰ تصميم المدفع، ومع ذلك فقد وجه السلطان بإجراء عمليات تبريد للمدافع بزيت الزيتون، وقد نجح الفنيون في ذلك، وواصلت المدافع قصفها للمدينة مرة أخرىٰ، بل تمكنت من توجيه القذائف بحيث تسقط وسط المدينة بالإضافة إلىٰ ضربها للأسواروالقلاع، وفي الوقت نفسه بدأت الشائعات تدب في صفوف العثمانيين بأن جيوش أوربية نصرانية في الطريق لنجدة المدينة، فعقد السلطان الفاتح اجتماعاً ضم مستشاريه وكبار قواده بالإضافة إلىٰ الشيوخ والعلماء، وقد طلب الفاتح من المجتمعين الإدلاء بآرائهم بكل صراحة دون تردد، فأشار بعضهم بالانسحاب ومنهم الوزير خليل باشا الذي دعا إلىٰ الانسحاب وعدم إراقة الدماءوالتحذير من غضب أوربا النصرانية فيما لو استولىٰ المسلمون علىٰ المدينة، إلىٰ غير ذلك من المبررات التي طرحها، وكان متهماً بمواطئة البيزنطيين ومحاولة التخذيل عنهم[٢]، وقد قام بعض الحضور بتشجيع السلطان علىٰ مواصلة الهجوم علىٰ المدينة حتىٰ الفتح واستهان بأوربا وقواتها، كما أشار إلىٰ تحمس الجند لإتمام

---

(١) سالم الرشيدي : محمد الفاتح ١١٩ .

(٢) انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٣٤ ، محمد صفوت : فتح القسطنطينية ١٠٣ ، سالم الرشيدي : محمد الفاتح ١٠٤ .

الفتح ، وما في التراجع من تحطيم لمعنوياتهم الجهادية ، وكان من هؤلاء أحد القواد الشجعان ويدعى (زوغنوش باشا)وهو من أصل ألباني كان نصرانياً فأسلم حيث هون من شأن القوات الأوربية على السلطان[1] ، وقد أيد العلماء هذا الرأي كما فرح به السلطان حيث كان يعبر عن رأيه ورغبته في مواصلة الهجوم حتى الفتح ، وانتهى الاجتماع بتعليمات من السلطان أن الهجوم العام والتعليمات باقتحام المدينة باتت وشيكة وسيأمر بها فور ظهور الفرصة المناسبة وأن على الجنود الاستعداد لذلك [2] ، وفي يوم الأحد ١٨ جمادى الأولى ٢٧ من مايو وجه السلطان الجنود إلى الخشوع وتطهير النفوس والتقرب إلى الله تعالى بالصلاة وعموم الطاعات والتذلل والدعاء بين يديه ، لعل الله أن ييسر لهم الفتح ، وانتشر هذا الأمر بين عامة الجند المسلمين ، كما قام الفاتح بنفسه ذلك اليوم بتفقد أسوار المدينة ومعرفة آخر أحوالها ، وما وصلت إليه وأوضاع المدافعين عنها في النقاط المختلفة ، وحدد مواقع معينة يتم فيها تركيز القصف المدفعي . كما قام بزيارات مختلفة ومفاجئة لمعسكرات الجند العثماني ، تفقد فيها أحوالهم وحثهم على الجد والتضحية في قتال الأعداء ، كما بعث إلى أهل غلطة التي وقفت على الحياد مؤكداً عليهم عدم التدخل فيما سيحدث ضامناً لهم الوفاء بعهده معهم ، وأنه سيعوضهم عن كل ما يخسرونه من جراء

---

(١) سالم الرشيدي : محمد الفاتح ١٠٤ ، محمد مصطفى صفوت : فتح القسطنطينية ١٠٤ ، وانظر يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٣٤ .

(٢)سالم الرشيدي : محمد الفاتح ١٢٣ ، وانظر يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٣٧ ، محمد فريد بك المحامي : تاريخ الدولة العلية ١٦٤ .

ما يحدث، وفي مساء اليوم نفسه أوقد الجنود العثمانيون نيراناً كثيفة حول معسكرهم وتعالت صيحاتهم وأصواتهم بالتكبير والتهليل[١]، حتىٰ خيل للروم أن النار قد اندلعت في معسكر العثمانيين، فإذا بهم يكتشفون أن العثمانيين يحتفلون بالنصر مقدماً، مما أوقع الرعب في قلوب الروم، وفي اليوم التالي ٢٨ مايو كانت الاستعدادات العثمانية علىٰ أشدها والمدافع ترمي البيزنط بنيرانها، والسلطان يدور بنفسه علىٰ المواقع العسكرية المختلفة متفقداً وموجهاً ومذكراً بالإخلاص والدعاء والتضحية والجهاد[٢].

وفي هذا الوقت كان الإمبراطور البيزنطي يجمع الناس في المدينة لإقامة ابتهال عام دعا فيه الرجال والنساء والصبيان للدعاء والتضرع والبكاء في الكنائس علىٰ طريقة النصارىٰ لعله أن يستجاب لهم فتنجو المدينة من هذا الحصار، وقد خطب فيهم الإمبراطور خطبة بليغة كانت آخر خطبة خطبها، حيث أكد عليهم بالدفاع عن المدينة حتىٰ لو مات هو، والاستماتة في حماية النصرانية أمام المسلمين العثمانيين، وكانت خطبة رائعة كما يقول المؤرخون أبكت الجميع من الحاضرين، كما صلىٰ الإمبراطور ومن معه من النصارىٰ الصلاة الأخيرة في كنيسة آيا صوفيا أقدس الكنائس عندهم[٣].

---

(١) يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان ٦٠.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٧، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٢٤، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ١٦٤.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٧، عبد السلام فهمي: محمد الفاتح ١٢١، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٢٩.

وفي الوقت نفسه كان علماء المسلمين في الجانب الآخر يقرأون على المجاهدين آيات الجهاد في سورة الأنفال، ويذكرونهم بفضل الشهادة في سبيل الله وبالشهداء السابقين حول القسطنطينية وعلى رأسهم أبو أيوب الأنصاري رضوان الله عليه وغيره ممن استشهدوا تحت أسوار القسطنطينية .

الفتح :

في ليلة ٢٩ مايو نزلت بعض الأمطار على المدينة وما حولها فاستبشر بها المسلمون خيراً وذكرهم العلماء بمثيلتها يوم بدر، أما الروم فقد طمعوا أن تشتد الأمطار فتعرقل المسلمين، ولكن هذا لم يحدث، فقد كان المطر هادئاً ورفيقاً .

وعند الساعة الواحدة صباحاً من يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧هـ الموافق ٢٩ مايو ١٤٥٣م بدأ الهجوم العام على المدينة بعد أن أعطيت إشارة البدء للجنود، فعلت أصوات الجند المسلمين بالتكبير وهم منطلقون نحو الأسوار، وفزع أهل القسطنطينية وأخذوا يدقون نواقيس الكنائس وهرب إليها كثير من الناس، وكان الهجوم العثماني متزامناً برياً وبحرياً في وقت واحد حسب خطة دقيقة رسمت سابقاً، وطلب كثير من المجاهدين الشهادة ونالها أعداد كبيرة منهم بكل شجاعة وتضحية وإقدام، وكان الهجوم موزعاً في العديد من المناطق، ولكنه مركز بالدرجة الأولى في منطقة وادي ليكوس، بقيادة السلطان الفاتح نفسه، وكانت الأفواج الأولى من المهاجمين تمطر الأسوار والمدافعين عنها بوابل من القذائف والسهام، محاولين شل حركة

المدافعين، ومع استبسال المدافعين وشجاعة المهاجمين كان الضحايا من الطرفين يسقطون بأعداد كبيرة [١]، وبعد أن أنهكت الفرقة الأولىٰ الهجومية كان السلطان قد أعد فرقاً أخرىٰ فسحب الأولىٰ ووجه الفرقة الثانية، وكان المدافعون قد أصابهم الإعياء، وتمكنت الفرقة الجديدة، من الوصول إلىٰ الأسوار وأقاموا عليها مئات السلالم في محاولة جادة للاقتحام، ولكن المدافعين تمكنوا من قلب السلالم واستمرت تلك المحاولات المستميتة من المهاجمين، والمدافعون يبذلون جهودهم في التصدي لمحاولات التسلق، وبعد ساعتين من تلك المحاولات أصدر الفاتح أوامره للجنود بالتراجع لأخذ قسط من الراحة، بعد أن أرهقوا المدافعين في تلك المنطقة، وفي الوقت نفسه أصدر أمراً إلىٰ قسم ثالث من المهاجمين بالهجوم علىٰ الأسوار من نفس المنطقة، وفوجئ المدافعون بتلك الموجة الجديدة بعد أن ظنوا أن الأمر قد هدأ وكانوا قد أرهقوا، في الوقت الذي كان المهاجمون دماء جديدة معدة ومستريحة وفي شوق لأخذ نصيبهم من القتال، كما كان القتال يجري علىٰ أشده في الجانب البحري مما وزع قوات المدافعين وأشغلهم في أكثر من جبهة في وقت واحد، ومع ظهور نور الصباح أضحىٰ المهاجمون يتمكنون من تحديد مواقع العدو بدقة أكثر، وأخذوا في مضاعفة الجهد في الهجوم مما جعل الإمبراطور قسطنطين يتولىٰ شخصياً مهمة الدفاع في تلك النقطة يشاركه في ذلك

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٣٩ ، سالم الرشيدي : محمد الفاتح ١٣١ ، محمد صفوت : فتح القسطنطينية ١١٤ .

جستنيان الجنوي أحد القادة المشهورين في الدفاع عن المدينة [١]، وكان المسلمون في أشد الحماس لإنجاح الهجوم، ومع ذلك فقد أصدر السلطان الفاتح الأوامر إليهم للانسحاب لكي يتيحوا الفرصةللمدافع لتقوم بعملها مرة أخرى حيث أمطرت المدافعين بوابل من قذائفها، وأرهقتهم بعد سهرهم طوال الليل، وبعد أن هدأت المدفعية جاء قسم جديد من شجعان الإنكشارية يقودهم السلطان بنفسه تغطيهم نبال وسهام المهاجمين التي تحاول منع المدافعين من التصدي لهم، وكانت شجاعة الانكشارية واضحة في هذا الهجوم، حيث تمكن ثلاثون منهم من تسلق السور بشجاعة نادرة أثارت استغراب الأعداء، ورغم استشهاد مجموعة منهم بمن فيهم قائدهم فقد تمكنوا من تمهيد الطريق لدخول المدينة عند طوب قابي ورفعوا الأعلام العثمانية [٢]، مما زاد في حماس بقية الجيش للاقتحام كما فتّوا في عضد الأعداء، وفي الوقت نفسه أصيب جستنيان قائد المدافعين ومضرب المثل بينهم بجراح بليغة دفعته إلى الانسحاب من ساحة المعركة [٣]، مما أثر في بقية المدافعين، وقد تولى الإمبراطور قسطنطين قيادة المدافعين بنفسه محل جستنيان الذي ركب أحد السفن فاراً من أرض المعركة، وقد بذل الإمبراطور جهوداً كبيرة في تثبيت

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٩، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٣١، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ١١٣.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٩، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٣٢، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ١١٥.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٨، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٣٥، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ١١٥.

المدافعين الذين دب اليأس في قلوبهم من جدوىٰ المقاومة، في الوقت الذي كان فيه الهجوم بقيادة السلطان شخصياً علىٰ أشده، محاولاً استغلال ضعف الروح المعنوية لدىٰ المدافعين .

وقد واصل العثمانيون ضغطهم في جانب آخر من المدينة حيث تمكن المهاجمون من ناحية باب أدرنة من اقتحام الأسوار والاستيلاء علىٰ بعض الأبراج والقضاء علىٰ المدافعين فيها ورفع الأعلام العثمانية عليها، وتدفق الجنود العثمانيون نحو المدينة من تلك المنطقة، ولما رأىٰ الإمبراطور البيزنطي الأعلام العثمانية ترفرف علىٰ الأبراج الشمالية للمدينة، أيقن بعدم جدوىٰ الدفاع وخلع ملابسه حتىٰ لايعرف، ونزل عن حصانه وقاتل حتىٰ هلك في ساحة المعركة[1]، وكان لانتشار خبر موته دور كبير في زيادة حماس المجاهدين العثمانيين وسقوط عزائم البيزنطيين، حيث تمكنت بقية الجيوش العثمانية من دخول المدينة من مناطق مختلفة و فر المدافعون بعد انتهاء قيادتهم، وهكذا تمكن المسلمون من الاستيلاء علىٰ المدينة، وكان الفاتح رحمه الله مع جنده في تلك اللحظات يشاطرهم نشوة الانتصار وفرحة الفوز بالغلبة علىٰ الأعداء من فوق صهوة جواده، وكان قواده من حوله يهنئونه وهو يقول: «الحمد لله ليرحم الله الشهداء ويمنح المجاهدين الشرف والمجد ولشعبي الفخر والشكر»[2].

(١) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية ١٦٤، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٣٩، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٣٧، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ١١٥، علي حسون: تاريخ الدولة العثمانية ٣١، برنارد لويس: استنبول ٤٨، يوسف آصاف: تاريخ سلاطين آل عثمان ٦٠ .

(٢) سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٣٩ .

كانت هناك بعض الجيوب الدفاعية داخل المدينة والتي تسببت في استشهاد عدد من المجاهدين، وقد لجأ كثير من أهل المدينة إلى الكنائس، ولم يأت ظهيرة ذلك اليوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى ٨٥٧هـ[1] الموافق ٢٩ من مايو ١٤٥٣، إلا والسلطان الفاتح في وسط المدينة يحف به جنده وقواده وهم يرددون: ماشاء الله، فالتفت إليهم وقال: لقد أصبحتم فاتحي القسطنطينية الذين أخبر عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهنأهم بالنصر ونهاهم عن القتل، وأمرهم بالرفق بالناس والإحسان إليهم، ثم ترجل عن فرسه وسجد لله على الأرض شكراً وحمداً وتواضعاً، ثم قام وتوجه إلى كنيسة آيا صوفيا وقد اجتمع بها خلق كبير من الناس ومعهم القسس والرهبان الذين كانوا يتلون عليهم صلواتهم وأدعيتهم، فلما اقترب من أبوابها خاف النصارى داخلها ووجلوا وجلاً عظيماً، وقام أحد الرهبان بفتح الأبواب له فطلب من الراهب تهدئة الناس وطمأنتهم والعودة إلى بيوتهم بأمان، فاطمأن الناس وكان بعض الرهبان مختبئين في سراديب الكنيسة فلما رأوا تسامح الفاتح وعفوه خرجوا وأعلنوا إسلامهم، وقد أمر الفاتح بعد ذلك بتحويل الكنيسة إلى مسجد[2] وأن يعد لهذا الأمر حتى تقام بها أول جمعة قادمة، وقد أخذ

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ج٢/ ٣١٦، وانظر القرماني: تاريخ سلاطين آل عثمان ٢٨، وانظر يلماز أوزتونا: تاريخ الددلة العثمانية ١٣٩، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ١٦٤.

(٢) القرماني: سلاطين آل عثمان ٢٨، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٤١، محمد صفوت: فتح القسطنطينية ١١٧، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٤٣، وقدحول المسجد إلى متحف ومنع المسلمون من الصلاة فيه في عهد مصطفى كمال أتاتورك وهو الذي أسقط الخلافة العثمانية ١٩٢٤م، ولعل للنصارى دوراً في تحويله إلى متحف تمهيداً لمحاولات قادمة لإعادته كنيسة.

العمال يعدون لهذا الأمر، فرفعوا الصلبان والتماثيل وطمسوا الصور بطبقة من الجير وعملوا منبراً للخطيب، وقدجاز تحويل الكنيسة إلى المسجد لأن البلد فتحت عنوة والعنوة لها حكمها في الشريعة الإسلامية . كما أن مثل هذا الأمر وأعظم منه كان يقوم به النصارى حين استيلائهم على مساجد المسلمين في تلك الفترة بل وفي أيامنا هذه .

وقد أعطى السلطان للنصارى حرية إقامة الشعائر الدينية، واختيار رؤسائهم الدينيين الذين لهم حق الحكم في القضايا المدنية، كما أعطى هذا الحق لرجال الكنيسة في الأقاليم الأخرى ولكنه في الوقت نفسه فرض الجزية على الجميع (١) .

وقدكانت القسطنطينية قبل فتحها عقبة كبيرة في وجه انتشار الإسلام في أوربا ولذلك فإن سقوطها يعني فتح الباب للإسلام لدخول أوربا بقوة وسلام لمعتنقيه أكبر من ذي قبل، ويعد فتح القسطنطينية من أهم أحداث التأريخ العالمي، وخصوصاً تاريخ أوربا وعلاقتها بالإسلام حتى عده المؤرخون الأوربيون ومن تابعهم نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة(٢) .

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١٦٥ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية١٤٠ ، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٤٢ ،د. عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج١/ ٦٣ .

(٢)يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٤٣ ، وانظر برنارد لويس : استنبول ٤٩ .

وقد عمل السلطان بعد ذلك على ترتيب مختلف الأمور في المدينة، وإعادة تحصينها، واتخذها عاصمة للدولة العثمانية وأطلق عليها لقب إسلام بول أي مدينة الإسلام [1].

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٤٠، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ص١٦٤، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ١٤٦، وانظر: برنارد لويس: استنبول ٤٨.

شرق أوروبا

كانت الدولة العثمانية منذ انطلاقتها الأولى تخوض صراعاً مع الدولة البيزنطية في بلاد الأناضول ، وقد استطاع العثمانيون السيطرة على السواحل المحاذية لأوروبا من الجانب الآسيوي في نواحي بحر مرمرة والبحر الأسود في الفترة من ٧٢٦ ـ ٧٥٥هـ الموافق١٣٢٦م ـ ١٣٥٤م [١] . وبذلك أصبح العبور إلى الجانب الأوربي من الدولة البيزنطية متوقعاً ، وفي عهد السلطان الغازي أورخان الأول سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م طلب الإمبراطور البيزنطي (جان باليولك) من السلطان العثماني المساعدة في ضرب الصرب الذين باتوا يشكلون خطراً عليه ، فأصدر السلطان أمراً إلى ابنه سليمان باشا بالعبورلأوروبا والاستفادة من هذه الفرصة للجهاد في تلك المناطق ، فعبر العثمانيون ، بالتعاون والاتفاق مع البيزنطيين ، لضرب الصرب الذين بدأوا يضايقون الدولة البيزنطية التي كانت في مرحلة ضعف ، فكانت فرصة للعثمانيين للتعرف على واقع تلك المناطق [٢] . وقد قام العثمانيون بالفعل بمساعدة البيزنطيين في العديد من المعارك ضد الصرب . واعترافاً بفضلهم فقد

---

(١) يلماز أوزنتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٩٤ ،وانظر : القرماني : تاريخ سلاطين آل عثمان ١٣ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية من ص ١٢٤إلى ١٢٦ ، علي حسون : تاريخ الدولة العثمانية ١٢ .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية : ٩٥ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية١٢٥ .

منح الإمبراطور البيزنطي للعثمانيين قلعة(جمبة) في الجانب الأوربي، فكانت أول قلعة عثمانية في أوروبا [1]، ومنها بدأ العثمانيون توسيع رقعتهم في أوروبا تدريجياً مستغلين فرصة ضعف الدولة البيزنطية والتطاحن بين الأوربيين أنفسهم وحاجة الدولة البيزنطية لهم في ذلك الصراع .

وفي عام ٧٦٢هـ الموافق ١٣٦١م تمكن السلطان العثماني مراد الأول من فتح مدينة (أدرنه) أحد أهم المدن الرومية في أوروبا، ونقل إليها العاصمة العثمانية من بورصة [2] وبالتالي أصبح المقر الرئيسي للعثمانيين في أوروبا، مما يعني زيادة حركة الجهاد فيها وكثافته فيما بعد. وقد عمل السلطان على تدعيم الجيش الجديد من أبناء الأسرى الأوربيين الذين تولى العلماء والقواد تدريبهم وتعليمهم في حياة أبيه، فأصبحوا يشكلون ما عرف بجيش الانكشارية في الدولة العثمانية [3] الذين أصبح لهم فيما بعد دور كبير في فتوح أوروبا وغيرها، كما عمل السلطان مراد على التوسع في أوروبا وخاض معارك عديدة مع نصارى أوروبا سواء منهم البيزنط أو الصرب ، وأصبح

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٩٦ ،وانظر : محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١٢٦ ، سالم الرشيدي : محمد الفاتح ٢٦ .

(٢) القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ٢٩٨ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١٣١ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية٩٨ ، سالم الرشيدي : محمد الفاتح ٢٨ .

(٣) القرماني : أخبار الدول وآثار الأول ٢٩٩ ، وانظر : .محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١٣٢ ، وانظر إلى هذه الفرقة التي عرفت بالانكشارية تحت مسمى هذه المادة في دائرة المعارف الإسلامية ج٥/ ١١١ ، وفي د، عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج١/ ٤٧١ .

العثمانيون يجاورون الصرب والبلغار والألبان مما أفزع العالم النصراني الأوربي فدعا البابا (أوروبانوس) ملوك أوروبا النصارىٰ لمحاربة العثمانيين حرباً دينية إحساساً منهم بخطر الفتوحات العثمانية علىٰ النصارىٰ وما سيصاحبها من مد للإسلام في أوروبا علىٰ حساب النصرانية، وقد استجاب لهذا النداء ملك الصرب (أوراك الخامس) الذي هجم بجموع كبيرة من فرسان المجر والصرب والبوسنة قاصداً أدرنة العاصمة العثمانية آنذاك في غيبة من السلطان مراد، وذلك سنة ٧٦٦ الموافق ١٣٦٣م، ولكن نوابه وقواده تمكنوا من الإيقاع بملك الصرب ومن معه في معركة كبرىٰ كان من نتيجتها «أن ولوا الأدبار تاركين الثرىٰ مخضباً بدمائهم»[١]. وقداضطرت العديد من الدول الأوربية نتيجة الانتصارات العثمانية المتكررة في عهد السلطان مراد الأول إلىٰ أن تخطب ود الدولة العثمانية، فبادرت بعضها بدفع الجزية لهم، كما قام البعض الآخر بإعلان ولائه للعثمانيين خشية قوتهم واتقاء غضبهم، وامتدت سلطة العثمانيين علىٰ أمراء المجر ورومانيا والمناطق المجاورة للإدرياتيك حتىٰ وصل نفوذهم إلىٰ ألبانيا[٢]، وكانت منطقة البلقان من أشد المناطق التي جاهد فيها العثمانيون ضد نصارىٰ أوروبا وخصوصاً الصرب.

---

(١) القرماني: تاريخ سلاطين آل عثمان ١٦، وانظر: محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية١٣١، وانظر: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية٩٨، سالم الرشيدي: محمد الفاتح ٢٨.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثماية ٩٨ ـ ٩٩، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ١١٣ ـ ١٣٢. وانظر د. علي حسون: العثمانيون والبلقان ٥٠.

معركة قوصوه (١) :

كان السلطان مراد قد توغل في بلاد البلقان بنفسه أو عن طريق قواده مما أثار الصرب، فحاولوا في أكثر من مرة استغلال غياب السلطان عن أوروبا في الهجوم على الجيوش العثمانية في البلقان وما جاورها ولكنهم لم ينجحوا في زحزحة العثمانيين عن مواقعهم رغم القتال المتكرر بينهم في العديد من الأماكن، فأعد الصرب والبوسنيون والبلغار النصارى جيشاً أوروبياً صليبياً كثيفاً لحرب السلطان الذي كان قد وصل بجيوشه بعد إعدادها إعداداً قوياً إلى منطقة كوسفو في البلقان ، وكان يرافق السلطان ابناه بايزيد ويعقوب بالإضافة إلى مجموعة كبيرة من الأمراء والقواد(٢). وفي ليلة المعركة كان الظلام شديداً، وهبت رياح قوية أثارت الفوضى في كل مكان وكادت أن تسبب الإرباك في الجيش العثماني الذي كان يعد الترتيبات رغم الظلام، وقد سمع السلطان مراد في تلك الليلة رافعاً يديه بالدعاء إلى الله وهو يقول : «يا الله يا رحيم يارب السموات يامن تتقبل الدعاء لاتخزني يارحمن يارحيم استجب دعاء عبدك الفقير هذه المرة أرسل السماء علينا مدراراً وبدد سحب الظلام فنرى عدونا ياموجود في كل الوجود أنت الواحد والمالك حقاً لكل الوجود. وما نحن سوى عبيدك المذنبين إنك الوهاب ونحن فقراؤك . ما أنا

---

(١) سهل مشهور يقع في جنوب يوغسلافيا بالقرب من الحدود الألبانية اليوغسلافية اليونانية (انظر ماكتبه د. إحسان حقي محقق كتاب محمد فريد بك: تاريخ الدولة العليةص١٣٥ هامش ٢) .

(٢) القرماني : تاريخ سلاطين آل عثمان ١٦ ، يلماز أوزنتونا: تاريخ الدولة العثمانية ١٠٠ .

سوىٰ عبدك الفقير المتضرع، وأنت العليم ياعلام الغيوب والأسرار وما تخفي الصدورليس لي من غاية لنفسي ولا مصلحة ولايحملني طلب المغنم فأنا لاأطمع إلا في رضاك بإخلاص يا الله ياعليم ياموجود في كل الوجود أفديك روحي فتقبل رجائي ولاتجعل المسلمين يبؤ بهم الخذلان أمام العدو . يا الله يا أرحم الراحمين لاتجعلني سبباً في موتهم، بل اجعلهم المنتصرين ، إن روحي أبذلها فداءً لك يارب إني وددت ولازلت دوماً أبغي الاستشهاد من أجل جند الإسلام، فلا ترني يا إلهي محنتهم واسمح لي يا إلهي هذه المرة أن أستشهد في سبيلك ومن أجل مرضاتك . . . . . »[١] . كان هذا الدعاء ينم عن شخصية السلطان مراد وطموحه للشهادة ورغبته الصادقة في انتصار المسلمين علىٰ أعدائهم .

وفي صباح يوم ٢٠ حزيران ١٣٨٩م التقىٰ المسلمون مع أعدائهم في معركة حامية وشديدة استمرت ثماني ساعات شارك فيها السلطان بنفسه ، واشتد القتال بين الطرفين حيث قاوم الصربيون ببسالة، وبقيت الحرب سجالاً مدة من الزمن، وكثر القتلىٰ من الطرفين[٢] . وفي أثناء المعركة انضم أحد قواد الصرب بجموع قدرت بعشرة آلاف مقاتل إلىٰ صفوف العثمانيين [٣]، مما كان له أبلغ الأثر في ضعف الصرب وإيقاع الهزيمة بهم حيث انتصر المسلمون

---

(١) علي حسون: العثمانيون والبلقان ٥٢ (ولم أقف علىٰ نص لهذا الدعاء عند غيره كما أن المؤلف لم يحل إلىٰ مصدر ولعله نقله من بعض الكتب التركية) .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية١٣٥ ، وانظر يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية١٠٠ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١٣٥ .

وقتلوا معظم جند الصرب ومن معهم ، وقد أسر ملكهم وقتل علىٰ يد المجاهدين المسلمين ، وفي نهاية المعارك كان السلطان يدور بنفسه بين صفوف القتلىٰ من المسلمين ويدعو لهم، كما كان يتفقد الجرحىٰ ، وفي أثناء ذلك قام جندي من الصرب كان قد تظاهر بالموت وأسرع نحو السلطان فتمكن الحراس من القبض عليه، ولكنه تظاهر بأنه جاء يريد محادثة السلطان ويريد أن يعلن إسلامه علىٰ يديه، وعند ذلك أشار السلطان للحرس بأن يطلقوه فتظاهر بأنه يريد تقبيل يد السلطان وقام في حركة سريعة بإخراج خنجر مسموم طعن به السلطان فاستشهد رحمه الله في ١٥ شعبان ٧٩١هـ[١] . وكان من آخر كلام السلطان: «لايسعني حين رحيلي إلا أن أشكر الله إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير ، أشهد أن لا إله إلا الله ، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو ، لقد أوشكت حياتي علىٰ النهاية ورأيت نصر جند الإسلام . أطيعوا ابني يزيد، ولاتعذبوا الأسرىٰ ولاتؤذوهم ولاتسلبوهم وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلىٰ رحمة الله فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء»[٢] .

ولم يصدق الحرس ما جرىٰ ولم يتمكنوا من عمل أي شيء حيث كانت حركة الغادر سريعة جداً . ورغم استشهاد السلطان فإن انتصار المسلمين في هذه المعركة قد هيأ للعثمانيين بعد ذلك حكم البلقان لعدة قرون لاحقة[٣] .

(١) القرماني : تاريخ سلاطين آل عثمان ١٦ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١٣٦ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٠٠ ، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان٣٨ .

(٢) علي حسون : العثمانيون والبلقان٥٣(ولم أعثر علىٰ هذا النص في مصدر آخر) .

(٣) انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٠١ .

معركة نيقو بلي [١]:

بعد وفاة السلطان مراد تولى من بعده ابنه يزيد الذي قام بالمزيد من الفتوح في بلاد البلقان ، وتمكن من ضم بلغاريا ورومانيا وسالونيك وألبانيا إلى الدولة العثمانية ، كما شكل ضغطاً قوياً على القسطنطينية ، وحاول إسقاطها ولكنه لم ينجح في ذلك . وقد كان لهذه المحاولة دورها الكبير في إثارة البابوية والدول الأوربية واستعدائها على الدولة العثمانية وزاد من ذلك استنجاد ملك المجر بهم[٢] ، وأعلنت حرب دينية صليبية ضد الدولة العثمانية ، واستجابت لذلك أوروبا الغربية وعلى رأسها فرنسا وولاياتها المتعددة ، وبعض مناطق ألمانيا وسويسرا ورودس ، رغم الخلاف المذهبي الكبير بين بعضهم البعض حيث كان بعضهم أرثوذكساً وبعضهم كاثوليكاً ومع ذلك فقد أُعد جيش أوربي موحد كان فيه ستون ألف جندي مجري ، وعشرة آلاف جندي فرنسي والبقية من الدول المذكورة سابقاً إضافة إلى الصرب ، هدفهم إخراج العثمانيين من البلقان وأوروبا وطردهم إلى آسيا .

وتوجه الجيش إلى مدينة نيقوبولي وكانت من المدن العثمانية الرئيسة في أوروبا في تلك الفترة وبها حامية عثمانية قوية (وهي حالياً في شمال بلغاريا وعلى حدودها مع رومانيا)، وتمكن الأوربيون من عبور نهر الدانوب وحصار

---

(١)مدينة في شمال بلغاريا على حدود رومانيا .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية العثمانية ١٤٠ ، يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ٤٤ ، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٠٦ ، سالم الرشيدي : محمد الفاتح ٣٢ .

المدينة ، فصمد من بها من قوات المسلمين صمود الأبطال ، وكان السلطان بايزيد منشغلاً في الأناضول، وما أن علم بتحرك الجيوش الأوربية حتىٰ أعد جيشاً ضخماً من العثمانيين والموالين لهم من شعوب أوروبا في بلغاريا والبلقان وغيرهم قدر عددهم بمائتي ألف مقاتل ، وتوجه بهم إلىٰ نيقو بلي المحاصرة ، ووصل السلطان ومن معه إلىٰ البلدة المحاصرة وأشعروا من بها من المسلمين بوصولهم ليلاً ، وفي صباح اليوم التالي وقعت معركة حامية الوطيس بين الجيوش العثمانية والجيوش الأوربية وذلك في ٢٣ ذي القعدة ٧٩٨هـ الموافق ٢٧ سبتمبر ١٣٩٦م [١] . وكانت نتيجة المعركة انتصار الجيش العثماني علىٰ التحالف الأوربي مجتمعاً، وأسر أناس من زعمائهم وخصوصاً من القواد والأمراء الفرنسيين بلغ عددهم سبعة وعشرين أميراً، كما غنم العثمانيون راية الفرنسيين الرئيسة ، وقتل أغلبية جنودهم[٢] ولم ينج من الجيش الأوروبي المقدر عدده بمائة وثلاثين ألف جندي سوىٰ قرابة عشرين ألفاً ، أما البقية فكانوا إما أسرىٰ أو قتلىٰ في المعركة ، وقد قام السلطان بإطلاق الكونت الفرنسي ري نيفر بعد أن أقسم أن لايعود هو ولا بلاده لحرب المسلمين مرة أخرىٰ ، ومع ذلك فقد هدده السلطان بايزيد بأنه علىٰ استعداد لحرب أمم أوروبا كلها إن أرادت ذلك[٣] .

---

(١) محمد فريد بك : الدولة العلية . ١٤٤ ، وانظر يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ١٠٨ .

(٢) سالم الرشيدي : محمد الفاتح ٣٣ ،يوسف آصاف : تاريخ سلاطين آل عثمان ٤٤ ،وانظر القرماني : تاريخ سلاطين آل عثمان ١٨ .

(٣)محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ١٤٤ .

الدفاع العثماني عن العالم الإسلامي

سقطت غرناطة آخر المعاقل الإسلامية في أيدي النصارىٰ الإسبان سنة ٨٩٧هـ[١]، و بدأت تصفية المسلمين في الأندلس بعد أقل من عشر سنوات حيث صدر قانون ملكي يخير المسلمين بين التنصر أو النفي أو القتل[٢] . وجرت لهم مذابح رهيبة يندىٰ لها جبين التاريخ، وحاول السلطان العثماني سليم الأول القيام بعمل مماثل ضد النصارىٰ في الدولة العثمانية، ولكن علماء الإسلام رفضوا ذلك ووقفوا موقفاً قوياً من هذه المحاولة[٣]، وبعد ذلك بأقل من عشر سنوات أخذ البرتغاليون يقومون بحملات علىٰ الشرق الإسلامي، وقد كانوا قساة لايرحمون من يواجههم عدواً كان أو صديقاً، فكان من سياستهم تحطيم كل مركب يواجهونه بمن فيه، كما كانوا يحرقون القرىٰ والمدن التي يمرون بها، ويضاف إلىٰ ذلك أنهم يعطون الأمان لبعض الجماعات حتىٰ إذا ظفروا بهم قتلوهم دون رحمة ودون مراعاة لما قطعوه من عهد[٤]، وكان في مواجهتهم في البداية دولة المماليك التي كانت تحكم مصر والشام والحجاز، وبالتالي فقد كانت مسؤولة عن مواجهة تلك الحملات الأوربية

---

(١) للتوسع حول هذه القضية انظر : عبد الرحمن علي الحجي: التاريخ الأندلسي ٥٦٨ .

(٢) د. عبد اللطيف الحميد : موقف الدولة العثمانية ٤٠ .

(٣) د عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها ج١/ ٤١٤ .

(٤) تحدثت نفس المصادر البرتغالية عن مثل هذه الأعمال، وانظر إلىٰ مانقله لوريمر : في دليل الخليج، القسم التاريخي ج١/ ١٢، ١٦، ٢٨ .

النصرانية ، وقد حاولت القيام بذلك في البداية، ولاقت بعض النجاح المصحوب بصعوبات مختلفة، كما كان بينها وبين العثمانيين تعاون مبدئي في هذا الجانب، فقد اشتركوا في الصراع ضد البرتغاليين أيام السلطان بايزيد، حيث وقفوا موقفاً موحداً في الإعداد لحملة الفاريز كابرال سنة ٩٠٦هـ/ ١٥٠٠م(١).

وقد اختلت هذه العلاقة بعد أن دخلت الدولة العثمانية في صراع مع المماليك حول مناطق النفوذ في العالم الإسلامي (٢).

وقد قام المماليك بدور جيد في هذه المواجهة، ووصلت أساطيلهم التي تحركت من مصر إلىٰ المحيط الهندي يقودها حسين الكردي، ولكنهم هزموا في موقعة (ديو) الشهيرة علىٰ يد البرتغاليين سنة ٩١٥هـ/ ١٥٠٩م (٣)، مما كان له أثر بالغ علىٰ مجريات الأحداث حيث شعر البرتغاليون بعد ذلك بالتفوق، وأخذوا يتصرفون في المنطقة بحرية أكثر من ذي قبل (٤) .

وبعد أن تمكن العثمانيون من السيطرة علىٰ الشام ومصر والقضاء علىٰ دولة المماليك صاروا في مكان الصدارة في العالم الإسلامي، وبالتالي أصبحوا في مواجهة أخرىٰ جديدة في الشرق الإفريقي مع القوىٰ الأوربية

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٢٣١ ،غسان علي الرمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ٢٠٤ .

(٢) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٢٣١ ، أحمد فؤاد متولي : الفتح العثماني للشام ومصر ١١٠ .

(٣) انظر نخبة من الأساتذة : تاريخ البحرية ٥٧٠ .

(٤) غسان الرمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ٨٩.

التي كانت في تلك الفترة تحاول التوغل في العالم الإسلامي وخصوصاً البرتغاليين، وهم أول من قام بذلك، وبالتالي وجدت مناطق احتكاك ساخنة بين العثمانيين والبرتغاليين كان من أهمها البحر الأحمر ، وشرق إفريقيا، والخليج العربي، التي كانت موضعاً للصراع على النحو التالي :

الدفاع عن البحر الأحمر :

كان للبحر الأحمر وما يزال أهمية خاصة في العالم الإسلامي فهو يعد أخطر البحار وأهمها نظراً لأنه أقربها إلى الأماكن المقدسة في مكة المكرمة والمدينة المنورة، وقد كان للصليبيين سابقاً محاولات جادة أيام صلاح الدين الأيوبي للوجود في البحر الأحمر، وقد واجهها صلاح الدين رحمه الله بحزم وقوة، وبعد بداية القرن العاشر الهجري أخذ الأوربيون وعلى رأسهم البرتغاليون بدافع من عدائهم للإسلام وأهله في محاولة الوصول إلى البحر الأحمر والتعاون مع مملكة الحبشة ضد المسلمين حيث كان لديهم اعتقاد أن تعاون الحبشة والبرتغاليين سيدمر مكة وهذا من أهم أهدافهم [١] . ولذلك فقد جرت اتصالات عديدة بين الأحباش والبرتغاليين للتنسيق والتعاون ضد المسلمين، وكان المماليك ومن بعدهم العثمانيون الذين تولوا الأمر في هذه المرحلة يحرصون على متابعة أخبار تلك الاتصالات، إدراكاً منهم لخطر هذا

(١) د. عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢/ ٦٩٨ ، ٨٦٢، غسان الرمال : صراع البرتغاليين مع المسلمين في البحر الأحمر٨٩، ٩١، وانظر يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٣٢٤ .

التعاون النصراني البرتغالي الحبشي، وما يشكله من تهديد على منطقة الحجاز بالذات، ولذلك فقد حرص العثمانيون على دعم ممالك الطراز الإسلامي في شرق إفريقيا التي كانت في مواجهة دائمة مع الأحباش، مما جعل الأحباش يحسون بالخطر ويحسبون حساباً للعثمانيين [1]، كما أن العثمانيين أخذوا يكثفون من دورياتهم البحرية في المنطقة، عن طريق أساطيلهم في مصر، وكانت أولى الحملات البرتغالية على البحر الأحمر بقيادة (البوكيرك) الذي هاجم عدن سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م وذلك قبل الوجود العثماني في المنطقة، وقد خطط للهجوم على البحر الأحمر بعد تلك الحملة مباشرة ووصلته الإمدادات من أوربا لهذا الهدف، مما أفزع أهل الحجاز الذين كانوا يترقبون وصوله إلى نواحي جدة في أي وقت، فاضطر شريف مكة بركات الثاني (٩٠٣ ـ ٩٣١هـ)، إلى وضع حامية في جدة تحسباً لهجوم البرتغاليين، الذين لم يصلوا إلى المنطقة في الوقت المخطط له سنة٩٢١هـ لأسباب مجهولة، لعل منها أن الرياح حالت دون ذلك أو لانشغال البوكيرك في منطقة الخليج في تلك الفترة[2]، كما كان للمماليك وقوادهم قبل هذا التاريخ دور في تحصين جدة وتجهيزها ضد الهجوم البرتغالي المرتقب، خصوصاً بعد تواتر الأخبار عن وجودهم في الجانب الغربي من البحر الأحمر. ومرت المنطقة في هذه الفترة بمرحلة تحول من السيادة المملوكية إلى الحكم العثماني.

---

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية١ ٣٣١.

(٣) انظر غسان الرمال: صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر٩٩.

قام البرتغاليون سنة ٩٢٣هـ الموافق١٥١٧م بهجوم جديد على البحر الأحمر بقيادة (لوبر سواريز)، الذي مر بعدن ثم بالحديدة واتجه بعد ذلك إلى جدة، حيث وجد مقاومة من حاميتها بقيادة البحار العثماني(سليمان ريس)، الذي تمكن من أسر بعض البرتغاليين بعد تحطم بعض سفنهم وبعث بهم إلى السلطان العثماني في استانبول (١) . وقد دفعت تلك المحاولة الدولة العثمانية إلى تكثيف وجودها العسكري البحري في جدة تحسباً لحملات أخرى قادمة من قبل البرتغاليين، وبالفعل وصلت حملة برتغالية جديدة سنة ٩٢٧ هـ ـ١٥٢٠م يقودها لوبو (دي سكويرا)، ولم تنجح تلك الحملة في الوصول إلى جدة رغم اقترابها منها، حيث عاكستها الرياح، كما أن إحساس قائدها باستعداد العثمانيين له دفعه إلى تحويل مسارها إلى(مصوع)غربي البحر الأحمر، وبذلك فشلت هذه الحملة في تحقيق هدفها الرئيسي الذي تحركت من أجله، مما أثر مستقبلاً على تحرك البرتغاليين في المنطقة (٢) .

وقد ركزت الدولة العثمانية بعد ذلك على تحصين البحر الأحمر ومحاولة جعله بحراً إسلامياً، ومنع السفن البرتغالية من الوصول إليه، حيث ركزت جهودها على محاولة السيطرة على منطقة مضيق باب المندب في اليمن، وهذا بالطبع ماجعلها تدخل في صراع مع القوى المحلية في اليمن لتحقيق هذا الهدف المنشود، وفي المراحل اللاحقة كان ميدان الصراع في

---

(١) غسان الرمال : المرجع السابق ١٠٣، ولمزيد من الاطلاع على أعمال ذلك القائد العثماني انظر : يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٣٢٤ـ ٣٢٥ .

(٢) غسان الرمال : المرجع السابق ١٠٣ .

المحيط الهادي والخليج العربي، أما البحر الأحمر فلم يعد البرتغاليون يجرؤون على دخوله كمحاولاتهم السابقة[١]، وحرص العثمانيون على عدم وصول الأعداء إليه، ولم يدخل في صراع جديد إلا في عصور متأخرة قبيل وأثناء الحرب العالمية الأولى وخصوصاً مع بريطانيا التي وجدت في المنطقة[٢].

الصراع في الخليج العربي :

كان مركز الدولة العثمانية بعيداً نسبياً عن شرق الجزيرة العربية، ومع ذلك فقد كانت تملك أسطولاً بحرياً أهلها للقيام بواجبها كأكبر دولة إسلامية في القرن العاشر الهجري، وحامية للمناطق الإسلامية ضد الغزوات الأوربية، وبعد سيطرة العثمانيين على مصر أصبحت تملك مركزاً بحرياً هاماً يتمثل في ميناء السويس الذي كان قاعدة بحرية هامة في الصراع حول البحر الأحمر والخليج العربي، كما أن سيطرة العثمانيين على العراق، جعل لها نفوذاً بحرياً وقوة تواجه بها الأعداء في الخليج العربي عن طريق ميناء البصرة في شمال الخليج، وقد بدأ العثمانيون في مقاومة البرتغاليين في المشرق في مراحل مبكرة، حيث كانت بعض الأساطيل التابعة لهم تشن غاراتها على

---

(١) غسان الرمال : المرجع السابق ٣٠٣، د. عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ج٢/ ٨٦٣ .

(٢) لمزيد من التوسع حول موضوع الصراع البريطاني العثماني حول البحر الأحمر راجع، د. عبداللطيف بن محمد الحميد : الصراع بين الدولة العثمانية وبريطانيا في منطقة البحر الأحمر خلال الحرب العالمية الأولى ١٣٣٢ ـ ١٣٣٧هـ/ ١٩١٤ ـ ١٩١٨م .

مواقع البرتغاليين في الهند من سنة (٩٢٣هـ ـ ١٥١٥م)[١]، والذين لم تمنعهم تلك الحملات من التركيز على محاولة إيجاد قواعد لهم في الخليج وجنوب الجزيرة العربية، حيث تمكن القائد البرتغالي البوكيرك سنة ١٥١٥م الموافق ٩٢٣هـ من احتلال هرمز واتخاذها قاعدة بحرية رئيسة للبرتغاليين بعد محاولات سابقة[٢]. وبالتالي أصبح تهديدهم المحلي للخليج والجزيرة العربية تهديداً مباشراً، وكان من أشهر السلاطين العثمانيين في مواجهة البرتغاليين السلطان سليمان القانوني[٣]، الذي بعث بحملات بحرية متكررة ومنظمة لمواجهتهم في الخليج، وكانت أولى الحملات تلك الحملة التي قادها سليمان باشا واليه على مصر سنة ٩٣٠هـ ـ ١٥٢٣م، وتبع ذلك حملات أخرى من أهمها حملة سنة ٩٤٥هـ ـ ١٥٣٨م حيث تحرك بأسطول بحري قوامه سبعون سفينة من منطقة السويس مسلحة بالمدافع الضخمة، وتحمل عشرين ألف مقاتل، وقد تحركت تلك الحملة وتمكنت من فتح عدن ومسقط، وحاولت إسقاط قلعة البرتغاليين في هرمز، لكنها لم تنجح في ذلك[٤]، ومن تلك الحملات حملة القبطان (بيري محي الدين ريس)[٥] إلى الخليج

(١) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١/ ١٣، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٣٢٥.

(٢) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١/ ١٤.

(٣) انظر إلى تفاصيل تلك الجهود في: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٣٢٣.

(٤) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٢٤١، وانظر يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٣٣٠.

(٥) انظر إلى ترجمته في دائرة المعارف الإسلامية ج٩/ ١٠.

سنة ٩٥٨هـ / الموافق ١٥٥١م، وكانت تحتوي على ثلاثين سفينة تحمل قرابة ستة عشر ألف مقاتل [١]. وقد تحرك من السويس وخاض معارك شرسة مع البرتغاليين في عدن وتمكن من تطهيرها منهم، وتوجه بعد ذلك إلى مسقط وحاصرها حتى أجبر حاكمها البرتغالي على الاستسلام[٢] وتوجه منها إلى هرمز حيث خاض معركة مع حاكمها البرتغالي (الفارودي نورنها)، وتمكن من الاستيلاء على المدينة، إلا أن البرتغاليين احتفظوا بقلعتها ولم يتمكن من الوصول إليهم، وقد غادر بيري المنطقة إلى البصرة[٣] فجاءت نجدات جديدة للبرتغاليين في هرمز مكنتهم من تعزيز قواتهم مرة أخرى في الخليج العربي.

وقد قام مراد بك والي البصرة في عهد السلطان سليمان القانوني بإعداد أسطول واجه به البرتغاليين في العديد من المواقع في الخليج ومن أهم تلك المواجهات ماوقع بالقرب من القطيف سنة ٩٥٧هـ-١٥٥٠م، وكذلك خاض معركة بحرية قوية ضد(دييجو دي نورنها) القائد البرتغالي سنة٩٦١هـ، وقد انهزم العثمانيون في المعركة مما شجع البرتغاليين على التوغل في المنطقة أكثر من ذي قبل[٤].

(١)نوال الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ١٤٦، يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٣٣٣.

(٢)نوال الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ١٤٧، وانظر لوريمر : دليل الخليج القسم التاريخي ج١/ ١٧، والغريب في الأمر أن لوريمر يسمى بيري وغيره من القواد العثمانيين المدافعين عن الأراضي والبحار الإسلامية بالقراصنة « انظر التعليق في نفس الصفحة».

(٣) دائرة المعارف الإسلامية : ج٩/ ١١.

(٤)نوال الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج ١٤٩، وانظر لوريمر : دليل الخليج العربي، القسم التاريخي ج١/ ١٧.

ولكن تلك الهزيمة لم تثن من عزم السلطان العثماني سليمان القانوني فلم يتوقف عن مواجهة البرتغاليين، فبعد قرابة سنة أوكل إلى سيد علي ريس أحد القواد البحريين العثمانيين مهمة تلك المواجهة[١]، فأعد ذلك القائد أسطولاً في البصرة تحرك به في الخليج سنة ٩٦٢هـ، ودارت بينه وبين البرتغاليين معركة بحرية كبرى قرب الساحل العماني، وتمكن من إلحاق الهزيمة بهم رغم تفوقهم في عدد السفن، مما أجبر البرتغاليين على الفرار من ساحة المعركة فلحق بهم العثمانيون. ولعبت الرياح دوراً في تفريق السفن العثمانية، حيث لم تنجح في تحقيق هدفها في تصفية الوجود البرتغالي في هذه الموجة من المقاومة، وقد خاض العثمانيون معركة كبيرة مع البرتغاليين وأعوانهم في البحرين سنة ٩٦٦هـ/ ١٥٥٩م، حيث احتشد ١٢٠٠ جندي عثماني وتمكنوا من استدراج البرتغاليين حتى قتلوا منهم سبعين جندياً، مما دفع البرتغاليين لاستقدام مزيد من القوات من هرمز وبعض قواعدهم الأخرى والتضييق على العثمانيين حتى أجبروهم على الانسحاب مرة أخرى من البحرين[٢].

وقد دخل الخليج بعد ذلك في مرحلة تنافس بين بعض الدول الأوربية في وقت اضمحل فيه النفوذ البرتغالي، حيث أخذت كل من هولندا وبريطانيا وإسبانيا تحاول الوصول إلى المنطقة وبسط نفوذها عليها، وقد استقرت الأوضاع في المنطقة آخر الأمر لبريطانيا التي بدأت تتخذ لنفسها

---

(١) انظر يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٣٢٥.

(٢) لوريمر: دليل الخليج، القسم التاريخي، ج١/ ١٨.

قواعد رئيسية. وقد حرصت على دعم موقفها وقوتها في تلك المنطقة بعد استيلائها على الهند، حيث تمكن الانجليز من الاستيلاء على هرمز وطرد البرتغاليين منها سنة ١٠٣٢هـ ـ١٦٢٢م بتعاون مع الصفويين [١] الذين وضعوا أيديهم في أيدي البريطانيين والبرتغاليين من قبلهم بهدف الوقوف ضد العثمانيين، وبذلك أصبحت السيادة الأوربية في الخليج لبريطانيا.

وقد خف بعد ذلك اهتمام الدولة العثمانية بالخليج حيث انشغلت بقضايا أخرى، وكان تركيزها بالدرجة الأولى على الصراع مع الصفويين حول العراق ومناطق الحدود بين الدولتين، كما أن الدولة العثمانية قد مرت بعد ذلك بمراحل من الضعف، تمكن الأوربيون خلالها من البقاء في الخليج[٢]، بل ومن مد نفوذهم داخل الدولة العثمانية نفسها في مناطق العراق الخاضعة للعثمانيين وفي غيرها باسم التجارة والمعاهدات الدولية وغير ذلك من الأمور التي ظهرت في تلك الفترة[٣]، وقد لجأت الدولة العثمانية في فترات متأخرة إلى ضم قطر والإحساء إلى سلطاتها، وجعلت فيها حاميات عثمانية سنة ١٢٧٤هـ/ ١٨٧١م، لكن بريطانيا حذرتها من التدخل في البحرين أو تهديد قواعدها وطرقها البحرية[٤]، وأصبحت الأمور بعد ذلك

---

(١)لوريمر : دليل الخليج ، القسم التاريخي ج١/ ٤٦ .

(٢) انظر : د. عبد العزيز عبدا لغني : علاقة ساحل عمان ببريطانيا ٢٧٥ .

(٣) لوريمر : دليل الخليج ، القسم التاريخي ج١/ ٣٦٠، وانظر إلى أمثلة أخرى في : محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ٦٧٠ .

(٤) لوريمر : دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج١/ ٣٨٢، انظر : عبد العزيز عبد الغني : علاقة ساحل عمان ببريطانيا ٢٨٦ .

تسير عن طريق المفاوضات بين الطرفين حتىٰ قيام الحرب العالمية الأولىٰ وماتلاه من أحداث تقاسمت فيه أوربا تركة الدولة العثمانية، واحتلت معظم أنحاءالعالم العربي احتلالاً مباشراً، والذي كان خاضعاً للدولة العثمانية في تلك الفترةحيث لم يكن هناك من يستطيع الوقوف في وجه القوىٰ الاستعمارية الأوربية منذ سقطت الدولة العثمانية .

ميدان البحر المتوسط وشمال إفريقيا :

بعد نكبة المسلمين في الأندلس بسقوط غرناطة آخر معاقل الإسلام هناك لم تسلم سواحل المغرب العربي وشمال إفريقيا من محاولات الأوربيين مد أيديهم وقواتهم إليها، وبالتالي محاولة ضرب المسلمين في تلك المناطق، حيث كانت توجد مجموعة من الإمارات الإسلامية المتناثرة في تلك المنطقة من العالم الاسلامي، ولكنها إمارات ضعيفة وما كانت تستطيع الوقوف بنفسها ضد الغزاة الأوربيين، ورغم أن الأهالي كانوا متحمسين لمجاهدة الأوربيين وصدهم عن بلاد المغرب، بل ومحاولة الهجوم عليهم في الأندلس المسلوبة في تلك الحقبة، وإزاء هذه الأوضاع الخطيرة في المنطقة، كان لزاماً علىٰ الدولة العثمانية التدخل في الأوضاع القائمة للوقوف في وجه الغزاة الإسبان والأوربيين ونصرة المسلمين في المنطقة(١) .

وقد استغل السلطان سليم بعض البحارة المتعاونين مع المماليك في السابق من القوىٰ البحرية الموجودة في البحر الأبيض المتوسط ومنهم : (خير

(١) انظر : عادل سعيد بشتاوي : الأندلسيون المواركة ١١٧، عبد العزيز الشناوي : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها ج٢/ ٦٤ .

الدين بربروس) [1]وأخوه (عروج)، فأمدهما بالسفن والجند وطلب منهما الاستمرارفي منازلة الإسبان في السواحل الإسلامية مقابل البحار التونسية والجزائرية حالياً والتضييق عليهم، وتخليص المواقع التي استولوا عليها على الساحل الجزائري، وقد نجحا في التضييق على السفن الأوربية في البحر الأبيض المتوسط، كما قاما بتطهير بعض الجزر المحيطة بالبحرالجزائري، وقد استشهد عروج سنة ٩٢٢هـ-١٥١٦م في بعض المعارك ضد الإسبان في الجزائر[2]، واستمرخير الدين في ضرب سفن الأفرنج بل وتمكن في أيام السلطان سليمان القانوني من إنزال بعض قواته على الشواطئ الإيطالية والفرنسية والإسبانية وضرب القواعد العسكرية فيها، التي كانت تنطلق منها السفن إلى شمال إفريقية. وقدكان لتلك الأعمال صدى كبيراً في العالم الإسلامي وفي أوربا نفسها[3]، ومع ذلك فقد كان هناك تفكير لدى خير الدين وبدعم مباشرمن إستانبول في محاولة تخليص الأندلس من الإسبان الذين طردوا المسلمين [4]، وقد نجح عدة مرات في تخليص الألوف من

---

(١) انظر: بسام العسلي: خير الدين بربروس ط٢/ دار النفائس بيروت ١٤٠٣هـ.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٢٥٢، وانظر محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٢٣٠، بسام العسلي: خير الدين بربروس ١٠٢.

(٣) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية العثمانية ٢٣١، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٣٠٢، بسام العسلي: خير الدين بربروس ١٥٠.

(٤) انظر: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٢٥٣، ولمزيد من التوسع حول الموضوع راجع: د. عبد اللطيف محمد الحميد: موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس، الطبعة الأولى الرياض ١٤١٤هـ.

مسلمي الأندلس من الرجال والنساء والأطفال، وحملهم على سفنه من الأندلس بعد معارك مع الإسبان حيث أنجاهم من الحرق أحياء على أيدي الإسبان الذين كانوا يقومون بذلك دون رحمة (١)، وقد كانت تلك الأعمال تتم باسم السلطان العثماني سليمان القانوني، الذي أصدر أمراً بتعيين خير الدين قائداً عاماً للقوات البحرية العثمانية وطلب منه القدوم إلى استانبول لتولي هذا المنصب، مما جعل خير الدين يترك الساحة المغربية ويتوجه إلى إستانبول لتنفيذ الأمر بعد أن عين ابنه خلفاً له (٢)، وقد مر في طريقة من الجزائر إلى إستانبول بالسواحل الإسبانية، وقام بهجوم بحري كبير على سواحلها واستولى على عدد كبير من السفن الإسبانية (٣) ولم تدم غيبة هذا المجاهد عن الساحة طويلاً حيث عاد مرة أخرى إلى ساحة الجهاد ضد الغزو الأوربي لشمال إفريقيا، وقام بخوض معارك كبرى مع الإسبان في منطقة تونس سنة ٩٤١هـ-١٥٣٥م، إلا أن بعض أهالي المنطقة تعاونوا مع الإسبان مما اضطره إلى الانسحاب منها، حيث قام الإسبان بجرائم لامثيل لها فقتلوا مايزيد على ثلاثين ألف رجل واستحيوا ما يزيد على عشرة آلاف امرأة وأحرقوا العديد من المكتبات والمساجد (٤).

---

(١) انظر يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٢٥٧، بسام العسلي: خير الدين بربروس ١٢٦.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٢٥٨، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٢٣١، بسام العسلي: خير الدين بربروس ١٢٧.

(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٢٩٠، بسام العسلي: خير الدين بربروس ١٣١.

(٤) يلماز أوزتونا: المرجع السابق ٣٩٣، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٢٣٣.

وفي عام ٩٤٥هـ-١٥٣٨م أعدت البابوية أسطولاً صليبياً لمواجهة خير الدين، وقد أصدر البابا بعد اكتمال الحملة بياناً «نشره على البلاد الأوربية كلها أعلن فيه أن هذه الحملة هي حملة صليبية، وأن واجب كل مؤمن بالمسيح مخلص للنصرانية أن ينضم إليها وأن يشارك في محاربة الكافرين »(١) .

وقد تمكن خير الدين بعد فترة قصيرة من الإيقاع بهذا الأسطول البابوي المكون من سفن إيطالية وإسبانية وبابوية، حيث خاض معه معركة بحرية قوية انتهت بانتصار الأسطول العثماني انتصاراً حاسماً أقيمت له الاحتفالات في مختلف أنحاء الدولة العثمانية(٢)، وأصبحت السيطرة في البحر الأبيض المتوسط بعد هذه المعركة للأساطيل العثمانية دون منازع(٣)، وقد كان من نتيجة تلك المعركة أن حاولت الجيوش الأوربية الهجوم على الأساطيل العثمانية في الجزائر، ولكن قواد البحر العثمانيين كانوا لهم بالمرصاد، فهزموهم مرة أخرى، ولم يكتفوا بذلك، بل هجموا على بعض المواقع النصرانية في نواحي طرابلس الغرب وتمكنوا من تحريرها منهم، كما حرر العثمانيون بعض الجزر في البحر المتوسط من السيطرة الأوربية(٤)، واستمر خير الدين ومن معه في الجهاد البحري في البحر المتوسط، حيث كانوا يعملون باستمرار على استنزاف قوات العدو والتعرض لسفنه في البحر،

---

(١)بسام العسلي : خير الدين بربروس، ١٥٠ .

(٢) يلماز أوزتونا : المرجع السابق ٢٩٦، بسام العسلي : خير الدين بربروس ١٤٩ .

(٣)محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ٩٩ .

(٤) محمد حرب : المرجع السابق ٩٩ .

ومحاولة إيقاع أكبر الخسائر فيها، وكانوا في نظر الأوربيين قراصنة، أما في الواقع فهم الذين حموا بأعمالهم تلك سواحل الجزائر وما جاورها من القراصنة الحقيقيين الغزاة الأوربيين الذين كانوا يعملون على احتلال تلك المواطن والقضاء على الإسلام فيها، ومع جهاد خير الدين للأعداء النصارى في شمال إفريقيا فقد تمكن من تركيز الوجود العثماني في تلك المناطق [١] ولاتزال شعوب شمال إفريقيا المسلمة تنظر إلى خير الدين وإخوته وجنده بكل فخر واعتزاز وتعدهم نموذجاً رائعاً من المجاهدين في مرحلة حساسة من صراع المسلمين مع النصارى بعد سقوط الأندلس في أيدي الإسبان .

الجهاد العثماني ضد الروس :

لقد قامت الدولة العثمانية في القرن العاشر الهجري بالجهاد في مختلف أنحاء أوربا، وهدد السلطان سليمان القانوني وسط أوربا وغربها بحصاره المتكرر لـ (فينا) [٢]، مما استعدى أوربا النصرانية شرقيها وغربيها ضد الدولة العثمانية، وقد كانت روسيا القيصرية منذ ذلك الوقت وما بعده تحاول الوقوف في وجه الدولة العثمانية سواء بصفة مباشرة أو عن طريق دعم أعداء العثمانيين في البلقان وغيرها، وبخاصة في مراحل متأخرة من أيام الدولة العثمانية بعد أن أخذ الضعف يدب في أوصالها .

---

(١) يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٣٠٣ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ٢٣٠ ، بسام العسلي : خير الدين بربروس ١١٨ ، .

(٢) انظر إلى تفاصيل ذلك في يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٢٧٢ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ٢١٨ .

ففي القرن الهجري الثاني عشر، السابع عشر الميلادي نشطت روسيا القيصرية بزعامة بطرس الأكبر في التوسع في الأقاليم المجاورة لها، وكان يتزعم دعوات نصرانية لطرد العثمانيين من أوربا، وقام بجولة في أوربا لهذا الغرض[١]، وقد أعد روسيا في أيامه لهذه الغاية، وحاول التدخل لمساعدة الثوار ضد الدولة العثمانية في البلقان وفي القوقاز والقرم.

وحاول بطرس الأكبر الاستيلاء على ميناء (قازاق) العثماني على البحر الأسود وحاصره لفترة طويلة إلى أن تمكن من الاستيلاء عليه سنة ١١٠٧هـ/ ١٦٩٥م[٢]، وقد نشبت حرب جديدة بين العثمانيين والروس سنة ١١٢٣هـ ١٧١١م حول القزاق، قاد الجيوش العثمانية فيها الصدر الأعظم (بلطجي محمد باشا) الذي نجح في ضرب الجيوش الروسية بقيادة القيصر الروسي بطرس الأكبر، ورغم قوة الروس وتحصيناتهم وخنادقهم التي أقاموها، فقد شن العثمانيون هجمات قوية انتهت بانتصار العثمانيين والقضاء على آلاف الجنود الروس[٣]، كما نشبت حرب أخرى بين الدولتين سنة ١١٢٥هـ- ١٧١٣م انتهت بحصول الروس على كثير من الأراضي العثمانية على البحر

(١) علي حسون: العثمانيون والروس ٧١.
(٢) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٣٠٩، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٥٧٢، علي حسون: العثمانيون والروس ٧٥.
(٣) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٥٩٧، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٣١٣، علي حسون: العثمانيون والروس٧٦.

الأسود بناءً على معاهدة وقعت بين الطرفين(١).

وقد كانت الحرب بين العثمانيين والروس تتأثر كثيراً بالحروب بين الدولة العثمانية، وبقية أعدائها في أوربا، فانتصار العثمانيين كان يضغط على الروس ويدفعهم للتنازل أمام العثمانيين، والعكس صحيح، ونتيجة لذلك فقد خضع الروس سنة ١١٥٢هـ ـ ١٧٣٩م فردوا إلى العثمانيين العديد من المناطق التي احتلوها على البحر الأسود وقاموا بهدم مابنوه من تحصينات فيها بموجب معاهدة عرفت بمعاهدة بلغراد(٢). وقد وقعت حروب أخرى سنة ١١٨٤هـ ـ ١٧٧٠م بين العثمانيين من جهة والروس تعاونهم قوات أوربية أخرى من جهة ثانية حول بعض الجزر القريبة من اليونان كانت سجالاً بين الطرفين، كما حاول الروس احتلال طرابزون وغيرها، وقد نجح العثمانيون في صدهم رغم أنهم هددوا استانبول نفسها عن طريق البحر(٣)، وقد قامت محاولات عديدة في ذلك الوقت لعقد هدنة بين الدولة العثمانية وبين كاترينا إمبراطورة الروس، إلا أن غطرسة كاترينا وشروطها القاسية حالت دون ذلك، فاستؤنفت الحرب من جديد بين الروس والعثمانيين، وجرت معارك عديدة وقوية بين الطرفين في منطقة الدانوب انتصر فيها العثمانيون انتصارات

---

(١) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٥٩٧، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٣١٤.

(٢) يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٦١١، علي حسون: العثمانيون والروس ٧٩.

(٣) انظر: يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٦٢٥، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٣٣٦.

باهرة، وقتل من الروس في إحدىٰ تلك المعارك ما يزيد علىٰ ثمانية آلاف جندي، وقد تقهقر الروس بعد انهزامهم فقتلوا أعداداً كبيرة من النساء والشيوخ والأطفال المسلمين في المناطق التي مروا عليها، وقد كان القائد العثماني في تلك المعارك هو (عثمان باشا) الذي نال لقب الغازي نتيجة لتلك الانتصارات التي حققها(١).

وقد زحفت القوات الروسية علىٰ الأراضي العثمانية سنة ١١٨٧هـ/ ١٧٧٣م واجتازت نهر الدانوب والتقت مع قوات عثمانية يقودها الريس (أفندي عبدالرزاق)، وتمكن الروس من هزيمة الجيوش العثمانية، وعند ذلك جرت مفاوضات بين الطرفين انتهت بعقد معاهدة جديدة هي معاهدة كينارجة، والتي أعطت للروس حقوقاً عديدة في الأراضي والبحار العثمانية حيث أصبح لهم حق الملاحة والعبور خلال الموانئ العثمانية، وحق إنشاء الكنائس وحمايتها في بعض المناطق الخاضعة للدولة العثمانية (٢).

ورغم تلك المعاهدات فقد كان الروس يبحثون باستمرار عن الفرص المناسبة لابتلاع الأراضي الإسلامية المجاورة لهم بشعوبها المختلفة، وقد بذلوا جهوداً عديدة لزرع الاضطرابات في بلاد القرم لإيجاد مبرر للتدخل في تلك المناطق (٣)، وتمكنوا من دخولها والاستيلاء عليها، ورغم محاولات الدولة

---

(١) علي حسون: العثمانيون والروس ٨٢، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٣٣٧، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٦٢٧.

(٢) انظر إلىٰ شروط تلك المعاهدة التي عرفت بمعاهدة كينارجة في يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٦٢٨، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٣٤٢، علي حسون: العثمانيون والروس ٨٢.

(٣) علي حسون: العثمانيون والروس ٨٥، يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية ٦٣٦.

العثمانية المستمرة لاستعادة تلك المنطقة من السيطرة الروسية إلا أن ضغوط الدول الأوربية الأخرىٰ علىٰ العثمانيين عسكرياً وسياسياً نجحت في إقناع الدولة العثمانية بالرضىٰ بالواقع، والسكوت عن الاحتلال الروسي لتلك المنطقة (١) .

وقد استمرت الأوضاع في اضطراب بين العثمانيين والروس، حيث كان الروس يتبنون شعارات تدعو للقضاء علىٰ الدولة العثمانية، واستعادة الدولة البيزنطية مرة أخرىٰ، وقد كانت الدولة العثمانية في بداية القرن الثالث عشر الهجري تمر بظروف صعبة نظراً لتعاقب السلاطين عليها، واختلاف سياساتهم، وفي الوقت نفسه استمر الصراع مع الروس دون توقف بالإضافة للعديد من المشكلات بين العثمانيين وبقية الدول الأوربية التي أخذت تطمع في الأراضي العثمانية، ليس في أوربا فحسب، بل وفي مناطق المغرب الإسلامي في إفريقيا، وفي مصر خصوصاً بعد التحرك الأوربي الذي أعقب قيام الثورة الفرنسية، وما تبع ذلك من تحرك روسي وفرنسي وبريطاني استعماري، ومع ذلك فإن الدولة العثمانية كانت في تلك الفترة تعاني من العديد من المشكلات الداخلية الأخرىٰ، مع بذل محاولات جادة من قبل بعض السلاطين والقواد العثمانيين للتغلب علىٰ كل تلك المشكلات، وفي هذه الفترة العصيبة كانت الدولة العثمانية تضعف، وفي الوقت نفسه كانت الإمبراطورية الروسية تقوىٰ وخصوصاً بعد حروبها مع نابليون، وبالتالي فإنها

(١) علي حسون : العثمانيون والروس ٨٩ ،وانظر يلماز أوزتونا : تاريخ الدولة العثمانية ٢٣١ .

أخذت تستأسد على العثمانيين، الذين شغلوا بحروب أخرى مع إيران استمرت لعدة سنوات[١].

وفي سنة (١٢٢٦هـ/ ١٨١١م) وقعت معارك بين الروس والعثمانيين في منطقة الحدود الرومانية حيث حاول الروس احتلال بعض المدن العثمانية في تلك المنطقة، ونجحوا في بداية الأمر، إلا أن العثمانيين تمكنوا من استعادتها وأجبروا الروس على إخلائها بعد معارك مختلفة[٢].

قامت بعض الثورات بين اليونانيين ضد الدولة العثمانيين في سنة ١٢٤٣هـ ـ١٨٢٧م وتمكن القائد العثماني إبراهيم باشا من القضاء على تلك الثورات، فتحالفت روسيا مع بريطانيا وفرنسا وبروسيا (ألمانيا والنمسا) ضد الدولة العثمانية وذلك ابتغاء طرد ها من اليونان، فقامت أساطيل تلك الدول مجتمعة بمهاجمة السفن العثمانية في اليونان، وتمكنت من تحطيمها كاملة خلال فترة وجيزة حيث لم يكن الهجوم متوقعاً، وقد كانت روسيا هي المستفيد الأول من تحطيم الأسطول العثماني[٣]، حيث كانت على أهبة الاستعداد لاستغلال الفرصة، فتقدمت في الأراضي العثمانية واستولت على بوخارست عاصمة الأفلاق (رومانيا)، كما استولت على (وارنه) و(ياشي) وغيرها من المدن العثمانية التي تقع حالياً في رومانيا وبلغاريا، وقد استمر

(١) انظر يلماز أوزتونا: تاريخ الدولة العثمانية من ٦٢٣ـ٦٤٨. ولمزيد من التفاصيل حول هذه القضية راجع: د. محمد عبد اللطيف هريدي: الحروب العثمانية الفارسية وأثرها على المد الإسلامي في أوربا، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٨هـ.

(٢) علي حسون: العثمانيون والروس ٩٨، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٤٠١.

(٣) علي حسون: العثمانيون والروس ١٠٢، محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٤١٦.

القتال حول تلك المناطق حتىٰ عام ١٢٤٥هـ، فكان النصر في النهاية للروس، ورغم ذلك فإن العثمانيين أوقعوا بهم خسائر فادحة، وقد انتهت تلك المعارك بعقد معاهدة بين الطرفين عرفت بمعاهدة (أدرنه) أعطت الروس العديد من الامتيازات وحددت الحدود بين الطرفين (١) .

ورغم تلك المعاهدة فإن الروس والعثمانيين ظلوا في حالة ترقب، وجرت بينهم بعض المعارك حيث كانت روسيا تحاول استغلال الفرص لضرب العثمانيين والاستيلاء علىٰ الأراضي التابعة لهم في شرق أوربا، مما دفع بقية الدول الأوربية إلىٰ الشعور بالخوف من نمو القوة الروسية، حيث أصبح لدىٰ فرنسا وبريطانيا شعور معاد للروس، إذ كانت لدىٰ هاتين الدولتين الرغبة نفسها في الاستيلاء علىٰ بعض الأراضي العثمانية، خصوصاً أن الدولة العثمانية كانت تمر بمرحلة من الضعف دفعت تلك الدول إلىٰ التفكير الجدي في تقاسم أراضيها، ولذلك فقد سارعت بريطانيا وفرنسا بالتظاهر بالشفقة علىٰ العثمانيين وإظهار الرغبة في مساعدتهم في الحفاظ علىٰ أراضيهم والوقوف في وجه الروس، ودخلت تلك الدول مع العثمانيين في حرب ضد الروس سنة ١٢٦٢هـ-١٨٤٥م، وكان لذلك التحالف أسوأ الأثر علىٰ مستقبل العثمانيين في المنطقة، حيث خاضت الجيوش العثمانية معارك شجاعة يقودها عمر باشا الذي تمكن من هزيمة الروس حول مدينة (فارنة)، مما حدا بالروس إلىٰ الهرب وفي مقدمتهم قائدهم، فلحق بهم العثمانيون

---

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ٤٣١، وانظر إلىٰ شروط تلك المعاهدة في : علي حسون : العثمانيون والروس ١٠٢ - ١٠٤ .

للقضاء عليهم فمنعتهم جيوش الحلفاء الأوربيين للدولة العثمانية وعلىٰ رأسها الجيوش النمساوية، ولم يكتف الأوربيون بمنع العثمانيين من إتمام نصر محقق علىٰ الروس، بل إن النمساويين أنفسهم احتلوا البغدان والأفلاق، وبذلك فإن العثمانيين قد تخلصوا من الاحتلال الروسي لبعض المناطق فوقعت في يد الاحتلال النمساوي، ورضخ العثمانيون لهذا الأمر طمعاً في استمرار التحالف، وخوفاً من الدخول في حرب جديدة .

وقد انتقلت ساحة المعارك بين العثمانيين وحلفائها الأوربيين إلىٰ السواحل الشمالية لروسيا ، ووقعت معارك بحرية حول مدينة بطرسبرج سنة ١٢٧٠هـ ـ١٨٥٣م، كما تمكن الحلفاء من احتلال بعض الموانئ الروسية في بحر البلطيق، وتقدموا في جبهات أخرىٰ حتىٰ كادوا أن يتمكنوا من احتلال (كييف) نفسها، وبالتالي آثر الروس المفاوضات علىٰ الحرب[1]، وجرت المفاوضات بين الحلفاء ومعهم العثمانيون من جهة وبين الروس من جهة أخرىٰ، ووقعت اتفاقية باريس بين مختلف الأطراف في نفس السنة [2]، وانتهت بذلك الحرب العثمانية مع روسيا مؤقتاً مع بقاء الأطماع الروسية والأوربية في الدولة العثمانية وممتلكاتها، وبالتالي فقد ظلت تلك الدول مجتمعة تعمل علىٰ إثارة المشكلات المختلفة في الدولة العثمانية [3]، عن

---

(١) انظر : علي حسون : العثمانيون والروس ١١٥ ، محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية٤٩٩ .

(٢) انظر : علي حسون : العثمانيون والروس ١١٧ ، انظر نص الاتفاقية في : محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية٥١٣ .

(٣) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ٦١٠ ، وانظر محمد حرب : العثمانيون في التاريخ والحضارة ٢٠٣ .

طريق دعم الثورات، والأقليات العرقية والدينية، وتأسيس جمعيات سرية تعمل ضد الدولة العثمانية وإمدادها بالسلاح والمال، في محاولات جادة لإضعاف الدولة العثمانية وتقويض بنائها، وبالتالي زادت حركات العصيان والتمرد ضد العثمانيين في مختلف أقاليم الدولة الأوربية (١).

وفي أواخر عصر الدولة العثمانية، وبالذات في عهد السلطان العثماني عبد الحميد الثاني(١٢٩٣هـ-١٣٢٧ هـ الموافق ١٨٧٦م ١٩٠٩م) كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوربية في البلقان واليونان وغيرها من الأقاليم العثمانية الأوربية، وقد قام الولاة والقادة العثمانيون بالقضاء على معظم تلك الثورات، مما أثار الرأي العام الأوربي ضد العثمانيين، وقد قامت الدولة العثمانية سنة ١٢٩٣هـ بضربة قوية للصرب الذين حشدوا قوات كبرى لطرد العثمانيين من البلقان فكان النصر حليف العثمانيين وكسروا شوكة أعدائهم في البلقان، مما دعا روسيا إلى إعلان العداء مرة أخرى ضد الدولة العثمانية وتجميع قواتها استعداداً لمحاربة العثمانيين(٢)، وقد بذلت مناورات دولية لإرغام العثمانيين على التخلي عن بعض مقاطعاتهم الأوربية لصالح النصارى هناك، واشترك في ذلك كل من فرنسا وبريطانيا والنمسا الذين حضر مندوبون عنهم مؤتمراً في إستانبول سنة ١٢٩٤هـ-١٨٧٧م، إلا أن المؤتمر

---

(١) انظر : محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ٦٠٥ .

(٢) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ٦١٦ . وانظر : علي حسون : العثمانيون والروس ١٣٤ .

انفض دون أن تتفق أطرافه على شيء محدد (١)، حيث أصر العثمانيون على التمسك بتلك المناطق مع ضمان المساواة فيها بين المسلمين وغيرهم، ولكن الأوربيين كانوا يطالبون الدولة العثمانية بالخروج من تلك الأقاليم دون قيد أو شرط، وهذا يعني بالطبع استغلال ضعف الدولة وتهديداً خطيراً للمسلمين في تلك المناطق والذين سيتعرضون للقتل والاضطهاد مما دعا الدولة العثمانية لاتخاذ موقف متشدد.

وقد أرسلت مذكرات تهديد إلى الدولة العثمانية للضغط عليها، ولكن العثمانيين لم يتراجعوا عن موقفهم في الاحتفاظ بمواقعهم شرق أوربا، وبالتالي أعلنت روسيا بعد إعداد تام الحرب على الدولة العثمانية، فزحفت جيوشها الجرارة على الحدود الشرقية للدولة العثمانية، بعد أن تحالفت مع رومانيا التي كانت خاضعة في السابق للعثمانيين، فانضمت إلى روسيا في هذه الحرب، ووقع سكانها المسلمون في المصيدة بين الجيوش الروسية والنصارى الرومانيين، وقد توجهت الجيوش العثمانية لملاقاة الغزاة الروس، وأصدر العلماء في أسطنبول فتاوى بوجوب القتال على القادرين، وأعلن السلطان عبد الحميد حالة الحرب في كافة أنحاء الدولة العثمانية، وتأكيداً لذلك فقد أضاف إلى لقبه الغازي عبد الحميد، تأكيداً لحالة الحرب التي يعيشها، وذلك تقليد اتبعه السلاطين العثمانيون المحاربون(٢)، وعبرت

---

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٦١٩، وانظر علي حسون: العثمانيون والروس ١٣٥.

(٢) انظر محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٦٢٨، وانظر علي حسون: العثمانيون والروس ١٣٤.

الجيوش الروسية نهر الدانوب واستولت على بعض المدن التابعة للعثمانيين ومنها تيرنوه ونيقو بلي تقع في بلغاريا حاليا كما استولى الروس على بعض النقاط الحساسة والمعابر المؤدية إلى البلقان، وقام السلطان عبد الحميد بتغيير كبير في قيادات الجيوش العثمانية للتصدي للغزو الروسي، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة (بلفنه) تقع في بلغاريا حالياً وهي من أهم المعابر إلى البلقان، ولكن القائد العثماني الشجاع الغازي (عثمان باشا) تصدى لهم بكل شجاعة، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة ومع ذلك نجح ذلك القائد العثماني الفذ في التصدي للروس مرة أخرى، مما جعل السلطان العثماني يصدر مرسوماً خاصاً في الثناء على ذلك القائد (١).

وأمام هذا الصمود حاول الروس التغيير من سياستهم في الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإمدادات من الوصول إلى الجيوش العثمانية فيها، وفي الوقت نفسه عززوا قواتهم وحضر القيصر الروسي ومعه أشهر قواته للإشراف بنفسه على المعركة القادمة، وقد كان لحضوره أثر كبير في رفع معنويات القوات الروسية، كما حدثت خيانة من أمير رومانيا الذي يفترض أنه مع العثمانيين، أو أن يقف محايداً على الأقل، ولكنه انضم بقواته البالغة مائة ألف مقاتل إلى الروس، فأصبحت الكفة العسكرية في صالح الروس، حيث تجاوز عددهم ١٥٠ ألف مقاتل،

---

(١) محمد فريد بك المحامي: تاريخ الدولة العلية ٦٣١، أورخان محمد علي: السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده ١٣٣.

ففرضوا حصاراً من ثلاثة خطوط على القوات العثمانية، ومع هذا فإن العثمانيين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الأبطال، ورغم أن عددهم كان قرابة ٥٠ ألف مقاتل، فإنهم لم يكتفوا بذلك الصمود، بل أعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إما النصر وفك الحصار عنهم أو الشهادة.

وقاد عثمان باشا قواته التي انحدرت على الأعداء وهم يهللون ويكبرون، فسقطت أعدادكبيرة منهم شهداء على أيدي قوات الروس، ومع ذلك فقد تمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين والخط الثاني، واستولوا على المدافع فيه، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث فسرت إشاعة قوية بين جنده باستشهاده ففت ذلك في عضدهم، وحاولوا الرجوع إلى المدينة، ولكن بعض قوات الروس أصبحت داخلها، وبذلك أصبح الجند العثمانيون في العراء بين نيران العدو المختلفة، فاضطروا إلى الاستسلام للقوات الروسية. وكان ذلك في ١٢٩٤هـ أواخر سنة ١٨٧٧م، وقد سلم القائد العثماني نفسه وهو جريح إلى الروس الذين كانوا معجبين به ويشيدون بشجاعته وإقدامه (١).

وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب في البلقان على التحرك ضد العثمانيين، وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فأشغلتهم عن الروس، الذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال

---

(١) محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلية ٦٣٤، وانظر علي حسون: العثمانيون والروس ١٣٦، أورخان محمد علي: السلطان عبد الحميد ١٣٣.

مناطق جديدة. وبالفعل تمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة رومانيا حاليا) ولم يكتف الروس بهذا، بل توجهوا جنوباً ناحية العاصمة العثمانية (إستانبول) وتمكنوا من احتلال أدرنة العاصمة العثمانية القديمة، ووصلوا إلى مواقع لاتبعد سوى خمسين كيلومتراً عن إستانبول، وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئاً إلي أبعد الحدود .

وفي الوقت نفسه كانت تجري العديد من المعارك بين العثمانيين والروس في الجانب الآسيوي حيث وصل الروس إلى الأناضول، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة (أحمد مختار باشا) على الروس في أكثر من ست معارك، مما جعل السلطان عبد الحميد يصدر مرسوماً في الثناء عليه ، وقد عاود الروس الهجوم في تلك المناطق مرة أخرى وتمكنوا سنة ١٢٩٥هـ من إنزال الهزائم بالقوات العثمانية والاستيلاء على بعض المناطق في الأناضول نفسها[١]، وأمام تلك الهزائم العثمانية في أوربا وفي آسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول في هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة (سان ستيفانس) التي سلخت معظم الأجزاء العثمانية في أوربا بما في ذلك البلقان رومانيا وبلغاريا، إضافة إلى دفع العثمانيين تعويضات للروس مقابل ماخسروه في الحرب، وقد كانت تلك المعاهدة إذلالاً للعثمانيين لم يسبق له مثيل، ومن الجدير بالذكر أن الدولة العثمانية

(١) محمد فريد بك : تاريخ الدولة العلية ٦٣٥، علي حسون : العثمانيون والروس ١٣٦، أورخان محمد علي : السلطان عبد الحميد ١٣٨ .

قبيل تلك الفترة قد مرت بتغير خطير، حيث أعلنت فيها المساواة بين المسلمين وغيرهم واعتبر جميع الرعايا العثمانيون مواطنين دون أي تمييز، وبموجب ذلك فإن بعض النصارىٰ دخلوا في الجيش، وكان لبعضهم أثر كبير في الهزائم التي وقعت، مع أنه بقي في صفوف العثمانيين من قاتل دفاعاً عن الإسلام، حيث كان لديهم شعور قوي أن روسيا حينما دخلت الحرب مع العثمانيين كانت بدوافع دينية نصرانية بالدرجة الأولىٰ، وأن صراع الأوربيين عموماً مع العثمانيين في تلك الفترة كان صراعاً دينياً علىٰ هذا النحو، رغم تظاهر دولهم في تلك الحقبة بالحرية والعصرانية والمساواة وغير ذلك من الشعارات البراقة التي كانوا يرفعونها، .

ورغم ما حدث للعثمانيين من خذلان وضعف نتيجة تلك المعاهدة فإن المسلمين في المناطق التي أخذها الروس أصبحوا يشكلون ضغوطاً كبرىٰ علىٰ روسيا. وقد تعرض المسلمون في تلك المناطق لمذابح كبرىٰ علىٰ يد النصارىٰ أمام مسمع أوربا، وأخذ الملايين منهم يهاجرون إلىٰ داخل الدولة العثمانية، حيث صاروا لاجئين يشكلون عبئاً كبير علىٰ حكومة أسطنبول. وبهذه الهجرات أخذ الوجود الإسلامي في تلك المناطق يقل، ويضعف إلىٰ حد كبير، مما زاد من قبضة النصارىٰ في تلك المناطق. كما أن الدول الأوربية الأخرىٰ كانت حريصة علىٰ إضعاف الدور الروسي في المنطقة، وفي الوقت نفسه القضاء نهائياً علىٰ الدولة العثمانية، وقد واتتها تلك الفرصة في الحرب العالمية الأولىٰ بعد أن نخرت القومية التركية في جسد الدولة العثمانية واستعدت عليها الشعوب العربية وغيرها من القوميات.

وبعد أن ضاعت هوية العثمانيين الإسلامية ضاعوا وانحدرت تركيا وشعوبها إلىٰ الحضيض بعد أن كانت خلال قرون أقوىٰ الدول الإسلامية في آسيا بل وأقوىٰ الدول الأوربية في القرن العاشر الهجري دون منازع، وهكذا نرىٰ أنهم أضاعوا الإسلام فضاعوا، وبقي الإسلام. وسيأتي الله بإذنه بقوم ينصرونه .

الخاتمة

من خلال الاطلاع على حركة الجهاد الإسلامية ومسيرتها عبر العصور المختلفة يتضح أن الجهاد كانت له أهدافه منذ عهد رسول الله ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وعلى رأس تلك الأهداف فتح المناطق للدعوة الإسلامية، والمحافظة على أماكن سبق فتحها، وقد تراوحت حركات الجهاد عبر العصور بين هذين الهدفين.

ولقد كانت البدايات الأولى للجهاد في أيام رسول الله ﷺ، ولم تكن موجهة ضد قوم معينين، بل كانت ضد كل من عاند دعوة الإسلام، وعلى رأس هؤلاء قريش قبيلة الرسول ﷺ، حيث وجه إليهم رسول الله ﷺ جزءاً كبيراً من جهاده، في الوقت الذي وجه فيه الجزء الآخر ضد اليهود المعاندين للدعوة سواءً بسواء لافرق بين هؤلاء وأولئك.

كما أن من الملاحظ أن حركة الجهاد لم تتوقف في أي عصر من عصور الإسلام المختلفة، فإذا تخلى عنها قوم قام بها قوم آخرون، كما حصل في أواخر العصر العباسي، حيث حمل الغزنويون والزنكيون والأيوبيون راية الجهاد حينما تخلى عنها بنو العباس، كما حملها العثمانيون الأتراك حينما تخلى عنها العرب واختفوا وراء الظل، وبالتالي فإن الجهاد الإسلامي لم يكن مرتبطاً بقوم أوجماعة معينين.

ومن خلال الدراسة يتضح أن المحافظة على المناطق الإسلامية من غزو الأعداء تعدُّ أكثر صعوبة في معظم الأحيان من الفتح نفسه، ولذلك نجد أن العديد من المناطق قد فتحها المسلمون أو أعادوا فتحها مرات متكررة .

ويتضح كذلك أن نجاح الحركات الجهادية يتوقف على الالتزام بتعاليم الإسلام الشرعية، وعلى رأس ذلك إعداد القوة والاستعداد في كل الأوقات لمواجهة الأعداء بالسلاح والرجال، ولذا فإن القواد الذين يحرصون على ذلك كانوا أكثر الناس نجاحاً في جهادهم ضد أعداء الإسلام .

كما اتضح من خلال الدراسة أن المتطوعة، وهم الجند غير النظاميين الذين تحركهم الدوافع الدينية فقط، هم أكثر الناس حرصاً على الجهاد وهم وقوده الرئيس، ويكثر وجودهم مع القواد الأتقياء .

وكان للمجاهدين المخلصين ولايزالون مكانتهم الخاصة في ذهن الأمة، فمهما طال بها الزمن فلن تنسى هؤلاء أمثال : خالد بن الوليد، والمثنى بن حارثة، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص ومن ماثلهم من الصحابة رضي الله عنهم، وأمثال : عقبة بن نافع، ومحمد بن القاسم وقتيبة بن مسلم، وطارق بن زياد، ومحمود الغزنوي، وألب أرسلان، وعماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين الأيوبي، وسيف الدين قطز، ومحمد الفاتح وغيرهم ممن شهدت لهم الأمة بالخير والجهاد رحمهم الله تعالى . ولذلك فإن المصادر التاريخية الإسلامية كانت وفية مع هؤلاء فرصدت أخبارهم وأثنت عليهم خيراً .

كما أنه من خلال الدراسة يتضح أن أعداء الإسلام لا يتركون المسلمين وإن تركوهم، ففي الحروب الصليبية أكبر مثال على ذلك؛ حيث حاول الفرنجة الوصول إلى الحجاز ووسط الجزيرة العربية .

ولاشك أن هناك ارتباطاً بين واقع الأمة الحالي وتاريخها السابق، فصراع المسلمين مع العالم الغربي النصراني ومع اليهود وقوى الكفر المختلفة ما هو إلا امتداد للصراع السابق منذ أيام الرسول ﷺ حتى أواخر العصر العثماني، وإلى يومنا الحاضر، ولن ينتصر المسلمون على أعدائهم إلا بالأسباب التي انتصروا بها سابقاً، والتي تتلخص بأخذ الإسلام كاملاً غير منقوص، حيث إن الجهاد وقواعده المختلفة من أهم ما قرره الإسلام للعزة والقوة، ونحن نعيش اليوم في عالم لايُحْتَرَم فيه إلا القوي الذي يفرض وجوده على الواقع، والقوة لاتعني الاعتداء، بل القدرة على الدفاع، ومن أهم وسائل الدفاع في كثير من الأحيان الهجوم، وهي قاعدة فهمها المجاهدون الأوائل، وفهمتها بعض القوى المعادية للإسلام اليوم.

إن حركات الجهاد كثيرة ويصعب ذكرها بهذا الاختصار، لكني حاولت أن آخذ أمثلة لكل عصر من العصور، لنرى بعض ما فيه من حركات جهادية، كما أن للأمة جنوداً مجهولين قد لايرد ذكرهم في المصادر التاريخية، لكن أجرهم عند الله عظيم وأعمالهم مسجلة في كتاب ﴿ **لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾.

وقد سعيت هنا إلى توثيق الحوادث وتأصيل المواقف من خلال المنظور

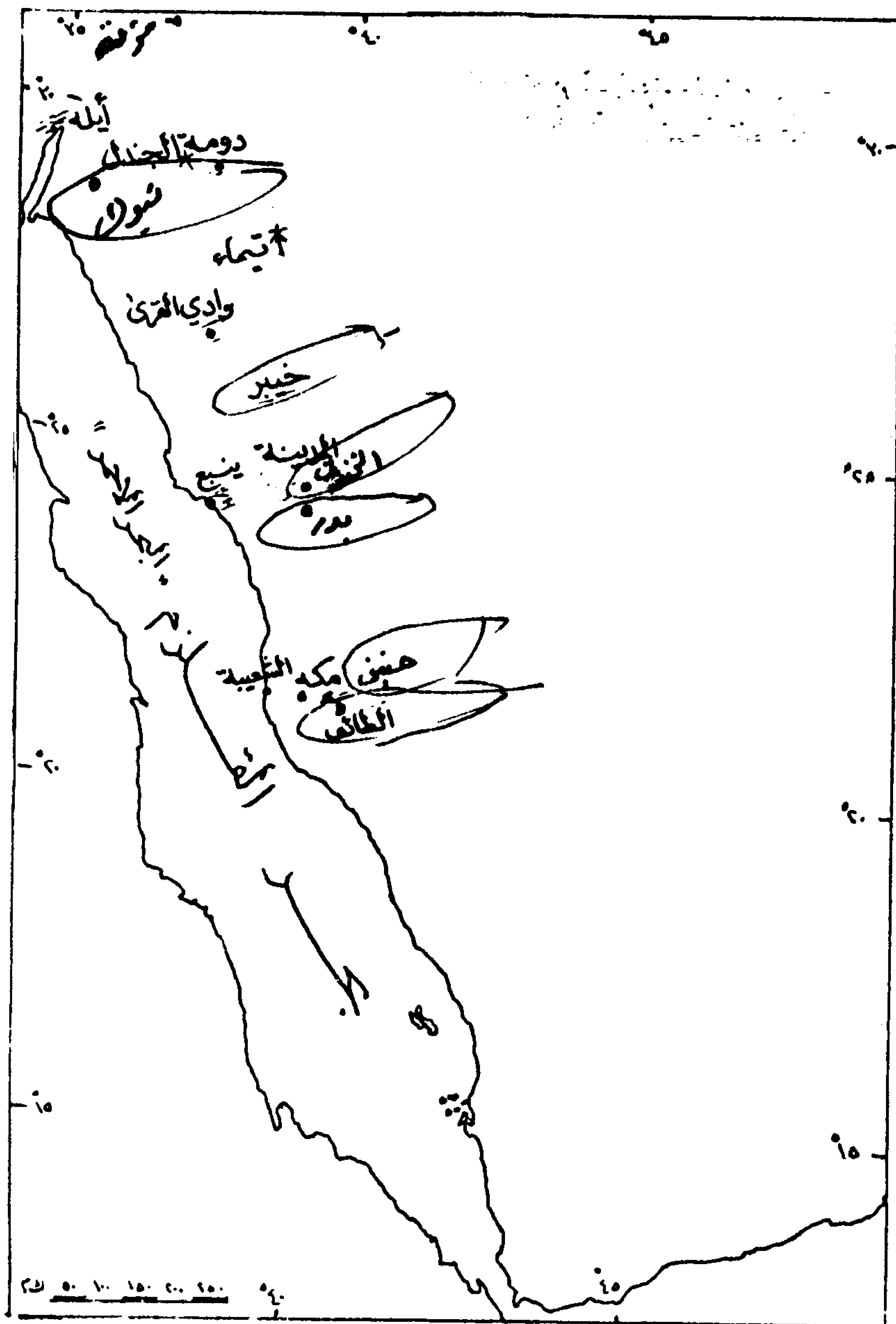
الإسلامي والعلمي للأحداث التي صحبت حركة الجهاد في سبيل الله، وناقشت بعض المؤلفين السابقين واللاحقين في تفسير التاريخ واجتهدت في استنباط الدروس متخطياً مجرد السرد التاريخي لهذه الحركة المباركة.

رحم الله مجاهدي الأمة ومن ناصرهم وأعز الإسلام وجنده وجعلنا ممن أعزهم الله بالإسلام، وأعز بهم الإسلام.

الخـرائط

بعض مواقع غزوات الرسول ﷺ

(من تصميم الباحث)

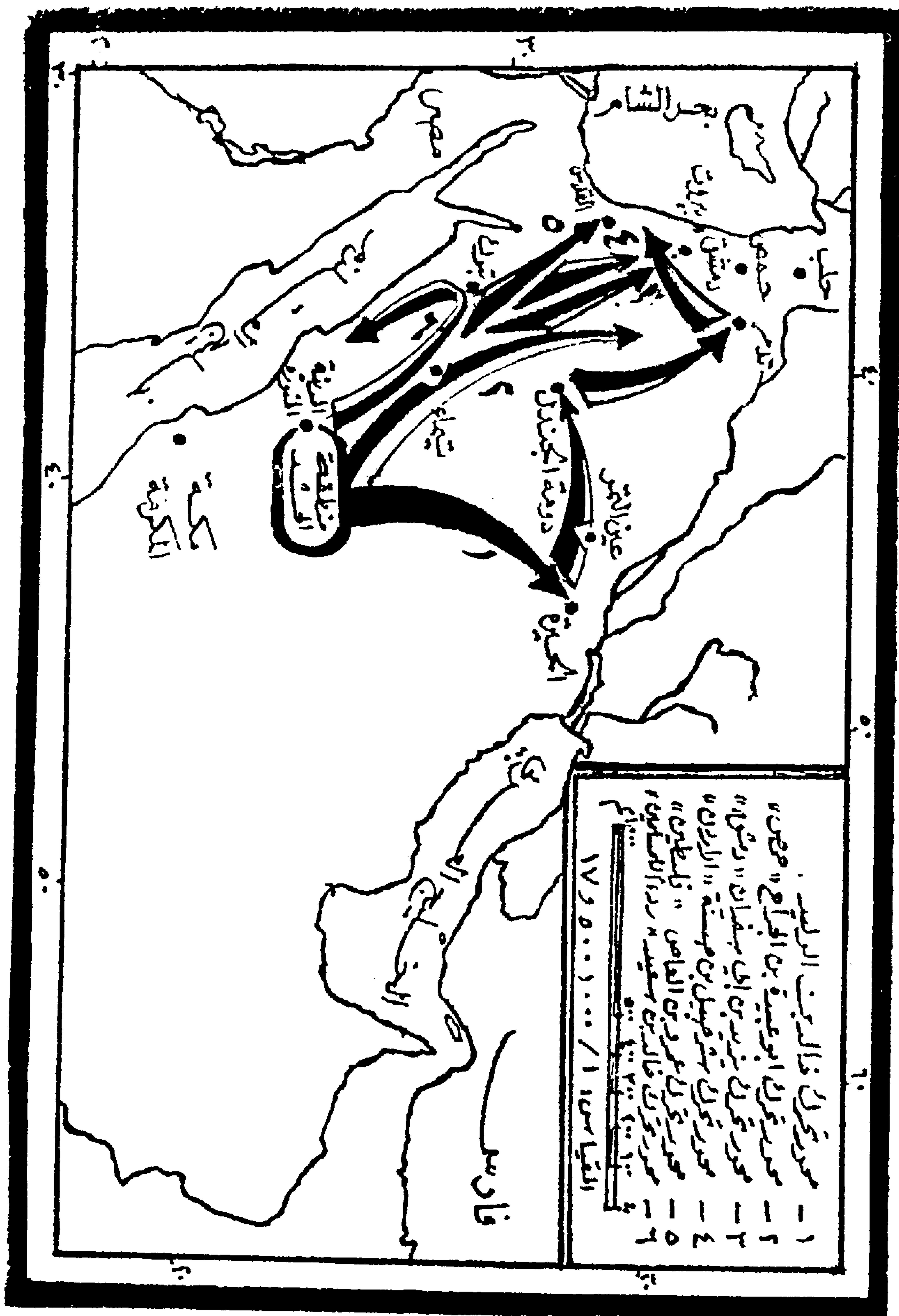


موقع غزوة حنين والطائف

(نقلاً عن أ . أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ص ١٢٤)

مخطط تحرك قوات المسلمين لفتح الشام ١٣ هـ / ٦٣٤ م

(نقلاً عن محمد أحمد باشميل : حروب الإسلام في الشام ص ٢٥)



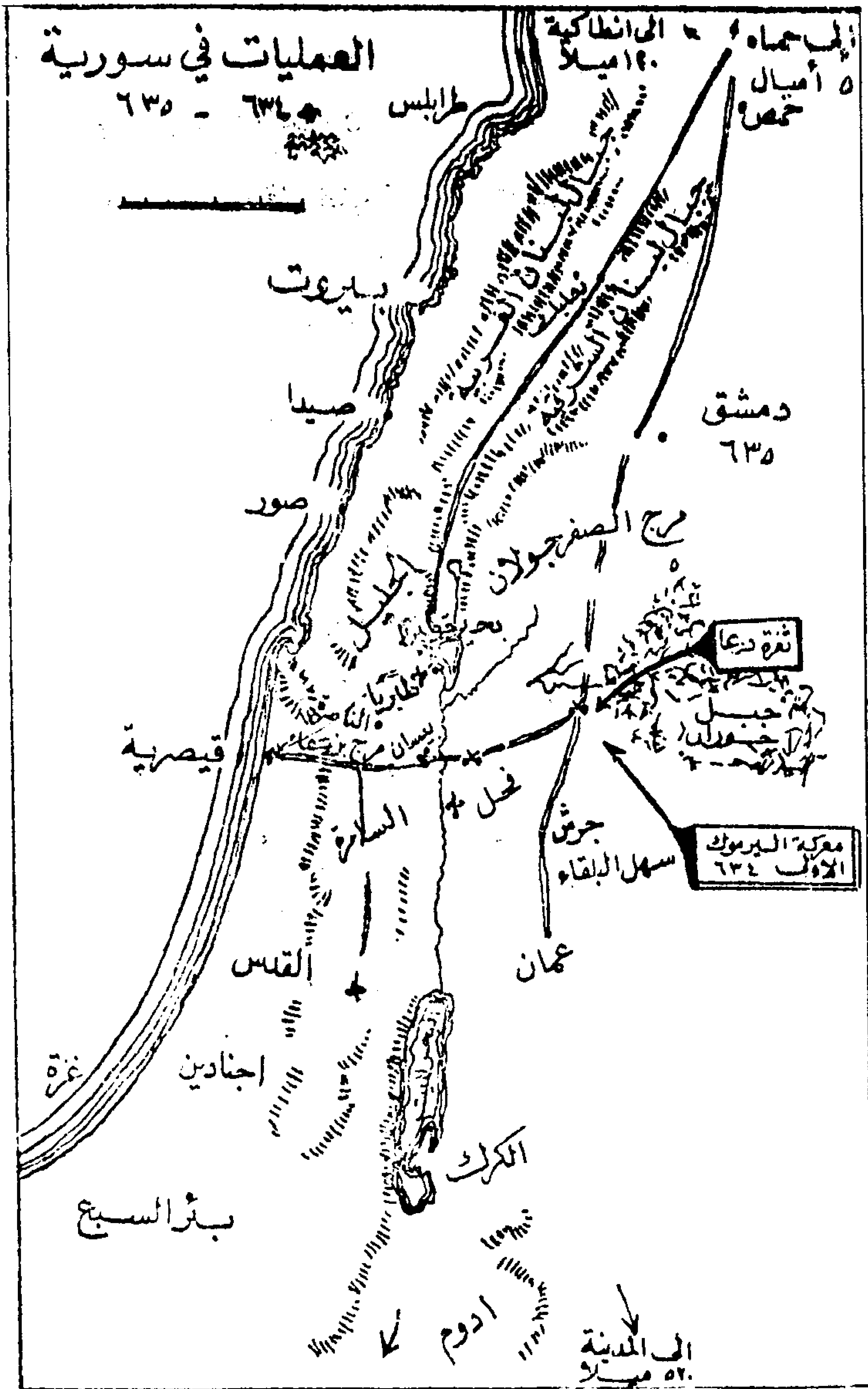
الفتوح الأولى في بلاد الشام

(نقلاً عن أ . أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ص ٣٤٦)

طرابلس
حمص
تدمر
البحر الابيض المتوسط
الشمال
القريتين
بعلبك
بيروت
دمشق
صور
الجابية
ياقوصة
بصرى
قيسارية
فحل
جرش
يافا
أريحا
عمان
القدس
البحر الميت
غزه
اجنادين
مؤته
فلسطين
الاردن
المصطلحات
١ .. عمرو بن العاص
٢ .. شرحبيل
٣ .. يزيد
٤ .. ابو عبيده
معان
المرشرش
خليج العقبة
المقياس
١/٠٠٠و٠٠٠ر٤

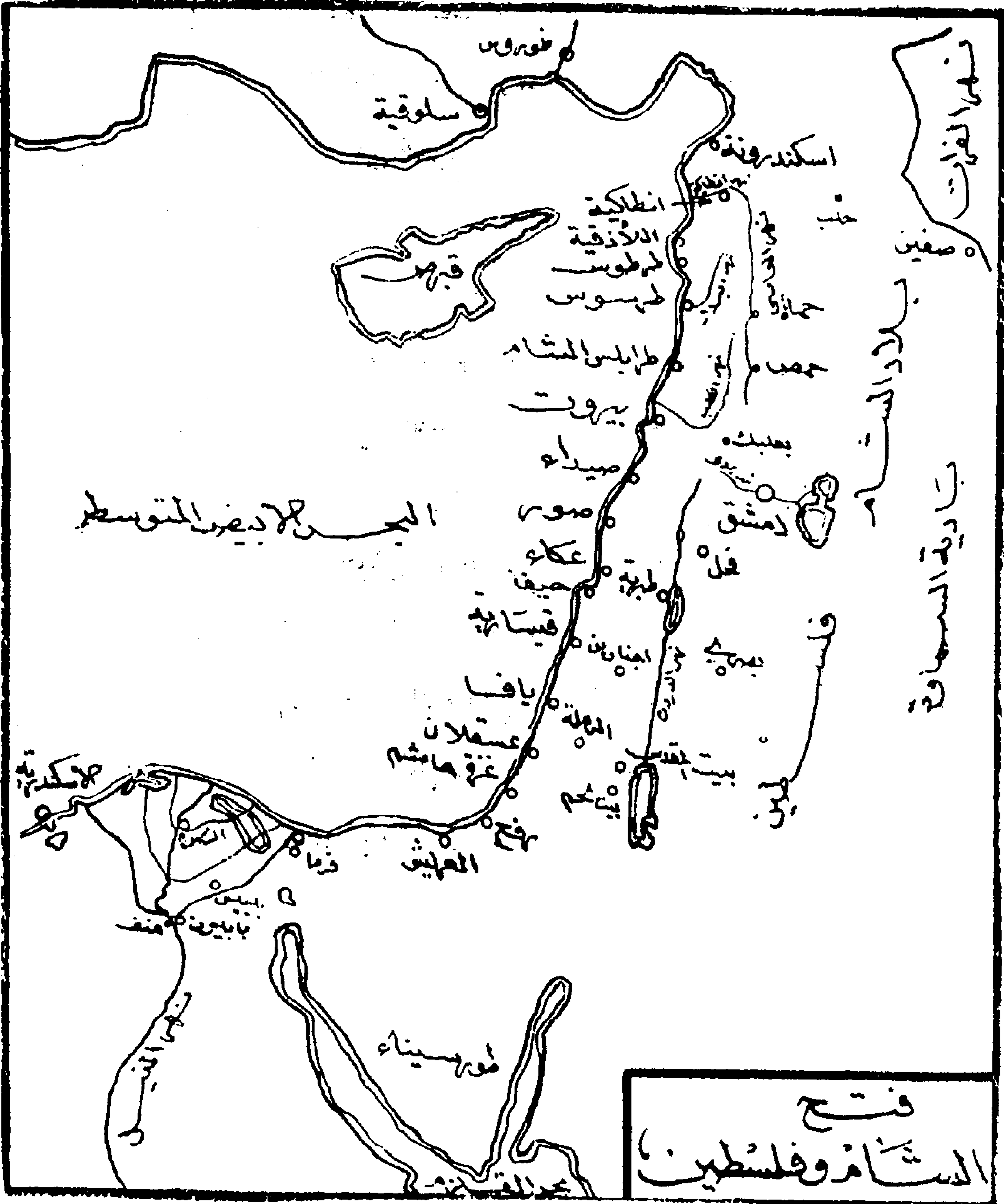
العمليات في سورية

(نقلاً عن محمد أحمد باشميل : حروب الإسلام في الشام ص ٢٩٠)



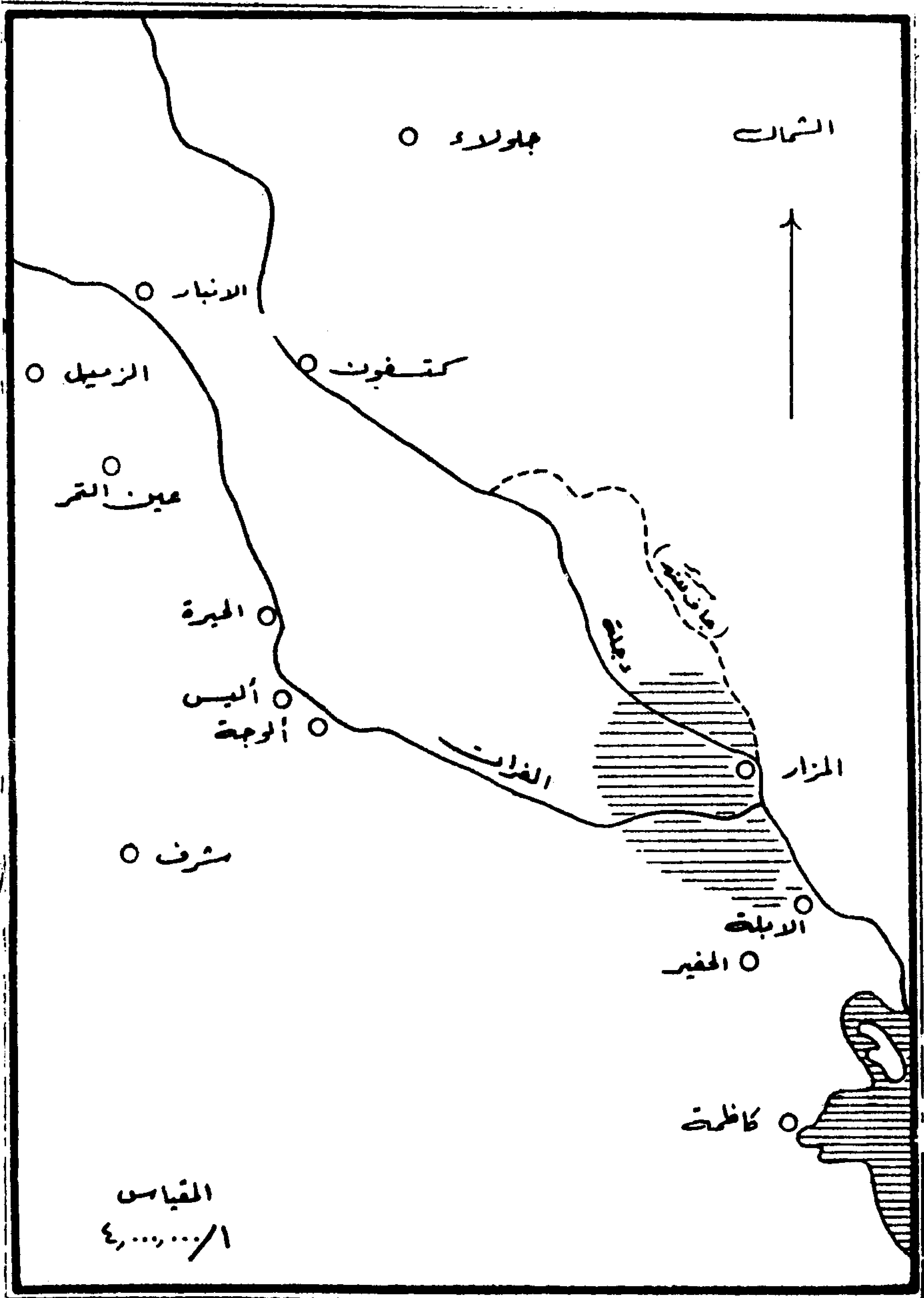
فتح الشام وفلسطين

(نقلاً عن محمد أحمد باشميل : حروب الإسلام في الشام ص ١٣٠)



فتوح العراق الأولى

(نقلاً عن أ . أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ص ٢٤٢ ـ بتصرف)



فتوح خالد بن الوليد في العراق

(نقلاً عن أ . أكرم : سيف الله خالد بن الوليد ص ٣١٩ ـ بتصرف)

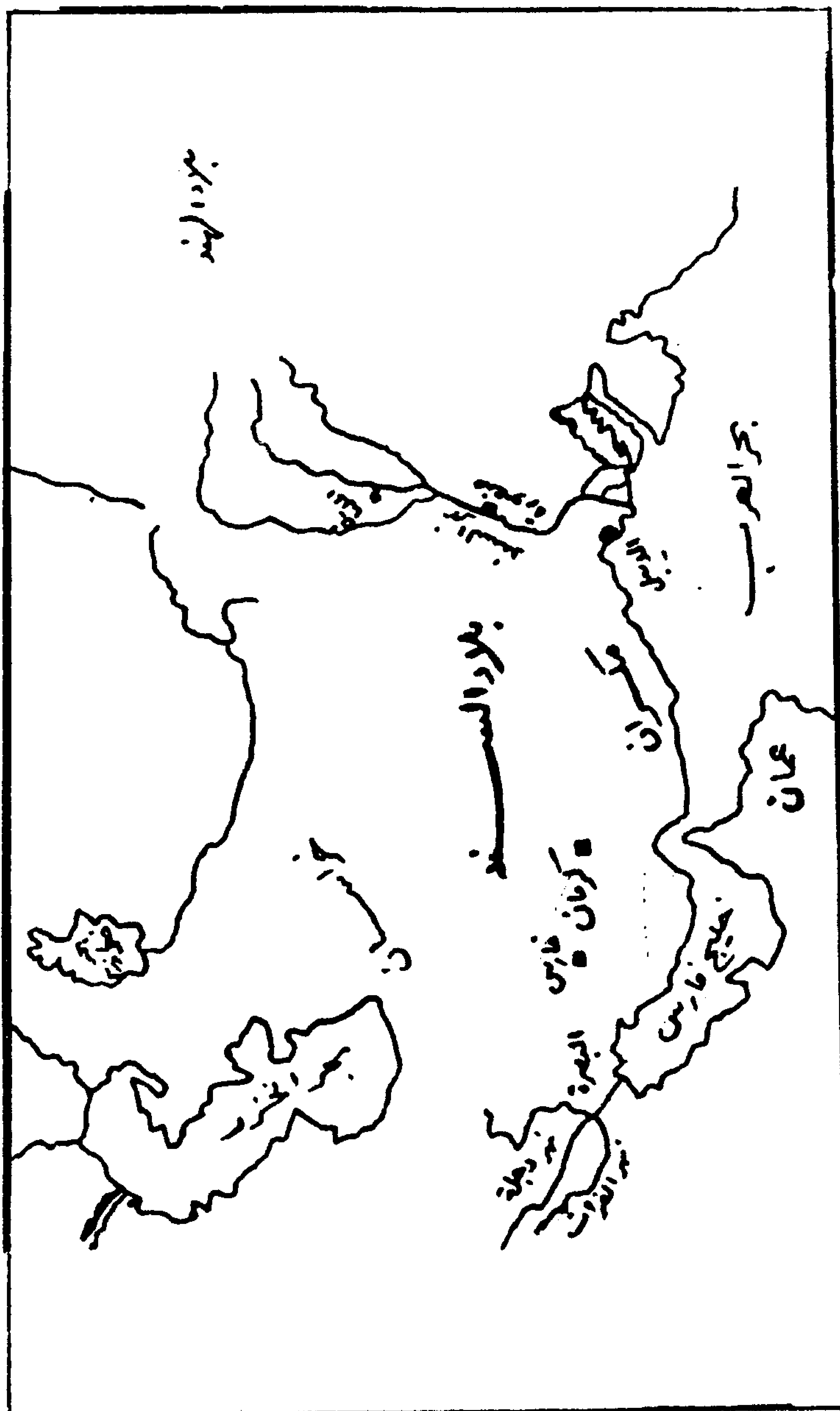


مناطق الثغور في الشام

(نقلاً عن محمد أحمد باشميل : حروب الإسلام في الشام ص ٤٤٣)

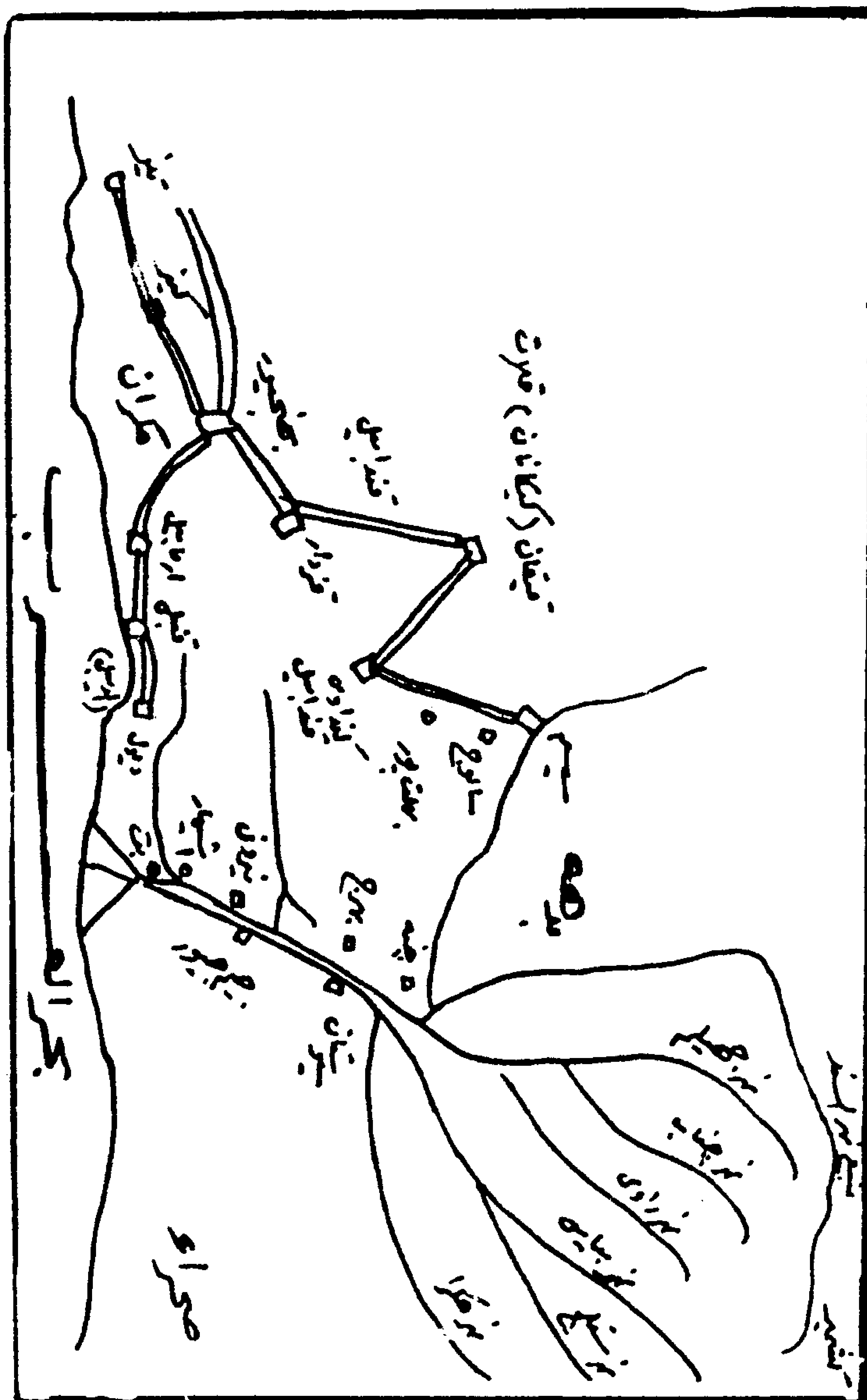
خريطة بلاد السند وموقعها بالنسبة للبلاد المجاورة لها (سنة ١٣٩١هـ)

(نقلاً عن د. عبد الله الطرازي : موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب ص ٣٨٦)



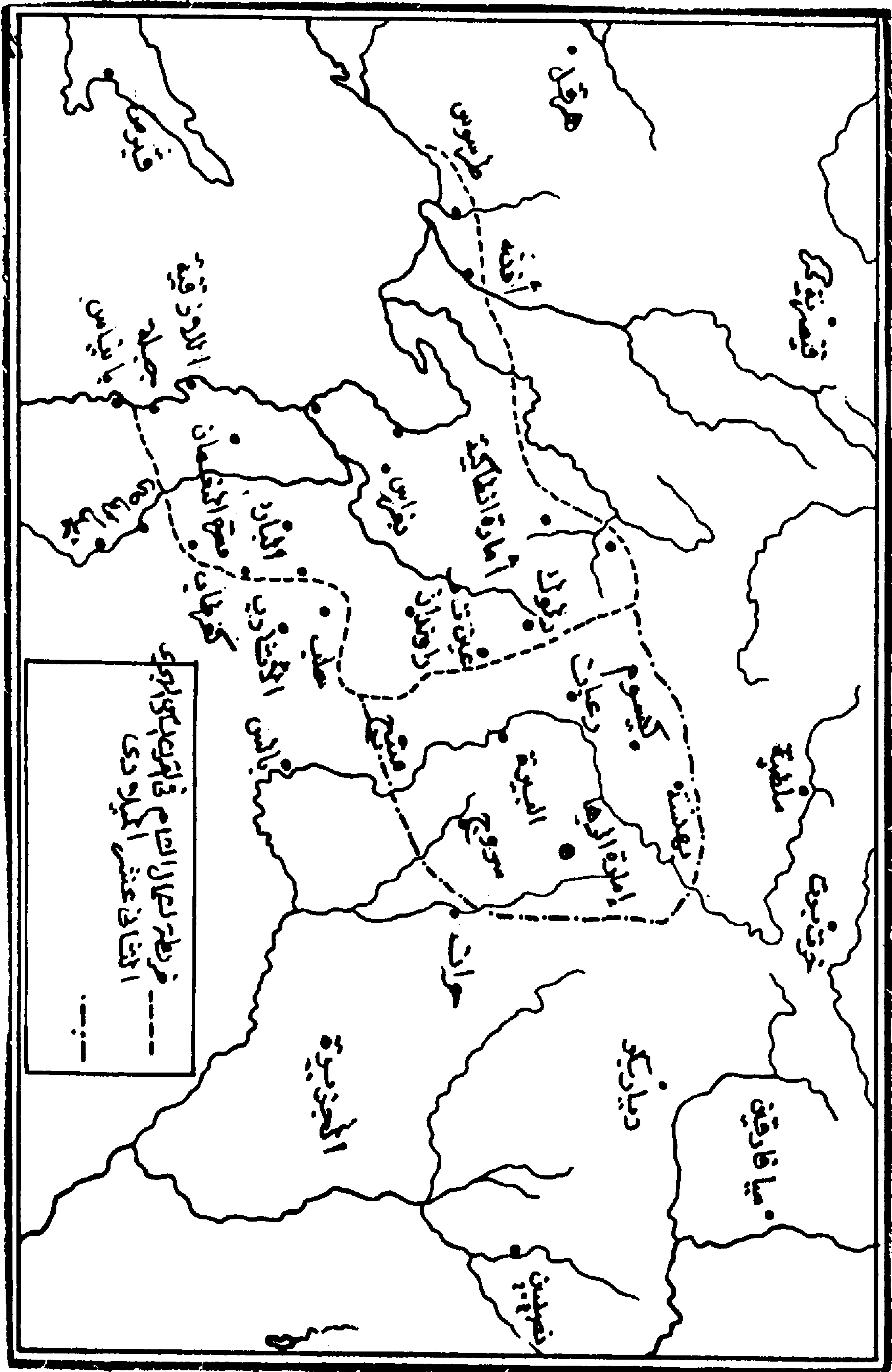
خريطة فتوحات محمد بن القاسم في غرب بلاد السند (٩٣هـ)

(نقلاً عن د. عبد الله الطرازي : موسوعة التاريخ والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب ص ٣٨٦)



عصر الحروب الصليبية

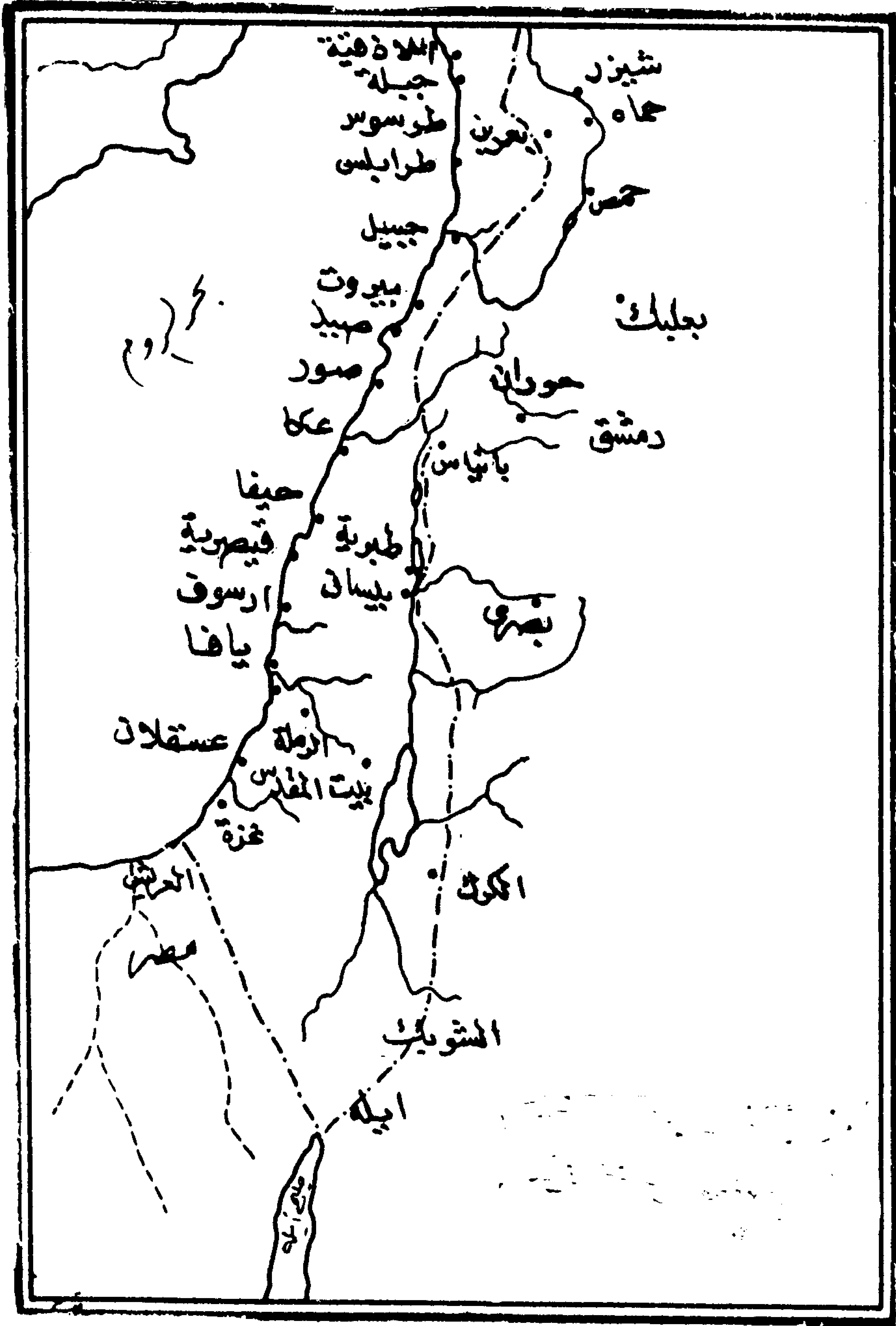
(نقلاً عن مسفر الغامدي : الجهاد ضد الصليبيين في الشرق الإسلامي ص ٣٢٨)



جنوب بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية

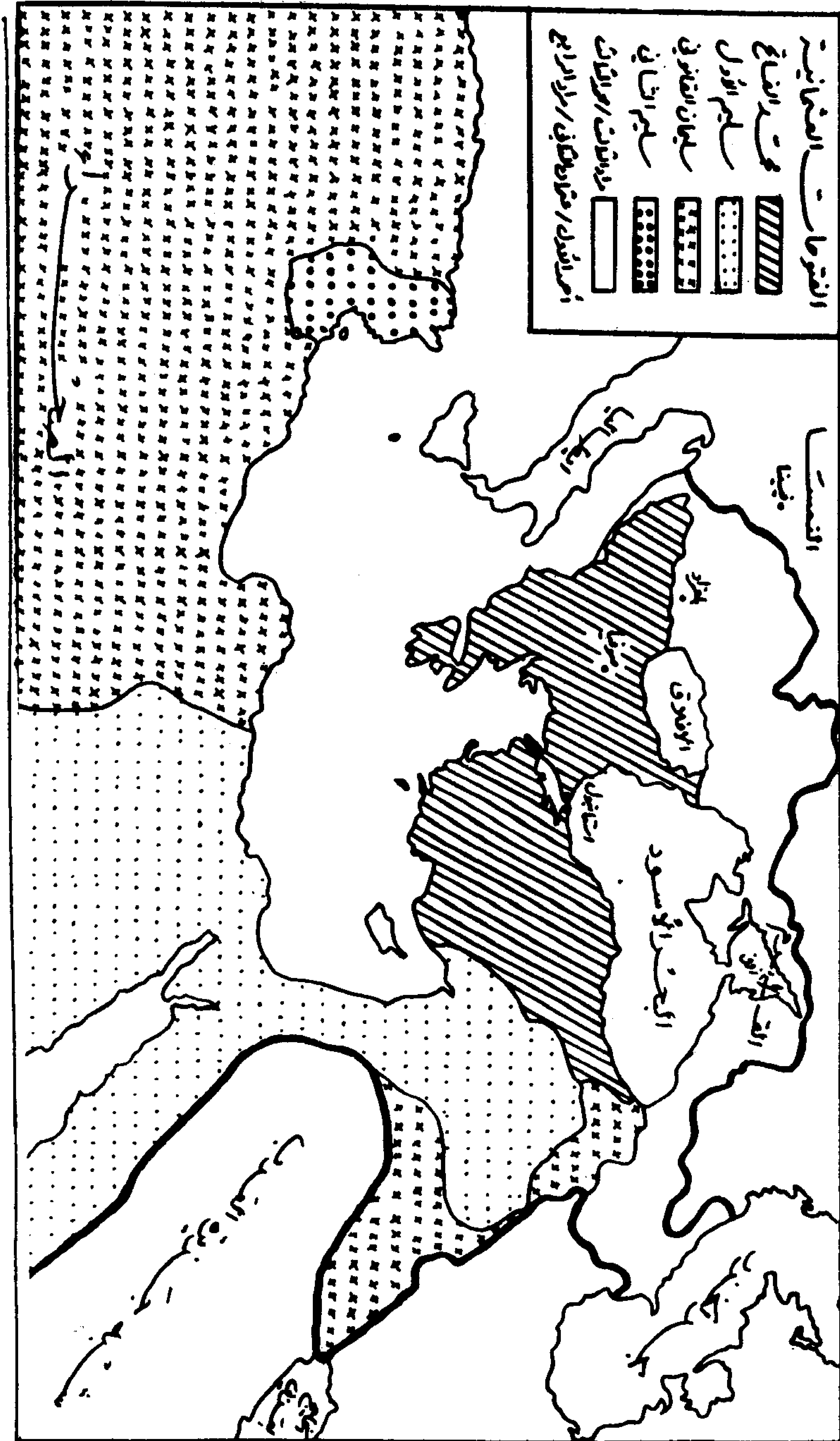
(نقلاً مسفر الغامدي : الجهاد ضد الصليبين في الشرق الإسلامي

ص ٣٢٩ ـ بتصرف)



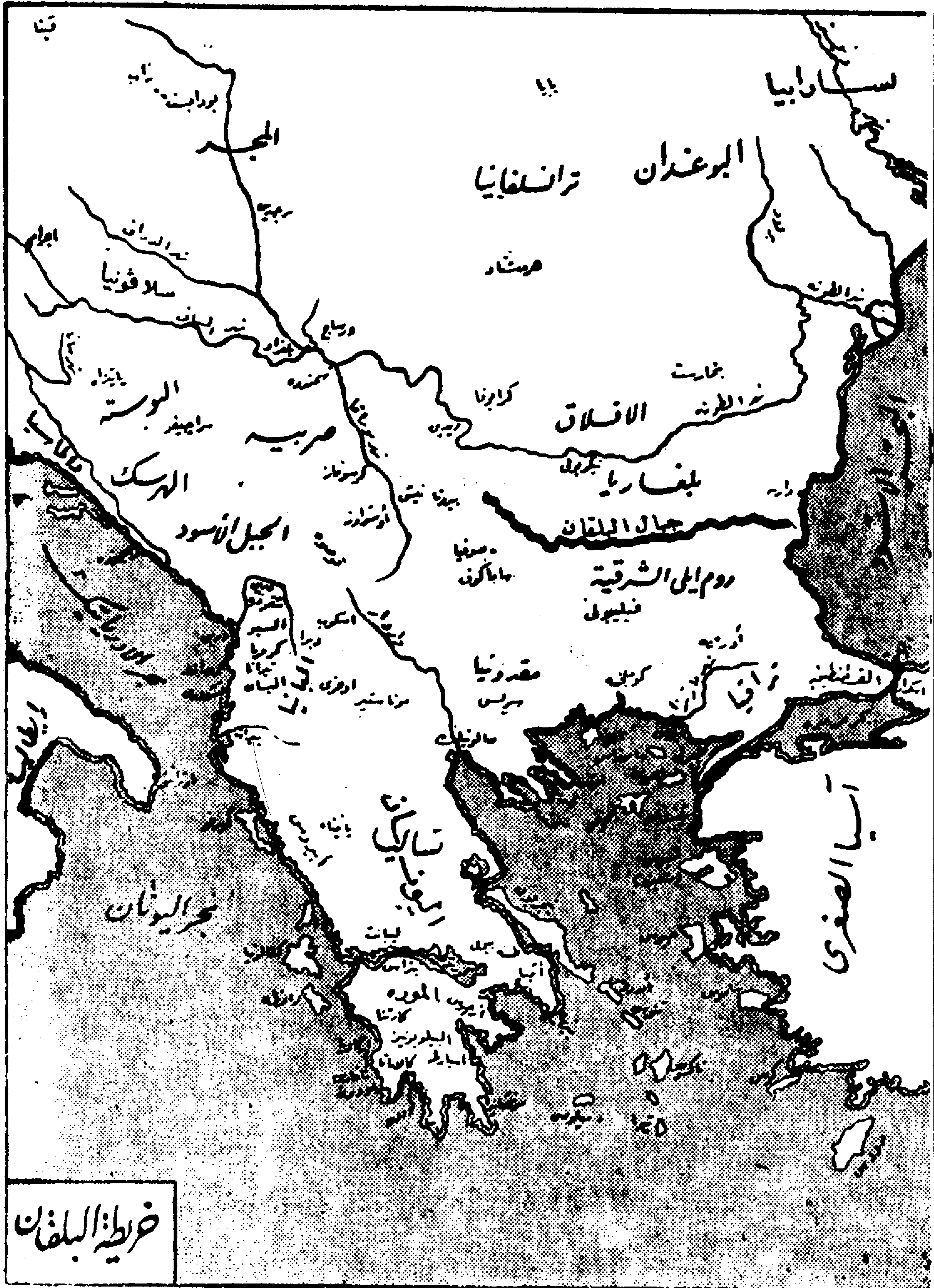
الفتوحات العثمانية

(نقلاً عن محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ـ العهد العثماني ص ١٣٦)



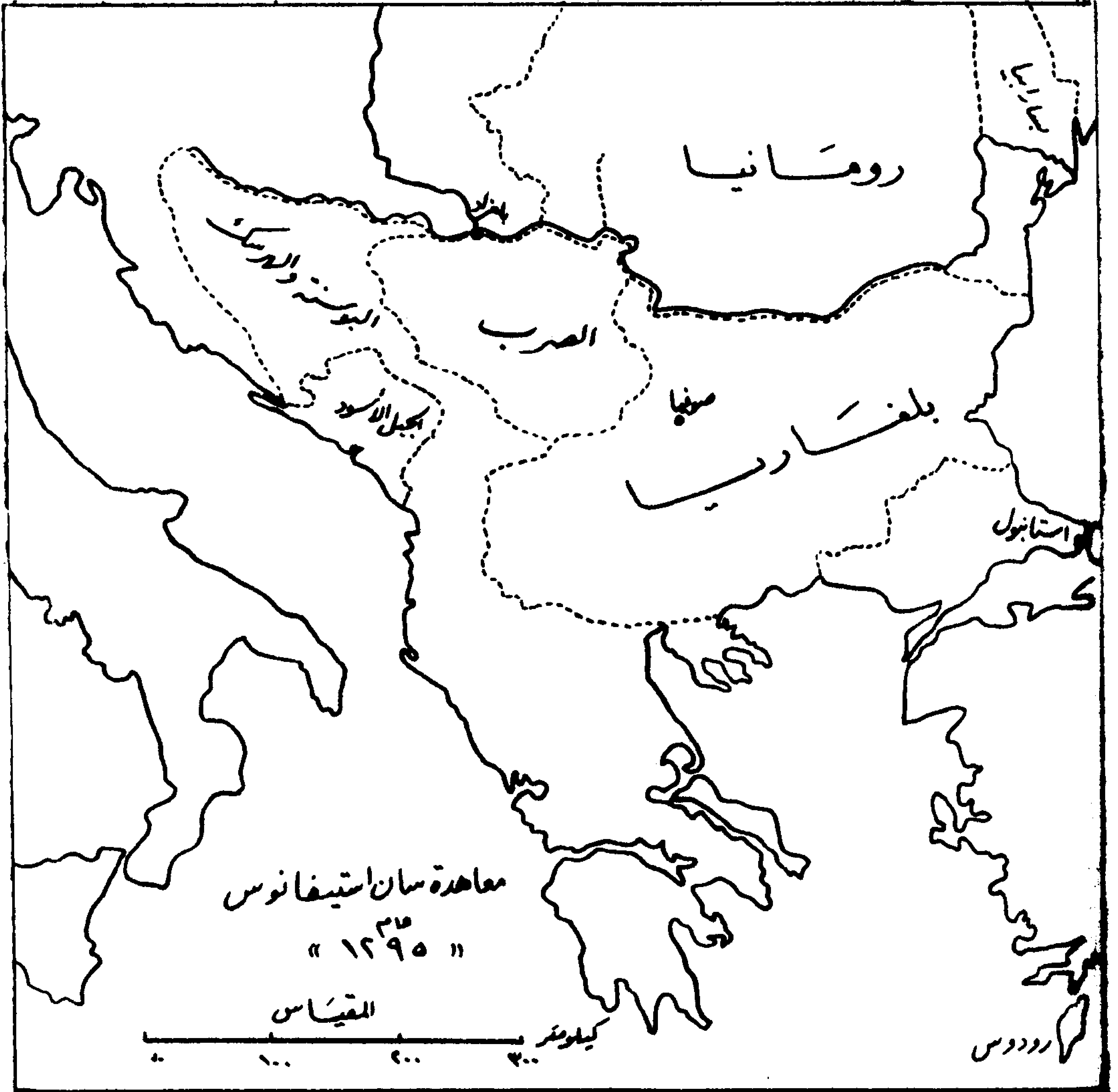
منطقة البلقان أيام السلطان محمد الفاتح

(نقلاً عند . سالم الرشيدي : محمد الفاتح ص ١٨٤)



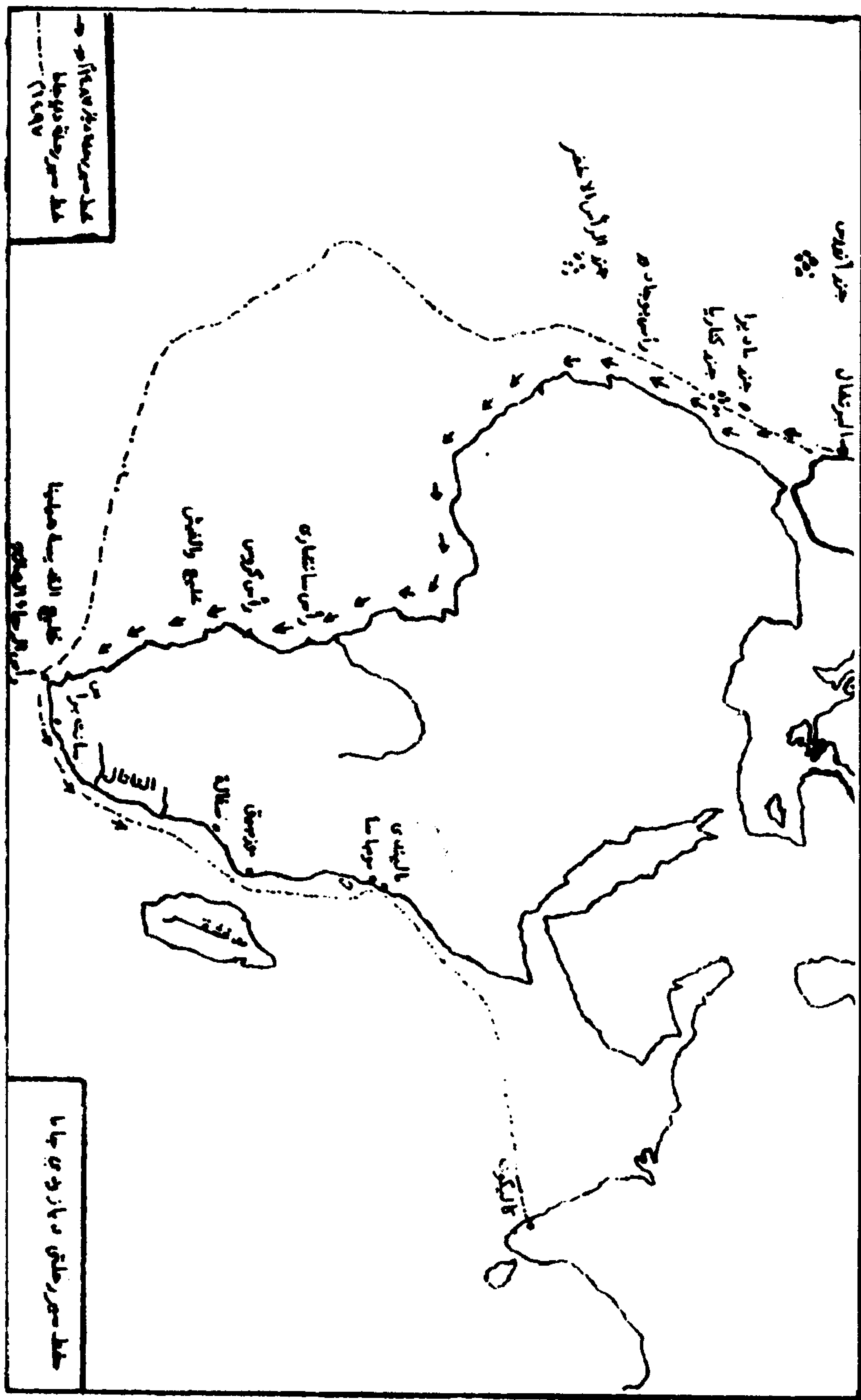
معاهدة سان استيفانوس عام ١٢٩٥م

(نقلاً عن محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ـ العهد العثماني ص ١٩٨)



خط سير رحلتي دياز ودي جاما

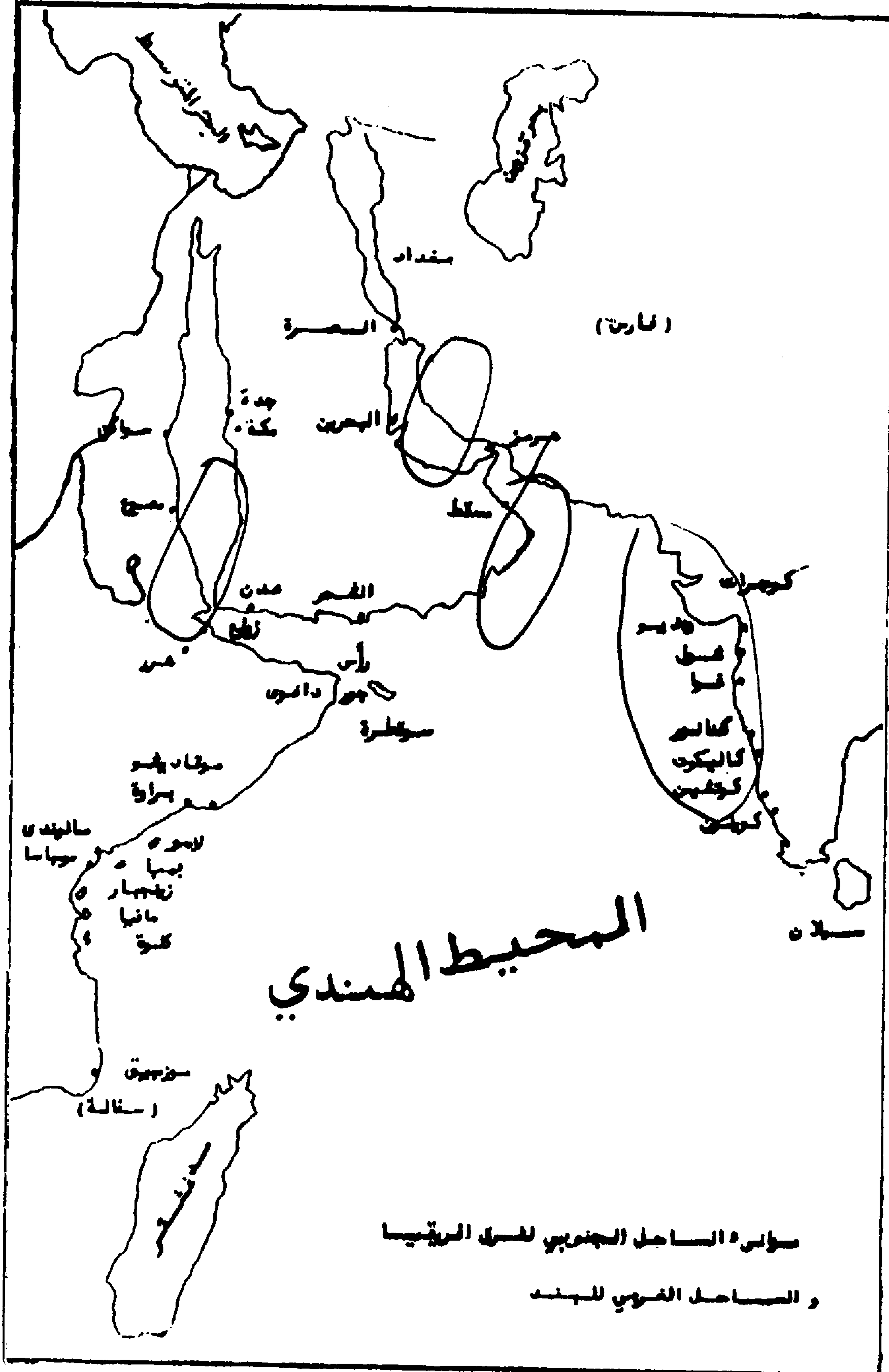
(نقلاً عن نوال الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ص ١١٢)



مناطق الصراع العثماني البرتغالي

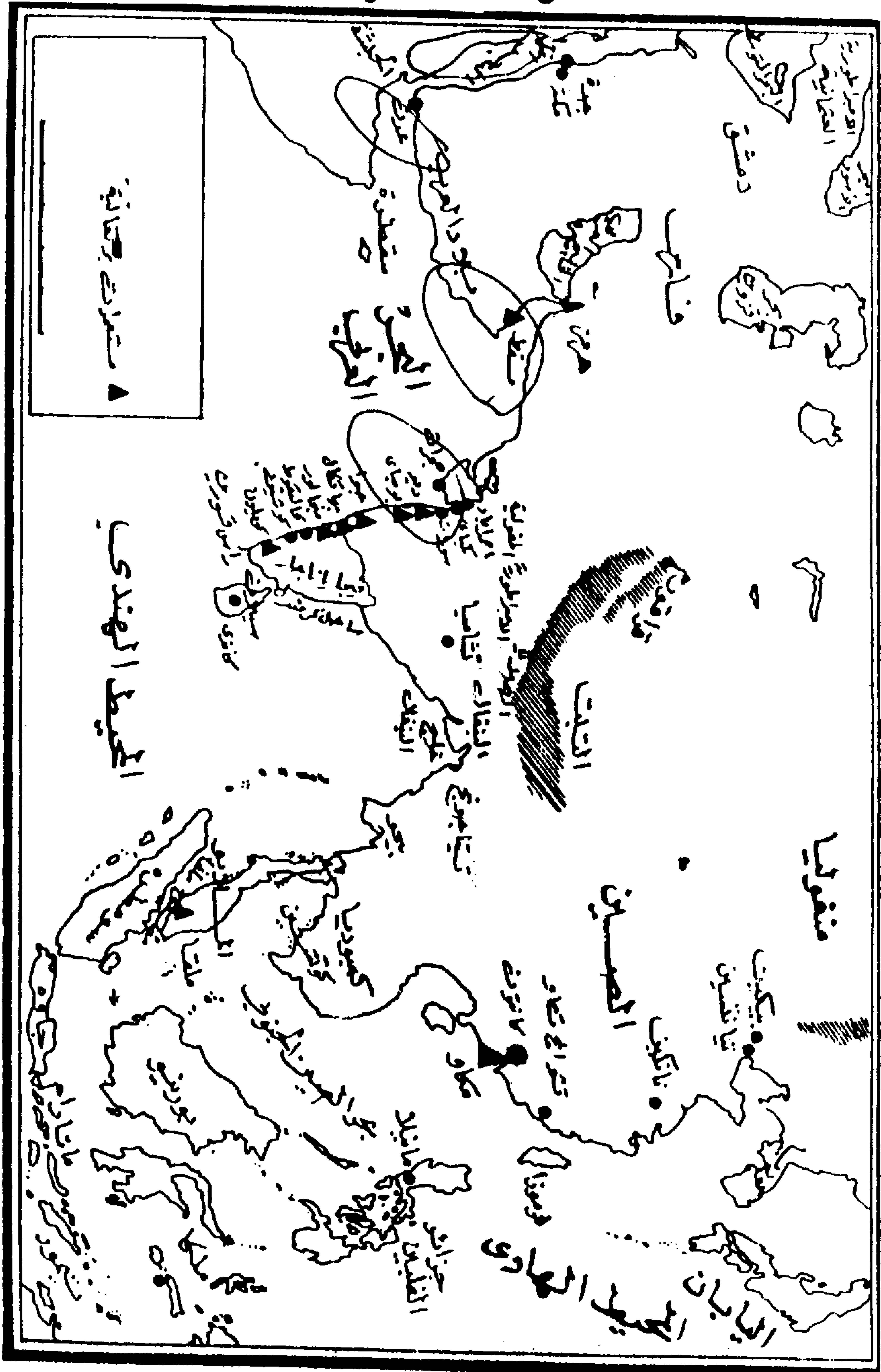
(نقلاً عن نوال الصيرفي : النفوذ البرتغالي في الخليج العربي

ص : ١١٣ ـ بتصرف)



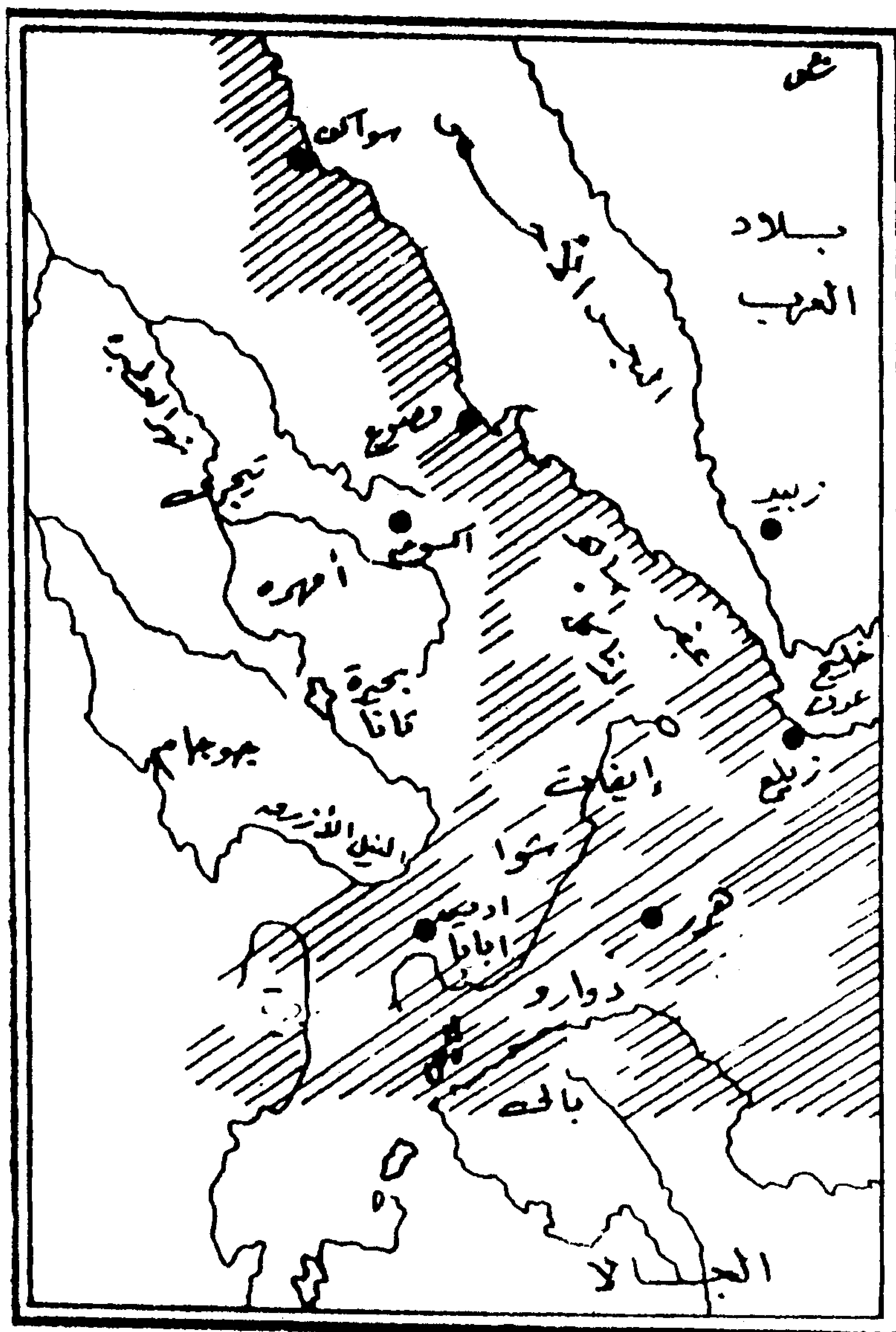
مناطق الصراع العثماني البرتغالي

(نقلاً عن غسان الرمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ص ٣٢٢ ـ بتصرف)



الصراع العثماني البرتغالي في الحبشة

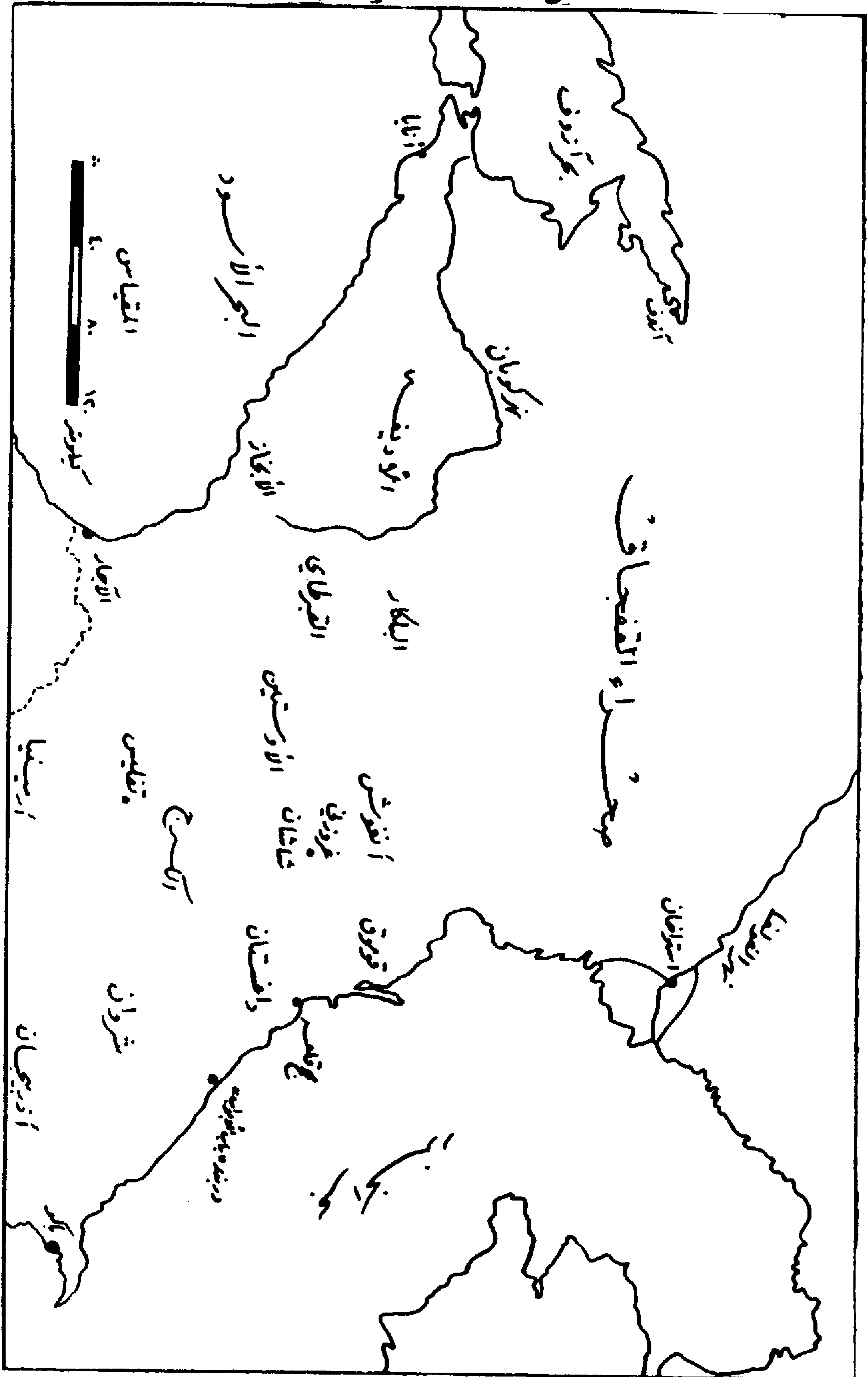
(نقلاً عن غسان الرمال : صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ص ٣٢٣ ـ بتصرف)



مناطق الصراع الروسي العثماني

(نقلاً عن محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ـ العهد العثماني

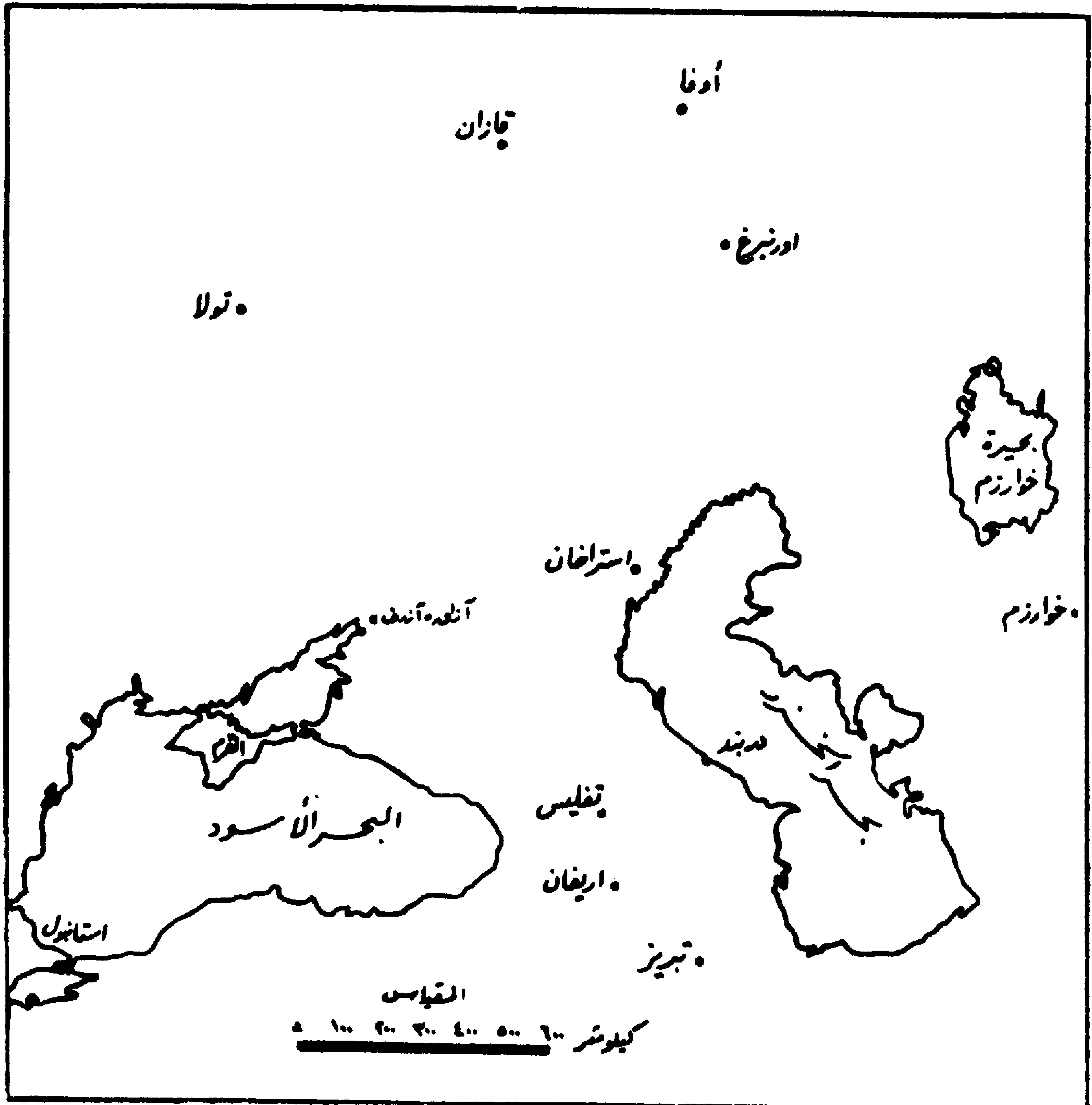
ص ٣٢٢ ـ بتصرف)



مناطق الصراع العثماني الروسي

(نقلاً عن محمود شاكر : التاريخ الإسلامي ـ العهد العثماني

ص ٣٦٣ ـ بتصرف)



المصادر اوالمراجع

- القرآن الكريم

أولاً: المصادر :

ابن الأثير : عزالدين أبوالحسن علي بن أبي الكرم محمدبن محمدبن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيباني«٦٣٠هـ ـ ١٢٣٨م» :

ـ أسد الغابة في معرفة الصحابة ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ .

ـ التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة القاهرة .

ـ الكامل في التاريخ ـ دارصادر بيروت لبنان ، ١٣٨٥ هـ .

الأزدي : علي بن ظافر (٥٦٧ـ ٦٢٣هـ) :

ـ أخبار الدولة الحمدانية ، تحقيق تميمة الرواف ، الطبعة الأولى ، دار حسان للطباعة والنشر ١٤٠٦هـ

الأزدي : محمد بن عبد الله الأزدي (ت ٢٣١) :

ـ فتوح الشام ، تحقيق عبد المنعم عامر ، مؤسسة سجل العرب ١٩٧٠م .

ابن إسحق : محمد بن إسحاق بن يسار (٨٥ـ ١٥١هـ) :

ـ سيرة ابن إسحق المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث والمغازي ، تحقيق وتعليق محمد حميد الله ، الطبعة الثانية ، الوقف للخدمات الخيرية ، قونية ، تركيا ١٤٠١هـ ـ

١٩٨١م .

ابن أعثم الكوفي : أبو محمد أحمد (ت٣١٤هـ) :

ـ الفتوح ، الطبعة الأولىٰ ، دائرة المعارف العثمانية حيدر أباد ، ١٣٨٨هـ .

ابن إياس: محمد بن أحمد الحنفي :

ـ بدائع الزهور في وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفىٰ ، الطبعة الثانية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

البغدادي : لطف الدين عبد المؤمن بن عبد الحي :

ـ مراصد الاطلاع علىٰ أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق علي محمد البجاوي ، الطبعة الأولىٰ ، دار أحياء التراث العربي ، القاهرة ، ١٣٧٣هـ .

البكري : عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي (ت٤٨٧ هـ) :

ـ معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع . تحقيق مصطفىٰ السقا ، عالم الكتب ، بيروت ، بدون تاريخ .

البلاذري : أبو الحسن أحمد بن يحيىٰ بن جابر :

ـ فتوح البلدان ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٣٩٨هـ .

البنداري الأصفهاني: الفتح بن علي بن محمد :

ـ مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، الطبعة الثانية دار الآفاق الجديدة بيروت لبنان١٩٧٨م .

ابن تغرى بردى : جمال الدين أبو المحاسن يوسف الأتابكي (ت٨٧٤هـ):

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ،

القاهرة ، بدون تاريخ .

ابن الجوزي : أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت٥٩٧هـ) :

ـ المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ط١ دار المعارف العثمانية حيدر آباد ١٣٥٨هـ

ابن حبيب : أبو جعفر محمد بن حبيب بن أمية بن عمرو الهاشمي البغدادي (ت ٢٤٥) :

ـ المحبر ، تحقيق الدكتورة إيلزة ليختن شتيتر ، دار الآفاق بيروت ، بدون تاريخ .

ابن حجر : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد العسقلاني (ت ٨٥٢) :

ـ إنباء الغمر بأنباء العمر في التاريخ ، دائرة المعارف العثمانية الهند ، الطبعة الثانية نسخة مصورة من قبل دار الكتب العلمية بيروت لبنان ١٤٠٦هـ

ـ الإصابة في تمييز الصحابة « ٤ أجزاء » الطبعة الأولى ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٣٢٨هـ .

ـ فتح الباري ، بشرح صحيح البخاري ، راجعه وضبطه طه عبد الرؤوف سعد مصطفى محمد الهواري ، السيد محمد عبد المعطي ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م .

ابن حزم : أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد (٣٨٤ ـ ٤٥٦هـ)

ـ جمهرة أنساب العرب ، تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف القاهرة ، بدون تاريخ .

الحميري : محمد بن عبد المنعم :

- الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس مكتبة لبنان، بيروت ١٩٧٥م ص ٤١٠ .

ابن حنبل : الإمام أحمد :

- مسند الأمام أحمد ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م

الحنبلي : أبو الفلاح عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩) .

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار المسيرة ، بيروت لبنان ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م .

ابن خلدون : عبد الرحمن (ت٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥م) :

- العبر وديوان المبتدأ والخبر .

ابن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر (ت٦٨١هـ) :

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان تحقيق د. إحسان عباس ، دار صادر بيروت لبنان ، بدون تاريخ .

خليفة بن خياط بن آبي هبيرة الليثي العصفري (١٦٠ - ٢٤٠ هـ) :

- التاريخ ، تحقيق ، د . أكرم ضياء العُمري ، الطبعة الثانية دار القلم بيروت ومؤسسة الرسالة بيروت ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م .

الدينوري : أبو حنيفة أحمد بن داود (ت٢٨٢) :

- الأخبار الطوال ، تحقيق عبد المنعم عامر ، والدكتور جمال الشيال ، مكتبة المثنى بغداد .

الذهبي : الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٨٤٧ هـ) :

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (عهد الراشدين) تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمري ، الطبعة الأولى مدار الكتاب العربي بيروت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

- سير أعلام النبلاء ٢٣جزءاً ، الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ١٤٠٥ - ١٩٨٥م .

الزبيدي : محب الدين أبو الفيض محد مرتضى الحسيني الواسطي (١١٤٥- ١٢٠٥هـ) :

- تاج العروس من جواهر القاموس ، مكتبة الحياة بيروت بدون تاريخ .

السخاوي : شمس الدين محمد بن عبد الرحمن :

- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مكتبة القدس القاهرة ١٣٥٥هـ .

ابن سعد : محمد (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م) :

- الطبقات الكبرى ، «في تسعة أجزاء» دار صادر بيروت بدون تاريخ .

السمعاني : أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور (ت ٥٦٢ هـ)

- الأنساب ، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، الطبعة الأولى منشورات محمد أمين دمج ، بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

الشارتري : فوشيه :

- تاريخ الحملة الصليبية الأولى إلى القدس ، ترجمة د . زياد العسلي دار الشرق ، عمان الأردن ١٩٩٠م .

أبو شامة :

- الروضتين في أخبار الدولتين .

ابن شداد : بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم(ت٦٣٢هـ) :

- النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق د. جمال الشيال ، الطبعة الأولى ، الدار المصرية للتأليف والترجمةالقاهرة ١٩٦٤م .

الصالحي الشامي : الإمام محمد بن يوسف (ت٩٤٢هـ) :

- سبل الهدى والرشاد في هدي خير العبادج ٤ تحقيق إبراهيم الترزي ، وعبد الكريم العزباوي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ١٣٩٩هـ، ج٥ تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ود. جودة عبد الرحمن هلال ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية القاهرة ١٤٠٤هـ

الصوري : وليم « رئيس أساقفة صور ١١٣٠ـ ١١٨٥م»

- تاريخ الحروب الصليبية ج١ , ٢ ترجمه من اللاتينية د، سهيل زكار الطبعة الأولى دار الفكر بيروت ١٤١٠هـ ١٩٩٠م .

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت٣١٠هـ/ ٩٢٣م)

- تاريخ الأمم والملوك « الجزء ٣ , ٤ »دار الفكر ، بيروت بدون تاريخ

المحب الطبري : أبو جعفر أحمد بن محمد بن عبد الله (ت٦٩٤)

- الرياض النضرة في مناقب العشرة ، الطبعة الثانية ، مكتبة الخانجي القاهرة ، ١٣٧٢هـ .

ابن طباطبا : محمد بن علي :

- الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٠هـ .

ابن عبد الحكم : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت٢٥٧هـ) :

ـ فتوح مصر وأخبارها لايدن هولندا ١٩٢٠ م .

ابن العبري : غريغورس الملطي (ت ١٢٨٦م) :

ـ تاريخ مختصر الدول ، الطبعة الثالثة دار المشرق بيروت ١٩٩٢م .

عياض : القاضي أبو الفضل عياض بن موسىٰ اليحصبي السبتي (ت٥٤٤هـ) :

ـ ترتيب المدارك لمعرفة أعلام مذهب الإمام مالك ، دار مكتبة الحياة ، بيروت بدون تاريخ .

العيني : بدر الدين محمود (ت٨٥٥هـ) :

ـ عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، تحقيق د. محمد محمد أمين ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م

ابن قتيبة : أبو محمد عبدالله بن مسلم الدينوري (ت ٢٧٦ هـ)

ـ المعارف ، تحقيق محمد إسماعيل عبد الله الصاوي ، الطبعة الثانية ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

القرماني : أبو العباس أحمد بن يونس بن أحمد :

ـ أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، عالم الكتب ، بيروت بدون تاريخ .

ـ تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، الطبعة الأولىٰ دار البصائر دمشق ١٤٠٥هـ .

ابن القلانسي :

ذيل تاريخ دمشق .

القلقشندي : أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ ١٤١٨ م) :

- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣ م .

القيرواني : الرقيق أبو إسحق إبراهيم بن القاسم (ق٥ الهجري) :

- تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق وتقيم المنجي الكعبي ، تونس ١٣٨٧هـ .

ابن كثير : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل (ت٧٧٤هـ) :

- البداية والنهاية- الطبعة الثالثة- مكتبة المعارف بيروت ١٩٧٨م .

ابن الكردبوس : أبو مروان عبد الملك (ت٦٨١هـ) :

- تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ، ووصفة لابن الشباط نصان جديدان ، تحقيق د. أحمد مختار العبادي ، معهد الدراسات الإسلامية ، مدريد ١٩٧١م .

المسعودي : أبو الحسن علي بن الحسين بن علي(ت٣٤٥هـ) :

- التنبيه والإشراف ، مكتبة الهلال بيروت١٩٨١م .

- مروج الذهب ومعادن الجوهر ، الطبعة الخامسة ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الفكر ، بيروت ، ١٣٩٣هـ .

المقري : أحمد بن محمد التلمساني (ت ١٠٤١هـ) :

- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، دار صادر بيروت ١٣٨٨هـ .

المقريزي : أحمد بن علي (ت٨٤٥هـ) :

- السلوك في معرفة دول الملوك ، حققه مجموعة من العلماء بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ط٢ القاهرة ١٩٥٧م .

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (المعروف بالخطط المقريزية)، دار صادر بيروت بدون تاريخ .

النويري : شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (٦٧٧ - ٧٣٣ هـ) :

- نهاية الأرب في فنون الأدب ، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب الوطنية بالقاهرة، المؤسسة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة بدون تاريخ .

ابن هشام : أبو محمد عبد الملك المعافري (ت ٢١٣ هـ) :

- السيرة النبوية ، تعليق طـه عبد الرؤوف سعـد ، مكتبة شقرون ، القاهرة، بدون تاريخ .

ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت٦٩٧هـ) :

- مفرج الكروب في أخبار بني أيوب (٥أجزاء) ، تحقيق د، جمال الدين الشيال ، المطبعة الأميرية القاهرة ١٣٧٧هـ ١٩٥٧م .

الواقدي : محمد بن عمر (ت٢٠٧هـ) :

- كتاب المغازي، تحقيق مارسدن جونس ، عالم الكتب بيروت بدون تاريخ

ابن الوردي : زين الدين عمر :

- تاريخ ابن الوردي ٣ أجزاء ، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.

ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبدالله (ت ٦٢٦ هـ) :

- معجم البلدان « خمسة أجزاء » دار احياء التراث العربي بيروت

اليعقوبي: أحمد بن أبو يعقوب بن جعفر بن وهب (ت٢٨٢هـ) :

- تاريخ اليعقوبي ، ج١ , ٢ دار صادر بيروت ١٣٧٩هـ ١٩٦٠م .

ثانياً : المراجع :

أرسلان : الأمير شكيب :

- تاريخ غزوات العرب في فرنسا وأيطاليا وجزائر البحر المتوسط، دار الكتب العلمية بيروت لبنان بدون تاريخ .

أبو إسحق : رفائيل :

- تاريخ نصارى العراق منذ انتشار النصرانية في الأقطار العربية إلى أيامنا ، مطبعة المنصورة بغداد ١٩٤٨م

آصاف : يوسف :

- تاريخ سلاطين آل عثمان ، تحقيق بسام عبد الوهاب الجابي ، الطبعة الثالثة ، دار البصائر ، دمشق ١٤٠٥هـ .

أكرم : أ . أ :

- سيف الله خالد بن الوليد ، ترجمة صبحي الجابي ، الطبعة الرابعة ، مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٢هـ .

أوزتونا : يلماز :

- تاريخ الدولة العثمانية ، المجلد الأول ترجمة عدنان محمود سلمان ، مراجعة د . محمود الأنصاري ، منشورات مؤسسة فيصل للتمويل ، استانبول ، تركيا ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م .

باشميل : محمد أحمد :

- حروب الإسلام في الشام في عهود الخلفاء الراشدين ، الطبعة الأولى ، دار الفكر

بيروت ١٤٠٠هـ

باوزير : أحمد العليمي :

ـ مرويات غزوة بدر ، الطبعة الأولى مكتبة طيبة ، الرياض ١٤٠٠هـ .

برجاوي : سعيد أحمد .

الحروب الصليبية في المشرق ، ط١دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٤٠٤هـ ـ ١٩٨٤م .

برج : أنتوني :

ـ تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة أحمد غسان سبانوا ـ ونبيل الجيرودي ، راجعه وقدم له د . سهيل زكار ، دارقتيبة دمشق ١٩٨٥م .

بشتاوي : عادل سعيد :

ـ الأندلسيون المواركةدراسة في تاريخ الأندلسيين بعد سقوط غرناطة، الطبعة الثانية ، دار أسامة ، دمشق ١٩٨٥م .

بك : محمد فريد المحامي :

ـ تاريخ الدولة العلية العثمانية ، تحقيق د. إحسان حقي ، الطبعة الأولى ، دار النفائس بيروت ١٤٠١هـ ١٩٨١م .

بنز : نورمان :

ـ الامبراطورية البيزنطية ، تعريب د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد، القاهرة ١٩٥٠م .

الحجي : د. عبد الرحمن علي :

- التاريخ الأندلسي ، الطبعة الثانية دار القلم بيروت ١٤٠٢هـ ١٩٨١م

حرب : د. محمد :

- العثمانيون في التاريخ والحضارة ، الطبعة الأولى دار القلم ، دمشق ١٤٠٩هـ .

حسنين : د. عبد المنعم محمد :

- دولة السلاجقة ، مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٥م .

حسون : د. علي :

- الدولة العثمانية الطبعة الأولى ، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٠هـ .

- العثمانيون والبلقان ، الطبعة الثانية ، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٦هـ .

- العثمانيون والروس ، الطبعة الأولى ، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٢هـ .

الحميد : د. عبداللطيف بن محمد الحميد :

- الصراع بين الدولة العثمانية وبريطانية في منطقة البحر الأحمر خلال الحرب العالمية الأولى ١٣٣٢-١٣٣٧هـ ، رسالة ماجستير مقدمة لقسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الاجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في العام الجامعي ١٤٠٥هـ ، لم تنشر بعد .

- موقف الدولة العثمانية تجاه المسلمين في الأندلس ، الطبعة الأولى ، الرياض ١٤١٤هـ .

- العالم الإسلامي والغزو المغولي ، الطبعة الأولى ، مكتبة الفلاح ، الكويت ١٤٠٤هـ .

الخشاب : د. يحيى :

ـ تفسير أقدم نص عن النظم الفارسية ، القاهرة .

خطاب : محمود شيت :

ـ قادة الفتح الإسلامي (عقبة بن نافع) ، الطبعة الخامسة ، دار الفكر ، بيروت لبنان ، ١٣٩٧هـ .

خليل : د. عماد الدين :

ـ عماد الدين زنكي .

ـ نور الدين محمود الرجل التجربة ، الطبعة الأولى ، دار القلم بيروت ١٤٠٠هـ ١٩٨٠م .

ديورانت : ول :

ـ قصة الحضارة ، ج٢/ ترجمة د. زكي نجيب محمود ، الطبعة الرابعة ، لجنة التأليف والترجمة جامعة الدول العربية : ، القاهرة ١٩٧٣م

رزق الله : د. مهدي :

ـ السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية دراسة تحليلية ، الطبعة الأولى الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، الرياض ١٤١٢هـ .

رستم : د. أسد :

ـ الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب ، الطبعة الأولى ، دار الكشوف بيروت ١٩٥٦م .

الرشيدي : د. سالم :

- محمد الفاتح ، الطبعة الثانية مكتبة الإرشاد جدة ١٤١٠ هـ .

الرمال : غسان علي محمد :

- صراع المسلمين مع البرتغاليين في البحر الأحمر ، جدة ١٤٠٦هـ .

رنسيمان : ستيفن :

- الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة زكي علي ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦١م

الرومي : أحمد عبد الجواد :

- صلاح الدين الأيوبي الناصر لدين الله ، المكتبة العصرية ، بيروت .

سالم : السيد عبد العزيز ، و أحمد مختار العبادي :

- تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، الجزء الأول البحرية الإسلامية في مصر والشام ، مؤسسة شباب الجامعة الاسكندرية ١٩٧١م .

أبو سعيد : د . حامد غنيم :

- الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ٣ أجزاء القاهرة ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م .

شاكر : محمود :

- التاريخ الإسلامي ج ٨ (العهد العثماني) ، االطبعة الأولى المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٦هـ .

- ميدان معركة اليرموك ، الطبعة الثانية ، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٦هـ.

الشامي : صالح أحمد :

- من معين السيرة النبوية ، الطبعة الأولى ، المكتب الإسلامي بيروت ١٤٠٥هـ .

الشناوي : د. عبد العزيز محمد :

- الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترىٰ عليها ، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ١٩٨٣م .

الصالح : د. صبحي :

- النظم الإسلامية ،ـ نشأتها وتطورها ـ الطبعة الخامسة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ١٩٨٠م .

صفوت : د. محمد مصطفىٰ :

- فتح القسطنطينية وسيرة السلطان محمد الفاتح ، منشورات الفاخرية الرياض ودار الكتاب العربي بيروت بدون تاريخ .

الصياد : فؤاد عبد المعطي :

- المغول في التاريخ ، الجزء الأول دار النهضة العربية بيروت ١٩٨٠م .

الصيرفي : نوال حمزة :

- النفوذ البرتغالي في الخليج العربي ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض ١٤٠٣هـ .

الطرازي : د. عبد الله مبشر :

- موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الاسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان الحالية) في عهد العرب في صدر الإسلام والعصرين الأموي والعباسي ، التاريخ السياسي والديني والاجتماعي والتشريعي والاقتصادي ، تقديم العلامة أبو الحسن الندوي ، ٢ جزء الطبعة الأولىٰ عالم المعرفة جدة ١٤٠٣هـ .

عاشور : د. سعيد عبد الفتاح :

- أوربا العصور الوسطى ، الطبعة السادسة مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥م .

عاشور : د. فايد حماد :

- جهاد المسلمين في الحروب الصليبية ، الطبعة الثالثة مؤسسة الرسالة بيروت ١٤٠٥هـ

عبدالغني : عبد العزيز :

- علاقة ساحل عمان ببريطانيا ، دارة الملك عبد العزيز ، الرياض .

العتيبي : تركي مسيمر الحافي :

- الحياة الاجتماعية في صقلية الإسلامية ، الطبعة الأولى مطابع القوات المسلحة السعودية الرياض١٤٠٧هـ .

العبدة : محمد :

- أيعيد التاريخ نفسة ؟ دار البيان لندن .

العبادي : د. أحمد مختار ، ود. السيد عبد العزيز سالم :

- تاريخ البحرية الإسلامية في حوض البحر الأبيض المتوسط ، البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس ، مؤسسة شباب الجامعة ، الاسكندرية ٢جزء .

العسلي : بسام :

- خير الدين بربروس ، الطبعة الثانية دار النفائس بيروت ١٤٠٣هـ .

علي : أرخان محمد :

- السلطان عبد الحميد الثاني حياته وأحداث عهده ، الطبعة الأولى دار الوثائق الكويت ١٤٠٧م .

علي : أحمد إسماعيل :

- تاريخ بلاد الشام في العصر العباسي (١٣٢ـ ٤٦٣ هـ ـ ٧٤٩ـ ١٠٧٠م) دراسة سياسية واجتماعية . الطبعه الأولى ١٩٨٤م .

علي : خالد سيد :

- رسائل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والأمراء ، الطبعة الأولى ، دار التراث الكويت ١٤٠٧هـ .

العمري : أ. د. أكرم ضياء :

- السيرةالنبوية الصحيحة ، الطبعة الأولى مكتبة العلوم والحكم ، المدينة المنورة ١٤١٢هـ .

- المجتمع المدني في عهد النبوة « الجهاد ضد المشركين ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .

عواد : كوركيس :

- مصادر التراث العسكري عند العرب ، ثلاثة أجزاء ، المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م .

عويس : د. عبد الحليم عبد الفتاح :

- قضية إحراق طارق بن زياد للسفن بين الأسطورة والتاريخ ، دار الصحوة القاهرة ١٤٠٧هـ

الغامدي : علي محمد عودة :

- المجاهد المسلم كمشتكين بن دانشمند ، بطل الانتصارات الأولى على الصليبيين ، الطبعة الأولى ، مكتبة الصديق الطائف ١٤١١هـ .

الغامدي : مسفر بن سالم عريج الغامدي :

ـ الجهاد ضد الصليبيين ، الطبعة الأولى دار المطبوعات الحديثة ، جدة ١٤٠٦هـ .

فاشا : سهيل :

ـ لمحات من تاريخ نصارى العراق ، مطبعة شفيق ، بغداد ١٩٨٢م .

الفقي : د. عصام عبد الرؤوف :

ـ الدول الإسلامية المستقلة في الشرق دار الفكر العربي : القاهرة ١٩٨٧م .

فهمي : د. عبد السلام عبد العزيز :

ـ السلطان محمد الفاتح الطبعة الثانية دار القلم بيروت ١٣٩٥هـ ـ ١٩٧٥م

فهمي : د. علي محمد ، ومجموعة من الباحثين :

ـ تاريخ البحرية المصرية ، جامعة الإسكندرية ، ١٩٧٤م .

فيصل : شكري :

ـ حركة الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري ، دراسة تمهيدية لنشأة المجتمعات الإسلامية ، الطبعة الرابعة . دار العلم للملايين بيروت ١٩٧٤ .

الفيومي : محمد إبراهيم :

ـ في الفكر الديني الجاهلي ، عالم الكتب ، القاهرة ١٩٧٩م .

قلعجي : قدري :

ـ صلاح الدين الأيوبي ، قصة الصراع بين الشرق والغرب خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر للميلاد ، الطبعة الأولى ، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ،

بيروت ١٩٩٢م .

كريستنسن : أرثر :

ـ إيران في عهد الساسانيين ، ترجمة يحيى الخشاب ، مراجعة عبد الوهاب عزام دار النهضة العربية القاهرة بدون تاريخ .

كوبريلي : محمد فؤاد :

ـ قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان ، دار الكتاب العربي ١٩٦٧م .

الكيلاني : ماجد عرسان :

ـ هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس ، الطبعة الأولى ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ١٤٠٥هـ .

اللميلم : د . عبد العزيز بن محمد :

ـ نفوذ الأتراك في الخلافة العباسية وأثره في قيام مدينة سامراء من ٢٢١ـ ٢٧٩هـ الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .

لوريمر : ج . ج (ت ١٩١٤ م) :

ـ دليل الخليج ، القسم التاريخي الجزء الأول ترجمة ونشر قسم الترجمة ، مكتب سمو أمير قطر بدون تاريخ .

لويس : برنارد :

ـ استنبول وحضارة الخلافة الإسلامية ، تعريب د. سيد رضوان علي ، الطبعة الثانية ، الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة ١٤٠٢هـ.

متولي : أحمد فؤاد :

- الفتح العثماني للشام ومصر ومقدماته من الوثائق والمصادر التركيةوالعربية المعاصرة له ، دار النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٧٦م

مجموعة من المستشرقين :

- دائرة المعارف الإسلامية ، النسخة العربية ترجمة وإعداد : إبراهيم زكي خورشيد، أحمد الشنتناوي ، ،د. عبد الحميد يونس ، الطبعة الثانية كتاب الشعب المؤسسة العامة للكتاب ، القاهرة١٩٦٩م .

المزيني : د. إبراهيم ين محمد بن حمد :

- الحياة العلمية في العهد الزنكي ، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراة في التاريخ والحضارةالإسلامية من قسم التاريخ والحضارة بكلية العلوم الإجتماعية جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض ، للعام الجامعي ١٤١٠ هـ ـ ١٩٨٩م ، لم تنشر بعد .

المعاضيدي: د. خاشع ، ود. سوادي عيد عبده ، و دريد عبد القادر نوري :

- تاريخ الوطن العربي والغزو الصليبي ، الطبعه الثانية ١٩٨٦م بدون مكان .

مؤنس : د . حسين :

- نور الدين محمود رائد نصر المسلمين على الصليبيين ، الطبعة الثالثة ، الدار السعودية للنشر والتوزيع جدة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م .

هريدي : د. محمد عبد اللطيف :

- الحرب العثمانية الفارسية وأثرها على المد الإسلامي في أوربا ، دار الصحوة ،

القاهرة ١٤٠٨هـ .

يلماز أوزتونا :

ـ تاريخ الدولة العثمانية ، ترجمه إلى العربية عدنان محمود سلمان ، د . محمود الأنصاري ، المجلد الأول منشورات مؤسسة فيصل للتمويل تركيا استانبول ١٩٨٨م .

اليوسف : د . عبد القادر :

ـ الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٦٦م .

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحة

الموضــوع **الصفحة**

الموضـــوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الموضـــوع	الصفحة
الخاتمة	٤٢٣
الخرائط	٤٢٧
المصادر والمراجع	٤٥١
الفهرس	٤٧٣